

تيوفيل غوتيه



18.9.2015

«الميتة العاشقة»

وقصص فنطازية أخرى



ترجمها عن الفرنسية

محمد علي اليوسفي

مشروع «كلمة»
كلاسيكيات الأدب الفرنسي

تيوفيل غوتيه

«الميتة العاشقة»

وقصص فنطازية أخرى

ترجمها عن الفرنسية
محمّد علي اليوسفي

مراجعة
كاظم جهاد

الطبعة الأولى 1435هـ - 2014م
حقوق الطبع محفوظة
© هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة»

PQ2258 .M57 2014

Gautier, Théophile, 1811-1872

[La morte amoureuse et autres récits fantastiques]

«الميتة العاشقة» وقصص فنتازية أخرى: قصص قصيرة؛ تأليف تيوفيل غوتيه؛
ترجمة محمد علي اليوسفي؛ مراجعة كاظم جهاد. - هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة،
كلمة، 2014.

ص. 404 ؛ 21×14 سم.

ترجمة كتاب: La morte amoureuse et autres récits fantastiques

تدمك: 4-330-17-9948-978

1-كلاسيكيات الأدب الفرنسي المترجم إلى العربية.

1- اليوسفي / محمد علي ب- جهاد، كاظم

يتضمّن هذا الكتاب ترجمة الأصل الفرنسي:

La morte amoureuse et autres récits fantastiques

رسم الغلاف للرّسام الفرنسيّ فرانسوا بوشيه

Illustrations par François Boucher (1703-1770)



كلمة
KALIMA

www.kalima.ae

ص.ب: 2380 أبوظبي، الإمارات العربية المتحدة، هاتف: 300 6215 971 +، فاكس: 127 6433 971 +.



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY

إن هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة مشروع «كلمة» غير مسؤولة عن آراء المؤلف والمفكر، وتعتبر وجهات النظر الواردة في هذا الكتاب عن آراء المؤلف وليس بالضرورة عن الهيئة.

حقوق الترجمة العربية محفوظة لـ مشروع «كلمة».

يمنع نسخ أو استعمال أي جزء من هذا الكتاب بأي وسيلة تصويرية أو إلكترونية أو ميكانيكية بما فيها التسجيل الفوتوغرافي والتسجيل على أشرطة أو أقراص مقروءة أو أي وسيلة نشر أخرى بما فيها حفظ المعلومات واسترجاعها من دون إذن خطي من الناشر.

«الميتة العاشقة»

وقصص فنطازية أُخرى

المحتوى

7	تقديم
15	إبريق القهوة – حكاية فنطازية
27	أومفال – حكاية بأسلوب الروكوكو
41	الميتة العاشقة
79	الفارس المزدوج
93	قدم المومياء
109	ممثلان من أجل دور واحد
123	آريا مارتشيللا، ذكرى من يومئذ
165	تقمص
287	جئاتورا

تقديم

ثمة أدباء متعدّدو القدرات والأداءات، ينطلق إلهامهم الأدبيّ في مسارات عدّة، ويطرقون في تجاربهم الإبداعية أكثر من باب. تحسبهم شاردين في تنوّع الأجناس الأدبية، موزّعين على مشاغل شتى، ثم إن أنت أمعنت النظر في مجموع ما خطّه يراعهم الواصلت وجدت على الدوام، في حالة كبار الأدباء، خيوطاً ناظمة ومحاور رئيسة تنظّم الشتات وتقود مختلف حركات الفكر والشعور لديهم إلى بؤرة عميقة، موحدة ولاهبة.

كذلك هو شأن الشاعر والكاتب الفرنسيّ تيوفيل غوتيه Théophile Gautier (1811-1872). عبر مسيرة إبداعية دامت خمسين سنة وتيفاً، فرض حضوره واحداً من النوابض المحرّكة للرومنطيقية ومجدداً في النقد الفنيّ، وشاعراً مجوداً وإن لم يكن غزير الإنتاج في الشعر، وكاتباً مسرحياً، ورخالة شغفياً بما يرى من شعوب ومُشاهد. بيد أنه فرض حضوره بخاصة روائياً وقاصّاً من طبقة رفيعة، ترك بصماته الواضحة في جنس أدبيّ عسير المسالك، يسهل فيه الابتكار السطحيّ وتكثر فيه مزالتق التكرار ومحاكاة الآخرين، عنيتُ الأدب الفنطازيّ. ولذا ففي هذه السلسلة الموجهة لتقديم أمهات الأدب الفرنسيّ السابق للقرن العشرين في ترجمات رصينة ومهمومة بالجمال قدر اهتمامها بالدقة، قرّنا أن نقدّم تسعاً من أعمق قصص غوتيه الفنطازية وأكثرها انتشاراً وصموداً أمام اختبار الزمان والمسافة التاريخيّة. هذه القصص مجتمعة في هذا الكتاب. وفي كتاب آخر هو الآن قيد الإعداد نقدّم ترجمة رحلتيه إلى الجزائر

ومصر. هكذا يقف القارئ على وجهين من وجوه إبداعه الفريد المتعدد. القصص المترجمة هنا منتقاة من إنتاج للكاتب يمتدّ على الفترة بين 1831 و1856. ليست هذه القصص - وسنعود إلى مسألة الجنس الأدبي - خيالية بالكامل كحكايا الجنيات مثلاً، بل هي تمزج بين الخيال والواقع، وتدع عناصر غير مرئية أو لم تعد تنتمي إلى عالم الأحياء تتدخل في الواقع ثم تتلاشى مخلقة أثراً عميقاً في الكائن الذي يحدث له أن يرصد بعض تجلياتها. امرأة تواصل عشقها في ما وراء الموت، وقدم مومياء تتدخل في حياة ذلك الذي اشتراها من مخزن تحفّيات وعتائق، وحسنا مرسومة على نجد حائط تلهب خيال شاب عاشق، إلخ. شاعرية اللّغة تُحوّل أغلب صفحات الكتاب إلى قصائد نثر، واثنيات الخيال المتواصلة تمنح الشخوص حياة أخرى داخل الحياة.

ينبغي أن نقول في هذا التقديم الوجيز كلمة عن طبيعة القصص، وعن انتمائها إلى فئة الأدب المفارق للواقع، أي إلى ما كانت العرب تدعوه أدب الغريب والعجيب. هذه التسمية موفقة على كونها شاملة وفضفاضة، ذلك أنها تجمع فئات متجاورة لا ينفك بعضها يوماً إلى البعض الآخر، منه ينهل، وإليه يُضيف. ولم يكن النقاد العرب غافلين عن تدرّج النصوص المنضوية في هذا الجنس الأدبي في علاقتها بالواقع وخروجها عنه. فإذا ما قادنا نصّ إلى ما لا يقبل التصديق وما يشدّ عن نواميس الطبيعة ويتحدّى العقل تكلموا عن أدب يُعنى بالخرق، وهو ما نجد نماذج عليه في كرامات الصوفيّة أو في حكايات «ألف ليلة وليلة». مع تقدّم النقد الغربيّ الحديث، وبالتزامن مع مغامرة البنيويّة في النقد الأدبيّ والعلوم الإنسانيّة، حاول بعضهم رسم حدود فاصلة أو شبه فاصلة بين ثلاث فئات من الأدب المفارق للواقع. الدراسة التي

تُذكر أكثر ما تُذكر في هذا الباب هي «مدخل إلى الأدب الفنتازي»
Introduction à la littérature fantastique للناقد البلغاري المولد،
الفرنسيّ التعبير، تسفيتان تودوروف Tzvetan Todorov، الصادرة في
منشورات لو سوي Le Seuil بباريس في 1970. في هذه الدراسة سعى
إلى إضفاء صفة منهجيّة أو نسقيّة على تصنيف مختلف درجات مُجازة
الواقع في مثل هذه النصوص، وانتقد المقاربات المضمونيّة أو الثيميّة
المحض التي سادت لدى سابقيه من النقاد وأعلام الشعريّة، خصوصاً
لدى الشاعر والباحث روجيه كايوا Roger Caillois والناقد جان-بيار
ريشار Jean-Pierre Richard .

وجد تودوروف أنّ عامل التمييز الأساس أو الفاصل بين الفئات
الرئيسة الثلاث من هذا الأدب يتمثل في تردّد القارئ أمام ما يُسرّد له
من أحداث وما يوصف له من ظواهر. فإذا شعر إزاء نصّ ما بشيء
من الغرابة ولم يدم تردّده وكان في مقدوره، بعد تمحيص وتفكير، أن
يردّ الأحداث والظواهر إلى نواميس الطبيعة وقوانين الكون كتناً أمام
ما يدعوه تودوروف *littérature de l'étrange*، وهو ما يترجمه بعض
الباحثين العرب إلى «أدب الغريب». نصوص أخرى يظلّ فيها التردّد
يرافق القارئ طويلاً أو حتّى النهاية، فالأحداث تدور في إطار الواقع
وتقبل بقوانينه ولكنها تتخطّاه في جوانب معيّنة. وهذا المزج بين ما
يمكن تصديقه وما لا يمكن التسليم بإمكانه هو ما يشكّل محرّك النصّ
والأساس الذي يقوم عليها عقد القراءة. وإنّا على البراعة في تحقيق
المزج هذا يقوم نجاح النصّ أو روعته ودوام أثره. هذه الفئة يسمّيها
تودوروف، متّبعاً السائد قبله، *littérature fantastique*، وهو ما يترجمه
بعضهم إلى «الأدب العجائبيّ». فئة ثالثة من النصوص لا يطول أمامها

تردد القارئ لأنه سرعان ما يفتن إلى أنّ حركيتها الأساس أو صفتها النوعية إنما تقوم على خرق الواقع، كما في حكايات «ألف ليلة وليلة» أو في قصص الجنّيات، فيأنس لهذا الانجراف في ما لا يقبله العقل ولكن ترتاح إليه المخيلة لما فيه من إيغال في التعجيب. هذه الفئة الأخيرة تقابل في نظر تودوروف *la littérature du merveilleux*، الذي يسمّيه بعض الباحثين العرب «الأدب الغرائبيّ». بيد أنّ تودوروف انتبه إلى جمود هذا التقسيم، أو حتّى إلى عدم كفايته، فأشار إلى أنّ بعضاً من أدب الفئة الوسطى ينجح إلى الغريب المقبول، فهو في عُرْفه *fantastique-étrange* (فنتازي-غريب)، وبعضاً آخر ينجح إلى الخارق والمفارق كلياً للواقع، فهو في نظره *fantastique-merveilleux* (فنتازي-خوارقيّ). باللّغة الشائعة لدى أغلب الباحثين العرب نكون هنا أمام خمس فئات متدرّجة: الغريب المحض، فالعجائبيّ الغريب، فالعجائبيّ، فالعجائبيّ العجيب، فالعجيب. يتساءل المرء طبعاً - وفعلاً تساءل الباحثون - عن مدى امتلاك هذه المقابلات العربية ما يكفي أو ما يلزم من الوضوح ومرونة التداول المصطلحيّ. أضف أنّ تقسيمات تودوروف هذه، على ما تُسديه من فائدة، أثارت انتقادات حادة، فهو يبدو مصرّاً، كأنها حبّاً بالتصنيف لا غير، على وضع حدود فاصلة ومنيعة بين ما لا يقبل الفصل، أي عناصر جنس أدبيّ متعاقبة ومتواشجة لا ينفك بعضها ينقلب في البعض الآخر وينسكب فيه.

يرى كاتب هذه السطور، شأنه شأن باحثين آخرين، أننا أمام جنس أدبيّ شامل نسّميه توخيّاً للوضوح أدب الغرابة أو الأدب المفارق للواقع، وهو يقوم على ثلاثة إجراءات سردية متفاعلة: فمنه أدب الغريب المحض، المنضوي في حدود الاحتمال والقابل، حسب طبيعة القراءة

وإمكانات التأويل، إلى الظفر بتصديق القارئ؛ ومنه ما كان خارقاً لكلّ نواميس الطبيعة وشروط الاحتمال، فهو أدب الخوارق والتعجيب المتطرّف. وبين هاتين الفئتين يقوم أدب يفارق الواقع ويبدو كأنه يخالف نواميس الطبيعة، ولكن إلى حدّ نتردّد إزاءه طويلاً، فلا نحن قائلون بغرابته البسيطة، أي الممكن تفسيرها وقبولها، ولا نحن بالمسلمين بكونه من قبيل الخوارق فتعامل معه على أنّه كذلك ونوقف امتحان العقل أو مرافعته بخصوصه. وهو ما نسميه «الأدب الفنطازي»، وهي تسمية شاعت في العراق وبلدان عربيّة أخرى منذ عقود، ولها فضلُ إبعادنا عن تسمية «الأدب الفنطاستيكي» التي يستخدمها بعضهم، بوقعها الصوتيّ الصّادم هذا وبنسخها بناء الصفة عن البناء الفرنسيّ نسخاً كليّاً. والحال، وفي حدود علمي، لم تقبل العربيّة (وشيوع الاستخدام برهان كبير على سواغيّة مصطلح أو عدمها)، أقول لم تقبل بناءً كهذا إلاّ في مفردتين: «الرومنطيقية» (ويخطئ البعض أيّما خطأ بدعوتها بـ «الرومنسيّة»، فهذه كما يعلم الباحثون الجادّون ليست تلك)، و«الديالكتيكيّة». الأولى جاءت مستساغة وفرضت نفسها في اللغة السائرة، والثانية يستخدمها بعضهم ويعافها بعضهم الآخر لصالح «الجدلية». هذان استثناءان، والذوق وخصوصيّة العربيّة، ولكلّ لغة خصوصيّة، يمنعان من تحويلهما إلى قاعدة.

أعود إلى هذا الكتاب، من خلال مسألة تواشج هذه الفئات وما يشيع بينها من بدليّة وتفاعل وتخاصّب مشترك. خذ «ألف ليلة وليلة» مرّة أخرى: ألسنّ واجداً في هذا السّفَر الرّائع، بمقتضى طبيعة هذه الحكاية أو تلك، ظواهر وأحداثاً تمتّ بصلّة إلى الفئات الثلاث أو حتّى الخمس إن نحن أخذنا بتقسيم تودروف بكامله؟ على النحو ذاته لا تنجس نصوص

غوتيه الفنطازية في خانة واحدة. فلئن كان أغلبها يصب في تيار الأدب الفنطازي إلا أن بطل قصته «الفارس المزدوج»، الماثلة في هذا الكتاب، مثلاً، الذي يرافقه نجهان أولها أخضر والثاني أحمر، كناية عن ازدواج شخصه وتأرجح مصيره، أو «قدم المومياء» و«إبريق القهوة» و«آزيا مارتشيللا»، التي تشهد جميعاً انبعاث الأموات، شخوصاً أم أطيافاً لسنا لنعرف، هذا كله ينجح بنا إلى أدب الخوارق. لا بل إن قصة «التقمص» تنسكب في وجهها الأساس في لغة الخيال العلمي. على أن الفنطازي يظل هو الغالب، ما دام غوتيه يكتب لا من أجل التعجب المحض، وإنما بهدف الإبانة عن السواتر الرقيقة التي تفصل شعورنا عن اللا شعور، والواقع عن الحلم، والمادة عن الخيال، والجسد عن الروح، والموت عن الحياة. وهنا تكمن قوته كشاعر وأهميته بين رواد الحدائث الأدبية. وعلى هذا الأساس يفرض نفسه واحداً من «كلاسيكتي» هذه الحدائث. من ناحية أخرى، ترتد بعض النصوص أو جوانب منها إلى الواقع، واقع مأساوي ومقروء بلغة شاعر، كما في القصة الطويلة أو الرواية القصيرة التي تختتم هذا الكتاب، «جتاتورا»: يكاد الفنطازي ينجفي فيها كلياً، فما هي إلا تصوير أليم للانهايار الذي يلحقه بمصيرى البطل وعشيقته تطير شعبي سائد في جنوب إيطاليا يروحان هما ضحيته، يقوم على الاعتقاد بامتلاك بعض الأفراد عيناً شريرة تصيب الناظر إليها بضرر جسيم. هذا الاعتقاد يقود البطل إلى عزلة قاهرة، وإلى الموت، بعدما أحل في داخله شكاً عميقاً بسلامة طواياه، وغرّبه عن شعوره ببراءته الأصلية، وعطل تزامنه وذاته.

والحق، فمسألة الهوية وثيمات الازدواج والقرين والشبيه والصنو وانتحال الهوية وصناعة الاستلاب تُهيكل قصص غوتيه وتمنحها عمقاً

فلسفياً وأدبياً فريدين. بعض شراحه، جان غودون Jean Gaudon مثلاً في تقديمه المستفيض لنشرته لهذه النصوص في سلسلة «فوليو» Folio الصادرة في منشورات غاليمار Gallimard بباريس، يردّون ذلك إلى ما قد يكون غوتيه عاناه من شعور بالازدواج والانقسام، هو الذي نذر نفسه في صباه للرّسم ثم صار كاتباً تتناهبه أجناس أدبية عديدة. مهما يكن حجم المعاناة في ذلك، لا شك أنّ اجتياز الكاتب لها كان ظافراً ورحلته فيها ميمونة، ما دامت بعض القصائد والروايات والقصص تشهد على تعمق وأناقة كبيرين في معالجته لهذا كلّ. والمهمّ أيضاً، وهنا دليل آخر على أنّ غوتيه لم يكن يمارس كتابة الغرابة من أجل الغرابة، أنّ عودةً إلى الواقع دائماً ما تتوّج نصوصه. فتدرك الشخصية القصصيّة معضلتها، أو تموت ضحيةً وهمها القاتل فنكمل نحن القراء شوط التساؤل الممضّ والفهم الخلاق. والموتى لا يفرضون علينا وجودهم إلّا بقدر ما تدوم زيارة توقفنا على الأساسيّ ويعودون بعدها إلى عالمهم الأليف، عدمهم الكليّ. ثمّة هنا شيء من عبقرية الشعر الرثائيّ العالميّ واللّحظة الطلليّة في الشعر العربيّ القديم. من انطماس الأطلال وانقشاع الماضي تنبثق شرارة شعرية هي علامة حياة، وهبة وجودٍ إضافيّ.

يبقى أن نشير إلى بضعة أشياء وثيقة الصّلة بقراءة غوتيه وترجمته. فهذا الوريث لرائد الأدب الفنطازيّ ومعلّمه الشخصيّ المعلن، الألمانيّ هوفمان Hoffmann، ذهب بعيداً بإرث المعلّم وفرض عليه لا لغة الشعر وحدها كما أسفلنا في القول، ولا تعمق الرومنطيقيّ النائر الذي يستنطق الواقع والغيب والدواخل الإنسانية ومنطق الكون كلّه فحسب، بل كذلك أدوات الناقد الفتيّ والرّحالة الذي يهّمه أن يزجّ بقرائه في تعدّد الثقافات وثراء المراثيات. ثمّة جانب متبحر أو موسوعيّ في نصوصه هذه، فيرى

القارئ معه إيطاليا بثقافتها وفنونها، والهند ومصر بروحانيّاتها ورؤية أهلها للغز البشريّ. وهو لا ينفكّ يملأ نصوصه بمفردات آتية من لغات عديدة يقحمها على الفرنسيّة وينشئ غرابة لغويّة توجب الحفاظ عليها، وقد حافظ عليها مترجم الكتاب. وكان لا بدّ من وضع حواشٍ حرص المترجم والمراجع على أن تكون دالّة بلا إطالة، وواضحة دون أسْتسهال.

محزّر السلسلة
كاظم جهاد

إبريق القهوة

حكاية فنطازية⁽¹⁾

«رأيتُ تحت حُجُبِ دكناء
أحدَ عشر كوكباً،
والقمر، والشمس أيضاً،
وهي تسجد لي،
في صمتٍ،
طيلة نومي».
رؤيا يعقوب⁽²⁾

دُعِيتُ، في السنة الماضية، برفقة اثنين من زملائي في المشغل، هما أريغو كوهيك وبديرينو بورنيولي، لقضاء بضعة أيام في مزرعة توجد في عمق مقاطعة النورماندي.

تبيّن أنّ الطقس الذي كان يوحى بأنه سيكون رائعاً، قرّر أن يتغيّر فجأةً، وهكذا هطلت أمطار كثيرة إلى درجة تحوّلت معها الدروب التي كنّا نسلكها إلى ما يشبه مجرى سيول.

(1) نُشِرت للمرّة الأولى في صحيفة *Le Cabinet de lecture*، في الرابع من أيار 1831. وبخصوص مصطلح «الفتازي» انظر التقديم. أما الحواشي فقد وضع أغلبها المترجم، كتّف في بعض منها ملاحظات شراح قصص المؤلف، ووضع المراجع عدداً منها.

(2) «رؤيا يوسف» في طبقات أخرى. ولنذكر من القرآن الكريم، ومن مستهل سورة يوسف: ﴿إِذْ قَالَ يُوسُفُ لِأَبِيهِ يَا أَبَتِ إِنِّي رَأَيْتُ أَحَدَ عَشَرَ كَوْكَبًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ رَأَيْتُهُمْ لِي سَاجِدِينَ﴾.

كنا نخوض في الوحل حتى الركب، والتصقت طبقة ثخينة من التربة الطرية بنعال جزماتنا، فكانت تبطئ، خُطانا بثقلها حتى أننا لم نبلغ وجهتنا إلا بعد ساعة من غروب الشمس.

كنا منهوكي القوى حتى أن مضيفنا، وقد رأى الجهود التي نبذلها كي نخفي ثناؤنا ونحافظ على عيوننا مفتوحة، سرعان ما رافق كل واحد منا إلى غرفته بعد العشاء مباشرة.

كانت غرفتي واسعة؛ أحسست وأنا أدخل إليها بما يشبه روضة حمى، إذ بدالي كأنني كنت ألجُ عالماً جديداً.

وبالفعل، كان من شأن المرء أن يظن نفسه في عهد الريحانيس⁽¹⁾، من خلال رؤية رسوم «بوشيه»⁽²⁾ على أعالي الأبواب، مجسدةً الفصول الأربعة، والأثاث المثقل بالزخرفة المحارية⁽³⁾، ذات الذوق الأكثر رداءة، ومرايا الحيطان المنحوتة بأشكال فظيعة.

لا شيء غير منظم. كانت طاولة الزينة مملأى بعلب الأمشاط ورشاشات البودرة، وكأتمها استُخدمت ليلة البارحة. وعلى الأرضية الخشبية المصقولة جيداً فستان أو فستانان بألوان متنوعة ومروحة يدوية مزركشة بالفضة، وكان ما أثار دهشتي وجود علبة سعوط من الصدف مفتوحة فوق المدفأة وملأى بتبغ لا يزال جديداً.

لم ألاحظ هذه الأشياء إلا بعد أن وضع الخادم شمعدانه على المنضدة

(1) الريحانيس: عهد وصاية فيليب دوق أورليان على عرش فرنسا بين 1715 و1723. وطرارز الريحانيس الذي نشأ إبانهُ هو طراز معماري يميّز بالبساطة والأناقة.

(2) فرانسوا بوشيه François Boucher: رسّام فرنسي من القرن الثامن عشر اشتهر بأسلوب الروكوكو (الزخرفة الثقيلة) في الرسم. وبالنسبة لـ «أعالي الأبواب» في العبارة ذاتها، كان شائعاً تزيين أعالي أبواب البيوت برسوم.

(3) أسلوب معماري شاع في عهد لويس الخامس عشر، يميّز بخطوط ملتوية تشبه أشكال المحار والأصداف.

وتمتني لي نوماً هائناً، وأعترفُ بأنني بدأت بالارتعاش مثل الورقة. خلعت ثيابي بسرعة، وأخلدت إلى النوم، وكفي أنخلص من هذه المخاوف الحمقاء، سرعان ما أغضمت عينيّ ملتفتاً نحو الحائط.

غير أنّ البقاء على تلك الوضعيّة بدا لي مستحيلاً: كان السرير يهتزّ تحتني مثل موجة، وكان جفناي ينسحبان إلى الوراء بعنف. فألفيتني مجبراً على التقلب والرؤية.

كانت النار الملتهبة ترسل انعكاسات محمّرة في الشقّة، بحيث يمكن للمرء أن يميّز بلا عناءٍ شخوص النّجد⁽¹⁾ الباذخ ووجوه الأشخاص المرسومين والمعلّقين على الجدار وقد اسودّت بفعل الدخان.

كان هؤلاء هم أسلاف مضيفنا، فرسان مدرّعون بالحديد، ومستشارون بشعور مستعارة، ونساء جميلات ذوات وجوه مزينة وشعور بمساحيق بيضاء، مع ورود في الأيدي.

فجأةً ازداد توقّد النار بشكل غريب؛ أضاء الغرفة وميض باهت، ورأيت بوضوح أنّ ما حسبته مجرد رسوم تافهة كان هو الواقع؛ ذلك أنّ أحداق تلك الكائنات المؤطّرة كانت تتحرّك وتلتمع بطريقة غريبة؛ وكانت شفاههم تفتح وتنغلق مثل شفاه أناس يتكلّمون، لكنني لم أكن أسمع شيئاً غير تكتكة الساعة الدقّاقة وصفير ريح الشمال الخريفية.

تملّكني رعب لا يُقاوم، انتصب شعري فوق جبيني، اصطكت أسناني حتّى كادت تهشّم، وغرق جسمي كلّ في عرق بارد.

دقت الساعة الحادية عشرة. دوى ارتجاج الدقّة الأخيرة لمُدّة طويلة، وعندما تلاشى نهائياً...

آه! كلاً، لا أجرؤ على قول ما حدث، لن يصدّقني أحد، وقد يقال

(1) النّجد، وجمعه بُجود، هو قماش موشى أو بساط أو رسم منسوج، به يُغلف حائط غرفة.

عني إنني مجنون.

اشتعلت الشموع من تلقاء نفسها؛ وشرع المنفاخ، دون تدخل أي كائن مرئي، يضرم النار، محسراً مثل شيخ مصاب بالربو، في حين كانت ملاقط النار تسعّر الجمر، والمجرفة ترفع الرماد.

إثر ذلك انقذف إبريق قهوة تحت طاولة كان فوقها، وتوجّه متدحرجاً نحو موقد المدفأة ليستقرّ وسط الجمر.

بعد لحظات، بدأت الأرائك ترتج، وتحرّك سيقانها الملتوية بطريقة مباغتة، لتصطفّ حول المدفأة.

2

لم أكن أعرف كيف أفكر إزاء ما أرى؛ غير أنّ ما تبقى لي كي أراه كان أعجب.

أحد رسوم البورترية، وهو أقدمها جميعاً، ويمثّل شخصاً ممتلئ الخدين بلحية يغزوها الشيب، ويشبهه إلى حدّ الالتباس تلك الفكرة التي كنتُ كوّنْتُها عن السير جون فلستاف⁽¹⁾، أخرج رأسه من إطاره مكشراً، وبعد جهد جهيد تمكّن معه من تمرير كتفيه وبطنه الكبيرة عبر ألواح الخشب الضيقة للإطار، ثم قفز بثقل إلى الأرض.

وما إن استرجع أنفاسه قليلاً حتى أخرج من جيب صدريّه مفتاحاً في منتهى الصغر؛ نفخ فيه ليتأكد من نظافة ثقبه، ثم استخدمه في معالجة كلّ الأطر الخشبية الواحد تلو الآخر.

(1) السير جون فلستاف Sir John Falstaf : شخصية طريفة من ابتكار شكسبير، تظهر في مسرحيّته «هنري الرابع» Henri IV و«زوجتنا وندسور المرحتان» The Merry Wives of Windsor. ويمثّل فلستاف السيّد الإقطاعيّ المفسد والمحافظ على بقايا من عظمتة القديمة.

وهكذا توسّعت كلّ الأطر ميسرةً خروج الوجوه التي تؤطّرها بسهولة.

قساوسة صغار يشبهون الدّمي، سيّدات وارثات ضامرات ومصفّرات، قضاة ذوو سحنات وقورة متدثرون بأثواب واسعة سوداء، رجال متأنقون بجوارب من حرير وسراويل ضيقة يشهرون السلاح، وكان كلّ هؤلاء الشخوص يقدّمون مشهداً في منتهى الغرابة إلى درجة أنّني لم أستطع الامتناع عن الضحك رغم رعبي.

جلس هؤلاء السادة الموقرون، وقفز إبريق القهوة بخفة فوق المائدة. احتسوا القهوة في فناجين يابانية بيضاء وزرقاء أسرع إلى إليهم تلقائياً من فوق مكتب، وكلّ فناجان عليه قطعة سكر وملعقة فضية صغيرة.

بعد تناول القهوة، اختفت الفناجين والإبريق والملاعق معاً، وبدأت محادثة كانت من أغرب ما سمعت، فما من أحد بين هؤلاء المتحدّثين الغربيين كان ينظر إلى الآخر أثناء الحديث: كانوا يجذّون كلّهم في بندول الساعة.

لم أتمكن أنا أيضاً من غضّ النظر والامتناع عن متابعة عقارب الساعة التي كانت تتقدّم نحو منتصف الليل بخطوات غير محسوسة. وأخيراً دقت الساعة منتصف الليل؛ انطلق صوتٌ كان له رنين الساعة نفسها، وقال:

- حان الوقت، ينبغي البدء بالرقص.

وقف المحفل كلّه. تراجعت الأرائك بحركات تلقائية؛ وعندئذ أمسك كلّ فارس بيد سيّدة، وقال الصوت نفسه:

- هلمّوا، أيّها السادة في الجوقة، ابدؤوا!

نسيت أن أقول إن موضوع الرسوم على التّجد كان يمثل كونشرتو إيطاليًا من جهة، وحملة صيد أياثل من جهة ثانية، حيث كان عدد من الخدم ينفخون في الأبواق. أمّا قادة كلاب الصيد والعازفون الذين لم يقوموا بأيّ حركة حتّى ذلك الوقت، فقد أحنوا رؤوسهم علامة على المشاركة.

رفع المايسترو عصاه، فانطلقت معزوفة حيّة وراقصة من طرفي القاعة. تمّ أداء رقصة «المنيويه» الثلاثية في البداية.

غير أنّ النوتات السريعة الموجودة في توليفة العازفين لم تكن لتنسجم جيّدًا مع هذا التبجيل الموقر: وهكذا، وخلال بضع دقائق، بدأ كلّ زوج راقص يدور ويلفّ مثل خذروف ألمانيّ. وكانت فساتين النساء الحريية، وهي تندعك في هذه الزوبعة الراقصة، تصدر أصواتًا ذات طبيعة متفرّدة؛ وكأنتها حفيف أجنحة لرفّ من الحمام. وكان الهواء الذي يدلف إليها من تحوّ يجعلها تنتفخ بشكل مدهش حتّى لتبدو أشبه ما تكون بنواقيس مرتجّة.

كانت قوس العازفين البارعين تمرّ سريعاً على الأوتار فتنبثق منها شرارات كهربائية. وترتفع أصابع عازفي الناي وتنخفض كما لو كانت من مادّة الزئبق، وكانت خدود النافخين من قادة كلاب الصيد منتفخة مثل مناطيد صغيرة، كلّ ذلك يساهم في تشكيل فيض من العلامات الموسيقية والألحان الثنائية المتكرّرة الفائقة السرعة، وسلام أنغام تصاعديّة وتنازلية في منتهى الالتواء وبطريقة لا يمكن تصوّرها، حتّى أنّ العفاريت نفسها ما كانت لتستمكن من مواكبة مثل هذا الإيقاع ولو لدقيقتين.

كان من دواعي الشفقة رؤية كلّ الجهود التي يبذلها هؤلاء الراقصون من أجل استدراك الإيقاع. كانوا يقفزون ويتشقلبون ويؤدّون حركات

دائرية بأرجلهم ويستبدلون ساقاً بساقٍ خلال الإيقاع أو يشون وثبات
تصاليبة على ارتفاع ثلاثة أقدام، حتى أن العرق المتصبب من جباههم إلى
عيونهم كان يأتي على الزينة والمساحيق. وعبثاً كان ما بذلوا من جهود،
فقد ظلت الفرقة تسبقهم دائماً بثلاث نوتات موسيقية أو أربع.

دقت الساعة تشير إلى الواحدة؛ توقفوا. أدركتُ أمراً فاتني: كان
هناك امرأة لا ترقص.

كانت جالسة على أريكة قرب المدفأة، ولم يكن يبدو عليها أي اهتمام
بما يجري حولها.

لم تسبق لعيني، حتى في الحلم، رؤية مثل ذلك الكمال؛ بشرة ذات
بياض ناصع، شعر ذو شقرة تميل إلى اللون الرمادي، أهداب طويلة
وحدقتان زرقاوان كانتا من الصفاء والشفافية إلى حد رؤية روحها فيها
بوضوح حصة في جدول.

وأحسست بأنني لو قُيِّض لي أن أحب، ذات يوم، فلن أحب سواها.
أسرعت إلى مغادرة الفراش الذي لم أتمكن من تركه حتى تلك اللحظة،
وانتهجت نحوها يقودني شيء ما، كان يفعل فعله في دون أن أدرك كنهه؛
ووجدتني عند ركبتيها، وإحدى يديها بين يدي، وأنا أحادثها كما لو كنت
أعرفها منذ عشرين عاماً.

لكن، وبشكل خارق، كنت وأنا أحادثها، أرافق، بحركة من رأسي،
عزف الموسيقى التي لم تتوقف؛ ومع أنني كنت في ذروة السعادة برفقة مثل
هذه المرأة الفاتكة الجمال، كانت قدمي تتلھفان لمراقبتها.

إلا أنني لم أجروء على اقتراح ذلك. ويبدو أنها دركت ما أرغب فيه، إذ
أنتها رفعت يدها الثانية التي لم أكن أمسك بها، باتجاه ميناء الساعة:
- عندما يصل العقرب إلى هنا، سوف نرى، يا عزيزي تيودور.

لا أعلم كيف حصل ذلك، ولم أفاجأ البتة بمناداتها لي باسمي، وتابعنا الحديث. وأخيراً، عندما دقت الساعة المحددة، اهتزّ الصوت ذو الرنين الفضيّ في الغرفة مرّة أخرى وقال:

- أنجيلا، يمكنك الرقص مع السيّد، إذا كان ذلك يروق لك، لكنك تعرفين نتيجة ذلك.

- لا يهم، أجابت أنجيلا بنبرة حُرّة. ولقّت ذراعها العاجيّة حول عنقي.

- «بريستيسيمو!»⁽¹⁾ صاح الصوت.

وبدأنا رقصة الفالس. كان نهد الفتاة يلامس صدري، وخدّها المخمليّ يكاد يلامس خديّ، وتنفسها العذب يطفو على فمي.

لم يسبق لي في حياتي اختبارٌ مثل هذا الإحساس؛ كانت أعصابي تحتلج مثل نوابض معدنية، ودمي يسيل في شراييني مثل تدفق سيل من اللحم، بينما أستمع إلى قلبي ينبض مثل ساعة معلقة على أذنيّ.

ومع ذلك لم تكن في تلك الحال أيّ درجة من الضنى. كنت غارقاً في فرح لا يوصف وتمنيت أن أظلّ كذلك، والشيء اللّافت للانتباه أنّنا لم نحتج إلى أيّ جهد لمرافقة الموسيقى التي تضاعفت سرعتها ثلاث مرّات. وكان الحضور المبهورون بخفتنا يصرخون «برافو!»، ويصفقون بقوة بأيديهم فلا يصدر منها أيّ صوت.

بدت أنجيلا التي رقصت حتّى تلك اللّحظة بطاقةٍ ورشاقة مدهشتين، وقد شرعت تتعب فجأة؛ كانت تتناقل على كتفي كما لو أنّ ساقها قد خذلتها؛ أمّا قدمها الصغيرتان اللتان كانتا قبل دقيقة واحدة لا تكادان تلامسان الأرضية الخشبية فقد صارتا غير قادرتين على تركها إلّا ببطء،

(1) «بسرعة فائقة!» مصطلحات الموسيقى.

كما لو أنّها أثقلتا بكتلة من رصاص.

- أنجيلا، أنت مرهقة، قلت لها، فلنسترخ.

- أرغب في ذلك حقاً، أجابت وهي تمسح جبينها بمنديلها. لكن، عندما كنّا نرقص الفالس، جلسوا كلهم؛ ولم تتبقّ إلا أريكة واحدة، بينما نحن اثنان.

- وما الإشكال يا ملاكي الجميل؟ سوف أجلسك على ركبتيّ.

3

ودون أيّ اعتراض، جلست أنجيلا وطوّقتني بذراعيها كما لو كانتا وشاحاً أبيض، وخبّأت رأسها في صدري كي تدفأ قليلاً، ذلك أنّها صارت باردة مثل الرخام.

لا أدري كم من الوقت بقينا في ذلك الوضع، فحواسي كلّها كانت مأخوذة في تأمل ذلك المخلوق الغريب العجيب.

لم تعد لديّ أيّ فكرة عن الزمان أو المكان؛ كفّ العالم الواقعيّ عن أن يكون موجوداً بالنسبة لي، وتحطّمت كلّ الصلات التي كانت تربطني به؛ كانت روحي المتحرّرة من من سجنها الطينيّ تسبح في الفراغ وفي اللانهاية؛ وكنت أتوصّل إلى فهم ما لا يمكن لأيّ إنسان أن يفهمه، فأفكار أنجيلا تتكشف لي دون أن تحتاج إلى كلام؛ ذلك أنّ روحها كانت تلمع في جسدها مثل مصباح من مرمر، فيما الأشعة التي تنطلق من صدرها تحترق صدري من جهة إلى أخرى.

صدحت القبرة، وترنّح بريق باهت على الستائر.

وما إن أدركت أنجيلا ذلك حتّى نهضت مستعجلة، وحيّنتني بإشارة وداع، وبعد بضع خطوات صرخت وسقطت أرضاً.

تملكني الرعب وأسرعت لرفعها. يتجمّد دمي حالما أستعيد التفكير فيما حدث: لم أجد شيئاً سوى إبريق القهوة المهشّم في ألف قطعة. أمام هذا المشهد، واقتناعاً منّي بأنني كنت ضحيّة خدعة شيطانية، تملكني رعب أدى بي إلى فقدان الوعي.

4

عندما استعدت وعيي، كنت في فراشي؛ وكان أريغو كوهيك وبدرينو بورنيولي واقفين قرب سريري.

وما إن فتحت عينيّ حتّى صاح أريغو:

- آه! لم يذهب جهدي سدى! مرّت قرابة الساعة وأنا أفرك لك صدغيك بياء الكولونيا. يا للشيطان، ماذا فعلت هذه الليلة؟ في الصباح عندما لاحظت أنّك لم تنزل دخلت إلى غرفتك فوجدتك ممدداً بطولك على الأرض، مرتدياً ثياباً على الطريقة الفرنسية، حاضناً بين ذراعيك قطعة بورسلين⁽¹⁾ مهشّمة، كما لو كانت فتاة شابّة جميلة.

- بالتأكيد هذا لباس زواج جدّي، قال الثاني وهو يرفع أحد ذيلي السترة الحريرية ذات الصبغة الوردية المشجّرة باللون الأخضر. ها هي أزرار الألباس الاصطناعيّ وخيوط الزخرفة التي كان يتباهى بها أمامنا بكثرة. لا شكّ أن تيودور قد عثر عليها في إحدى الزوايا وارتداها للتسلية. لكنّ بالمناسبة ما الذي جعلك تتألّم؟ أضاف بورنيولي. هذا يكون أمراً جيّداً لو تعلق بعشيقه شابّة ذات كتفين بيضاوين: عندئذ يمكن حلّ أربطتها ونزع قلائدها ووشاحها،

(1) أواني الخرف الصيني.

وتكون مناسبة موالية للتغنج.

- لا يتعلّق الأمر سوى بلحظة ضعف تملكنتني؛ أنا معتاد على ذلك،
أجبت بجفاف.

نهضتُ وتخلّصتُ من زّي المضحك السخيف.
وبعد ذلك تناولنا الغداء.

أكل رفاقي الثلاثة كثيراً وشربوا أكثر؛ أمّا أنا فلم أكّد أتناول شيئاً،
ذلك أنّ ذكرى ما حصل ظلّت تتسبّب لي بشرود غريب.

بعد انتهاء الغداء، ونظراً لنزول أمطار غزيرة، لم يكن هناك مجال
للخروج؛ فانشغل كلّ واحد منّا كما استطاع. دقّ بورنيولي إيقاع مسيرات
حربيّة على زجاج النافذة؛ وتواجه أريغو ومضيفنا في لعبة الضامّة؛ أمّا أنا
فقد سحبت من «ألبومي» مربّعاً من ورق الرّقّ وشرعت أرسم.

جاءت الخطوط الأولى شبه غير المرئية، والتي رسمها قلّمي دون أن
أفكر فيها البتة، لتمثّل بدقّة متناهية شكل إبريق القهوة الذي لعب دوراً
في منتهى الأهميّة خلال المشاهد الليليّة.

- إنه لأمر مدهش كم أنّ هذا الرأس يشبه أختي أنجيلا، قال مضيفنا
الذي انتهى من اللّعب ووقف يتفرّج عليّ من فوق كتفي بينما كنت أرسم.
وفعلاً، كان ما بدا لي قبل قليل إبريقاً هو في الحقيقة وجه أنجيلا
العذب والحزين.

- أستحلفك بكلّ قدّيسي الفردوس! هل هي ميتة أم حيّة؟ صرختُ
بنبرة صوت مرتجف، كما لو أنّ حياتي باتت مرهونة بإجابته.

- لقد ماتت منذ عامين، بسبب نزلة صدريّة أعقبت حفلة راقصة.

- وأسفاه! أجبتُ متألّماً.

ثم أعدت الورقة إلى الألبوم وأنا أحبس دمة كانت توشك على
التزول.
لقد أدركتُ للتوّ أنّ أيّ سعادة لم تبقَ لي على وجه الأرض!

أوففان

حكاية بأسلوب الروكوكو⁽¹⁾

كان عمّي، الحامل لقب فارس...⁽²⁾، يقطن منزلاً صغيراً يفتح من جهةٍ على شارع تورنيل الكثيب، ومن جهة ثانية على جادة سانت-أنطوان الكثيبة. بين الجادة والقسم الرئيسي من المنزل، كانت توجد بضع خائل نباتية تفرسها الحشرات والطحالب وهي تمدّ أذرعتها العجفاء بصورة باعثة على الشفقة نحو ما يشبه بركة مياه آسنة محصورة بين أسوار سوداء عالية. وكان هناك بضع زهرات زاوية وبائسة تحني رؤوسها بوهن، مثل بُتّيات مسلولات، في انتظار شعاع من الشمس يأتي ويجفف أوراقها الآخذة بالتعفن. هجمت الأعشاب على الممرّات التي لم يعد من السهل التعرّف عليها لطول ما غاب عنها المشاط. وهناك سمكة أو سمكتان حمراوان تسبحان، لا بل تطفوان في بركة مغطاة بطحالب الماء ونباتات مستنقعات.

كان عمّي يسمّي كلّ ذلك حديقته.

يوجد في حديقة عمّي، إلى جانب كلّ الأشياء الجميلة التي وصفتها للتوّ، جناح معتدل الكتابة، وقد سمّاه، من باب التلاعب بالكلمات على الأرجح: «جناح الملذّات». كان في حالة خراب كامل. الحيطان محدّبة، وثمة طبقات ملاط عريضة انفصلت عنها وظلّت ثاوية على الأرض

(1) نشرها للمرّة الأولى في صحيفة *Le Journal des gens du monde*، في السابع من شباط

1834. والروكوكو أسلوب معماريّ يبالغ في الزخرفة.

(2) يضع المؤرّف أحياناً ثلاث نقاط محلّ اسم المكان، وأحياناً أخرى يذكر منه حرفه الأوّل.

بين نبات القراص والشوفان الهائج؛ وكانت عفونة منحلّة تضيفي اللون الأخضر على القاعدة السفلية للجدران؛ أما خشب المصاريح والأبواب فقد تخلخل، ولم يعد قابلاً للإغلاق أو صار يُغلق بصعوبة. وكان يزيّن المدخل الرئيسي ما يشبه قدراً تفوح بأبخرة مشعّة؛ ففي عهد لويس الخامس عشر، زمن بناء «جناح الملذّات»، كان يوجد دائماً مدخلان، من باب الاحتياط. زخارف بيضوية وأخرى حلزونية وهندباء تثقل الأفاريز المفكّكة بفعل تسرّب مياه الأمطار. وباختصار كان «جناح ملذّات» عمّي فارس... من أسوأ المباني المثيرة للراء التي يمكن رؤيتها.

هذه الخبرة البائسة العائدة إلى الماضي، والتي تبدو من شدّة خرابها كأنّها عاشت مائة عام، هي خربة جبس وليست خربة حجر، كلّها مخدّدة، كلّها متشقّقة، مبقّعة، ومنخورة بالطحالب وملح البارود، كانت أشبه بواحد من أولئك الشيوخ المبكرين الذين استنفدتم أوسخ أنواع الفسق والفجور؛ لم تكن توحى بأيّ احترام، فلا وجود في العالم لما هو أبشع وأبأس من فستان من الشفّ عتيق أو جدار جبس قديم، شيان لا يتعيّن عليهما البقاء ومع ذلك يدومان.

في هذا الجناح أسكنتي عمّي. ولم يكن الداخل أقلّ من الخارج من حيث توحي أسلوب الروكوكو المعماريّ الشديد الزخرفة، ولو أنّه كان أفضل وقاية. كان السرير من اللّباس، نسيج الحرير الصينيّ الأصفر ذي الزهور البيضاء الكبيرة. وهناك ساعة مزخرفة بالحصى تقف على قاعدة صغيرة مرصّعة بالصدف والعاج. بينها شريط مزخرف بورود ذات أزهار صغيرة يلتفّ بأناقة حول مرآة من فينيسيا⁽¹⁾: فوق الأبواب

(1) اسمها معرّب، كما هو معروف، على هيئة «البندقية»، ولكنّ اسمها بالنطق الإيطاليّ (وهو على وجه الدقّة «فينيسيا») صار يُستخدم بالعربية، وهو يلائم الصياغة في أحيان كثيرة.

رُسمت الفصول الأربعة بألوان متدرّجة. وهناك سيّدة جميلة ذات مساحيق خفيفة ومشدّ أزرق سماويّ مع تدرّج أوشحة من اللّون نفسه، في يدها اليمنى قوس، وفي يدها اليسرى حجلة، مع هلال على جبينها وكلب سلوقيّ عند قدميها، وهي تتبختر وتبتسم بألطف طريقة ممكنة داخل إطار بيضويّ واسع. كانت تلك إحدى عشيقات عمّي القدييات، وقد أمر برسمها على هيئة إلهة الصيد ديانا. لم يكن الأثاث، كما تدلّ معانيته، من الطراز الأكثر حداثة. لا شيء يمنع المرء من الاعتقاد أنّه في عهد الريجانس⁽¹⁾، ويزيد النّجد الأسطوريّ الذي يغلف الجدران في تكملة هذه الصورة الوهميّة كأفضل ما يكون.

يمثّل النّجد هرقل وهو يغزل الصوف عند قدمي أومفال⁽²⁾. كان الرسم متكلّفاً على طريقة فان لو⁽³⁾ وبالأسلوب الأكثر اقتراباً من الأسلوب الذي شاع أيام بومبادور⁽⁴⁾ كما يمكن تحيّلّه. كان لهرقل مغزل يحيط به شريط ذو لون وردّيّ؛ وكان يرفع خنصره برشاقة متميّزة، مثل مركز يتناول بنشيقه سعوط، جاعلاً خيطاً أبيض رقيقاً من صوف يدور بين إبهامه وسبابته؛ وكان عنقه المتوتّر محمّلاً بعقد أشرطة، وأزرار مورّدة، وعقود لؤلؤ وألف حلّية نسائية أخرى؛ بينما تلوح تنورة واسعة متموّجة اللّون، مع سلّتين واسعتين، لتسبغ على البطل قاهر الوحوش هيئة في منتهى اللّطف.

(1) عهد الريجانس: سبق التعريف به، شاع فيه طراز في المعمار وتأيّث البيوت يتميّز بالبساطة والأناقة.

(2) هي ملكة ليديا، استعبدت هرقل فترة. وتقدّمه الأسطورة غازلاً للصوف بين قدميها.

(3) شارل أندريه فان لو Charles André Van Loo، المعروف باسم كارل فانلو Carle Vanloo (1717-1795): رسّام ومن عائلة رسّامين فرنسيين من أصل هولنديّ.

(4) مدام بومبادور Madame de Pampadour (1721-1764): محظيّة لويس الخامس عشر؛ لعبت دوراً مهمّاً في سياسة البلاط وفي رعاية الفلاسفة والفنّانين والكتّاب.

أما أو مفال فكانت كتفاها البيضاء ومغطّاتين إلى التّصّف بجلدٍ أسدٍ نيمي⁽¹⁾؛ ويدها الضعيفة تستند إلى الدّبوس ذي العُقد لعشيقها؛ وشعرها الجميل، ذو الشقرة المائلة إلى الرماديّ بفعل بعض المساحيق، ينزل بلامبالاة على امتداد عنقها اللّين والمتموّج مثل عنق يمامة؛ وفي قدميها الصغيرتين الأقرب إلى قدمي إسبانية أو صينية حقّاً، وكان يمكنها أن يملأ حذاء سندريلاً بسهولة، خفّ من الطراز شبه العتيق ذو لون ليلكيّ فاتح مع حبات لؤلؤ. كانت جذّابة حقّاً رأسها يتراجع إلى الخلف بازدهاء فاتن؛ فمها ينطوي ويظهر مطّاً عذباً للشفتين، منخرها منفوخان نوعاً ما وخدّاهما مضطّمان قليلاً؛ وثمة خال صغير مصطنع رُسم ببراعة فزاد من ألقهما بطريقة رائعة؛ ولم يكن ينقص إلا شاربان قصيران لنرى أمامنا فارساً مكتملاً.

كان هناك شخصيات أخرى كثيرة على نَجْد الحائط، مثل الوصيفة التي لا غنى عنها وإله الحب الصغير المعتاد؛ غير أنّها شخصيات لم تترك في ذاكرتي ملامح مميّزة حتّى أتمكّن من وصفها.

في ذلك الوقت كنت في عزّ شبابي، وهذا لا يعني أنّي مسنّ جدّاً اليوم؛ كنتُ تخرّجت للتوّ من المدرسة الثانوية وجئت لأمكث عند عمّي وقتاً كافياً في انتظار اختياري لمهنة ما. وما من شكّ في أنّ ذلك الرجل الطيّب لو تمكّن من التوقّع بأنني سوف أحترف مهنة الحكّاء الغرائبيّ، لطردني وحرمني من الميراث نهائياً؛ إذ كان يعلن أنه يكره للأدب عامّة، وللكتّاب بشكل خاصّ، أقوى ازدراء أرسطراطيّ. وبصفته واحداً من النبلاء، كان يرغب في إخضاع كلّ هؤلاء المتحدلقين الصغار الذين يكتبون على تحبير الأوراق والكلام بوقاحة عن الأشخاص المحترمين، إخضاعهم

(1) نيمي: اسم وإِدِ صرع فيه هرقل أسداً كان قد رَوَع البلاد، وارتدى جلده.

للشئق أو الضرب بالعصي. فليحلّ سلام الربّ على روح عمي المسكين! لم يكن يقدر أيّ شيء في العالم ما عدا «رسالة إلى زيتولبيه»⁽¹⁾.

وعليه، كنت متخرّجاً للتوّ من الثانوية. وكنت ممتلئاً بالأحلام والأوهام. وربّما كنت بسذاجة لا تعادها أو تفوقها إلاّ سذاجة فتاة الورد في سالنسي⁽²⁾. كنت سعيداً بالتخلّص من العقوبات الكتابية، شاعراً بأنّ كلّ شيء على ما يرام في أفضل عالم ممكن. كنتُ مؤمناً بأشياء غير متناهية: أوّمن براعية السيّد دو فلوريان، بالخرقان المشطّة والمصبوغة فروتها؛ ولم أكن أشكّ لحظة في قطع السيّد ديزولير⁽³⁾، وكنت أوّمن حقّاً بوجود تسع ربّات إلهام كما يؤكّد مصنّف الأب جوفنسي حول الأساطير «فهرست الآلهة والأبطال»⁽⁴⁾. لقد كانت ذكرياتي المتأّتية من بيركان وجيسنر⁽⁵⁾ تخلق لي عالماً صغيراً حيث كلّ شيء وردّي، وأزرق سماويّ، وأخضر تفاحيّ. يا للبراءة المقدّسة! كما يقول ميفيستوفيليس⁽⁶⁾. عندما ألفتيتني في تلك الغرفة الجميلة، غرفتي، غرفتي أنا وحدي، أحسست بفرح لا مثيل له. جرّدتُ باعْتناءٍ كلّ أثاثها؛ نقبتُ في كلّ الزوايا، واستكشفتها في كلّ الاتجاهات. كنتُ في السماء الرابعة، سعيداً

(1) زيتولبيه Zétulbé إحدى شخصيات أوبرا كوميدية كانت شائعة في تلك الفترة للمؤلّف الموسيقيّ الفرنسيّ فرانسوا-أدريان بوالديو François Adrien Boieldieu (1775-1834)، عنوانها «خليفة بغداد» *Le Calife de Bagdad*.

(2) عرفت مدينة سالنسي Salency الفرنسية بحفلٍ قديم بدأ منذ القرن الخامس، تُتّوج فيه أعفّ فتاة بتاج من الورد لكّته بات مثار سخرية في القرن التاسع عشر.

(3) كلّ ما سبق إشارة إلى نصوص ومحفوظات رعوية لكتاب كلاسيكيين كانت مقرّرة في المدارس.

(4) هو *Appendix de Diis et Heroibus*، للأب جوزيف دو جوفنسي Joseph de Jouvancy.

(5) انظر الحاشية الثالثة في هذه الصفحة.

(6) شخصيّة تجسّد الشيطان في مسرحيّة «فاوست» *Faust* لغوته.

مثل ملك أو ملكين اثنين. بعد العشاء (إذ كان يُقدّم العشاء في بيت عمّي)⁽¹⁾، وهي عادة فاتنة تلاشت مع أشياء أخرى كثيرة لا تقل عنها فتنة أتأسّف عليها من صميم قلبي، حملت شمعداني وانسحبت متشوقاً لرؤية مقرّي الجديد.

خُيّل لي وأنا أخلع ثيابي أنّ عينيّ أو مفاييد قد تحرّكتا؛ نظرتُ بانتهاء أكثر، مع شعور خفيف بالرعب لأنّ الغرفة كانت واسعة، ولم يكن ضعف الغبش المنير المتموّج حول الشمعة قادراً إلا على جعل الظلام مرئياً أكثر. اعتقدتُ أنّي رأيت رأسها ملتفتاً نحو الجهة المعاكسة. بدأ الخوف يتملّكني حقّاً؛ نفختُ على الضوء. التفتت ناحية الحائط ووضعت الشرف على رأسي ساحباً طاقتي حتّى ذقني، وانتهى بي الأمر إلى النوم. وهكذا بقيت عدّة أيام لا أجرؤ على إلقاء نظرة على النجد اللعين.

ولعلّه ليس من العبث، ومن أجل جعل الحكاية العجيبة التي سأحكّيها أكثر صدقيّة، أنّ أخبر قارئاتي الجميلات بأنني في ذلك الوقت كنت فتى على قدر من الجمال حقّاً. كان لي أجمل عينين في العالم: أقول هذا لأنّه قيل لي؛ وسحنة أكثر غضارة قليلاً من سحتي الآن؛ سحنة قرنفلة؛ وشعر أسود مجعّد ما زال حتّى الآن كذلك، وسبعة عشر عاماً لم تبقَ كذلك. ولم يعد ينقصني سوى إشبيّنة جميلة لأغدو ملاكاً مقبولاً قليلاً؛ ومن سوء الحظّ أنّ لإشبيّتي سبعة وخمسين عاماً، وثلاثاً فقط من أسنانها، وهو أكثر مما ينبغي من جانب، وأقلّ ممّا ينبغي من جانب آخر.

ذات مساء تجاسرت، مع ذلك، على إلقاء نظرة على عشيقه هرقل

(1) إشارة إلى عادة العشاء العائليّ المتأخّر *souper*، المحفوف بشيء من الاحتفاليّة باعتباره خاتمة أو تويجاً لليوم، التي ابتكرها الفرنسيّون في القرن الثامن عشر، لكنّها فقدت من قيمتها في القرن التاسع عشر لصالح وجبة العشاء العاديّة *dîner*. كانت تشكّل لحظة وئام عائليّ أو عشقيّ تشغل فيها المحادثة والدعابة مكاناً مهمّاً.

الجميلة؛ كانت تنظر إليّ بنظرة هي الأشدّ حزناً وسقماً في العالم. في تلك المرة سحبت طاقتي حتى كتفّي وحشرت رأسي تحت المسند. وفي تلك الليلة حلمت حلماً لا يشبه غيره، هذا إذا اعتبرناه حلماً.

سمعت حلقات الستائر في سريري تنزلق صارخة وهي في قضيبها المعدنيّ كما لو أنّ هناك من سحب الستارة بسرعة فائقة. فاستيقظت؛ على الأقلّ هُتئ لي أنني استيقظت في حلمي. لم أر أحداً.

كان القمر يضيء مرتبعت الزجاج ويرسل ضوءه الأزرق الباهت داخل الغرفة. فترسم ظلال كبيرة ذات أشكال غريبة على الأرضية والحيطان. دقت الساعة المزخرفة بالحصى معلنة عن مرور ربع ساعة؛ طال رنينها قبل أن يتلاشى؛ وبدا كأنه تنهيدة. وكانت نبضات الرقاص تشبه إلى حدّ بعيد دقات قلب شخص متأثر.

لم أكن مرتاحاً ولم أكن أعرف أيضاً بماذا يمكنني أن أفكر. جاءت هبة ريح قوية خبطت المصارع وشفقت زجاج النافذة. تقصّف الخشب وتموّج التّجد. خاطرت بالنظر صوب أوْمفال، وقد ذهب بي الظنّ، بشكل غامض، إلى أنها قد تكون على علاقة بكلّ ما يجري. ولم أكن مخطئاً.

اهتزّ التّجد، بعنف. انفصلت أوْمفال عن الجدار وقفزت بخفة على الأرضية؛ جاءت إلى سريري وقد عمدت إلى الالتفات نحوه. أعتقد أنه ليس من الضروريّ أن أحكي عن ذهولي. ذلك أنّ أكبر عسكريّ سنّاً وإقداماً لم يكن من شأنه أن يشعر بكامل الأمان في مثل هذا الطرف، والحال أنّني لم أكن مستأً ولا عسكرياً. فانتظرت صامتاً نهاية المغامرة.

رنّ في أذني صوت ناعم مزماريّ النغم ومتقطع، مع تلك اللّثغة بحرف الرء المتكلّفة اللّطف بعد أن تصتّعها المركيزات والمتكلّمون

بظرف وأدب، في عهد الوصاية على العرش:

«هل أنا أخيفك، يا صغيري؟ صحيح أنك لست سوى طفل؛ لكنه ليس من المستحسن أن تخاف من السيدات، خصوصاً من الشابات اللآثي يردن بك خيراً؛ هذا ليس من التهذيب ولا من شيم الفرنسيين؛ ينبغي أن تتدارك مثل هذه المخاوف. هيا، أيها المتوحش الصغير، تخلص من هذه الهيئة ولا تُخفِ رأسك تحت الأغطية. ما زالت تربيتك تتطلب الكثير، وأنت لست متقدماً كثيراً، يا غلامي الجميل؛ في زمني كان الأطفال الجميلون أكثر تروياً منك.

- لكن، يا سيدي، ذلك أن...

- ذلك أن رؤيتك لي هنا، وليس هناك، تبدو لك غريبة، قالت وهي تعضّ قليلاً شفتها الحمراء بأسنانها البيضاء، وتمدّ إصبعها الطويل والمشيق نحو الجدار. حقاً ما يحدث ليس طبيعياً جداً؛ وحتى لو فسّرت لك لن تفهمه بطريقة أفضل: يكفيك أن تعرف إذا أنك لا تتعرض إلى أيّ خطر.

- أخشى أن تكوني ال... ال...

- الشيطان، فلنصدع بالكلمة، أليس كذلك؟ أهذا ما أردت قوله؛ ستوافقني الرأي على الأقلّ أنني لست مفرطة في السواد مقارنة بالشيطان، وأنّ الجحيم نفسه، لو كان مأهولاً بشياطين مجبولة على غراري، لصار مكاناً يحلو فيه العيش تماماً كما هي الحال في الفردوس».

وحتى تظهر أو مفاًل أنّها لم تكن بصدد التباهي ردّت جلد الأسد الذي ترتديه إلى الخلف، وكشفت لي عن كتفين و صدر ذي شكل رائع وبياض فاتن.

«هه! ما رأيك؟ قالت بنبرة دلال خفيفة راضية.

- أقول حتى لو كنتِ الشيطان بشخصه لن أعود إلى الشعور بالخوف،
سيّدتي أو مفال.

- هذا كلام بليغ؛ لكن لا تعدّ إلى مناداتي بسيّدتي ولا بأومفال. لا أريد
أن أكون سيّدة بالنسبة لك، ولست أومفال تماماً كما إنني لست
الشيطان.

- من تكونين إذا؟

- أنا مركيزة ت... بعد وقت على زواجي أمرَ المركز بنسج هذا التّجد
لشقتي، وأمر برسمي مرتديّة زيّ أومفال؛ والمركز نفسه يمثل فيها
بملامح هرقل. وهذه فكرة متفرّدة أتى بها، إذ يعلم الله أن لا أحد
في العالم يشبه هرقل أقلّ من المركز المسكين. منذ زمن طويل لم
تعد هذه الغرفة مأهولة. وأنا التي تحبّ الرفقة بشكل طبيعي، كنت
أشعر فيها بالسأم إلى حدّ الهلاك، والابتلاء بالصداع. كان الوجود
مع زوجي يعني أنني وحدي. وعندما جئت أنت أفرحتني؛ عادت
الحياة إلى هذه الغرفة الميتة وصار بإمكانني الاعتناء بشخص ما.
كنت أنظر إليك تذهب وتعود، وأنصت إليك وأنت تنام وتحلم؛
وأتابع قراءاتك. وجدتك لطيفاً بمظهر جذاب، هذا أمر يعجبني؛
وهكذا أحببتك في نهاية المطاف. حاولت إفهامك ذلك؛ كنت
أطلق تنهّدات، فتحسبها متأّية من الريح؛ وألوح إليك بإشارات
وأرمي لك بغمزات عاشقة فلا أنجح إلا في زيادة شعورك بالرعب
الفظيع. وبعد استفاد كلّ الوسائل قرّرت اتّخاذ المسعى غير اللائق
الذي أقوم به الآن، وأن أقول لك بصراحة ما لا تستطيع فهمه
تلميحاً. وبما أنك تعرف الآن أنني أحبّك، أتمنى أن..».

كان الحوار لا يزال في تلك النقطة عندما سُمع صوت مفتاح في القفل.
ارتعدت أومفال واحمرّ حتى بياض عينيها.
«إلى اللقاء! قالت، إلى الغد». ثم عادت إلى جدارها متقهقرة، ربّما
خشيةً أن تتركني أرى قفاها.

كان القادم هو باتيست الذي جاء بحثاً عن ثيابي لتنظيفها بالفرشاة.
«أنت مخطئ يا سيّدي، بالنوم والستائر مفتوحة، قال لي. إذ يمكنك
التقاط برد في الدماغ؛ هذه الغرفة في منتهى البرودة!»
وبالفعل كانت الستائر مفتوحة؛ استغربت ذلك وأنا الذي ظننت أنّي
كنت أحلم، إذ كنت متأكّداً من إغلاقها مساء البارحة.

وما إن خرج باتيست حتى ركضتُ باتجاه النجد. جسستُه في كلّ
الاتجاهات؛ كان بساطاً حقيقياً من الصوف، خشن الملمس مثل كلّ
البسط الممكنة. كانت أومفال تشبه شبح الليل الفاتن مثلما يشبه ميتٌ
حيّاً. تفتّحت الجدار؛ كان ممتلئاً؛ ولا وجود للوح مؤطر أو باب خفيّ.
لكنني لاحظت هذه الملاحظة فقط، كانت عدّة خيوط قد تقطعت في
المساحة التي توجد فيها قداماً أومفال. وهذا ما دفع بي إلى التفكير.

أمضيت كامل النهار في تزجية للوقت لم يسبق لها مثيل؛ كنت أنتظر
حلول المساء بقلق ولهفة معاً. انسحبت مبكراً وقد قرّرت التأكد من
الكيفية التي سينتهي بها الأمر. نمت؛ فلم يتطلّب حضور المركيزة مزيداً
من الانتظار؛ فقد وثبت أسفل الحائط لتحطّ مباشرةً في فراشي؛ جلستُ
عند رأس السرير وبدأت المحادثة.

وكما في الليلة السابقة طرحتُ عليها بعض الأسئلة وطلبت منها
توضيحات. كانت تتملّص من بعضها، وتجيب عن بعضها الآخر بطريقة
فيها تهرب لكنّها لا تخلو من نباهة إلى درجة أنّني، وبعد ساعة، لم يعد لي

أيّ شكّ في علاقتي بها.

كانت أثناء حديثها تمرّ أصابعها في شعري وتسدّدي ضربات صغيرة على خديّ وقبلات خفيفة على جيني.

كانت تثرثر، تثرثر بطريقة ساخرة وغنّجة، وبأسلوب يجمع بين الأناقة والحميّة ومهابة سيّدة جليلة القدر، أسلوب لم أتمكّن من إيجاده لاحقاً لدى أيّ شخص آخر.

جلستُ في البداية على أريكة بجانب السرير؛ وسرعان ما مدّت إحدى ذراعيها حول عنقي، أحسست بقلبيها يدقّ بقوة إزائي. كانت تلك حقاً امرأة جميلة وفاتنة وغير خياليّة، مركيزة حقيقيّة تمثل بجانبني. يا للتلميذ المسكين في السابعة عشرة من عمره! هناك ما يجعل المرء يفقد صوابه؛ وبالفعل فقدته. لم أكن أعلم كثيراً ماذا كان سيحدث، لكنني حدست بغموض أنّ ذلك لن يروق للمركيز.

«والسيّد المركيز، ماذا عساه سيقول هناك على جداره؟»

كان جلد الأسد قد سقط أرضاً والخفّ الليليّ الفاتح المطعم بالفضّة يثوي بجانب خفي.

«لن يقول شيئاً، عادت المركيزة للقول ضاحكة من شغاف قلبها. وهل هو يرى شيئاً؟ وحتى إذا رأى فهو الزوج الأكثر فلسفة ومسالمة؛ إنّه معتاد على ذلك. هل تحبّتي يا صغيري؟ - نعم، كثيراً، كثيراً.»

أطلّ النهار؛ وانسحبت عشيقتي.

بدا لي النهار طويلاً بشكل فظيع. وحلّ المساء أخيراً. جرت الأمور كما في الليلة الفائتة. ولم تكن الليلة الثانية لتحسد الأولى. لا بل إنّ المركيزة كانت تزداد فتنة. تكرّرت هذه اللّعبة مدّة أخرى طويلة. وبما أنّني لم أكن

أنام ليلاً، كنت أشعر بنوع من النعاس طيلة النهار، وهذا الأمر لم يكن ليريح عمتي. ارتاب في شيء ما؛ ولعله تنصت من وراء الباب وسمع كل شيء؛ ذلك أنه ذات صباح، دخل إلى غرفتي بشكل مفاجئ إلى درجة أن أنطوانيت لم تكذب وتمكّن من الصعود إلى مكانها.

كان يتبعه عامل متخصص في نسج البسط ومعه كلابة وسُلم. نظر إليّ بطريقة عنجهية وصارمة أدركت معها أنه كان يعلم بكل شيء.

«مركيزة ت... هذه، مجنونة حقاً؛ كيف تجرأت على عشق طفل بليد من هذا النوع؟ قال عمتي ذلك وهو يصرّ على أسنانه؛ مع أنها وعدت بالتعقل!

«يا جان، فكّ نَجْدَ الحائِطِ، اطوهِ وانقله إلى تسقيفة البيت».

كانت كل كلمة من كلمات عمتي خنجراً.

لفّ جان عشيقتي أو مفضال، أو المركيزة أنطوانيت دو ت...، ومعها هرقل أو المركيز دو ت...، ونقل كل شيء إلى التسقيفة. لم أتمكن من حبس دموعي.

في الغد، أرجعني عمتي بعربة جياد السيّد ب... إلى أهلي المحترمين الذين لم أبح لهم بشيء، كما يمكن للمرء أن يتوقع، حول مغامرتي. مات عمتي؛ وتمّ بيع المنزل والأثاث؛ ومن المرجح أن التجدد قد يبيع مع البقية.

يبقى أنني، ومنذ مدة، كنت أنقب عند تاجر سلع قديمة بحثاً عن قطع مقلّدة، فصدمتُ بقدمي لفّة كبيرة معقّرة بالغبار ومغطّاة بنسيج العناكب.

«ما هذا؟ سألت الأوفيرني⁽¹⁾».

- إنه نجد من طراز الروكوكو، يمثل قصة الحب بين السيدة أومفال والسيد هرقل؛ هو من شغل بوفيه⁽²⁾ وكله من الحرير وكان محفوظاً جيداً. إذا اشتريته مني لمكتبك فلن أبيعك إياه بسعر باهظ، لأنك أنت».

مع ذكر اسم أومفال تدفق دمي كله إلى قلبي.
«افرذ هذا التجد»، قلت للتاجر بنبرة مقتضبة ومتقطعة كما لو أصابني حمى».

كانت هي نفسها حقاً. لاح لي فمها وكأنه يفترّ لي عن ابتسامة لطيفة فيما توقّدت عيناها عندما التقتا بعينيّ.
«كم تطلب مقابله؟»

- لا يمكنني إعطاؤك إياه بأقلّ من أربعمئة فرنك، بالضبط.
- لا أحمل مثل هذا المبلغ. سأذهب لجلبه؛ وسأكون هنا قبل ساعة». عدت مع المبلغ الماليّ؛ لم أجد التجد. لقد جاء إنجليزيّ وسأوم عليه خلال غيابي، فدفع ستماية فرنك وأخذه.
في الحقيقة، ربّما كان من الأفضل أنّ الأمر سار هكذا، وبالتالي فقد حافظت على تلك الذكرى اللذيذة سليمة وكاملة. يقال إنه لا ينبغي العودة إلى الحبّ الأوّل ولا إلى رؤية الوردة التي أعجبتنا البارحة.
ثمّ إنني لم أعد فتياً بما يكفي أو جميلاً بما يكفي حتى تنزل النُّجود من جدرانها إكراماً لي.

(1) نسبة إلى سكان منطقة الأوفرنسي Auvergne الفرنسية.

(2) بوفيه Beauvais : مدينة فرنسية شهيرة بصنع السجاد.

الميتة العاشقة⁽¹⁾

تسألني يا أخي إن كنت قد أحببت؛ نعم. إنها قصة متفرّدة وفضيعة، ورغم أن لي من العمر ستّة وستين عاماً، فأنا لا أكاد أجرؤ على تحريك رماد هذه الذكرى. لا أريد أن أرفض لك طلباً، غير أنني لن أحكي مثل هذه الحكاية لروح أقلّ تجربة. إنها أحداث من الغرابة إلى درجة أنني لا أقدر على تصديق حصولها لي. كنت طيلة أكثر من ثلاث سنوات ألعوبة وهم فريد وشيطانيّ. عشتُ، أنا خوريّ الأرياف البائس، كلّ ليلة في الحلم (فليكنّ حلماً بمشيئة الرب!) حياة ملعون، حياة اجتماعية مدنيّة تليق بساردانابال⁽²⁾. نظرة واحدة مفعمة بالملاطفة تجاه امرأة كادت تتسبب في هلاك روحي؛ لكنني في نهاية المطاف، بعون الرب وقديسي الشفيح، توصلت إلى طرد الروح الشيطانية التي تملكنتني. لقد تعقد وجودي بوجود آخر ليّ مختلف تماماً. ففي النهار أكون قساً في خدمة الرب، عفيفاً، مهتماً بالصلاة وبالأشياء المقدّسة؛ وفي الليل، ما إن أغمض عينيّ حتى أصير سيّداً شاباً، خبيراً في النساء، وفي الكلاب والخيول، وألعب النرد، وأشرب وأجدّف؛ وعندما أستيقظ فجراً، أشعر بالعكس تماماً، أنني نائم وأحلم بأنني قسّ. ومن هذه الحياة المسرّنة بقيت لي

(1) نُشرت أوّل مرّة في صحيفة *Chronique de Paris*، التي كان يُشرف على صفحاتها الأدبيّة الروائيّ أو نوريه دو بلزاك Honoré de Balzac، في الأعداد من 23 إلى 26 حزيران، 1836.

(2) ملك آشوريّ أسطوريّ في الميثولوجيا الإغريقية وهو تحريف لاسم آشور بانيبال. وقد وضع اللورد بايرون Lord Byron في 1821 مسرحيّة عنه، معروفة.

ذكريات عن أشياء وكلمات لا يمكنني الدفاع عن نفسي إزاءها، ورغم أنني لم أغادر قطّ جدران بيت كاهن الرعيّة، يمكن لمن يسمعي أن يقول، بالأحرى، إنني رجل استنفد كلّ شيء وعاد من الحياة المدنية إلى الدين ويريد إنهاء أيامه المضطربة جدّاً في حضن الربّ، أكثر منّي مجرد طالب مدرسة إكليريكية⁽¹⁾ بلغ الشيخوخة في مقرّ منسيّ للخوارنة، داخل إحدى الغابات ومن دون أيّ صلة بما يجري في عصره.

نعم، أحببت كما لم يحبّ إنسان في العالم، كان حبّاً جنونياً عنيفاً، كان من العنف حتّى أنّي أستغرب كيف لم يتمكّن من تفجير قلبي. آه! يا لتلك الليالي! يا لتلك الليالي!

منذ نعومة أظفاري، أحسست بنداء باطنيّ يدفعني نحو وظيفة الكاهن؛ لذلك مالت دراساتي كلّها إلى هذا الاتجاه، ولم تكن حياتي، حتّى الرابعة والعشرين من عمري، إلّا ترهبناً طويلاً. وبعد إكمال مرحلة اللاهوت، مررتُ، بالتعاقب، على كلّ درجات الكهنوت الصغيرة، وارتأى رؤسائي أنّني جدير، رغم عنفوان شبابي، باجتياز الدرجة الأخيرة الرهيبة. وحُدِّدَ يوم سيّامتي⁽²⁾ كاهناً خلال أسبوع عيد الفصح. لم يسبق لي الخروج إلى المجتمع قطّ؛ وكان العالم، بالنسبة لي، يقتصر على الأرض المسوّرة للمجمع والمدرسة الإكليريكية. كنت لا أكاد أعلم بوجود كائن يُدعى المرأة، لكنني لم أكن لأشغل به تفكيري كثيراً؛ كنت أعيش في براءة تامّة. ولم أكن أرى أمي العجوز العاجزة إلّا مرّتين في العام. تلك هي كلّ علاقتي بالخارج.

لم أكن نادماً على شيء، ولم أكن أشعر بأيّ تردّد أمام هذا الالتزام الذي

(1) مدرسة لتعليم من يريدون الانخراط في سلك الكهنوت المسيحيّ.

(2) السّيامة، وتدعى أيضاً «رِسامة»: طقسٌ دينيٌّ مسيحيٌّ يُمنح بموجبه رجل الدين درجة كهنوتيّة.

لا عودة عنه؛ كنت مفعماً بالفرح ونفاد الصبر. لم يسبق لأي شاب خاطب أن أحصى الساعات بشوق محموم أكثر احتداماً مما كنت أفعل؛ كنت لأنام، وأحلم أنني أشرف على القُدّاس؛ ولا شيء عندي في العالم أجمل من أن يكون المرء كاهناً: كان من شأني أن أرفض وظيفة ملك أو شاعر. فطموحي لا يتجاوز ذلك.

أقول لك كلّ هذا لأبرهن لك كم أن ما حدث لي ما كان ينبغي أن يحدث، وأيّ غواية غير قابلة للتفسير كنت ضحيّتها.

حلّ اليوم الموعود، فمشيت نحو الكنيسة بخطى في منتهى الخفة حتى حسبتني مسنوداً في الهواء أو أنّ لي جناحين على كتفيّ. خُيّل لي أنني ملاك واستغربت مظاهر رفاقي المتجهمّة والمهمومة، إذ كان عددنا كبيراً. أمضيت الليل في الصلاة، وكنت في حالٍ أشبه ما تكون بالوجد. كان الأسقف العجوز الموقر يبدو لي مثل الأب منحنيّاً على أبديته، وكنت أرى السماء عبر قباب المعبد.

أنت تعرف تفاصيل هذه الاحتفالية الدينية: التبريك، وتناول القربان بنوعيه، ومسح كفيّي اليدين بالزيت للموعوظين⁽¹⁾ الواصلين حديثاً، وأخيراً القُدّاس مع الأسقف. لن أسهب في ذلك. آه! كم أنّ يعقوب على حق، وكم هو متهورّ ذلك الذي لا يعقد وعينيّه ميثاقاً!⁽²⁾ صدفةً رفعتُ رأسي الذي كنت تركته حتى ذلك الحين منحنيّاً، ولمحت أمامي فتاة في غاية القرب إلى درجة يمكنني معها لمسها، رغم أنّها في الواقع كانت على مسافة كبيرة نسبياً وفي الجهة الثانية من الدرابزين. كانت تتحلّى بجمال نادر وبهاءٍ ثياب ملكيّة. صرّْتُ كمن باتت تتساقط قشور من حدقتيه.

(1) هم الأشخاص الذين يتلقون تعليماً مسيحياً يؤهلهم لنيل المعمودية.

(2) «قد عاهدتُ عينيّ أنّ لا أتأمل في عذراء» (سفر أيوب، 30-1).

وانتابني إحساسٌ شخصٍ ضريرٍ بدأ فجأةً يستعيد بصره. انطفأ الأسقف بغتةً وهو الذي كان متألقاً منذ قليل، وشحبت الشموع في شمعداناتها الذهبية مثل نجوم الصباح، وعمّ الكنيسة ظلام دامس. كانت المخلوقة الجذابة ترتسم على تلك الخلفية الداكنة مثل تجلٍ ملائكيٍّ؛ وبدت مضيئة من تلقاء نفسها، تمنح النور عوضاً أن تتلقاه.

غضضتُ الطرف موطداً العزم على عدم النظر كي أتخلص من تأثير الأشياء الخارجية؛ ذلك لأنّ الشرود بدأ يتملكني أكثر فأكثر، ولم أعد واعياً بما كنت أفعل تقريباً.

بعد دقيقة فتحتُ عينيّ من جديد لأنني ظللت أراها عبر أهدابي، متلألئةً بألوان الطيف الشمسيّ، في غبش أرجوانيٍّ، تماماً كما يحدث عندما نحدّق في الشمس.

آه! كم كانت جميلة! عندما بحث الرسّامون الكبار عن الجمال المثاليّ في السماء، جلبوا إلى الأرض رسم مريم العذراء الإلهيّ، لكنهم لن يقدرُوا حتّى على الدنو من هذه الحقيقة الأسطورية. ولا يمكن لقصائد الشعراء ولا لألواح الرسّامين أن تقدّم فكرة عنها. كانت ذات طول لافِت مع قامة إلهةٍ وهيئتها؛ وشعرها الأشقر الناعم ينفصل في خصلتين من أعلى رأسها تنسابان على صدغيها مثل نهرين ذهبيين. كانت أشبه بملكة متوّجة، يمتدّ جبينها ذو البياض المزرقّ والشفّاف على قوسيّ الأهداب شبه السّمراء، وهو تميّز يزيد في أثر الحدقتين بلونها القريب من خضرة البحر وبألقيهما وبريقهما الفاتنين. يا لهما من عينيّن! تستطيعان بومضة واحدة تقرير مصير رجل؛ كان لهما حيويّة وصفاء وحدّة ورطوبة لامعة لم أشهد مثلها في عين إنسان؛ كانت تنبعث منها أشعة تشبه السهام فأراها تبلغ قلبي بوضوح. لا أدري إن كانت الشعلة التي تنيرها متأتية من

السماء أم من الجحيم، ومن المؤكد أنها تأتي من أحدهما. هي ملاك أو شيطان، وربما كانت الاثنين معاً؛ لا يمكن أن تكون من صلب حواء، أم الجميع. تتلأأ أسنانها الشرقية الأجل في ابتسامتها الحمراء، ومع كل انثناء لفمها تنحفر غمازات صغيرة على الساتان الوردية لخدّيهما الرائعين. أما أنفها فكان ذا نعومة وشموخ ملكيين تماماً، ويكشف عن نبيل المحتد. تراقص التماعات عقيق على الجلد الصقيل والملمع عند كتفيها نصف العاريتين، بينما تنزل إلى صدرها صفوف جواهر شقراء كبيرة متلازمة ولون عنقها تقريباً. وبين حين وآخر ترفع رأسها بحركة متموجة لشعبان أو لطاووس ينفخ عنقه، فترسم رعشة خفيفة على الوشاح المطرّز تماماً والذي يحيط بها مثل مشبك من فضة.

كانت ترتدي فستاناً مخملياً ذا لون أحمر برتقالي مثل عزق اللؤلؤ، ومن كمّيتها الواسعين المبطنين بفرو السمور تخرج يدان نبيلتان في منتهى الرقة، بأصابع طويلة وممتلئة، وشفافية مطلقة، حتى أنها تترك الضوء يمرّ كما تفعل أصابع الفجر.

كلّ هذه التفاصيل ما زالت حاضرة بالنسبة لي كما لو أنها تنتمي إلى البارحة، ومهما كنت في غاية الاضطراب، لا يفلت مني شيء: أدقّ التفاصيل والفروق، الخال الصغير الأسود في زاوية الذقن، الزغب غير المدرك عند ملتقى الشفتين، مخمليّة الجبين، ظلّ الأهداب المرتعش على الخدين، كنت ألتقط كلّ شيء بجلاء مدهش.

كنت كلّما نظرت إليها شعرت بانفتاح أبواب في داخلي كانت قد أغلقت حتى تلك اللحظة؛ كان هناك منافذ مسدودة تفتح في كلّ الاتجاهات وتتكشف عن منظورات مجهولة؛ وهكذا بدأت الحياة تلوح لي بمظهر مختلف تماماً؛ لقد تفتحت على نسق أفكارٍ جديدة مختلفة. كان

هناك قلق رهيب يعذب قلبي، ويُحْيِلُّ لي أن كل دقيقة تمرّ هي ثانية وقرن في آن. وفي تلك الأثناء كان الاحتفال يتقدّم، بينما كنت محمولاً بعيداً عن العالم الذي تحاصر مدخله رغباتي الوليدة، بعنف. فكنت أقول نعم في حين كنت أريد القول لا، عندما يثور كل شيء في داخلي ويحتجّ على العنف الذي يمارسه لساني على روحي: كان هناك قوّة خفيّة تنتزع الكلمات من حنجرتي رغماً عني. ولعلّ هذا ما يجعل الكثيرات من الفتيات يتقدّمن نحو المذبح وقد عقدن العزم، بطريقة صاخبة، على رفض الزوج الذي أُجبرن عليه، ولا تتمكّن، ولو واحدة منهنّ، من تنفيذ خطتها. ولعلّ في هذا يكمن لجوء الكثيرات من المترهبات الفقيرات إلى ارتداء الحجاب، رغم عزمهنّ القويّ على تمزيقه لحظة النطق بنذورهنّ. لا أحد يجروء على ارتكاب مثل هذه الفضيحة أمام الجميع أو تخييب آمال الكثير من الناس الحاضرين؛ كلّ تلك العزائم، وكلّ تلك النظرات تبدو ضاغطة عليك مثل طبقة من رصاص؛ يُضاف إلى ذلك أن كلّ الإجراءات قد تمّ اتخاذها بدقة، وكلّ شيء تمّ تنظيمه مسبقاً بطريقة محكمة ولا رجوع فيها حتى أنّ التفكير يستسلم إلى ثقل الأشياء وينهار تماماً.

كانت نظرة الحسناء الغريبة متبدّلة التعبير وفق تقدّم الاحتفال. فمن تعبير ناعم وملاطف في البداية، إلى مظهر ازدراء وعدم ارتياح كما لو أسيء فهمها.

بذلك جهداً كافياً لرفع جبل كامل، من أجل أن أصرخ بأنني لا أريد أن أكون كاهناً؛ لكنني لم أستطع تنفيذ ذلك؛ ظلّ لساني متسماً في حنكي، واستحال عليّ التعبير عن إرادتي بأدنى حركة سلبية. كنت في تمام الاستيقاظ، وفي حال تشبه حال الكابوس، حيث يريد المرء الصراخ بكلمة تتوقّف عليها حياته، دون أن يتوصّل إلى ذلك.

لاحث متأثرةً بالملي البالغ، وكما لو أرادت تشجيعي، أرسلت لي غمزة
محمّلة بوعود إلهية. كانت عيناها قصيدة تشكّل كلّ نظرة منها نشيداً.
كانت تقول لي:

«إن أنت وافقت أن تكون لي، فسوف أجعلك أسعد من الربّ ذاته
في فردوسه؛ وسوف تغار منك الملائكة. مزّق هذا الكفن المأمّي الذي
ستغطّي به؛ أنا الجمال، أنا الشباب، أنا الحياة؛ تعال إليّ، سوف نكون
نحن جوهر الحبّ. ماذا عسى أن يقدّم لك «يهوه»⁽¹⁾ كتعويض؟ سوف
ينساب وجودنا مثل حلم ولن يكون إلّا قبلة أبدية.

«أرقّ نبذ هذا الكأس وسوف تكون حرّاً. سوف أرافقك إلى الجزر
المجهولة؛ وتنام في حضني، فوق سرير من ذهب مُصمّت⁽²⁾ وتحت
سُرادق من فضّة؛ ذلك أنّي أحبّك وأرغب في أخذك من إهلك، إهلك
الذي تُريق له الكثير من القلوب الكريمة سيولاً من الحبّ لا تصل إليه».
بدا لي أنّي كنت أستمع إلى هذه الكلمات على إيقاع في غاية العذوبة،
إذ كانت نظرتها تكاد تمتلك رينياً، والجمل التي ترسلها إليّ عيناها تدوي
في أعماقي كما لو أنّ فما غير مرثي قد تلفظ بها في روعي. كنت أشعر
أنّني مستعدّ للتخلّي عن الربّ، بينما ظلّ قلبي يُكمل شكليّات الاحتفال
بطريقة آليّة. أرسلت الحسنة نظرة ثانية كانت من التوسّل واليأس حتّى
أنّ شفرات قاطعة اخترقت قلبي، وأحسست بخناجر في صدري أكثر ممّا
يمكن أن تعانيه أمّ من أوجاع الولادة.

وتمّ الأمر، صرت كاهناً.

لم يسبق لسحنة وجه بشريّ أن رسمت قلقاً بتلك الدرجة من الوجع؛

(1) اسم إله العبرانيين كما ورد في التوراة.

(2) ذهب مُصمّت: ذهب ممتلئ متماسك لا تجويفات فيه ولا فراغات.

حتى إن الفتاة التي ترى خطيبها يسقط بجانبها ميتاً فجأةً، والأم أمام مهد طفلها الفارغ، وحواء الجالسة على عتبة الفردوس، والبخيل الذي يجد صخرة بدلاً من كنزه، والشاعر الذي ترك المخطوط الوحيد لأجل كتاباته يسقط في النار، لا يمكن أن يكون لهم مظهرٌ أشدَّ ذهولاً وحرزناً. هجر الدم وجهها الفاتن تماماً، وصارت أقرب إلى بياض الرخام؛ سقطت ذراعها الجميلتان على امتداد جسمها، كما لو أن عضلاتها قد انحلت، فاستندت إلى دعامة عمود، إذ أن ساقها كانتا ترتخيان وتخوران تحتها. أما أنا فقد توجهتُ مترحّناً نحو باب الكنيسة، كاياً، وجبيني غارق في عرق آدمي من الصُّلب؛ كنت أختنق؛ والقِباب تحطّ متمددةً على كتفي، وكان رأسي وحده يحمل ثقل القبة كله.

وعندما كنت أتهيأً لاجتياز العتبة، استحوذت يدٌ على يدي بغتةً: كانت يد امرأة! وأنا الذي لم تسبق لي ملامسة يد أنثى قط. كانت باردة مثل جلد ثعبان، وظلّ أثرها في حارقاً مثل علامة حديد مُحَمَّى. لقد كانت هي ذاتها. «أيها الشقي! أيها الشقي! ماذا فعلت؟» قالت لي بصوت خافت؛ ثم اختفت بين الحشد.

مرّ الأسقف العجوز؛ ونظر إليّ بسحنة صارمة. ارتبكتُ ارتباكاً لا مثيل له؛ شحب لوني، احمرّ، وأصابني الدهول. أشفق عليّ واحدٌ من زملائي فأمسك بي ورافقني؛ ولا شك أنني كنت سأعجز وحدي عن الاهتداء إلى طريق المدرسة الإكليريكية. في منعطف أحد الطرقات، وبينما كان القس الشاب يلتفت نحو الجهة الأخرى، اقترب مني خادم زنجي ذو ثياب غريبة، ومن دون أن يتوقّف سلّمني حافظة صغيرة مرصعة بزوايا ذهبية، مشيراً إليّ بإخفائها؛ فدسستها في كمي وحافظت عليها حتى انفردتُ بنفسي في حجرتي الضيقة.

دفعْتُ مشبك القفل فلم أجد سوى ورقتين مع هذه الكلمات: «كلاريموند، في قصر كونتشيوني». كنت آنذاك غير مطلع كثيراً على مجريات الحياة، إلى درجة أنني لم أكن أعرف من هي كلاريموند، رغم شهرتها، كما كنت أجهل تماماً موقع قصر كونتشيوني. أمعنتُ في تخمينات كثيرة مشطّة؛ لكنني في الحقيقة، ومن أجل التمكن من رؤيتها، لم يكن يقلقني كثيراً أن تكون سيّدة نبيلة أو محظية لأحدهم.

هذا الحبّ الذي وُلِدَ حديثاً سرعان ما تجذّر بطريقة غير قابلة للتألف؛ لم أفكر حتّى في محاولة اجتثائه لشعوري بأنّها ستكون محاولة مستحيلة. هذه المرأة استولتْ عليّ تماماً، نظرة واحدة كانت كافية لتغييرني؛ لقد نفختُ في إرادتها؛ لم أعد أعيش فيّ، بل صرتُ فيها ومن خلالها أعيش. وهكذا بدأتُ أسرف كثيراً في الشطط، فأقبلتُ الموضوع الذي لمستّه من يدي، وأردّد اسمها لساعات كاملة. وصار يكفيني إغماض عينيّ حتّى أراها بوضوح كما لو كانت حاضرة حقاً، وأعيد لنفسي تلك الكلمات التي قالتها لي عند مدخل الكنيسة: «أيها الشقيّ! أيها الشقيّ! ماذا فعلتَ؟» كنت مدركاً مدى فظاعة الوضع الذي أنا فيه، وتجلّت لي بوضوح كلّ الجوانب الكئيبة والمفرّعة للحال التي أقدمت على التورّط فيها. أن تكون قتيساً! فذلك يعني أن تكون عفيفاً، ولا تحبّ، ولا تميّز الجنس ولا العمر، وأن تنصرف عن أيّ جمال، وتفقأ عينيّك، وتزحف تحت الظلّ القارس لدير أو كنيسة، ولا ترى إلّا المحتضرين، وتسهر على الجثث المجهولة وترتدي ثوب الحداد الخاصّ بك من خلال جبّة الكاهن السوداء، بطريقة يمكن معها جعل ثوبك كفنّاً لنعشك!

كنت أشعر بالحياة تندفق فيّ مثل بحيرة داخلية تمتلئ وتفيض؛ فإذا بدمي يخفق بقوة في أوردتي؛ وفتوتَي المقهورة طويلاً تنفجر فجأة مثل نبتة

المقر⁽¹⁾ التي تستغرق مائة عام كي تُزهر، وتفتّح بقصفة رعد.

ما العمل لرؤية كلاريموند مرّة أخرى؟ لم يكن في حوزتي أيّ مبرر للخروج من المدرسة الإكليريكية، وأنا لا أعرف أحداً في المدينة؛ ولا يتوجّب عليّ البقاء فيها، كنت أنتظر فقط أن يجددوا لي الرهبانية التي سأتولّى الإشراف عليها في المدينة. حاولت نزع قضبان النافذة لكنها كانت على ارتفاع مرعب، وبما أنّني لا أملك سلماً، فقد كفتت عن التفكير في الأمر. يضاف إلى ذلك أنّني لا أستطيع النزول إلاّ ليلاً؛ فكيف عساني سأتصرّف عبر متاهة الطرقات المعقّدة؟ كلّ هذه الصعوبات، وقد لا تُعتبر كذلك بالنسبة لغيري، كانت جسيمة بالنسبة لي، أنا الطالب الإكليريكي المسكين، العاشق حديثاً، بلا تجربة، بلا مال، وبلا ثياب.

آه! لو لم أكن خورياً لتمكّنت من رؤيتها يومياً؛ ولصرتُ عشيقها وزوجها، ذلك ما كنت أردّده لنفسي في عمائي؛ وبدلاً من أكون ملفوفاً في كفني الكتيب، تصير لي ثياب من حرير ومخمل، سلاسل ذهبية، وسيف، وريشات كتلك التي لدى الفرسان الشباب الوسيمين. وكان شعري يتلاعب حول عنقي في خصلات متموجة بدل أن يكون مهاناً بدائرة كبيرة مخلوقة. وكان لي شاربان صقيلان، ولكنك مقداماً. غير أنّ مجرد ساعة أفضيها أمام مذبح، وبضع كلمات لا أكاد أنبس بها، تقصيني من عداد الأحياء إلى الأبد، ولقد ختمتُ بنفسي شاهدة قبري، وأوصدتُ بيدي مزلاج حسي!

حاذيت النافذة. كانت السماء زرقاء على نحوٍ أخاذ، والأشجار قد ارتدت فساتينها الربيعية؛ والطبيعة تزدهي بفرح هازئ. كانت الساحة مملّوءة بالناس؛ بعضهم يذهب وبعضهم يجيء؛ شبّان متأنقون وقتيات

(1) المقر Aloès، وتسمّى أيضاً الألوّة والصبرة المرّة.

جميلات، في أزواج، يتوجهون ناحية الحديقة والعرائش. رفاق يمرّون مردّدين أنغام الثمالة؛ كان هناك حركة، وحياة، وحيوية وبهجة لا تتمكّن كلّها من إخراجي من حدادي وعزّلي إلا بصعوبة. كان هناك أمّ شابة، عند عتبة بابها، تلاعب ابنها؛ كانت تقبل فمه الوردّي الصغير الذي لا يزال متلاًثماً بقطرات حليب، وتتصرّف معه، وهي تغيظه، بألف سخافة صبيانية رائعة من تلك التي لا تقدر على إيجادها إلا الأمهات وحدهنّ. أمّا الأب الذي يقف على مسافة قريبة فكان يتسمّ بعذوبة لذلك الثنائيّ الفاتن، وذراعه المكتوفتان تضغطان فرحه على قلبه. لم أتحمّل ذلك المشهد؛ أغلقت النافذة، وارتميت على فراشي مع شعور بكرامية وغيره فظيعتين في قلبي، عاضاً أصابعي ولحافي مثل نمر جائع منذ ثلاثة أيّام.

لست أدري كم يوماً مكثت كذلك؛ لكنني، وأنا أستدير في حركة تشنّج ساخطة، لمحتُ رئيس القساوسة سيرايون يتوسّط الغرفة واقفاً وينظر إليّ ملياً. خجلت من نفسي، وتركت رأسي يسقط على صدري، ثم غطيّت عينيّ بيديّ.

«يا صديقي روموالد، هناك شيء خارق يحدث معك، قال لي سيرايون بعد بضع دقائق من الصمت؛ سلوكك غير قابل للتفسير حقاً! أنت الذي تُعتبر في غاية الورع والهدوء واللطف، تتحرّك في حجّرتك مثل بهيمة متوحّشة. انتبه يا أخي ولا تنصت إلى إيجاءات الشيطان؛ الروح الشرير الذي سخط من تكريس نفسك الأبديّ للربّ، يحوم حولك مثل ذئب فاتن اللبّ ويبدل جهداً أخيراً لكي يجذبك إليه. وبدل الاستسلام للهزيمة عليك أن تحصّن نفسك بدرع من الصلوات، وترس من إمامة الجسد، ثم تقاوم العدوّ ببسالة؛ وسوف تهزمه. التجربة ضرورية للفضيلة، والمرء يخرج أكثر رهافةً بعد تجرّع الكأس. لا ترتعب ولا تيأس؛ فأكثر الأرواح

حراسةً وأكثرها رسوخاً عاشت مثل هذه اللحظات. صلِّ، صُمْ، تأمّل، وسوف ينسحب الروح الشرير».

أعادني موعظة القسّ سيرايون إلى نفسي، واكتسبت بعض الهدوء. «جنُّ لأعلمك بتعيينك في رهبانية ك...، قال لي، لأنّ الخوري الذي كان هناك مات للتوّ؛ والسيد الأسقف كلّفني بمرافقتك لتوّي مهمّتك هناك؛ كنّ جاهزاً للغد». أجبته بإشارة من رأسي أنّي سوف أكون كذلك، فانسحب رئيس الدير. فتحت كتاب القدّاس وبدأت أرتل بعض الصلوات؛ غير أنّ السطور سرعان ما تداخلت تحت عينيّ؛ وتشوّشت سلسلة الأفكار في دماغي، وانزلق كتاب القدّاس بين يديّ من دون انتباه منّي.

أرحل غداً من دون رؤيتها! هذا يعني إضافة استحالة أخرى إلى كلّ الاستحالات التي صارت بيننا! يعني أن أفقد نهائياً كلّ أمل في التقائها، إلّا بحدوث معجزة! هل أرسلها؟ مع مَنْ سأرسل لها رسالتي؟ وعلى مَنْ سأفتح، وبمنّ سأثق، وأنا بهذه الطباع السيئة؟ تملّكني قلق فطّيع. ثمّ عدتُ إلى تذكّر ما قاله لي القسّ سيرايون حول مكر الشيطان؛ ذلك أنّ غرابة هذه المغامرة، وجمال كلاريموند الحارق، وبريق عينيها الفوسفوريّ، والانطباع الحارق الذي تركه يدها، والاضطراب الذي أوقعتني فيه، والتغيير المفاجئ الذي حصل لي، وورعي الذي تلاشى في لحظة، كلّ ذلك يبرهن بوضوح على حضور الشيطان، ولعلّ تلك اليد المخمليّة لم تكن سوى القفاز الذي غطّى به برائنه. هذه الأفكار أوصلتني إلى هلع كبير، فالتقطتُ كتاب القدّاس الذي سقط من بين ركبتيّ أرضاً وعدت إلى الصلاة.

في الغد، جاء سيرايون لمرافقتي: كان هناك بغلتان عند الباب تنتظرانا

محمّلتين بحقيبتينا الضامرتين؛ امتطى هو إحداهما وأنا الأخرى كيفما اتفق. وأثناء اجتياز شوارع المدينة كنت أتطلع باتجاه كلّ النوافذ وكل الشرفات عساني أرى كلاريموند؛ لكنّ الصباح كان مبكراً جداً، والمدينة لم تفتح عيونها بعد. كانت نظرتي تحاول التغلغل خلف واجهات وستائر كلّ القصور التي نمرّ أمامها. ولعلّ سيرايون كان يعزو فضوليّ ذلك إلى الإعجاب الذي يثيره فيّ جمال الهندسة المعمارية، إذ كان يخفّف من سرعة راحلته كي يفسح لي الوقت للمشاهدة. وأخيراً بلغنا بوّابة المدينة وبدأنا نرتقي التلّة. وعندما بلغتُ أعلاها التفتّ لأرى مرّة أخرى تلك الأمكنة التي تعيش فيها كلاريموند. كان هناك ظلّ سحابة يغطّي المدينة بأكملها؛ فكانت أسطحها الزرقاء والحمراء ممتزجة في لون عام معتدل، ينبثق منه هنا وهناك، دخان الصباح في ما يشبه ندائف رغوة. ويتأثير بصريّ متفرّد كان هناك مبنى يرتسم بشقرة ذهبية تحت شعاع ضوء فريد، وكان هذا المبنى يفوق في ارتفاعه بقية المباني المجاورة التي غمرها البخار؛ ومع أنه كان على بعد أكثر من ميل فقد كان يبدو قريباً جداً. ويمكن للمرء تمييز أدقّ تفاصيله، من الأبراج الصغيرة، والمصاطب السطحية، وفتحات النوافذ، وصولاً إلى دوّارات الهواء التي لها شكل ذنب السنونوة.

سألت سيرايون: «ما هذا القصر الذي أراه هنالك مضاء بشعاع من الشمس؟». فوضع يده فوق عينيه، وأجاب: «إنه القصر القديم الذي وهبه الأمير كونتشيبي للمحظية كلاريموند؛ هناك تحدث أشياء مهولة». وفي تلك اللّحظة، وما زلت أجهل إن كان الأمر حقيقة أم توهمًا، تحيّلت لي أنّي رأيت على الشرفة انسياب شكل رشيق وأبيض تلالاً مدّة ثانية وانطفأ. كانت تلك كلاريموند!

آه! أتراها تعرف أنّي كنت في تلك الساعة، ومن أعلى ذلك الدرب

الوعر الذي يبعدني عنها والذي يتوجب عليّ ألا أعود إلى نزوله ثانيةً، بكلّ ما ينتابني من احتدام وقلق، أحضن بعينيّ القصر الذي تسكنه، وأنّ لعبة ضوء هازئة تبدو وكأنّها تُذنيه منّي، لكي تدعوني إلى دخوله سيّداً؟ الأرجح أنّها تعرف ذلك لأنّ روحها على درجة من الاقتران بروحي والتعاطف معها فلا يمكنها معها تجاهل أبسط الهزّات الانفعالية، وهذا الإحساس هو الذي دفع بها، وهي لا تزال متسرّبة بغلالاتها الليليّة، إلى الصعود حتّى أعلى المصطبة، في ندى الصباح القارس.

بلغ الظلّ القصر، ولم يعد هناك سوى محيط ثابت من السطوح وتخشيّبات السقوف، فلا يميّز المرء إلاّ تموجات غير متساوية. همز سيرايون بغلته فاقتفت بغلتي سرعتها، وسرعان ما حجّبتني منعطفُ دربٍ عن مدينة س... إلى الأبد، إذ كان يتوجب عليّ ألا أعود إليها. وبعد مسيرة ثلاثة أيام عبر قرى كثيفة بما فيه الكفاية، رأينا من خلال الأشجار انبثاق الديك الذي يعلو ناقوس الكنيسة التي سأخدمها؛ وإثر اجتياز طرقات ملتوية بأكواخ من قشّ وبساتين على جانبيها، بلغنا الواجهة التي لم تكن كثيرة البهاء. رواق مزخرف ببعض التعاريق وبركيزتين أو ثلاث من الحجر الرمليّ المنحوت بفضاظة، وسقف قرميديّ ودعامات من الحجر الرمليّ كما هو شأن الأعمدة، ذلك كلّ ما في الأمر: إلى اليسار توجد المقبرة ملأى بأعشاب عالية يتوسّطها صليب كبير من الحديد؛ وإلى اليمين، وفي ظلّ الكنيسة تماماً، يوجد بيت كاهن الرعيّة. كان منزلاً على قدرٍ عالٍ من البساطة القصوى والنظافة المزعجة. دخلنا؛ كانت بضع دجاجات تلتقط حبوب شوفان نادرة؛ ويبدو أنّها كانت معتادة على أثواب الكهنة السوداء، فلم تجفل من حضورنا ولم تتحرّك إلاّ قليلاً لتتركنا نمرّ. سمعنا نباحاً مبوحاً وأجشّ، ثم رأينا كلباً مستأً يدخل مسرعاً.

كان ذاك كلب سَلَفِي في الخدمة. عينه ذابلة، ووبره رماديّ، وعليه كلّ أعراض أقصى شيخوخة يمكن أن يبلغها كلب. داعبته قليلاً بيدي، وسرعان ما بدأ يمشي بجانبي بمظهر رضى لا يوصف. وجاءت لمقابلتنا أيضاً امرأة مسنّة، كانت مدبرة بيت الخوري السابق، وبعد أن أدخلتني إلى حجرة منخفضة سألتني إن كنت أنوي الاحتفاظ بها. فأجبتها بأنني سأحتفظ بها، هي والكلب، وكذلك الدجاجات، وكلّ الأثاث الذي تركه لها مخدومها عقب موته، الأمر الذي أدخلها في فورة فرح، وزاد القسّ سيرايون فدفع لها الجراية التي حدّثتها مباشرةً.

بعد إكمال استقرارى، عاد القسّ سيرايون إلى المدرسة الإكليريكية. وهكذا بقيت وحدي بلا سند غير ذاتي. عاد التفكير في كلاريموند يتتابني بهوس، وعبثاً ما بذلت من جهود لطرد تلك الأفكار. ذات مساء، بينما كنت أتجوّل في ممزات حديقتي الصغيرة بين صفّي نبات الشمشاد، خُيِّلَ لي أنني رأيت عبر الخميّلة شكل امرأة تتابع كلّ حركاتي، بينما تلمع بين الأوراق حدقتان بخضرة بحريّة؛ لكن ذلك لم يكن سوى وهم، وعندما مررت إلى الجانب الآخر من الممشى لم أجد سوى أثر لقدم على الرمل، وكانت من الصّغر بما يشير إلى أنّها قد لا تعدو أن تكون قدم طفل. كانت الحديقة مسوّرة بجدران عالية جداً؛ زرت كلّ الزوايا والخبايا ولم يكن هناك أحد. ولم أتمكّن قطّ من فهم هذه الحال رغم أنّها ليست بذاتٍ بالٍ مقارنةً بالأشياء الغريبة التي ستحدث لي لاحقاً. بقيت أعيش على هذا المنوال منذ عام، مؤدياً بدقّة كلّ الواجبات المتعلقة بوضعي، الصلاة، الصوم، وعظ المرضى ونجدتهم، أداء الصدقات إلى درجة حرمان نفسي من الضروريات الأكثر إلحاحاً. غير أنني كنت أشعر بجفاف عارم في داخلي، وبانسداد مصادر النعمة دوني. ولم أكن أتمتّع بتلك السعادة

التي يهبها إكمال الواجب المقدّس؛ كان فكري في مكان آخر، وكلمات كلاريموند تعود كثيراً لتردّد على شفّتيّ مثل لازمة غير إرادية. يا أخي، تأمل جيداً هذا الأمر! فقط لأنني رفعت نظرتي، ولمرّة واحدة، نحو امرأة، مرتكباً خطيئة في منتهى البساطة ظاهرياً، كابدتُ لعدة أعوامٍ أسوأ أنواع الاضطراب: لقد تبلبلتُ حياتي إلى الأبد.

لن أشغلك أكثر بتلك الهزائم وتلك الانتصارات الداخلية التي كانت تعقبها دائماً انتكاسات أسوأ، وسوف أمرّ مباشرةً إلى حادثة مصيرية. ذات ليلة هزّت بابي دقّات عنيفة فذهبت المدبّرة لفتح، فارتسم على أشعة قنديل بزباراً رجل ذو سحنة نحاسية وثياب تدلّ على الثراء لكنّها من طراز غريب، مع خنجر طويل. كانت أوّل حركة تبدر من المدبّرة هي الهلع؛ غير أنّ الرجل طمأنها، وقال لها إنّها يحتاج إلى رؤيتي فوراً بخصوص أمر له علاقة بخدمتي الكهنوتية. جعلته بربراً يصعد. كنت أتأهب للالتحاق بفراشي. قال لي الرجل إنّ سيّدته، وهي امرأة مرموقة، تشرف على الموت وترغب في حضور قسيس. أجبته بأنني مستعدّ لمرافقتها؛ وهكذا تناولتُ كلّ ما ينبغي لمسحة المرضى⁽¹⁾ ونزلت بسرعة فائقة. أمام الباب كان حصانان بسواد اللّيل يكدفان بحوافرهما نافدي الصبر، وينفثان على صدريّهما سيلين طويلين من البخار. أمسك لي بالمهاز وساعدني على امتطاء أحدهما، ثمّ قفز فوق الآخر مكتفياً بإسناد إحدى يديه على قربوس السرج. ضمّ ركبتيّ وأطلق العنان لحصانه الذي انطلق مثل سهم. أمّا حصاني الذي كان الرجل يمسك بلجامه، فقد بدأ بالركض أيضاً وحافظ على وتيرة متساوية تماماً. التهمنا الدرب؛ وكانت

(1) من الأسرار السبعة في الديانة المسيحية. تُقدّم لمن يكون مشرفاً على الموت، وتمثّل في مسح جبينه ويديه بالزيت المقدّس.

الأرض تسرع تحتنا رمادية محزّزة، وظلال الأشجار السوداء تهرب مثل جيش منهزم. اجتزنا غابة في منتهى الحِلْكة والكثافة والبرد حتّى أنّني شعرت بقشعريرة رعب متأتّية من التطيّر تسري تحت جلدي. كانت شظايا الشرر التي تقتلعها حدوات حصانينا من الحصى تترك وراءنا ما يشبه نثاراً نارياً، ولو أنّ أحدهم رآنا، أنا وحوذيّ عربيّ، في تلك الساعة من الليل، لَحُيِلَ له أنّنا شَبْحان يمتطيان حصانين على درب الكابوس. كان وهج المستنقعات يخرق سيلنا من وقت لآخر، وغربان الزرع تنعق بأصوات مزعجة في عمق الغابة حيث تلمع متناثية عيونٌ فوسفورية لبعض القطط البرية. كان عُرْفًا الحصانين يتشعثان أكثر فأكثر، والعرق يتصبّب على جانبيهما، بينما تخرج أنفاسهما ضاجّةً ومضغوطة من منخريهما. غير أنّ مروّض الجياد، ومن أجل تنشيط الجوادين من جديد بعد رؤيتهما يضعفان، كان يُطلق صرخة حلقيّة لا تمتّ لأصوات البشرِ بصلة، فيُستعاد الركض باهتياج. وأخيراً هدأت الزوبعة؛ وانتصبّت أمامنا، فجأةً، كتلة سوداء مبقّعة بنقاط بيضاء؛ دوّت خطوات مطيّينا بضجيج أكبر فوق أرضية مصفّحة بالحديد، ثم دخلنا تحت قبة تفتح شدقيها الداكنين بين برجين هائلين. كان هناك هيجان كبير يهيمن على القصر؛ خدم يجتازون الباحات في كلّ الاتجاهات حاملين في أيديهم مشاعل، وأضواء تصعد وتنزل عبر مسطّحات الأدرج. ولمحت بغموض هندسات معمارية شاسعة، وأعمدة، وأروقة مقنطرة، وأدرج مداخل، ودرابزينات، في ورشات بناء باذخة لا يمكنها أن تكون إلّا ملكية أو سحرية خارقة. جاء غلام زنجي، وهو نفسه الذي سبق أن سلّمني حافظة كلاريموند وقد عرفته مباشرة، ليساعدي في النزول، ثم تقدّمني كبيرٌ خدّم يرتدي ثياباً مخملية سوداء مع سلسلة ذهبية في ياقتها وعكاز عاجي في يده. كان هناك

دموع غزيرة تطفح من عينيه وتسيل على امتداد خديهِ وعلى لحيته البيضاء. «فات الأوان! قال وهو يهزّ برأسه، فات الأوان! يا سيدي القسّ؛ لكنّ إن كنتَ لم تتمكّن من إنقاذ الروح، فتعال للسهر على الجسد المسكين».

أمسك بي من ذراعي وقادني إلى قاعة المآتم؛ كنت بدوري، أبكي بمقدار بكائه، وذلك لأنني أدركت أنّ الميتة ليست سوى تلك المحبوبة بجنون. كان هناك مرعخ خفيض مهيباً بجانب فراشها؛ وشعلة مزرقّة تنوس فوق معلاق برونزيّ، تنشر عبر الغرفة كلّها إضاءة ضئيلة شاحبة، وتجعل بعض الزوايا البارزة لقطع أثاث أو أفريز تخفق هنا وهناك عبر الظلال. على المائدة، وفي جرّة صغيرة منحوتة، توجد وردة بيضاء ذابلة سقطت أوراقها كلّها ما عدا واحدة صامدة، عند قاعدة الأصبص مثل دموع عطرة؛ وهناك أيضاً قناع أسود مهشّم، ومروحة يدويّة، وثياب تنكريّة من كلّ الأنواع، مبعثرة على الأرائك لتدلّ على أنّ الموت جاء إلى هذا المقرّ الفخم بغتةً ودون الإعلان عن حضوره. جثوثٌ دون أن أجرؤ على رفع عينيّ نحو الفراش، وشرعت أتلو المزامير بحماسة شديدة، شاكرًا الربّ أنّه وضع القبر بيني وبين فكرة هذه المرأة، حتّى أتمكّن من إضافة اسمه المقدس أخيراً إلى صلواتي. غير أن هذا الاندفاع بدأ يتباطأ وغرقت في أحلام اليقظة. هذه الغرفة لا تمتّ بصلة إلى غرفة موتى. فبدل هواء الجثث المنفّر الذي اعتدت شمّه خلال التعامل مع الجثث، كان هناك بخارٌ متلاشٍ من خلاصات عطور شرقية، أو لست أدري أيّ رائحة نسائية عاشقة، تسبح بهدوء في الهواء الفاتر. كان ذلك الوميض الشاحب أقرب بالأحرى إلى نور ضعيف مهيباً للملذات حسية أكثر منه إلى نور السراج ذي الانعكاس الأصفر الذي يرتعش قرب الجثث. كنت أفكّر في القدر الفريد الذي جعلني أعثر من جديد على كلاريموند لحظة

افتقادها إلى الأبد، وأفلت تنهيدة ندم من صدري. خُيِّل لي أن هناك مَنْ تنهد أيضاً ورائي، والتفتُّ لا إرادياً. كان ذلك مجرد صدى. وخلال تلك الحركة وقعت عيناى على فراش الموت الذي تحاشته حتى الآن. كانت ستائر الدمقس الأحمر المشجّر، والمرفوعة بمهدّبات حلزونية الشكل، تُظهر الميتة ممدّدة على طولها ويدها مضمومتان على صدرها. كانت مغطّاة بحجاب من نسيج كتّاني أبيض من النصاعة إلى درجة أن نسيج البساط الأرجواني الداكن يزيد في إبرازه، ومن الرهافة بحيث لا يخفي شيئاً من شكل جسدها الفاتن ويسمح بملاحقة تلك الخطوط الجميلة المتوجة مثل عنق بجعة لم يتمكّن حتى الموت من تصليتها. كانت تبدو أقرب إلى تمثال جبس صنعه نحات ماهر لوضعه على قبر ملكة، أو فتاة نائمة هطلت عليها الثلوج.

لم أعد قادراً على الاحتمال؛ صار هواء المخدع يُبلمني، والرائحة المهيجة لوردة نصف ذابلة تصعد إلى دماغي، فأمشي بخطوات كبيرة في الغرفة متوقفاً بعد كلّ دورة أمام الدكّة لتأمل الميتة اللطيفة تحت شفافية كفنها. كان هناك أفكار غريبة تحترق ذهني؛ تصوّرتُ أنّها لم تمت حقاً، وأنّ الأمر لا يعدو كونها تتظاهر بذلك من أجل جلبي إلى قصرها والحديث عن حبّها. بل وصلتُ بي الحال ذات لحظة أن هُيِّعَ لي أنّي رأيتُ قدمها تتحرّك في بياض الأغطية، وطيات الكفن المستقيمة تتشوّش.

بعد ذلك تساءلتُ: «وهل تكون كلاريموند حقاً؟ ما هي حجّتي على ذلك؟ ألا يمكن لهذا الخادم الأسود أن يكون قد انتقل إلى خدمة سيّدة أخرى؟ لا شك أنّ الجنون وحده هو الذي جعلني أتأسّف وأرتبك بهذه الطريقة». غير أنّ قلبي أجابني خافقاً: «أكيد أنّها هي، أكيد أنّها هي». دنوتُ من الفراش وقمعتُ باهتمام مضاعف في موضوع ريتي. هل

أعترف لكم؟ كان ذلك الكمال في أشكال الجسد رغم خضوعه لتطهير شبح الموت وقداسته، يربكني أكثر مما يجب، وكان ذلك الاضطجاع يلوح أقرب ما يكون إلى النوم إلى درجة أنّ إمكانية الوقوع في الخطأ تصير واردة. لقد نسيت أنني جئت من أجل قداس مأمّني، وتخيّلت أنني قرين شابّ يلجُ غرفة خطيبته التي تغطّي وجهها خجلاً ولا تريد أن تكشف عن نفسها. انحنيتُ عليها داميّ الفؤاد، مستهماً فرحاً، مرتجفاً خوفاً ولذّةً، وأمسكْتُ بطرف اللّحاف؛ رفعتُه ببطءٍ كأنّما أنفاسي خشية أن أوقظها. كانت شراييني تختلج بقوة جعلتني أحسّ بها تصفّر في صدغيّ، وجبيني يرشح عرقاً كما لو أنني حرّكْتُ بلاطة من مرمر. كانت هي كلاريموند حقاً، تلك التي رأيتها في الكنيسة خلال سيامتي كاهناً؛ جذابة كما في تلك المرّة، ولم يكن الموت يبدو معها إلاّ غُنْجاً إضافياً. وحتى شحوب خديها، ولون شفّتها الوردّيّ الأقلّ حيويّة، وأهدابها الطويلة المسدلة والمرتسمة بلونها الداكن على ذلك البياض، كانت تُكسبها تعبيراً عن عفة كئيبة وألم تأمليّ يزيدان في قوّة الإغراء بطريقة تفوق الوصف؛ كان شعرها الطويل المحلول، حيث كانت لا تزال توجد بضع أزهار زرقاء صغيرة مختلطة، يشكّل وسادة لرأسها، ويحمي بخصلاته عري كتفها؛ وكانت يداها الجميلتان أصفى وأشفّ من القرابين، وقد تشابكتا في هيئة استراحة ورعة وصلاة مضمرة، كأنّما تصحّح ما يمكن أن يُعدّ مفراطاً في الإغراء، حتّى في الموت، من خلال ذلك الامتلاء الشهيّ والانصقال العاجي لمغصمَيها العاريين اللّذين لم يُنزَع عنهما سواران من اللؤلؤ. مكثت فترة طويلة مأخوذاً في تأملٍ أخرس، وكنت كلّما نظرتُ إليها ازداد شكّي في أنّ الحياة قد غادرتُ حقاً هذا الجسد الجميل إلى الأبد. ولست أدري إن كان الأمر متأتياً من وهم أم من انعكاس المصباح، إذ خيّل لي أنّ الدم عاد

يتدفق تحت ذلك الشحوب الكابد، وفي تلك الأثناء كانت تحافظ على الثبات الكامل. لمستُ ذراعها برفق؛ كانت باردة، ومع ذلك لم تكن أبرد من يدها يوم لامستُ يدي تحت بوابة الكنيسة. استعدتُ موقعي حانياً وجهي على وجهها وتاركاً ندى دموعي الفاتر يهطل على خديها. آه! ياله من إحساس مُرّ باليأس والعجز! يا لها من ليلة احتضار! تمتيتُ لو أنني تمكنتُ من جمع حياتي في كومة لأعطيها إياها، وأنفخ في جثمانها الجليدي هذه الشعلة التي تلتهمني. كان الليل يتقدم، ولشعوري باقتراب لحظة الفراق الأبدي، لم أستطع حرمان نفسي من لذة قصوى حزينة تتمثل في طبع قبلة على الشفتين الميتين لتلك التي امتلكت حبي كله. يا لها من معجزة! ثمّة نفسٌ خفيف اختلط بنفسِي، وردّ فم كلاريموند على ضغط فمي: انفتحتُ عيناها واستعادتا بعض البريق، وتنهدتُ، أفردتُ ذراعيها ومزرتها خلف عنقي مع نشوة لا توصف. «آه هذا أنت، يا روموالد، قالت بصوت واهن وعذب مثل تموجات قيثارة أخيرة؛ أخبرني ماذا تفعل إذن؟ لقد انتظرتك طويلاً إلى حدّ الموت؛ لكننا الآن مخطوبان أحدهنا للآخر، ويمكنني رؤيتك والذهاب إلى بيتك. وداعاً يا روموالد وداعاً! أحبّك؛ هذا كلّ ما أردت قوله لك، وأعيد إليك الحياة التي استدعيتها لي لمدة دقيقة بقبلتك؛ إلى اللقاء قريباً».

انحنى رأسها إلى الخلف من جديد، لكنّها ظلّت تطوّقني بذراعيها كأنّها تمسك بي. هبّت زوبعة ريح هائجة فخلعت النافذة واقتحمت الغرفة؛ ارتعشت الورقة الأخيرة في الوردة البيضاء لبعض الوقت مثل جناح في طرف الساق، ثم انفصلت وطارت عبر النافذة المفتوحة حاملةً معها روح كلاريموند. انطفأ المصباح وسقطت على صدر الجميلة الميتة مغشياً علي.

عندما استعدتُ وعيي، كنت نائماً في فراشي، في غرفتي الصغيرة داخل دار الخوري، وكان الكلب العجوز التابع للخوري القديم يلحس يدي الممدودة خارج الغطاء. أما برbara فكانت تتحرّك في الغرفة مع ارتجافه شيخوخة، تفتح جوارير وتغلقها، أو تحرّك مساحيق في كؤوس. وما إن رأني أفتح عينيّ حتّى أطلقت صيحة فرح، فنبح الكلب وهزّ ذيله؛ لكنني كنت من الضعف إلى درجة عدم القدرة على النطق بأيّ كلمة أو إتيان أيّ حركة. ولقد عرفت فيما بعد أنني بقيت على هذه الحال ثلاثة أيّام كاملة، لا شيء يدلّ على بقائي حيّاً إلّا تنفس خفيف لا يكاد يُدرك. تلك الأيام الثلاثة لا تُحسب من حياتي، ولست أعلم إلى أين ذهب ذهني خلال كلّ ذلك الوقت؛ لم أحتفظ بأيّ ذكرى من ذلك. حكّت لي برbara أنّ الرجل نفسه ذا السحنة النحاسية الذي جاء يطلبني ليلاً، هو الذي أعادني صباحاً ممدداً على محقّة مغلقة ثم عاد أدراجه بسرعة. وما إن بدأتُ أسترجع أفكارني حتّى أعدت تسلسل أحداث تلك الليلة المقدّرة. في البداية فكرت أنني كنت ضحية خدعة سحرية؛ غير أنّ ظروفاً حقيقية وملموسة سرعان ما دحضت هذا الافتراض. لم أكن قادراً على الاعتقاد أنني كنت أحلم، لأنّ برbara رأت مثلي ذلك الرجل صاحب الحصانين الأدهمين، وقد وصفتُ هندامه وهيته بدقّة. ومع ذلك لا يوجد من يعرف في الأنحاء قصرًا تنطبق عليه أوصاف القصر الذي كنتُ التقيتُ فيه كلاريموند من جديد.

ذات صباح رأيت القسّ سيرايون يدخل. إذ أعلمته برbara بأنني مريض فهُرِعَ مُسرِعاً. ومهما دلّ هذا الإسراع على العطف والاهتمام تجاهي، لم تشعرني زيارته بالانشراح الذي كان ينبغي أن تشعرني به. كانت نظرة القسّ سيرايون تتضمن شيئاً ما نافذاً وفاحصاً يزعجني. أحسست

بالضيق والذنب أمامه. فهو أول من اكتشف اضطرابي الداخليّ، وأنا أحقد عليه بسبب نفاذ بصيرته.

كان يرشقني بحدقتي الأسد الصفراويّ ويغطس نظراته في روحي مثل مسبار وهو يسألني عن الحديد في ما يخصّ صحتي بنبرة معسولة نفاقاً. ثمّ طرح عليّ بضعة أسئلة حول الطريقة التي أدير بها مقرّ الخوري، وإن كنتُ منشرحاً فيه، وكيف أمضي وقت الفراغ الذي تركته لي إدارة الخدمة الكهنوتية حرّاً، وهل تعرّفتُ على بعض الناس بين سكّان المكان، وما قراءاتي المفضّلة، وألف جزئية أخرى مشابهة. أجبته عن كلّ ذلك بأقصر طريقة ممكنة، وكان بدوره لا ينتظر انتهائي من إجابة ليمرّ إلى شيء آخر. ولا شكّ أنّ هذه المحاور لا تربطها أيّ صلة بما كان يريد قوله. بعد ذلك، ومن دون أيّ مقدمات أو تحضيرات، وكما لو كان الأمر يتعلّق بخبر تذكّره للتوّ وخشي أن ينساه لاحقاً، قال لي بصوت واضح ومرتبّج رنّاً في أذني مثل صُورٍ يوم الحساب:

«المحظية الشهيرة كلاريموند ماتت مؤخراً، إثر حفلة تهتك دامت ثمانية أيّام وثمان ليالٍ. كان ذلك شيئاً رائعاً روعةً جهنميّة. وبه تمّ إحياء دنس مادب بالتازار وكليوبترا. في أيّ قرن نعيش يا إلهي! كان يقوم على خدمة المدعوّين عبيد سُمر يتكلّمون لغة مجهولة، ولاحوالي أقرب إلى عفاريت حقيقيّة؛ كسوة أبسط واحد فيهم كانت كافية لأن تُستخدم لباس احتفالٍ لأحد الأباطرة. لقد انتشرت في كلّ الأوقات حكايات في منتهى الغرابة حول كلاريموند هذه، وانتهى كلّ عشاقها نهاية بائسة أو عنيفة. قيل إنّها غول، مصاص دماء؛ لكنني أعتقد أنّها بلزيوت⁽¹⁾ نفسه». سكت ثمّ تأملني جيّداً كما لم يفعل من قبل، لكي يرى الأثر الذي

(1) إله كنعاني - بعل الذباب - إله كلّ ما يطير؛ صار عند اليهود والمسيحيّين أمير الشياطين.

تركته كلماته فيّ. لم أستطع إتيان أيّ حركة للدفاع عن نفسي لدى سماع اسم كلاريموند، وأدى هذا الخبر المتعلّق بموتها، إلى جانب الألم الذي أحدثه لي بسبب تصادفه مع المشهد الليليّ الذي كنت شاهداً عليه، إلى دخولي في حالة ارتباك وهلع لاحا على وجهي، رغم محاولتي مُداراتها. ألقي عليّ سيرايون نظرة قلقة وصارمة؛ ثمّ قال لي: «يا بنيّ، يتوجّب عليّ تنبيهك، لك قدّم مرفوعة على هاوية، احذر السقوط فيها. لإبليس برائن طويلة، وحتىّ القبور ليست دائماً أهلاً للثقة. قبر كلاريموند ينبغي أن يُختم بختم ثلاثيّ؛ إذ ليست هذه، كما يُشاع، هي المرّة الأولى التي تموت فيها هذه المرأة. فلتكن في رعاية الربّ يا روموالدا!»

بعد هذه الكلمات، عاد سيرايون نحو الباب بخطوات بطيئة، ولم أره فيما بعد أبداً؛ لأنه سافر إلى س... بُعيد هذا اللقاء.

سُفيتُ تماماً وعدت إلى مشاغلي المعتادة. ظلّت ذكرى كلاريموند وكلمات القسّ العجوز دائمة الحضور في ذهني؛ وفي تلك الأثناء لم يطرأ أيّ حدث خارق لتأكيد توقّعات سيرايون المأتميّة، وبدأت أعتقد أنّ مخاوفه وكذلك أسباب ذعري مبالغ فيها كثيراً؛ لكنني رأيت في منامي رؤيا ذات ليلة. لم أكد أتجرّع أولى جرعات النوم حتّى سمعت ستائر فراشي تُفتح وحلقاتها تنزلق على القضيب المعدنيّ الذي يحملها بضجّة صاخبة؛ نهضتُ بغتةً متكئاً على مرفقي، ورأيت خيال امرأة تقف أمامي. عرفتُ كلاريموند فوراً. كانت تحمل في يدها مصباحاً من ذلك الشكل الذي يوضع في القبور، وكان نوره يضيء على أصابعها المشيقة شفافيةً ورديةً تتمدّد ضمن تدرّجات غير مدركة حتّى بلوغ البياض الأكمّد واللّبنّي لذرعاها العارية. ولم يكن لها من ثياب إلّا كفن الكتّان الذي كان يغطّيها على فراش الموت، فكانت تمسك بطيّاته على صدرها، كما لو كانت

تشعر بالخجل لقلّة ما ترتديه، غير أنّ يدها الصغيرة لم تكن كافية؛ كانت في منتهى البياض إلى حدّ أنّ لون القماش كان يختلط بلون بشرتها تحت ضوء المصباح الشاحب. ولاحثٌ وهي ملتقّةٌ بذلك القماش الخفيف الذي يكشف كلّ تكويرات جسدها، أقرب إلى تمثال رخاميّ لمستحمة من عصر قديم منها إلى امرأة تنبض حياة. وسواء كانت ميتة أم حيّة، تمثالاً أم امرأة، خيالاً أم جسداً، فقد كان جماها هو نفسه تماماً؛ إلاّ أنّ بريق حدقتيها الأخضر كان أخفّ قليلاً، ولم يعد فمها القرمزيّ سابقاً ملوناً إلاّ بلون وردّيّ ضعيف وفتح مثل لون خديها تقريباً. أمّا الزّهيرات الزرقاء التي عاينتها في شعرها فكانت جافة تماماً وفقدت كلّ أوراقها تقريباً؛ كلّ ذلك لم يمنعها من أن تكون فاتنة، في منتهى الفتنة حتّى أنّني، ورغم فزادة المغامرة والطريقة الغامضة التي دخلت بها إلى الغرفة، لم أشعر بأيّ لحظة من الهلع.

وضعت المصباح على المائدة وجلست قرب فراشي، ثمّ قالت لي وهي تنحني نحوي، بذلك الصوت الفضيّ والمخميّ في آن، والذي لم أسمع مثله عند غيرها:

«لقد انتظرتك كثيراً يا عزيزي رومالده، ولعلّك ظننت أنّني نسيتك. غير أنّني جئت من مكان بعيد جداً، من مكان لم يسبق لأحد أن عاد منه: لا يوجد قمر ولا توجد شمس في البلاد التي جئت منها؛ ليست سوى فضاءات وظلال؛ لا دروب ولا منحرجات؛ ما من أرض للقدم، وما من هواء للجناح؛ ومع ذلك ها أنذي، لأنّ الحبّ أقوى من الموت، وسوف ينتهي به الأمر إلى هزيمته. آه! كم شاهدت من وجوه كابية وأشياء فظيعة في رحلتي! يا للمشقة التي تكبّدها روعي التي ولجت ذلك العالم بقوة الإرادة، كي تستعيد جسدها وتستقرّ فيه من جديد! يا لتلك الجهود التي

توجّب عليّ بذها قبل رفع اللّحد الذي غُطيتُ به! انظر! كم أذمّي باطن يديّ المسكيتين من ذلك. قبلهما كي تشفيهما، يا حبي الغالي! ووضعت راحتيّ يديها تباعاً على فمي؛ وفعلاً قبلتُهما عدة مرّات، فكانت تنظر إليّ أفعل بابتسامة تواطؤ يدقّ عن الوصف.

أعترف بعاري، لقد نسيت كلّ آراء القسّ سيرايون والطبع الجديد الذي اكتسبته. سقطتُ بلا مقاومة وفي أوّل هجوم. لم أحاول على الأقلّ دفع الشيطان؛ كانت نعومة جسد كلاريموند تتغلغل في جسدي فأشعر برعشات شهوانية تجوب بدني. يا للبنت المسكينة! على الرغم من كلّ ما رأيتُ منها لا أكاد أصدّق أنّها كانت شيطاناً؛ أو على الأقلّ ليست لها هيئته، ولم يسبق لشيطان إخفاء برائنه وقرنيه بطريقة أفضل. كانت قد طوّت كعبيها تحتها ومكثت مفرصةً على حافة الفراش في وضعيّة مفعمة بدلال لامبالٍ. وكانت تمرّر يدها الصغيرة، بين الفينة والأخرى، عبر شعري وتلقّ في خصلات كما لو كانت تجرب قصّات حلاقة جديدة مواتية لوجهي. كنت أستسلم لذلك مع مسامرة يتخلّلها الكثير من الشعور بالإنثم، بينما هي ترافق كلّ ذلك بثرثرة فاتنة. وثمة أمر جدير بالملاحظة، هو أنّني لم أكن أشعر بأيّ استغراب إزاء مثل هذه المغامرة الحارقة ومع هذه السهولة في الرؤية بخصوص تقبّل الأحداث الأكثر غرابة باعتبارها عاديّة جدّاً، فلم أكن أرى في ذلك سوى أحداثٍ طبيعية تماماً.

«كنتُ أحبّك منذ زمن طويل قبل رؤيتك، يا عزيزي روموالد، وكنت أبحث عنك في كلّ مكان. كنتُ حلمي، وتمكّنتُ من لمحك في الكنيسة في اللّحظة المقدّرة؛ قلتُ فوراً: «إنّه هو!» ألقىتُ إليك بنظرة وضعتُ فيها كلّ الحبّ الذي كنتُ قد عرفتُ، والذي أعرف، والذي يُنتظر أن يكون

لي تجاهك؛ نظرة كفيلة برجم كاردينال، وتركيع ملك عند قدميَّ وأمام كلِّ بطانته. لكنك بقيت هادئ الأعصاب وفضلت إلهك عليَّ.

«آه! كم أغار من الربِّ الذي أحببته ومازلت تحبه أكثر مني!

«كم أنا بائسة، كم أنا بائسة! لن أتمكن أبداً من امتلاك قلبك لي وحدي، أنا التي بعثتني من الموت بقبلة، كلاريموند الميتة، التي تحلج بسببك أبواب المقبرة وتأتي لتكرس لك حياة لم تسترجعها إلا لتجعلك سعيداً!»

كانت تتخلل كلماتها كلها ملامسات هاذية دوخت حواسي وعقلي إلى درجة أنني لم أخش، من أجل مواساتها، أن أتلغظ بتجديف مرعب، وأن أقول لها إنني أحبها بمقدار ما أحبَّ الربِّ.

توهجت حدقتها ولمعنا مثل حجري عقيق أخضر. «صحيح! صحيح حقاً بمقدار محبة الربِّ! قالت وهي تطوّقني بين ذراعيها الجميلتين. بما أنّ الأمر كذلك سوف تأتي معي، سوف تبعني آتى أردت. سوف تتخلّى عن أثوابك السوداء القبيحة. سوف تكون أكثر الفرسان شمماً وأكثرهم إثارة للحسد، سوف تكون عشيقتي. أن تكون العشيق المعلن لكلاريموند التي رفضت أحد البابوات، هذا أمر جميل! آه! إنها الحياة الجميلة والسعيدة، والوجود الذهبي الجميل الذي سوف نحياه! متى نرتحل، يا رجلي النبيل؟

- غداً! غداً! صرختُ في هدياني.

- غداً، فليكن ذلك! كررت القول. سوف يكون لي متسع من الوقت لتغيير زيتي، لأن هذه خفيفة قليلاً ولا تلائم السفر. يتوجب عليَّ أيضاً أن أخبر أناسي الذين يظنون أنني ميتة حقاً ويتأسفون بما في وسعهم. سوف يكون كلُّ شيء جاهزاً؛ المال والثياب والعربات؛

سوف أمرّ لأخذك معي في مثل هذه الساعة. إلى اللقاء يا قلبي العزيز».

ثم لامست جيبيني بطرفي شفيتها. انظفاً المصباح، وانغلقت الستائر، ولم أعد أرى شيئاً؛ وحلّ بي نوم ثقيل، نوم بلا أحلام جعلني مخدراً حتّى صباح الغد. استيقظت متأخراً أكثر من العادة، وظلّت ذكرى تلك الرؤيا المتفرّدة تربكني طيلة النهار؛ وانتهى بي الأمر إلى إقناع نفسي بأنّها كانت مجرد وهم متبخّر من مخيلتي المهتاجة. مع ذلك كانت الأحاسيس من القوّة بحيث يصعب الاعتقاد بأنّها لم تكن حقيقية، وهذا ما جعلني ألتحق بفراشي مع بعض المخاوف تماماً قد يحدث، طالباً من الربّ أن يُبعد عني الأفكار السيّئة ويحمي طهارة نومي.

وسرعان ما نمت بعمق، وتواصل حلمي. تباعدت الستائر، ورأيت كلاريموند، ليس كما في المرّة الأولى، شاحبة في كفنها الشاحب وبنفسج الموت على خديها، بل مرحة، رشيقة وأنيقة، في ثياب سفر رائعة من مخمل أخضر مزخرف بصفائر ذهبية ومشمّر جانبيّاً ليكشف عن تنورة من الساتان. كان شعرها الأشقر يفلت في صفائر سميكة من تحت قُبعة واسعة من اللّبّاد الأسود ذات ريشات بيضاء ملتفة بطريقة نزويّة؛ وكانت تمسك في يدها سوطاً صغيراً ينتهي طرفه بصفّارة ذهبية. لامستني به قليلاً وقالت لي: «إذاً! أيها النّوم الجميل، أهذه طريقتك في تجهيز نفسك للسفر؟ كنت أحسب أنّي سأجدك واقفاً. انهض بسرعة، ليس لدينا متّسع للوقت لإضاعته». فقفزت خارج السرير.

«هيا، ارتدّ ثيابك ولننطلق، قالت وهي تريني بإصبعها رزمة صغيرة جلبتها معها؛ الخيل تضجر وتعضّ على اللّجام عند الباب. لولا تأخرك لكنّا قطعنا عشرة أميال حتّى الآن».

ارتديت ثيابي بمنتهى السرعة، وكانت تمد لي بنفسها قطع الثياب، مقهقهةً على ارتباكي، وموضحةً لي استخداماتها عندما أخطئ. مشطت شعري وعند الانتهاء قدّمت لي مرآة جيب صغيرة من كريستال البندقية، مؤطرة بفتائل فضية، وقالت لي: «كيف ترى نفسك؟ هل تودّ توظيفي في خدمتك فرأشاً؟»

لم أعد كما عهدتني، ولم أتعرف على نفسي. لم أعد أشبهني إلا كما يشبه تمثالُ ناجز كتلةً من الحجر. كان وجهي القديم لا يشبه إلا تخطيطاً أولياً فقطً للوجه الذي تعكسه المرآة. بدوتُ جميلاً، ولقد دغدغ خيالي هذا التحوّل بشكل محسوس. فهذه الثياب الأنيقة وهذه السترة الغنية المزركشة، جعلتا متي شخصاً آخر مختلفاً تماماً، حتّى أنني أعجبتُ بقوة بعض أذرعة القماش المفصلة بطريقة معيّنة. كانت روح كسوتي تتغلغل في جلدي، وبعد عشر دقائق أحسست بنوع من الغرور.

ذرعت الغرفة في بضع دورات حتّى أتمكّن من بعض الراحة. كانت كلاريموند تنظر إليّ بهيئة ملاطفة أمومية وتلوح راضية جداً عن عملها. «هيا يكفي صبيانية، علينا أن ننطلق، يا عزيزي روموالدا نحن ذاهبان بعيداً ولن نتمكّن من الوصول». ثمّ أمسكت بي من يدي وجزّتني. كانت كلّ الأبواب تفتح أمامها حال لمسها لها، ومررنا أمام الكلب دون أن نوقفه.

عند الباب وجدنا مرغيريتون؛ وهو الخوذي الذي سبق له أن أوصلني؛ كان يمسك بأعنة ثلاثة أحصنة دهماء مثل الأولى، أحدها لي، والثاني له، والثالث لكلاريموند. ولا بدّ أنّ هذه الخيول من سلالة جياذ إسبانيا، وولدت من أفراسٍ لقّحها النسيم؛ لأنّها كانت تركض بسرعة الريح، كان القمر الذي طلّع خلال انطلاقنا ليضيء دربنا يتقدّم في السماء

مثل عجلة انفصلت عن مركبتها؛ كُنّا نشاهده عن يميننا يقفز من شجرة إلى أخرى ويلهث من أجل الركض وراءنا. وسرعان ما بلغنا سهلاً حيث كانت تنتظرنا، قرب غابة أشجار صغيرة، عربة تجرّها أربعة أحصنة قويّة؛ امتطيناها، فجعلها الحوذية تسرع بعدو جنونيّ. كانت إحدى ذراعيّ تطوّق كلاريموند وإحدى يديها مثنّية في يدي؛ كانت تسند رأسها إلى كتفي، وأنا أشعر برقبته شبه العارية تلامس ذراعي. لم يسبق لي قطّ أن أحسستُ بمثل هذه السعادة الحيّة. كنت قد نسيت كلّ شيء في تلك اللّحظة ولم يعد تذكّر وظيفتي كقسّيس يختلف عن تذكّر ما قمت به عندما كنتُ لا أزال في بطن أمي، وذلك لقوّة ما بثّه فيّ الروح الشرّير من فتنة. وابتداءً من تلك اللّيلة ازدوجتُ طبيعتي بمعنى من المعاني، وصار يوجد في داخلي رجلان لا يعرف أحدهما الآخر. تارةً أظنني قسّيساً يحلم كلّ ليلة أنّه سيّد نبيل، وطوراً أحسبني سيّداً نبيلاً يحلم أنّه قسّيس. لم أعد قادراً على تمييز حلم البارحة، ولا على معرفة أين تبدأ الحقيقة وأين ينتهي الوهم. السيّد الشابّ النبيل المزهوّ بنفسه والدّاعر يسخر من القسّيس، والقسّيس يكره انحلال السيّد الشابّ. لو كُلبان متداخلان مختلطان دون أن يتلامسا أبداً، هما ما يمثل جيّداً هذه الحياة ذات الراسين والتي هي حياتي. ولا أعتقد، رغم غرابة هذا الوضع، أنّي لامستُ الجنون ولو للحظة واحدة. لقد حافظتُ دائماً على إدراك حياتي الاثنتين بوضوح تامّ. غير أنّ هناك واقعاً غير معقول لم أتمكّن من تفسيره لنفسني: إنّ وجود إحساس الأنا نفسه لدى رجلين في منتهى الاختلاف. كان ذلك عاهة لم أنتبه إليها سواء في اعتقادي أنّي خوري قرية...، الصغيرة، أو السنيور رومالدو، بصفته عاشق كلاريموند.

يبقى أنّي كنتُ، أو على الأقلّ كنتُ أعتقد، أنّي في البندقية؛ لم أتوصّل

بعدُ إلى تمييز دقيق بين ما هو وهم وما هو واقع في هذه المغامرة العجيبة. كُنّا نسكن قصرًا كبيراً من الرخام، مشيداً على القناة، تملؤه الجداريات والتماثيل، مع لوحين للفنان تيتيسانو⁽¹⁾ خلال مرحلته الأجل، في غرفة نوم كلاريموند، في قصر جدير بملكٍ حقاً. كان لكلينا جندولُه وربابتهُ بكسوتهم الموحدة الحاملة لشعارينا، وغرفة موسيقى وشاعر. إذ كانت كلاريموند تفهم الحياة بطريقة باذخة، ولها شيء من كليوباترا في طباعها. أمّا أنا فقد كنت أتصرّف مثل ابن أمير، وأتباهى كما لو كنت منتمياً إلى عائلة أحد الحوارتين الاثني عشر، أو أحد مؤلفي الأناجيل الأربعة في جمهورية فينيسيا؛ وكان من شأني ألاّ أحمّد عن دربي لأترك الدوج⁽²⁾ يمرّ، ولا أعتقد أنّ هناك إنساناً قد وُجد، منذ إبليس الذي سقط من السماء، أكثر عجرفة ووقاحة منّي. كنت أرتاد الريدوتو⁽³⁾، وأشارك في ألعاب جهنميّة. وأخالط أفضل طبقة في العالم، من أبناء العائلات المفلسة إلى نساء المسرح، والنصابين، والمتطفلين وهواة المبارزة. لكنّ، ورغم حياة الإسراف تلك، بقيت وقتياً لكلاريموند. كنت أحبّها بشغف. كان بمقدورها أن تثير الرغبة بعد شبع وأن تفرض الثبات محلّ التقلّب. امتلاك كلاريموند يعني امتلاك عشرين عشيقه، امتلاك كلّ النساء، نظراً لما كانت تتمتاز به من حركة، وتبدّل واختلاف عن ذاتها؛ حرباء حقيقيّة! فهي قادرة على جعلك تشاركها في اقتراف الخيانة التي كان يمكنك ارتكابها

(1) تيتيسانو فيتشيليو Tiziano Vecellio رسام إيطالي (1488-1576) يُعرف بالفرنسية باسم تيتيان Titien .

(2) الدوج (ويُلفظ بالإيطالية «دوجه») Doge هو الرئيس المنتخب في جمهوريّة البندقية وجنوة قديماً.

(3) الريدوتو Ridotto : قاعة ألعاب كان يرتادها نبلاء البندقية والأجانب، وكانت توجد في قصر داندولو Dandolo (بين 1768 و1774)، وهو ما يدلّ على أنّ المؤلف يضع أحداث قصّته خلال القرن الثامن عشر.

مع أخريات، مع تقمصِ طباع المرأة التي تبدو مثيرة لإعجابك وهيتها ونوع جهاها. كانت تردّ على حثي مضاعفاً مائة مرّة. وعبثاً حاول النبلاء، وحتى شيوخ مجلس العشرة⁽¹⁾، مراودتها بعروض باهرة. لا بل إنّ أحد أفراد عائلة الدوج فوسكاري ذهب إلى حدّ عرض الزواج عليها؛ لكنّها رفضت كلّ شيء. كانت تملك ما يكفي من الذهب؛ ولم تعد راغبة إلا في الحبّ، حبّ فتيّ، نقيّ، توقظه هي، ويتعيّن أن يكون الأوّل والأخير. وكان يمكنني أن أكون في أتمّ السعادة لولا كابوس لعين كان يتتابني كلّ ليلة، ويخيّل لي فيه أنني خوري قرية يمارس إماتة الجسد والتوبة عن انحرافات النهار. وبالنظر إلى طمأنيتي المتأتية من اعتيادي على وجودي معها، بدأتُ أقلع عن التفكير في الطريقة الغربية التي تعرّفتُ بها على كلاريموند. مع ذلك كانت أقوال القسّ سيرايون عنها تعود إلى ذاكرتي في بعض الأحيان ولا تقتصر على مجرد بعث القلق في نفسي.

منذ بعض الوقت لم تعد كلاريموند معافاة كما كانت؛ إذ صارت سحتها محمد يوماً بعد يوم. ولم يفهم الأطباء الذين استدعوا لمعاينتها أيّ شيء عن مرضها، ولم يكن بوسعهم فعل أيّ شيء. فكانوا يصفون بعض الأدوية التافهة ولا يعودون البتة. وفي تلك الأثناء كانت تزداد شحوباً ظاهراً للعيان وتملّكها البرودة أكثر. كان لها تقريباً البياض والموت ذاتها اللذان كانا يغشيانها في تلك الليلة المشهودة داخل القصر المجهول. فكنت أتأسّف لرؤيتها تذوي ببطء على تلك الطريقة. أمّا هي فكانت تتأثر لألمي، فتبتسم لي بلطف وحزن، وتبتك الابتسامة القدرية لمن يعرفون أنهم سيموتون.

(1) مجلس العشرة *Consiglio dei Dieci* هو مجلس سرّي أنشئ في البندقية وتطور حتى صار، خلال القرن الثامن عشر، يمثّل السلطة التنفيذية الفعلية في الجمهورية.

ذات صباح كنت جالساً قرب سريرها، أتناول فطوري على مائدة صغيرة حتى لا أغادرها ولو لدقيقة واحدة. وأثناء قَطْعِي لثمرة جرحتُ إصبعي بالصدفة جرحاً بالغاً. انبثق الدم بسرعة في خيوط أرجوانية، وانطلقت بضع قطرات نحو كلاريموند. لمعت عيناها، واتخذ مظهرها هيئة فرح شرس ومتوحش لم يسبق لي أن شهدتُ له مثيلاً. قفزت من السرير بخفة حيوانية، خفة قرد أو قط، وانقضت على جرحي تلعه بشهوة حسية لا يمكن وصفها. كانت تتلع الدم بجرات صغيرة، ببطء واهتمام بالغ، مثل شخص ذواقة يتذوق نبيذاً من خيريث الأندلسية أو من سيراكوزا الإيطالية؛ كانت تغمز بعينيها نصف غمزة، وقد صار بؤبؤا عينيها الأخضرين مستطيلين بدل استدارتهما. وبين الفينة والفينة تنقطع عن المصّ لكي تقبل يدي، ثم تعود إلى ضغط شفثيها على شفثي الجرح من أجل استخراج بضع قطرات حمراء أخرى. وعندما أدركتُ أنّ الدم لم يعد يخرج، نهضت بعينين مبللتين ولامعينين، وأكثر تورّداً من فجر في شهر أيار، وجهها مكنتز ويدها فاترة ورطبة، وعلى العموم أجلّ مما كانت من قبلُ وفي حال مكتملة من الصحة.

«لن أموت! لن أموت! قالت وهي تكاد تُجنّ من الفرح وتتعلق بعنقي؛ أستطيع أن أحبك وقتاً أطول. حياتي في حياتك، وكلّ ما هو أنا يأتي منك. بضع قطرات من دمك الغنيّ النبيل، والأثمن والأنجع من كلّ إكسير في العالم، أعادت لي وجودي».

شغل بالي هذا المشهد فترة طويلة وأوحى لي بشكوك غريبة إزاء كلاريموند، وفي المساء نفسه عندما أعادني النوم إلى بيت الخوري، رأيت القسّ سيرايبون أكثر صرامة وقلقاً من أيّ وقت مضى. نظر إليّ باهتمام وقال لي: «لم تكنتِ بفقدان روحك وها أنتذا ترغب في خسارة

جسدك. أيها الشاب المنكود الحظ، في أي فح سقطت!« صدمتني النبوة التي قال بها هذه الكلمات القليلة صدمة عميقة؛ لكنّ هذا الانطباع، رغم قوته، سرعان ما تبدّد، وجاءت أكثر من مناسبة لتمحوه من ذاكرتي. مع ذلك، ذات مساء، رأيت كلاريموند في مرآتي التي لم تقس هي موضعها الخادع، وهي تضع مسحوقاً في كوب النبيذ المتبل الذي اعتادت تحضيره بعد الأكل. تناولت الكوب، وتظاهرت بتقريبه من شفتي، ثم وضعته على إحدى قطع الأثاث متظاهراً بأنني سوف أكمل شربه فيما بعد وفق رغبتني، وانتهزت فرصة أشاح فيها الجميلة بظهرها لأسكب المحتوى تحت المائدة. بعد ذلك انسحبتُ إلى غرفتي ونمت عاقداً العزم على عدم النوم ومراقبة سير الأحداث. لم أنتظر طويلاً؛ إذ دخلت كلاريموند في قميص نوم، وبعد التخلص من برقعها تمددت على الفراش بجانبني. وعندما تأكدت تماماً من أنني كنت نائماً، عزت ذراعي وأخرجت إبرة ذهبية من شعرها؛ ثم شرعت تهمس:

«قطرة، قطرة واحدة حمراء ليس أكثر، حبة يا قوت على طرف إبرتي!... بما أنك مازلت تحبني، ينبغي ألا أموت... آه! أيها الحب المسكين! سأشرب دمك الأحمر الأرجواني الفاقع. نم، يا ثروتي الوحيدة؛ نم، يا إلهي، يا طفلي؛ لن أولمك، لن آخذ من حياتك إلا ما يكفي حتى لا تنطفئ حياتي. لو لم أكن أحبك إلى هذا الحد لأمكنني التصميم على امتلاك عشاق آخرين أستنزف أوردتهم؛ لكنني منذ أن عرفتك عفت كل الناس... آه! يا للساعد الجميل! كم أنه مفتول! كم أنه أبيض! لا يمكنني التجرؤ على وخز هذا الوريد الأزرق الجميل أبداً». كانت تقول ذلك وهي تبكي وأنا أحسّ بدموعها تهمي على ذراعي التي تمسك هي بها بين يديها. وأخيراً قرّ قرارها ووخزني وخزة خفيفة بإبرتها وشرعت

تمتصّ الدم السائل منها. وعلى الرغم من أنها لم تشرب إلا قطرات قليلة فقد تملكها الخوف من إنهاكي، فلفّت حول ذراعي ضمادة صغيرة بعد أن مسحت الجرح بمرهم جعله يندمل فوراً.

لم يعد بإمكانني الشكّ، كان القسيس سيرايبون محقّقاً. لكنني، رغم هذه القناعة، لم أتمكن من التوقّف عن حبّ كلاريموند، وكان من شأنني أن أعطيها بطيبة خاطر كلّ الدم الذي تحتاجه للمحافظة على وجودها المفتعل. وعلى أية حال، لم أكن أشعر بخوف كبير؛ فالمرأة كانت تصدّ مصّاص الدماء الذي فيها، وما سمعته ورأيته كان يطمئنتني تماماً؛ وكانت أوردتي آنذاك غنيّة لا يمكن استنزافها بسهولة ولم أكن بصدد المساومة على حياتي قطرة قطرة. كان من شأنني أن أجرح ذراعي بنفسني وأقول لها: «اشربي! وليتسلّل حبيّ في جسدك مع دمي!». كنت أنحاشي أيّ تلميح إلى المخدّر الذي سكبته في كوبي وكذلك استخدام الإبرة، وعشنا في أكمل وفاق. مع ذلك ظلّت وساوسي الكهنوتية تعذبني أكثر ممّا سبق، ولم أعد أعرف أيّ طريقة جديدة للإنهاك يتوجّب عليّ ابتكارها من أجل قهر جسدي وإماتته. ومهما كانت كلّ هذه الرؤى لا إرادية ولم أشارك فيها البتة، لم أكن أجرؤ على لمس المسيح بيديني كائناتاً على هذه الدرجة من النجاسة وروح مدنّسة بمثل هذا الفجور سواء أكان حقيقياً أم متوهّماً. ومن أجل تحاشي السقوط في هذه الهلوسات المضنية، حاولت منع نفسي من النوم، فكنت أحافظ على جفنيّ مفتوحتين بواسطة أصابعي، وأمكث واقفاً مع الجدران، مقاوماً النوم بكلّ قواي؛ غير أن رمل النعاس سرعان ما كان يتدحرج في عينيّ، وعندما أدرك أنّ كلّ مقاومة صارت غير مجدية، أترك ذراعيّ تسقطان من الإحباط والإرهاق، فيعود التيار إلى جرّي نحو الضفاف الخادعة. كان سيرايبون يعظني بحدّة ويلومني بقسوة على

ميوعتي وضعف هميتي. ذات يوم وبينما كنت مضطرباً أكثر من العادة، قال لي: «لكي تتخلص من هذا الهاجس، لا توجد إلا وسيلة واحدة، ومهما كانت في غاية الصعوبة يتوجب استخدامها: آخر الدواء الكي». أعرِفُ أين دُفنتُ كلاريموند؛ ينبغي أن نبش قبرها وأن ترى بنفسك في أيِّ حال مزرية يوجد موضوع حبك؛ وهكذا لن تبقى تحت وسوسة فقدان روحك من أجل جثة مفرزة مرققتها الديدان وتوشك على التحوّل إلى كومة غبار؛ لا شك أنّ هذا سيعيدك إلى ذاتك». أما بالنسبة لي فقد بلغ منّي التعب من هذه الحياة المزوجة حدّاً جعلني أوافق: أردتُ أن أعرِفُ نهائياً مَنْ كان ضحية وهم؛ الكاهن أم السيّد النبيل، فقرّرت أن أقتل في داخلي أحدهما لصالح الآخر أو أقتلها معاً لأنّ مثل تلك الحياة لم تعد تطاق. تزوّد القسّ سيرايبون بمعول وعتلة رافعة وفانوس، وفي منتصف الليل توجّهنا نحو مقبرة...، التي يعرف جيداً طبيعتها ومخطّطها. وبعد تقريب ضوء الفانوس الكامد من الشواهد المحفورة على عدّة قبور، وصلنا في نهاية المطاف إلى حجرٍ شبه محجوب بأعشاب عالية ومتآكل بفعل طحالب ونباتات طفيليّة، حيث تهجيننا هذه البداية المنقوشة:

هنا تشوي كلاريموند

التي كانت في حياتها

أجمل مَنْ في العالم.

.....

«هنا بالضبط»، قال سيرايبون الذي وضع الفانوس على الأرض ودسّ العتلة في فجوة الحجر وبدأ يرفعه. استسلم الحجر، فشرع يستخدم المعول. كنت أنظر إليه وهو يعمل، مسودّاً وصامتاً أكثر من الليل نفسه. أمّا هو فكان منحنيّاً على عمله الجنائزيّ، ينضح عرقاً، ويلهث، حتّى

إن أنفاسه المضغوطة بدت كأنها حشرات محتضرة. كان المشهد غريباً، ولو رأنا أحدهم من الخارج لاعتبرنا نباتي قبور وسارقي أكفان، أكثر منا كهنة في خدمة الرب. كان لحمية سيرايون شيء من القسوة والوحشية يجعله أشبه بشيطان منه بمبشّر أو ملاك، ولم يكن وجهه ذو القسماة الغليظة والصارمة، والمرتسمة بعمق نتيجة انعكاس ضوء الفانوس، ليعث على الطمأنينة. أحسست بعرق جليديّ ينضح من أطرافي، وكان شعري ينتصب بألم فوق رأسي؛ كنت في داخلي أتأمل فعل سيرايون القاسي باعتباره تدنيساً مقيتاً للمحرّمات، وتمثيلاً لو أنّ مثلثاً نارياً خرج من خاصرة الغيوم الداكنة التي كانت تتحرّك بتثاقل فوقنا، ليحوّله إلى غبار. كانت طيور البوم الجاثمة على أشجار السرو تأتي، وقد أزعجها ضوء الفانوس، لتسوط زجاجه بثقل أجنحتها المغبرة مطلقاً نعيماً ناحباً؛ وكانت الثعالب تضبح في البعيد، وألف ضجة مشؤومة تنبعث من الصمت. وفي الأخير صدم معول سيرايون التابوت الذي دوى خشبه بصوت مكتوم ذي رنين، مثل ذلك الصوت الفظيع الذي يصدره العدم عندما نلمسه؛ قلب غطاء التابوت، ولمحت كلاريموند شاحبة مثل الرخام، مضمومة اليدين؛ وكفنها الأبيض لا يشكّل سوى طية واحدة من رأسها إلى قدميها. كان هناك قطرة صغيرة حمراء تلمع مثل وردة عند زاوية فمها الذي نصّل لونه. استشاط سيرايون غضباً لدى رؤيته هذا المشهد: «آه! ها أنتذي، يا شيطانة، يا عاهرة فاسقة، يا مصاصة الدم والذهب!» ثم رشّ الجسم والتابوت بالماء المقدّس، ورسم إشارة الصليب على التابوت بمرشته. ولم يكد الندى المقدّس يلامس كلاريموند المسكينة حتّى تحوّل جسدها الجميل إلى غبار؛ ولم يتبقّ منها إلا خليط بلا شكل محدّد من الرماد والعظام نصف المتكلّسة. «هي ذي

عشيقتك، يا سيّد روموالد، قال القسّ القاسي وهو يريني ذلك الرميم الحزين، أما زال يغويك الذهب للنزهة على ضفاف اللّيدو وبحيرات فوزينه⁽¹⁾ برفقة جميلتك؟» أحنّيت رأسي؛ لقد حلّ خراب كبير في داخلي للتوّ. عدتُ إلى بيت الخوري، وانفصل السيّد روموالد، عشيق كلاريموند، عن الخوري المسكين، بعد أن لازمه طويلاً في رفقة مفعمة بالغرابة. لكنني، خلال اللّيلة اللاحقة، رأيت كلاريموند؛ قالت لي، كما في المرّة الأولى عند بوّابة الكنيسة: «أيها الشقي! أيها الشقي! ماذا فعلت؟ لم أصغيت إلى ذلك القسّ الغيبي؟ ألم تكن سعيداً؟ وماذا فعلتُ لك، حتّى تنتهك قبري المسكين وتعزّي بؤسٍ عدمي؟ لقد انقطع الآن كلّ تواصل بين روحينا وجسدنا. وداعاً، سوف تندم عليّ». وتلاشت في الهواء مثل دخان، ولم أرها مجدداً.

واحسرتاه! لقد قالت الحقيقة: ندمتُ عليها أكثر من مرّة وما زلت نادماً إلى الآن. لقد كلّفني سلامٍ روحي غالياً؛ ولم تكن محبّة الربّ فائضة عن اللّزوم من أجل تعويض حبّها. تلك هي، يا أخي، حكاية شبابي. لا تنظر أبداً إلى امرأة وسرّ دائماً بعينين ثابتين على الأرض، إذ أنك، مهما تكن طاهراً وهاهدناً فستكفي دقيقة لتجعلك تخسر الأبدية.

(1) في إيطاليا، بجوار فينيسيا.

الفارس المزدوج⁽¹⁾

من الذي يجعل الشقراء إدفيج على هذه الدرجة من الحزن؟ ماذا عساها تفعل جالسة على انفراد، ذقنها في يدها ومرفقها على ركبته، أشد غمًا من اليأس، أشد شحوباً من تمثال الجبس الذي يبكي على قبر؟
دمعة كبيرة تسيل من زاوية جفنها على زغب خدها، دمعة واحدة، لكنّها لا تجفّ أبداً؛ تماماً مثل قطرة الماء التي تنضح من أعالي الصخرة وتأتي على الصوّان بمرور الزمن، تلك الدمعة الوحيدة، المترققة بلا انقطاع من عينيها إلى قلبها، شقّتها واخترقتها تماماً.

إدفيج، يا إدفيج الشقراء، ألم تعودى مؤمنة بالمسيح المخلص الوديع؟ هل تشكّين في غفران القديسة الطاهرة مريم العذراء؟ لم لا تكفّين عن وضع يديك الصغيرتين الشفّافتين، النحيلتين والرققتين مثل أيدي جنّيات الأساطير، على خاصرتك؟ ستصيرين أمّا؛ تلك كانت أعزّ أمنية لديك؛ زوجك النبيل، الكونت لودبروغ نذر مذبحاً من الفضة الخالصة وحُقّة قربان من الذهب الصافي لكنيسة سان-أوتبير إذا أنجبت له ابناً.
يا للأسف! يا للأسف! قلب إدفيج المسكينه مخترق بسيوف الألم السبعة؛ وهناك سرّ فظيع يثقل على روحها. منذ بضعة أشهر، حلّ شخص غريب بالقصر؛ كان الطقس رهيباً تلك الليلة: الأبراج تهتزّ في هياكلها، دوّارات الريح تتحب، النار تزحف في المدفأة والريح تخبط الزجاج مثل متطفّل ملحاح يريد الدخول.

(1) نُشرت للمرّة الأولى في مجلّة *Le Musée des familles*، في عدد تمّوز 1840.

كان ذلك الشخص الغريب جميلاً مثل ملاك، لكنّه كان مثل ملاك
 حطّ أرضاً؛ كان يبتسم بلطف وينظر بلطف، ومع ذلك كانت تلك النظرة
 وتلك الابتسامة تجعلان المرء يتجمّد من الرعب، وتبعثان فيه الهلع الذي
 يحسّ به لدى انحنائه على هاوية. كان لطفاً فاسقاً، سقاماً خادعاً مثل
 خداع النمر المترصد فريسته، كلّ ذلك كان يرافق كلّ حركاته؛ إذ أنّه كان
 يبهر بطريقة الثعبان الذي يفتن الطائر.

ذلك الغريب كان مبتزاً؛ سحنته المسفوعة تشير إلى أنّه عرف سموات
 أخرى؛ قال إنّه يأتي من أعماق بوهميا⁽¹⁾، ويطلب الضيافة لتلك الليلة
 فقط.

مكث تلك الليلة، ثمّ أياماً أخرى ثمّ ليليّ أخرى، لأنّ العاصفة لم
 تهدأ، والقصر القديم يهتزّ فوق أسسه كما لو أنّ الزوبعة شاءت قلعه من
 جذوره وإسقاط تاج فتحاته العليا المتتابعة في مياه السيل الزبدة.
 ولكي يسحرّ الوقت كان ينشد قصائد غريبة تعكّر القلب وتشحن
 بأفكار ساخطة، وطيلة إنشاده يقف غراب أسود مبرنق ولامع مثل
 السبج على كتفه؛ كان يوقّع النغم بمنقاره الأبنوسيّ ويبدو كأنّه يصفق له
 بجناحيه. - تشحب إدفيج، تشحب مثل زنابق ضوء القمر: تحمّر إدفيج،
 تحمّر مثل ورود الفجر، وتراجع إلى الخلف في أريكتها الكبيرة، واهنة،
 شبه ميتة، منتشية كما لو أنّها استنشقت العطر المهلك، عطر تلك الزهور
 القاتلة.

وفي نهاية المطاف تمكّن المبتزّ من الرحيل؛ إذ أشرقت السماء بابتسامة
 صغيرة زرقاء. ومنذ ذلك اليوم، لم تعد إدفيج، إدفيج الشقراء، تقوم

(1) بوهميا: منطقة تاريخية في أوروبا الوسطى. تحتلّ الأجزاء الغربية ومعظم الأجزاء الوسطى
 من جمهورية التشيك.

بشيء آخر غير البكاء في زاوية النافذة.

إدفيج هي الآن أم؛ لها طفل جميل في منتهى البياض والحمرة. وكان الكونت العجوز لودبروغ قد أوصى السبّاك بتجهيز المذبح المسبوك من الفضة الخالصة، وأعطى الصائغ ألف قطعة ذهبية، في صرة من جلد أيل الرنة، كي يصنع حُقّة القربان؛ وسوف تكون واسعة وثقيلة ويمكنها استيعاب كمية كبيرة من النيذ. والخوري الذي سيفرغها يمكنه القول إنه شريب جيّد.

الطفل في منتهى البياض والحمرة، لكنّه يمتلك نظرة الغريب السوداء: لقد تأكّدت أمه من ذلك. آه! يا لإدفيج المسكينة! لم أطلت النظر إلى الغريب صاحب القيثارة والغراب؟...

عمد الكاهنُ الطفل؛ -وأعطي اسم أولوف، اسم جميل حقًا- وصعد المنجّم إلى أعلى برج كي يقرأ طالعه.

كان الطقس صحواً وبارداً: ومثل فكّ ذئب ذي أسنان بيضاء حادة، كان هناك مقطع جانبيّ لجبال مغطّاة بالثلوج تعضّ ذيل فستان السماء؛ فيما كانت النجوم الكبيرة الشاحبة تلمع في بهرة الليل الزرقاء مثل شمس من فضة.

قاس المنجّم الارتفاع، سجّل السنة واليوم والدقيقة؛ أجرى حسابات طويلة بالحبر الأحمر على ورق طويل من الرق كلّ منجّم بعلامات سحرية؛ عاد إلى حجرته ثمّ صعد من جديد إلى السطح، لا شكّ أنّه لم يخطئ في حساباته، مسألة الولادة عنده صحيحة مثل ميزان دقيق لوزن الأحجار الكريمة؛ مع ذلك أعاد حساباته: كلاً، لم يخطئ.

الكونت الصغير أولوف له نجهان، أحدهما أخضر والثاني أحمر، أخضر مثل الأمل، وأحمر مثل الجحيم؛ أحدهما ملائم، والآخر كارثي.

هل سبق يا ترى أن كان لطفل نجمٌ مزدوج؟

دخل المنجم، بسحنة صارمة ومتصنعة إلى غرفة النفساء وقال وهو يمرّ يده العظمية في تجعدات لحيته، لحية الساحر:

«أيتها الكونتييسة إديج، وأنت أيها الكونت لودبروغ، هناك تأثيران تحكّما في ولادة ابنكما الأثير أولوف: أحدهما جيّد والثاني سيئ؛ ولذا كان له نجم أخضر وآخر أحمر. إنّه يخضع إلى طالع مزدوج؛ وسوف يكون سعيداً جداً أو تعيساً جداً، لا أعلم أيهما سيتغلّب؛ ربّما الاثنان معاً».

أجاب الكونت لودبروغ المنجم: «سوف ينتصر النجم الأخضر». غير أنّ إديج كانت تخشى من أعماق قلب الأم أن تكون الغلبة للأحمر. أعادت وضع ذقنها في يدها وكوعها على ركبته، وعادت إلى البكاء عند زاوية النافذة. لم يعد لها من شاغل، بعد إرضاع طفلها، سوى أن تشاهد، عبر النافذة، سقوط الثلج في نُدْف كثيفة وسريعة، كما لو تمّ نَف ريش الأجنحة البيضاء لكلّ الملائكة في الأعلى.

بين الفينة والأخرى يمرّ غراب أمام زجاج النافذة، ناعقاً ونافضاً ذلك الغبار الأبيض. وذلك ما يجعل إديج تفكّر في الغراب المتفرّد الذي كان يقف دائماً على كتف الرجل الغريب ذي نظرة النمر الهادئة، وابتسامة الأفعى الفاتنة. فتنهمر دموعها مسرعة من عينيها إلى قلبها، قلبها الذي أصيب تماماً.

الطفل أولوف غريب حقاً: كأنما يوجد في بشرته الصغيرة البيضاء المحمّرة طفلان بطبعين مختلفين؛ ففي يوم، يكون هادئاً مثل ملاك، وفي يوم آخر يكون شرساً مثل شيطان، فيعضّ ثدي أمه، ويمزّق بأظفاره وجه مربّيته.

أما الكونت العجوز لودبروغ فيضحك داخل لحيته الرمادية ويقول

إن أولوف سوف يكون جندياً جيّداً وإن له مزاجاً قتاليّاً. ذلك أن أولوف طفل ظريف لا يطاق: تارةً يبكي وطوراً يضحك؛ وهو نزق مثل القمر، غريب الأطوار مثل امرأة؛ يذهب ويعود ويتوقّف فجأةً دون سبب ظاهر، يتخلّى عمّا بدأ فيه ويتوخّى السكون المطلق بعد الصخب المقلق؛ ومهما كان وحده فإنه يبدو منهمكاً في حوار مع مخاطب لامرئيّ! وعندما يُسأل عن سبب كلّ ذلك الهياج، يجيب بأنّ النجم الأحمر يعذّبه.

وسرعان ما بلغ أولوف الخامسة عشرة. صارت طباعه غير مفهومة أكثر؛ ورغم جمال مظهره كان ذا تعابير محيرة؛ كان أشقر مثل أمّه مع كلّ ملامح أهل الشمال؛ لكن تحت جبينه الأبيض مثل ثلج لم يجرّزه بعدُ مزليج الصياد ولم تدنّسه قدم الدب، وهو فعلاً جين السلالة القديمة لآل لودبروغ، تبرق بين جفنين برتقاليّتين عين ذات رموش طويلة سوداء، عين سبج ملتعبة بالاضطرام الوحشيّ للشغف الإيطاليّ، نظرة مخمليّة، قاسية ومتكلّفة اللّطف مثل مبتزّ بوهيميا.

كم أنّ الشهور تطير، وأسرع منها الأعوام! هيّ ذي إدفيج تثوي الآن تحت الأقواس المعتمّة لسرداب آل لودبروغ، بجانب الكونت العجوز وهو يتسم في نعشه لتأكّده أنّ اسمه لم ينقرض. كانت من الشحوب في حياتها بحيث لم يغيّر لها الموت كثيراً. على قبرها يوجد تمثال جميل نائم، بيدين مضمومتين، وقدمين على كلبة سلوقية من رخام، في رفقة وفيّة للموتى. ولا أحد يعرف ماذا قالت إدفيج عندما أزيّفت ساعتها، غير أنّ الكاهن الذي كان يتلقّى اعترافاتها صار شاحباً أكثر من المحتضّرة.

واليوم يبلغ أولوف، الابن الأسمر والأشقر لإدفيج المأسوف عليها، عشرين عاماً. وهو ماهر في كلّ التمارين؛ فلا أحد يبرع في القوس مثله، وبإمكانه شقّ السهم الذي انغرز لتوّه مرتعشاً في قلب الهدف؛ كما يستطيع

ترويض الخيول الأكثر وحشية من دون شكيمة أو مهماز.
 ولم ينظر يوماً إلى امرأة أو فتاة إلا وظفرَ بقلبيها؛ لكن لا واحدة من
 كل من أحبينه كانت سعيدة. ذلك أنّ عدم التكافؤ المشؤوم في طباعه
 يتعارض وكلّ تحقيق للسعادة بينه وبين امرأة. كان نصفٌ منه يشعر
 بالشغف والآخر يُبدي البغض؛ مرّة يكون النصر للنجم الأخضر، ومرّة
 للنجم الأحمر. ذات يوم يقول: «يا عذرات الشمال البيضاء، أيتها
 المتلألئات والنقيات مثل جليد القطب؛ يا حدقات ضوء القمر؛ يا حدوداً
 متدرجة اللون بنضارة شفق القطب الشمالي!» بينما يهتف في يوم آخر:
 «يا بنات إيطاليا المذهبات بالشمس، أيتها الشقراوات مثل برتقالة! يا
 قلوباً من هيب في صدور من برونز!» والمحزن أكثر، أنه يكون صادقاً في
 الحالين.

وا أسفاه! أيتها المسكينات القانطات، أيتها الظلال الحزينة المنتحبة،
 لن تتمكن حتى من لومه، فأنتن تعرفن جيداً أنه أشد بؤساً منكّن؛ وقلبه
 أرض لا تنفك تدوسها أقدام المتصارعين المجهولين، وكلاهما، كما في
 صراع يعقوب والملاك⁽¹⁾، يسعى إلى كسر ركة خصمه.
 ولو أنّ أحدهم قصد المقبرة، تحت الأوراق المخملية العريضة لأذان
 الدب ذات الحزوز العميقة، أو تحت شجيرات البروق ذات الفروع
 الخضراء الموبوءة، أو بين الشوفان الهائج والقراص، لوجد أكثر من حجر
 مهجور لا يبكي عليه إلا ندى الصباح.
 مينا، دورا، تكلا! هل التراب ثقيل على نهودكّن الناعمة وأجسادكّن
 الفاتنة؟

(1) صراع يعقوب مع الملاك هو حلقة معقدة من «العهد القديم»، في الفصل 32 من سفر
 التكوين، أدت إلى العديد من التفسيرات والمناقشات.

ذات يوم نادى أولوف حوذّي عربته الوفيّ ديتريش؛ وطلب منه تسريح حصانه.

«سيّدي، انظر كيف يتساقط الثلج، وكيف تهبّ الريح وتحني ذرى الصنوبر إلى مستوى الأرض؛ ألا تسمع في البعيد عواء الذئاب الهزيلة، ونزيب⁽¹⁾ الأيائل المحتضرة مثل أرواح مطهريّة تائهة؟

- ديتريش، أيّها الحوذّيّ الوفيّ، سوف أنفض الثلج مثل زغب يلتصق بمعطف، وأعبر تحت تقويسات الصنوبر بإحناء عفرة خوذتي قليلاً. أمّا بالنسبة للذئاب فسوف تنفّل على معدن هذه البدلة، وبدؤابة سيفي سوف أنقّب في الجليد لأعثر على أيل بائس يتأوّه ويبكي بدموع حرّى بحثاً عن الطحالب المزهرة التي لا يتوصّل إلى بلوغها».

انطلق الكونت أولوف دو لودبروغ، وهما اسمه وكنيته منذ موت الكونت العجوز، على صهوة أحسن حصان، برفقة كلبيه العملاقين، مورغ وفنريس⁽²⁾، ذلك أنّ السيّد الشابّ ذا الجفون البرتقالية كان على موعد، وربّما كانت الفتاة القلقة تنحني الآن على الشرفة المنحوتة، رغم البرد والريح الشمالية، وتحاول تمييز ريشة قُبعة الفارس عبر بياض السهل، من أعلى البرج الصغير المخروطيّ والحادّ.

تقدّم أولوف عبر الحقول الريفية، على صهوة حصانه الضخم الشبيه بفيل، ناخزاً جنبه بضربات المهماز؛ اجتاز البحيرة التي حوّها البرد إلى مجرد كتلة جليديّة ترصّعها الأسماك بزعانف ممدودة مثل تمحجر في عجينة مرمر؛ حدوات الحصان الأربع المزوّدة بخطافات معقوفة تنهش السطح القاسي بقوّة؛ فيما ضباب ناجم عن عرقه وتنفّسه يغطّيه ويتبعه؛ فيبدو

(1) النزيب: هو صوت الأيل.

(2) استعار المؤلّف للكلبين اسم مورغ Murg، وهو نهر يجري في ألمانيا، من روافد الراين، واسم فنريس Fenris، وهو ذئب مخيف في الميثولوجيا الإسكندنافية.

كأنه يركض في غيمة؛ أما الكلبان مورغ وفنريس فكانا على الجانبين من سيدهما، ينفثان دفعات طويلة من الدخان عبر خطميها النازفين مثل حيوانات أسطورية.

هي ذي غابة الصنوبر؛ وكأنها أشباح تمدّ أذرعتها المثقلة والمحملة بأغطية بيضاء؛ ثقل الثلج يحني أكثرها جدّة وطرّاة: تبدو كأنها متوالية من الأقواس الفضية. الرعب الأسود يقطن في هذه الغابة حيث تتخذ الصخور أشكالاً عملاقة، وحيث كلّ شجرة تبدو جذورها وكأنها تحضن وكرّ تنانين خديرة. لكن أولوف لا يعرف الدّعر.

بدأ الدرب يضيق أكثر فأكثر، فتتعانق أغصان الصنوبر الكثيرة بطريقة لا يمكن فكّها؛ ولم تكن لتلوح سوى فرجات نادرة تسمح برؤية سلسلة الهضاب الثلّجة التي تظهر جانبياً من خلال تموجات بيضاء على السماء السوداء الكدرة.

من حسن الحظّ أنّ الحصان موبس فرس قويّ من شأنه حمل أودن العملاق⁽¹⁾؛ ولن يوقفه أيّ عائق؛ فهو يقفز فوق الصخور، ويمتاز المستنقعات، ومن وقت إلى آخر يستخرج من الأحجار التي يصدمها حافره تحت الثلج خيطاً من شرر سرعان ما ينطفئ.

«هيا بنا، يا موبس، تشجّع! لم يبق لك إلا اجتياز السهل الصغير وغابة البتولا؛ وسوف تلاطف يد جميلة عنقك الصقيل، وفي إسطنبول دافئ سوف تتناول الشعير المغريل والشوفان بكميات كبيرة».

ما أجمل مشهد غابة البتولا! كلّ الأغصان مبطّنة بوبّر من جليد، الأفنان الدقيقة ترسم باللون الأبيض على ظلمة الجوّ: كأنها هي سلّة

(1) أودن Odin: الاسم الاسكندنافي للإله الجرمانى فوتان Wotan. له، مثل أغلب الآلهة في ميثولوجيا البلدان الشمالية، التي يُعدّ هو أكبرها، وظائف عديدة، فهو إله الموتى والحرب والمعرفة.

كبيرة من فتائل مجدولة، عروق فضة متشعبة، مغارة بكل رواسبها الكليسيّة المتحجرة. إنّ الأغصان المتشابكة والأزهار الغريبة التي يرسمها الجليد على واجهات البلور لا تقدّم رسوماً أكثر تعقيداً وتنوعاً.

«سيدي أولوف، كم أبطأت! خفتُ أن يكون دبّ الجبل قد قطع عليك الطريق أو أن تكون الجثيات قد دعونك للرقص، قالت فتاة القصر وهي تدعو أولوف إلى الجلوس على أريكة السنديان قرب المدفأة. لكن، لم جئت إلى موعد الغرام مع مُرافق؟ أكنت خائفاً من اجتياز الغابة بمفردك؟»

- عن أيّ مرافق تتحدّثين، يا زهرة روعي؟ قال أولوف لفتاة القصر وهو في منتهى الذهول.

- أقصد الفارس صاحب النجم الأحمر الذي دأبت على جلبيه معك دائماً. ذلك الذي وُلد من نظرة المغني البوهيمي، الروح النحسة التي تملكك؛ تخلص من فارس النجم الأحمر، وإلا فلن أصغي أبداً إلى كلامك العاشق؛ لا يمكنني أن أكون امرأة لرجلين في آن». وعبثاً ما فعل أولوف وما قال، لم يتمكن حتى من تقبيل خنصر برندا الوردية؛ ارتحل غير راضٍ بتاتاً ومقرّاً العزم على مواجهة فارس النجم الأحمر إن تمكّن من لقائه.

ورغم الاستقبال الصارم الذي خصّصته له برندا، عاد أولوف في الغد ليسلك طريق البرج الصغير المخروطي الشكل: فالعشاق لا يتبادلون النفور بسهولة.

وفي طريقه كان يخاطب نفسه قائلاً: «لعلّ برندا مجنونة؛ ثم ماذا عساها تقصد بفارسها صاحب النجم الأحمر؟»

كانت العاصفة من أعنف العواصف؛ الثلج يدوم ولا يكاد يتيح

التمييز بين الأرض والسماء. وهناك تجمع لولبيّ لرفّ غربان، كانت رغم نباح فنريس ومورغ المتقافزين في الهواء للإمساك بها، تحوم بشؤم فوق الريشة التي تعلو قبعة أولوف. وفي مقدّمة رفّ الغربان كان يوجد ذلك الغراب اللامع مثل السبج والذي كان يوقّع النغم على كتف المنشد البوهيميّ.

توقّف فنريس ومورغ فجأة: تشمّم منخراهما المتحرّكان الهواء بقلق؛ لقد تشمّمًا حضورَ عدوّ. لا يمكن أن يكون ذئبًا ولا ثعلبًا؛ فالذئب والثعلب لا يشكّلان سوى لقمة سائغة لهذين الكلبين الجريئين.

سُمع وقع خطوات، وسرعان ما لاح في منعطف الدرب فارس يمتطي حصاناً عملاقاً ويتبعه كلبان ضخمان.

كان يمكنك أن تحسبه أولوف. كان مسلّحاً مثله تماماً، مع معطف مزخرف بشخوص ترمز إلى شعار التّسبب نفسه؛ لكنّ الفارق الوحيد يتمثّل في كون خوذته مزدانة بريشة حمراء بدل أن تكون خضراء. كان الطريق من الضيق بحيث يستوجب من أحد الفارسين التراجع إلى الوراء.

«يا سيّد أولوف، تراجع إلى الوراء حتّى أمرّ، قال الفارس ذو واقية الوجه المسدلة. إنني أقوم برحلة طويلة؛ وهناك من ينتظرنني، لا بدّ أن أصل:

- أقسم بشارب أبي، أنت الذي سوف تتراجع إلى الخلف. أنا ذاهب إلى موعد غراميّ، والعشاق مستعجلون»، أجاب أولوف واضعاً يده على مقبض سيفه.

استلّ الشخص المجهول سيفه، وبدأت المعركة. كان السيفان ينقضّان على البدلتين المزردتين بالمعدن الصّلب، فينبعث منهما شرر

مفرقع؛ وسرعان ما صار السيفان، رغم جودة مسقاهما، مثلومين مثل منشارين. وكان يمكن للمرء أن يحسب المتصارعين، من خلال دخان حصانيتها وضباب تنفستها اللاهث، حدادين زنجيين منكيين بضراوة على قطعة حديد محمّرة. كان الحصانان، وقد حرّكها الهياج نفسه الذي تملك سيديهما، يتبادلان عضّ عنقها حيث الأوردة، ويقتطعان مرقاً من الصدر؛ كانا يتحرّكان هائجين بقفزات فجائية عنيفة، ويتصبان على القائمتين الخلفيتين ويستخدمان حوافرها مثل قبضات مغلقة؛ كانا يتبادلان ضرباً مبرحاً بينما يتضارب فارساهما فوقهما؛ أما الكلاب فلم تعد سوى عواء وعضّ.

كانت قطرات الدم التي ترشح عبر الزرد المتشابك لشكّتي المتقاتلين وتسقط فاترة على الثلج، تترك عليه حُفراً صغيرة وردية. وبعد لحظات بدت تلك القطرات كما لو أنّها تسقط من غربال بسبب تواترها وتسارعها. كان الفارسان جريحين.

الشيء الغريب أنّ أولوف كان يحسّ بالطعنات التي يوجهها للفارس المجهول؛ كان يتألم من الجروح التي يتسبب بها ومن تلك التي يتلقاها: أحسّ ببرد شديد في صدره، كما لو كان ربحاً ينفذ سنانه إلى القلب، مع أنّ درعه لم تُصّب بأيّ اعوجاج عند موضع القلب: كان جرحه الوحيد يتمثل في طعنة في لحم الذراع اليمنى. يا لها من مبارزة متفرّدة حيث المنتصر يتألم كما يتألم المنهزم، وحيث التسديد والتلقي أمران لا يختلفان.

بعد أن استجمع أولوف قواه استطاع بضربة خلفية أن يطير خوذة خصمه القويّة. - يا للهول! ماذا رأى ابن إدفيج ولودبروغ؟ لقد رأى نفسه أمام نفسه: ولو كان هناك مرآة لكانت أقلّ دقة. لقد تقاتل مع شبحه الشخصي، مع فارس النجم الأحمر؛ أطلق الشبح صرخة مدوية

واختفى.

عاد رفّ الغربان اللولبيّ الشكل محلّقاً نحو السماء وتابع أولوف الشجاع طريقه؛ ولدى عودته في المساء إلى قصره، كان يُردف وراءه فتاة القصر التي رغبت في الإصغاء إليه هذه المرّة. وبما أنّ فارس النجم الأحمر لم يعد موجوداً، فقد قرّرت أن تترك هذا الاعتراف يسقط من بين شفيتها الورديتين إلى قلب أولوف، رغم ما يكلفه هذا الاعتراف من مساس بالحياة. كان الليل صافياً وأزرق، رفع أولوف رأسه باحثاً عن نجمة المزدوج كي يريه لخطيبته: لم يعد هناك إلا النجم الأخضر، لقد اختفى الأحمر.

عندما دخلت برندا سعيدة بهذه الأعجوبة التي نسبتها للحبّ، تبهت الفتى أولوف إلى أنّ سيج عينيه الأسود تحوّل إلى اللون اللازورديّ، وهو لون يدلّ على علامة التصالح السماويّ. ولا شكّ أنّ السيّد لودبروغ العجوز كان يتسم مرتاحاً تحت لحيته البيضاء في قاع قبره؛ ذلك أنّه رغم عدم ذكره للأمر فقد سبق لعينيّ أولوف أن دفعته إلى التفكير. - أمّا طيف إدفيج فهو في منتهى السعادة، ذلك أنّ ابن السيّد لودبروغ النبيل تمكّن أخيراً من التغلّب على التأثير الخبيث للعين البرتقالية والغراب الأسود والنجم الأحمر: الإنسان صرّع الروح الشريرة الحَضون.

هذه الحكاية تبيّن كيف أنّ لحظة نسيان واحدة، ونظرة واحدة مهما كانت براءتها، يمكن أن يكون لهما تأثيرهما.

فيا أيّتها الفتيات، لا تلقين بنظراتكن على المبتزّين البوهيميّين المُنشدّين الذين يردّدون أشعاراً مُثمّلة وشيطانية. أنتنّ أيّتها الفتيات، لا تثقنّ إلاّ بالنجم الأخضر؛ وأنتم يا من تعانون من بؤس الإزدواجيّة، قاتلوا العدو الداخليّ، الفارس الخبيث، بشجاعة، حتّى لو توجّب عليكم ضرب

ذواتكم وجرح أنفسكم بسيوفكم الشخصية.
وإذا سألتكم من الذي جلب لنا هذه الأسطورة من النرويج، فإنه
بجعة؛ طائر أبيض جميل ذو منقار أصفر، اجتاز «الفيورد»⁽¹⁾، عائماً تارةً
ومحلّقاً طوراً.

(1) الفيورد (fjord) في الإبلاء النرويجي القديم و fiord في الحديث): وادٍ متاخم لبحر، تغزوه
المياه البحرية ما إن تنحسر عنه طبقات الجليد.

قَدَم المومياء⁽¹⁾

بسبب العطالة، دخلتُ إلى محلِّ أحد تجار الأشياء العتيقة النادرة الذين يُسمّون تجار العاديّات باللّهجة الباريسية التي يصعب فهمها بالنسبة لبقية فرنسا.

لعلّك ألفت يوماً نظرة، عبر زجاج النافذة، على بعض تلك الدكاكين التي ازداد عددها منذ أن انتشرت دُرُجة اقتناء الأثاث القديم، وصار أبسط صرّاف يعتقد أنّه مجبر على امتلاك غرفته العائدة إلى القرون الوسطى.

وهو محلٌّ يجمع عادةً بين دكان الخردة ومحلّ بائع السجاد والتُّجود، ومختبر الخيميائي، وورشة الرسّام؛ وفي هذه الكهوف السريّة حيث تمرّ المصاريح نوراً ضعيفاً حذراً، لا يوجد ما هو عتيق حقّاً إلا الغبار؛ فسيج العناكب فيها أكثر أصالة من التخاريم الزخرفية الواسعة الفتحات، وشجرة الإجاص العجوز، هنا، أجَدّ من الأكاجو الذي وصل البارحة من أمريكا.

كان دكان العاديّات لتاجري هذا مستودعاً حقيقياً لما هبّ ودبّ من أدوات هي من سقط المتاع؛ حتّى لتبدو كلّ القرون وكلّ البلدان قد تواعدت فيه؛ مصباح أتروري⁽²⁾ من طين أحمر ينتصب فوق خزانة من طراز بول⁽³⁾ ذات خشب من الأبنوس المجرّح بقوّة بأسلاك نحاسية؛

(1) نُشرت للمرّة الأولى في مجلّة *Le Musée des familles*، عدد أيلول 1840.

(2) من أتروريا، كانت تقع قديماً غربيّ إيطاليا.

(3) أندريه-شارل بول André-Charles Boule (1732-1642): نجار أبنوس في عهد =

وهناك دوقه من عهد لويس الخامس عشر تمدّ بلا مبالاة ساقها الشبهتين بقائمتي ظبية تحت مائدة سميكة تعود إلى عهد لويس الثالث عشر، مع أشكال لولبية من خشب السنديان ومنحوتات تختلط فيها أوراق الأشجار والمخلوقات الخرافية.

وفي إحدى الزوايا درع محارب مرصع من ميلانو يلعب عند وسطه الموشح؛ تماثيل حبّ وحواريّات من الخزف، تماثيل صينية، أقماع بورسلين مجرّعة ذات لون أخضر فاتح، فناجين من الخزف السكسوني، وخزف فاخر من صنع مدينة سيفر الفرنسية، تغصّ بها الرفوف والزوايا.

على الرفوف المستننة لخزائن الأطباق تلمع صحون كبيرة من اليابان، ذات رسوم حمراء وزرقاء ونافرة بحزوز ذهبية، متجاورة مع فخاريّات أخرى للخزاف برنار باليسي⁽¹⁾ تمثل أحناشاً وضافدع وعظايا ناتئة.

ومن الخزائن المخلوعة تخرج شلالات من حرير اللّباس الصيني مطعمة بالفضة وسيول من السندس المزخرف تخترقه حبيبات ضوئية متأتية من شعاع شمسيّ مائل؛ وبورتريات من كلّ العصور تبتسم عبر برنيقها الأصفر داخل إطارات باهتة بهذا القدر أو ذاك.

كان التاجر يتبعني حذراً عبر الممرّات الملتوية بين أكوام الأثاث، مخفضاً بيده الانطلاق المجازف لأذيال ثيابي، مراقباً مرفقيّ بيقظة تاجر العاديّات والمرابي.

كان وجه التاجر متميّزاً: جمجمة ضخمة مصقولة مثل ركة، تحيط بها هالة هزيلة من الشعر الأبيض يزيد في إبرازها لون البشرة المورد، فيكسبه ذلك ملامح مزيفة لسذاجة أبوية يعدّها قليلاً لمعان عينيه الصغيرتين

= لويس السابع عشر ولويس الثامن عشر، صار طراز الأثاث أيضاً يحمل اسمه.

(1) برنار باليسي Bernard Palissy (حوالي 1510-1589): خزاف وزخرفيّ وعالم وكاتب، فرنسي.

الصفراوين اللتين ترتعشان في محجريهما مثل ليرتين ذهبيتين فوق الزئبق. وكان لأنفه المعقوف ظلُّ ألقى يذكرُّ بالنوع الشرقي أو اليهودي. أما يده الضامرتان الرقيقتان المعرّقتان والمملوءتان بعروق ناتئة مثل أوتار مقبض الكمان، بأظافرها المخليّة التي تشبه نهايات الأجنحة الغشائية لدى الخفافيش، فكانتا تتميزان بحركة اهتزاز مقلقة تظهر مع الشيخوخة؛ غير أنّ تينك اليدين المهترتين برجفة عصبيّة دائمة تصيران أصلب من فكّي كلابة حديدية أو من كلابة سرطان البحر عندما يتعلّق الأمر برفع غرض ثمين، مثل كوبٍ عقيق، أو كأس من فينيسيا أو طبق كريستال من بوهيميا؛ كان لهذا العجوز الطريف مظهر أشبه ما يكون بالمظهر الحاخاميّ والقبلائيّ، بحيث كان من الممكن حرقه انطلاقاً من هيئته، قبل ثلاثة قرون.

«ألن تشتري منّي شيئاً اليوم يا سيدي؟ هوذا خنجر من مالي، معقوف ذو شفرة تتموّج مثل شعلة لهب؛ انظر إلى هذه الحزوز لتقطير الدم، وهذه التسنينات في الاتجاه المعكوس من أجل قلع الأحشاء أثناء استخراج الخنجر، إنّهُ سلاح فتاك، وذو ميزات جميلة ومن شأنه أن يزيّن مجموعتك التذكارية؛ هذا السيف ذو المقبضين جميل جداً، ويعود إلى جوزيه ديلا هيرا، وهذا السيف الطويل والثقيل ذو الصدفة المثقّبة، يا له من شغل متقن!

- كلاً يكفيني أسلحة وأدوات مجازر؛ أرغب في تمثال صغير، أيّ شيء يمكنني استخدامه لتوظيف الأوراق، لأنني لم أعد أستطيع كل هذه التماثيل البرونزية الرخيصة التي يبيعهها الورّاقون ونجدها متكرّرة فوق كلّ المكاتب».

وبدأ راصد الكنوز القزم العجوز ينقّب بين أغراضه القديمة، فعرض

أمامي قطعاً برونزية عتيقة أو ادعى أنها كذلك، وقطعاً من الدهنج⁽¹⁾،
وتماثيل صغيرة لآلهة هندية أو صينية، تمثل بوذا من اليشب، أو تجسيدا
لبراهما أو فيشنو في منتهى الصيانة والنظافة يمكنها أن تستخدم في هذه
المهمة غير الإلهية والمتمثلة في توظيف صحف ورسائل.

كنت متردداً بين التين الخزفي المزخرف بالثاكيل بغمه المزين بأسنان
معوجة وحزوز شائكة، وبين تماثيل مكسيكي صغير شنيع جداً، يمثل
بشكل طبيعي إله الحرب ويتزيليوتزيلي، عندما لمحت قدماً فاتنة حسبته
للوهلة الأولى قطعة من فينوس القديمة.

كان لها تلك اللوينات الجميلة الشقراء والصهباء التي تضيء على
برونز فلورنسا ذلك المظهر الدافئ والمتألق، وهو أفضل بكثير من النوع
الزنجاري المسحة، الذي تتصف به قطع البرونز الاعتيادية التي يمكن
حسابها تماثيل في طور الانحلال: كان هناك لمعان صقيل يرتعش على
أشكالها المستديرة والمجلوة بفعل عشرين قرناً من القبل العاشقة؛ وقد
تكون برونزاً من كورنثة، عملاً من أعمال الحقبة الأجل، وربما من سنك
ليسيب!⁽²⁾

«هذه القدم ثلاثمني»، قلت للتاجر الذي نظر إليّ بمظهر ساخر وماكر
وهو يمد لي الغرض المطلوب حتى أتمكن من فحصه بطريقة أفضل.
فوجئت بخفتها؛ لم تكن قدماً من معدن، بل كانت من لحم حقيقي،
كانت قدماً محطّطة، قدم مومياء: وإذا دققنا النظر عن قرب نستطيع تمييز
حبيبات الجلد وأثر بصمة شبه غير مرئية تركه عليها نسيج الضمادة.
كانت الأصابع دقيقة، هشة، تنتهي بأظافر سليمة، صافية وشفافة مثل
(1) الدهنج malachite: نوع من الأحجار يتكوّن من كربونات النحاس الطبيعي غير المحتوية
على الماء.

(2) ليسيبي السكيوني Lyssipe de Sicyone نحّات إغريقي (395-305 ق م).

أحجار العقيق؛ كان الإبهام، المنفصل قليلاً، يتعارض، لحسن الحظ، مع مستوى الأصابع الأخرى على الطريقة القديمة، ويكسبه نوعاً من التحرّر، ورشاقة قدم طائر؛ وكان باطن القدم الذي لا تكاد تشوبه بضعة حزّات غير مرئية، يُظهر أنه لم يمسس الأرض قطّ، ولم يكن في اتصال إلا بأرقّ حصائر قصب النيل وأنعم سجّادات جلود الفهود.

«هاها! تريد قدم الأميرة هرمونتيس»⁽¹⁾ قال التاجر وهو يضحك ضحكة غريبة وثبت في عينيه اللتين تشبهان عينيّ بومة: هاهاها! من أجل توظيف الأوراق! فكرة أصيلة، فكرة فنان؛ لا شك أنّ الفرعون العجوز سيفاجأ حقاً لو أخبره أحدهم بأنّ قدم ابنته الحبيبة سوف تُستخدم بصفتها ضاغطة أوراق، بينما كان يأمر بحفر جبل من الصوان كي يضع التابوت المثلث المرسوم والمذهب، مغطى كلّه بالكتابة الهيروغليفية مع رسوم جميلة تمثل محاسبة الأرواح، أضاف التاجر القصير الغريب الأطوار بصوت نصف مسموع وكأّنه يحدث نفسه.

- بكم ستبيعني هذا الجزء من المومياء؟
- آه! بأغلى ما يسعني ذلك، لأنّها قطعة رائعة؛ ولن يرضيني أن تحصل عليها بأقلّ من خمسمائة فرنك: لا شيء أندر من ابنة فرعون.
- بالتأكيد هي ليست من القطع العادية؛ لكن كم تريد في نهاية المطاف؟ أبتّك أولاً إلى أنّي لا أملك سوى خمس ليرات ذهبيّة. وعليه فلن أشتري سوى ما لا يزيد ثمنه على خمس ليرات ذهبيّة.
- قدّم الأميرة هرمونتيس بخمس ليرات ذهبيّة هذا قليل، قليل جداً في الحقيقة، هي قدّم أصليّة، قال التاجر وهو يهزّ رأسه ويرسم

(1) استعار الكاتب للأميرة اسم «أرمنت»، مدينة في صعيد مصر، على مقربة من الأقصر، سمّاها الإغريق «هرمونتيس» بشيء من التحوير لاسمها الأصليّ.

حركة دائرية ببؤبؤيه.

«هيا، خذها، وأتكرم عليك مجّاناً بغلافها أيضاً، أضاف وهو يلفّها في قطعة بالية من الدمقس؛ غلاف جميل جداً، دمقس حقيقي، دمقس هندي لم يُعدّ صبغُه قط؛ إنه متين وناعم»، هكذا ظلّ يتمتم ممزّراً أصابعه على القماش المخدوش، ببقيّة عادة تجارية تجعله يمتدح حتّى مثل هذه القطعة التافهة مع أنّه حكم عليها بأن تُعطى مجّاناً.

أدخل القطع الذهبية في ما يشبه كيس نقود من القرون الوسطى يحمله في زناره، مكرّراً:

«قدم الأميرة هرمونتيس مستخدمة بصفتها ضاغطة أوراق!»

بعد ذلك ثبت في محجريه الفوسفورين وقال لي بصوت حادّ مثل مواء قطّ بلع للتوّ حسكة سمك:

«لن يكون الفرعون العجوز راضياً؛ كان يحبّ ابنته، ذلك السيد العزيز.

- تتحدّث عنه وكأنك كنت من معاصريه؛ ومهما كنت متقدّماً في السنّ فأنت لا تنتمي إلى عصور الأهرامات»، أجبته ضاحكاً عند عتبة المحلّ.

عدت إلى البيت فرحاً جداً بما اقتنيت.

ولكي أستفيد فوراً ممّا اشتريت، وضعت قدم الأميرة الإلهية هرمونتيس على كومة ورق تضمّ بدايات قصائد، تشطبات فيفسائية غير قابلة للقراءة: بدايات مقالات، رسائل منسية وموضوعة في بريد دُرّجي، وتلك أخطاء كثيراً ما يقترفها شاردو الذهن؛ وكانت النتيجة رائعة، غريبة ورومنطيقية.

ولشدة فرحي بهذه الزينة الجديدة، نزلت إلى الشارع، وذهبت أتزّه

بصرامة ملائمة وكبرياء رجل يتفوق على كل الناس الذين يحاذيهم بميزة لا توصف، هي امتلاك قطعة من الأميرة هرمونتيس، ابنة الفرعون. شعرت بأن تفاهة عارمة تلف كل من لا يملكون مثلي ضاغطة أوراق مصرية بتلك الدرجة من الصيت التاريخي؛ وبدأ لي أن أصدق انشغال لدى رجل حفيف هو أن يمتلك على مكتبه قدم مومياء.

ومن حسن الحظ أن التقائي ببعض الأصدقاء جاء ليلهيني عن شغف الممتلك الجديد؛ فذهبت لتناول العشاء معهم، إذ كان سيصعب علي أن أتعشى وحيداً.

عندما عدت في المساء بدماع متحجر من نشوة الشرب دغدغت نفحة عطر شرقية غامضة جهازني التنفسي بلطف؛ كانت حرارة الغرفة قد خففت النظرون والقار والمر التي غمر بها محتطو الجثث جسد الأميرة، كان عطراً ناعماً رغم نفاذه، عطراً لم تتمكّن أربعة آلاف سنة من تبخيره. كان حلم مصر هو الأبدية: لروائعها متانة الصوان، وديمومته كذلك.

وسرعان ما تناولت عدة جرعات من الكوب الأسود للنوم؛ ظل كل شيء معتماً لساعة أو ساعتين، وكان النسيان والعدم يغرقاني بأمواجهما الداكنة.

وفي تلك الأثناء أضيئت عتمتي الذهنية، وبدأت الأحلام تلامسني بطيرانها الصامت.

انفتحت عيون روحي، ورأيت غرفتي كما كانت فعلاً: كان يمكنني الاعتقاد أنني مستيقظ، غير أن إدراكاً غامضاً كان ينبئني باحتمال حدوث شيء ما غريب.

ازدادت رائحة المرّ كثافة، وشعرتُ بصداع خفيف أرجعته بطريقة

منطقية جداً إلى بضعة أقداح من الشمبانيا كُنّا احتسيناها نخب الآلهة المجهولة ونجاحاتنا المستقبلية.

رحتُ أجول بنظري في غرفتي مع شعور غير مبرّر بالانتظار؛ كان الأثاث مرتّباً في أمكنته، والمصباح يشتعل في محمله مظلاً قليلاً بالبياض اللبني لزجاجته البلورية التي فقدت بعض لمعانها؛ وكانت الرسوم المائية تلمع عبر زجاجها المصنوع في بوهيميا؛ والستائر تتدلّى بوهن: كان كلُّ شيء يبدو نائماً وهادئاً.

مع ذلك، وبعد لحظات، بدأ هذا الداخل الهادئ جداً مقبلاً على الارتباك، كان خشب البيت يقرقع خفية؛ وفجأة أرسلت الحطبة المطمورة تحت الرماد نفثة غاز زرقاء، بينما لاحت أقراص المشاجب أقرب إلى عيون معدنية متنبهة مثلي للأشياء التي ستحدث.

حطّ بصري صدفةً على المائدة التي كنت وضعت عليها قدم الأميرة هرمونتيس.

وبدل أن تكون ثابتة كما هو شأن أيّ قدم محطّطة منذ أربعة آلاف سنة، رأيتها تتحرّك، تتشجّج وتنطّ على الأوراق مثل ضفدعة مذعورة: كان يمكن الاعتقاد أنّها في اتّصال ببطارية فولتية؛ كنت أسمع بوضوح تلك الضجّة بلا صدى التي يُصدرها كعبها الصغير الصلب مثل ظلف غزال. بدأت أشعر بقلة الرضى عما اقتنيت، لا سيّما أنّني من محبّي ضاغطات الأوراق الثابتة وليس من الطبيعي رؤية الأقدام تتجوّل بلا سيقان، حتّى أنّني بدأت أحسّ بما يشبه الرعب إلى حدّ بعيد.

فجأة رأيت طيّةً في إحدى ستائري تتحرّك، وسمعت وقع خطي يشبه من يقفز حجلاً على رجل واحدة. ولا بدّ أن أعترف بأنني أحسست بجسمي تتناوبه الحرارة والبرودة؛ وأنّ ريحاً مجهولة تنفخ على ظهري،

وشعري الذي انتصب أطاح بغطاء رأسي الليلي على بعد خطوتين أو ثلاث.

انفجرت الستائر، ورأيت أعرب وجه يمكن تخيله وهو يتقدم. كانت فتاة، سمراء غامقة السمرة، مثل الراقصة الهندية أماني⁽¹⁾، ذات جمال آسر وتذكر بالشخصية المصرية الأصيلة؛ كانت عيناها مرسومتين على شكل لوزتين مع زوايا مرفوعة وخاجباها في منتهى السواد إلى حدّ التحول إلى الزرقة، وكان أنفها منحوتاً بدقّة، يكاد يكون إغريقياً برقته، يجعل الرائي يحسبها تماثلاً برونزياً من كورنثة، لولا بروز الوجنتين والاكتناز الأفريقي نسيباً للقم وهما الدليلان، دون أدنى شكّ، على المجموعة الإثنية الهيروغليفيّة⁽²⁾ لضفاف النيل.

كانت ذراعاها الرقيقتان المخروطتان مثل سواعد البنتيات، مطوّقتين بها يشبه الأغلال المعدنية والأطواق الزجاجية؛ وكان شعرها مضفوراً على شكل أشرطة، وعلى صدرها يتدلّى تماثل إلهة مجبولة من خزف أخضر يدلّ سوطها المتفرّع إلى سبعة فروع على أتما إيزيس، راعية الأرواح؛ تلمع على جبينها صفيحة ذهب وبقايا زينة تنبثق تحت المسحة النحاسية لخدّياها. أما زيتها فكان في منتهى الغرابة.

تخيّل تنورة من الشرائط مزركشة بكتابات هيروغليفيّة سوداء وحمراء، منشأة بالزفت وتبدو كأنها تعود إلى مومياء تمّ تجريدها حديثاً من أقمطتها.

سمعتُ، من خلال إحدى القفزات الذهنية المعتادة في الأحلام، ذلك

(1) في العام 1838 زارت باريس فرقة رقص هندية، وحضر تيوفيل غوتيه عرض الراقصة أماني Amani برفقة الشاعر جيرار دو نرفال Gérard de Nerval (1808-1855) وكتب عنها بافتتان.

(2) كذا! في الأصل، وكما هو معلوم فما من مجموعة أنثية أو سلالة هيروغليفيّة.

الصوت النشاز والأبج لتاجر العاديّات الذي ظلّ يكرّر، مثل لازمة رتيبة، تلك الجملة التي نطق بها في دكّانه مع نبرة في غاية الإلغاز: «لن يكون الفرعون العجوز راضياً؛ كان يحبّ ابنته كثيراً، ذلك السيّد العزيز».

هناك جزئية غريبة لم تبعث في الاطمئنان أبداً، إذ لم يكن للشبح إلا قدم واحدة، بينما كانت الثانية مبتورة عند الكعب. توجّهت إلى المائدة حيث تهتزّ قدم المومياء وتختلج مع تزايد في السرعة. وعندما بلغت الموضوع اتكأت على الحافة، ورأيتُ نشأة دمعة تلمع في عينيها.

ومع أنّها لم تتكلّم، تبيّنتُ تفكيرها بوضوح: كانت تنظر إلى القدم، لأنّها قدمها فعلاً، بتعبير يدلّ على حزن مغناج كلّه لطف، غير أنّ القدم كانت تقفز وتركض هنا وهناك كما لو كانت مدفوعة بنوابض معدنية. مدّت يدها مرتين أو ثلاثاً كي تمسك بها، لكنّها لم تنجح في ذلك.

عندئذ نشأ بين الأميرة هرمونتيس وقدمها التي بدت موهوبة بحياة مستقلة، حوارٌ غريب جداً بالقبطية القديمة كما كانت تُستخدم قبل حوالي ثلاثين قرناً، في المدافن الملكية لبلاد السار. ومن حسن حظّي أنّي كنت في تلك الليلة متذكّراً القبطية بمهارة.

قالت الأميرة هرمونتيس بنبرة صوت عذب و متموّج مثل ناقوس بلوريّ صغير:

«هكذا إذاً! يا قَدَمِي الصغيرة العزيزة، تهريين منّي دائماً رغم ما كنت أبذله معك من عناية. كنت أعمرّك بالماء المعطر، في حوض من المرمر؛ وأصقل كعبك بحجر الخُفّان المغمس في زيت النخيل، وكانت أظافرك تقصّ بمقلام من ذهب وتُصقل بقطعة من سنّ فرس النهر، كنت أعطني

باختيار أخفاف مطرزة ومرسومة ذات طرف مثنيّ تثير غيرة بنات مصر كلهن؛ كانت في أصابعك خواتم تجسد الجُعل المقدّس، وكنت تتعلين أحد أخفّ المداسات التي تمنّاها قدّم كسول».

أجابت القدم بنبرة حردة ومكتّبة:

«تعرفين جيّداً أنّي لم أعد أنتمي إليك، لقد تمّ بيعي وشرائي؛ والتاجر العجوز كان على دراية بما يفعل، ما زال حاقداً عليك لرفضك الزواج منه: وهذه حيلة أعدّها لك.

«العربي الذي خلّع تابوتك الملكيّ في البئر الباطنية لمقبرة مدينة طيبة كان مرسلًا من طرفه، كان يرغب في منعك من الذهاب للمشاركة في اجتماع شعوب الظلمات، في المدن السفلى. هل لديك خمس قطع ذهبية لكي تعيدي اقتنائي؟

- كلاً، مع الأسف! لقد سُرق منّي كلّ شيء؛ أحجاري الكريمة وخواتمي وأكياس نقودي من الذهب والفضّة، أجابت الأميرة هرمونتيس وهي تتنهد.

- أيتها الأميرة، هتفتُ عندئذ، لم يسبق لي أبداً احتجاز قدّم أيّ شخص بطريقة ظالمة: ورغم أنّك لا تملكين اللّيرات الخمس التي دَفَعْتُها مقابل القدم، فأنا أعيدها إليك بطيبة خاطر؛ سوف يُحزّني جعل شخص محبّب إلى النفس مثل الأميرة هرمونتيس في صورة عرجاء».

بدأت هذه الخطبة بنبرة عصر الريجانس والتروبادور، ما قد يعني أنّه قد فاجأ المصرية الجميلة.

التفتت نحوي بنظرة اعتراف بالجميل، ولمعت عيناها ببريق مزرّق. تناولت قدمها التي استسلمت هذه المرّة، مثل امرأة ستلبس مداسها، وضبطتها على ساقها بمهارة فائقة.

بعد انتهاء هذه العملية، مشت خطوتين أو ثلاثاً في الغرفة، كما لو كانت تتأكد أنها لم تعد عرجاء.

«آه! كم سيكون أبي فرحاً، وهو الذي نأسف كثيراً بسبب ما لحقني من تشويه، وأخضع شعباً كاملاً للعمل، يوم مولدي، ليحفر لي قبراً يكون في غاية العمق كي يقدر على حفظي كاملة حتى اليوم المقدّر الذي توزن فيه الأرواح في آمتي»⁽¹⁾.

«تعال معي إلى والدي، سوف يستقبلك استقبالاً حسناً، لأنك أعدت لي قدمي».

وجدتُ الاقتراح طبيعياً جداً؛ ارتديت مبدلاً⁽²⁾ مشجراً، أضفى عليّ حياة فرعونية حقاً؛ وانتعلت بسرعة بابوجاً تركيا، وقلت للأميرة هرمونتيس أنني جاهز لمرافقتها.

تولتُ هرمونتيس، قبل المغادرة، نزع تمثال الإلهة الخزيّ الأخضر. من ياقتها ووضعته على الأوراق المبعثرة التي كانت تغطي الطاولة.

«من العدل، قالت مبتسمة، أن أعوض لك ضاغطة أوراقك».

ناولتني يدها التي كانت ناعمة وباردة مثل جلد ثعبان، وانطلقنا.

أسرعنا بعض الوقت بسرعة سهم في بيئة سائلة ورمادية حيث كانت خيالات غير مكتملة تمرّ عن اليمين وعن اليسار.

وللحظة لم نشاهد سوى الماء والسماء.

بعد بضعة دقائق، بدأت تظهر مسلات وبيّابات هياكل فرعونية ومداخل يحاذيها أبو الهول ترسم في الأفق.

(1) كلمة تقريبية يستخدمها المؤلف لما يمكن أن يعادل مآل الأرواح بعد الموت لدى الفراعنة. ويشير الشراح إلى أنّ فكرة يوم الحساب التي يشير إليها غوتيه غير موجودة حقاً في الثقافة الفرعونية.

(2) روب دو شامبر.

لقد وصلنا.

قادتني الأميرة أمام جبل من الصوّان الوردِيّ، حيث كانت توجد فتحة ضيقة وواطئة إلى درجة يصعب معها تمييزها عن تشقق الأحجار لولا وجود مسلّتين مبرقتين بمنحوتات.

أضاءت هرمونتيس مشعلاً وشرعت تمشي أمامي.

كانت ممّرات محفورة في الصخر مباشرة؛ ولا شك أنّ الجدران، المغطّاة بلافتات هيروغليفية ومواكب تطواف شعائرية، قد شغلت آلاف السواعد. خلال آلاف السنين؛ وكانت هذه الأروقة في منتهى الامتداد وتؤدي إلى غرف مربعة، تتوسطها آبار نزلنا إليها بواسطة مثبتات أو سلم حلزونية؛ وهذه الآبار قادتنا إلى غرف أخرى تنطلق منها أروقة أخرى مبرقشة بدورها بصقور وئعابين ملتفة في شكل دائريّ وعكاكيز وعصيّ معقوفة ورموز صوفية، وهو عمل خارق لا ينبغي لأيّ عين حيّة أن تراه، سلسلة لا تنتهي من الأساطير الصوّانية التي لا يقرؤها إلا الموتى أثناء رحلة الخلود.

أخيراً نفذنا إلى قاعة في منتهى الاتساع والضخامة والإفراط إلى درجة استحالة إدراك تخومها؛ على مدى البصر تمتدّ صفوف الأعمدة الضخمة التي تتراقص بينها نجوم ذات ضوء أصفر؛ وتلك النقط اللامعة كانت تكشف عن أعماق لا حدود لها.

كانت الأميرة هرمونتيس لا تنفكّ تُمسك بيدي وتحبّي بيدها وبلطف معارفها من المومياوات.

اعتادت عيناى على ذلك النور الغسقيّ، وبدأتا تميّزان الأشياء.

رأيت ملوك السلالات السردابية جالسين على عروش: كانوا شيوخاً كباراً ضامرين، مغضّنين، شبيهين بورق الرّق، مسوّدين بالنفط والقار،

معتمرين قبعات فرعونية من ذهب، مدرّعين بصدرتات وواقبات عنق، منجّمين بأحجار كريمة مع عيون ثابتة مثل عيني أبي الهول ولحي طويلة بيّضتها ثلوج القرون: خلفهم تقف رعيتهم المحنّطة في وضعيات متصلّبة وقسرية كما في الفنّ المصريّ، محافظةً إلى الأبد على الوقفة المنصوص عليها في الدستور الهيروغليفيّ؛ وخلف الرعيّة كانت تموء القطط، وتحقق طيور أبي منجل بأجنحتها، وتضغّب التماسيح⁽¹⁾، هذه الحيوانات كلّها التي هي من تلك الحقبة لكنّها صارت أضخم بسبب لفّها بشرائط.

كان الفراعة كلّهم حاضرين، خوفو، وسنفرو، وبشباتيك، وسنوسرت، وأمنحوتب؛ كلّ الزوج المهيمنين على الأهرام والسيرنجات⁽²⁾؛ وعلى مصطبة أعلى يجلس الملك كرونوس⁽³⁾ وإكسيكسوتروس الذي عاصر الطوفان، وتوبال قاين الذي سبقه.

طالت لحية إكسيكسوتروس إلى درجة أنّها التفت سبع مرّات حول مائدة الصّوان التي كان يستند إليها حالماً وغافياً.

وأبعد من ذلك، وسط بخار غباريّ، وعبر ضباب الأبدية، ميّزتُ بغموض، الملوك الإثنين والسبعين السابقين على آدم مع شعوبهم الإثنين والسبعين الذين اختفوا إلى الأبد.

بعد أن تركتُ لي الأميرة هرمونتيس بعض الدقائق للتمتّع بهذا المشهد المدوّخ، قدّمتني إلى والدها الفرعون، الذي حيّاني بإشارة مهيبة من رأسه. «لقد استعدتُ قدمي! لقد استعدتُ قدمي! صاحت الأميرة مصفّقة بيديها الصغيرتين مع كلّ علامات الفرح الجنونيّ، هذا السيّد هو الذي

(1) ضغيب التماسح وضغابه: صوته.

(2) اسم إغريقي للمدافن الملكيّة في طيبة.

(3) يمزج غوتيه بالأسماء الفرعونية اسماً آتياً من الميثولوجيا الإغريقية (كرونوس هو إله الزمن فيها)، ولا يخفى الطابع الخياليّ في تقديمه فرعوناً معاصراً للطوفان باسم إكسيكسوتروس.

أعادها إليّ».

ورددتّ سلالات كيمي، وسلالات نهازي، وكلّ الأمم السوداء
والسمراء والنحاسية البشرة، في جوقة واحدة:

«الأميرة هرمونتيس استعادت قدمها».

وتأثّر إكسيكسوتروس نفسه:

رفع جفنيه المثقلين، ومرّر أصابعه في شاربيه، ووجه إليّ نظرتة المحمّلة
بالقرون.

أقسم بأومس، كلب الجحيم، وبتهاي، ابنة الشمس والحقيقة، هوذا
شابّ شجاع وفاضل، قال الفرعون وهو يمدّ نحوي صولجانه الذي
يتمهي بزهرة لوتس.

«ماذا تطلب كمكافأة؟»

ونظراً لأني كنت قوياً بتلك الجرأة التي تُكسبنا إيّاها الأحلام، وحيث
لا شيء يبدو مستحيلاً، طلبت منه يد هرمونتيس: وجدت أنّ اليد مقابل
القدم تمثل مكافأة طباقية لا تخلو من بعض الذوق.

فتح الفرعون عينيه الزجاجيتين على وسعيهما وقد فوجئ بمزحتي
وطلبي.

«من أيّ بلد أنت وما عمرك؟»

- أنا فرنسي، وعمري سبعة وعشرون عاماً، أيها الفرعون الموقر.

- سبعة وعشرون عاماً! ويرغب في الزواج من الأميرة هرمونتيس
التي تبلغ من العمر ثلاثين قرناً! هتف كلّ الملوك وكلّ حشود
الأمم المصطفة هناك في حلقات، في وقت واحد.

بدت لي هرمونتيس هي الوحيدة التي لم تجد مطلبي غير مناسب.

«لو كان لك ألفا عام على الأقلّ، عاد الملك العجوز يقول، لوافقت

على تزويجك بالأميرة، غير أنّ الفارق شاسع جدّاً، يضاف إلى ذلك أنّنا نريد لبناتنا أزواجاً يدومون، وأنتم لم تعودوا قادرين على حفظ أنفسكم: فأحر من جيء بهم قبل قرابة الخمسة عشر قرناً لم تبق منهم إلّا قبضة رماد؛ انظر، لحمي صلب مثل البرّلت، وعظامي قضبان حديد.

«سوف أحضر يوم نهاية العالم بالجسد والوجه اللّذين عشت بهما في حياتي؛ وابنتي هرمونتييس سوف تدوم أكثر من تمثال من البرونز.

«عندئذ تكون الريح قد بدّدت آخر حبّة من غبارك، وحتىّ إيزيس نفسها التي نجحت في العثور على أشلاء أوزوريس، سوف تجد صعوبة في إعادة تركيب كيائك.

«انظر كم أنّني لا أزال قوياً وكم أنّ ساعديّ متماسكان»، قال وهو يهزّ يدي على الطريقة الإنجليزيّة فيكاد يقطع أصابعي بخواتمها.

شدّني بقوة إلى درجة أنّني استيقظت، ولمحت صديقي ألفريد يسحبني من ذراعي ويهزّني كي يوقظني.

«آه يا لك من محبّ للنوم! هل ينبغي نقلك إلى قلب الشارع وإطلاق ألعاب نارّيّة على أذنيك؟

«الوقت تجاوز منتصف النهار، ألا تتذكّر أنّك وعدتني بالمجيء كي ترافقني إلى مشاهدة اللّوحات الإسبانيّة للسيد أغوادو؟

- يا إلهي! لم أتذكّر ذلك، أجبّت وأنا أرثدي ثيابي؛ سنذهب: الدعوة موجودة عندي على مكّتي».

وتقدّمت فعلاً كي أتناولها؛ لكن عليكم أن تقدّروا مدى دهشتي عندما رأيت التمثال الخزفيّ الأخضر الصغير الذي وضعته الأميرة هرمونتييس بدل قدم الأميرة التي اشتريتها البارحة.

ممثّلان من أجل دور واحد⁽¹⁾

1

موعد في الحديقة الإمبراطورية

كنا نقرب من الأيام الأخيرة في شهر تشرين الثاني: الحديقة الإمبراطورية في فيينا مقفرة، وريح شمالية قاسية تزوج الأوراق ذات لون الزعفران والملفوحة بأولى موجات البرد؛ بينما كانت شجيرات الورد في أحواض الزهور، وقد طوّحت بها الريح وكسرتها، تترك أغصانها في الوحل. إلا أنّ الممرّ الكبير كان جافاً وسالكاً بفضل الرمل الذي يغطيه. ورغم التلف الذي أصاب الحديقة الإمبراطورية بسبب مقدم الشتاء، فإنّها لم تخلّ من جمال كثيب. كان الممرّ الطويل يمدّ أقواسه الصهباء بعيداً جداً ليكشف في نهايته وبشكل غامض أفقاً من الهضاب الغارقة أصلاً في في السديم المزرّق والضباب المسائي؛ وفيما هو أبعد من ذلك يمتدّ المشهد إلى نهري البراتر والدانوب: إنه متنزه مُعدّ كما يتمناه شاعر⁽²⁾.

كان هناك شاب يحثّ الخطى في ذلك المسلك بعلامات نفاذ صبر واضحة؛ وكانت بدلته ذات الأناقة الأقرب إلى بدلات المسرح، تتمثل في سترة مخملية طويلة سوداء اللّون من نوع الريدنغوت ذات أزرار مذهبة مطرزة بالفرو، وبنطال من نسيج محبوك رمادي اللّون، وجزمة لينة ذات شرّابة ترتفع إلى منتصف الساق. يمكن أن يكون بين السابعة والعشرين

(1) نُشرت للمرّة الأولى في مجلّة *Le Musée des familles*، عدد تمّوز 1841.

(2) هذه الفقرة انتحلها غوثيه من عمل لجيرار دو نرفال: «حبّ في فيينا».

والثامنة والعشرين من العمر؛ كانت ملامحه الشاحبة والمنسجمة مفعمة بالنعومة، وتكمن بعض علامات السخرية في طيَّات عينيه وزاويتيِّ فمه؛ ولا بدَّ أنَّه، في الجامعة التي يبدو أنَّه تخرَّج منها للتوَّ إذ أنَّه لا يزال يعتمر القبَّعة ذات أوراق السنديان الطَّلابية، قد أزعج أبناء البورجوازية غير المتعلِّمة وتميَّز في صفِّ الصَّبيان والثعالب⁽¹⁾.

وتُظهر المساحة الصغيرة التي اقتصرت عليها نزهته أنَّه كان ينتظر أحداً، أو بالأحرى واحدةً، لأنَّ الحديقة الإمبراطورية في فيينا، خلال شهر تشرين الثاني، لا تكون ملائمة أبداً لمواعيد الأعمال.

وبالفعل لم يطل الوقت حتَّى ظهرت فتاة في آخر المسلك: كانت تعتمر قبَّعة حرير سوداء تغطِّي شعرها الكثيف الأشقر وقد ملَّست رطوبة المساء خصلاته الطويلة بعض الشيء؛ فيما تبدَّلت سحنة وجهها ذات بياض الشمع البكر عادةً، بتدرّجات أقرب إلى ورود البنغال وذلك بفعل قرصات البرد. ولأنَّها كانت متكؤمة وملتفة في ثوبها الفضفاض المزيَّن بفرو سمور، فقد لاحت تشبه إلى حدِّ كبير تمثال «البريدة» (أو «الصردة»)⁽²⁾، وكان يتبعها كلب من جنس البربيت ذو وبر طويل مجعد، كان بمثابة تمويه مناسب يمكن الوثوق بتسامحه وتكتمه.

- تصوِّز يا هنريش، قالت الفييناوية الجميلة وهي تمسك ذراع الشاب، مرت عليَّ أكثر من ساعة وأنا مرتدية كلِّ ثيابي وجاهزة للخروج، بينما عمَّتي لا تكفُّ عن موعظها حول مخاطر الفالس،

(1) مصطلحان مستعاران من نرفال أيضاً حول الجامعات الألمانية: «الصَّبيان» Burschen هم التلامذة الجدد، ويصير الواحد منهم «ثعلباً» Fuchs بعد تسجيله وانضمامه لإحدى الجمعيَّات وخضوعه لعدَّة تجارب ومغامرات في المدينة.

(2) «البريدة» La Frileuse: تمثال شهير للنحَّات الفرنسي جان-أنطوان هودون Jean-Antoine Houdon (1741-1828).

ووصفات حلويات عيد الميلاد وطهي سمك الشبوط الطازج. خرجتُ بتعلّة اقتناء جزمة رماديّة لست في حاجة إليها. لكن كلّ هذه الأكاذيب الصغيرة أقوم بها من أجلك، يا هنريش، ولا أكاد أتوب عنها حتّى أعود من جديد؛ ويا لها من فكرة جعلتك تخوض في مجال المسرح؛ أمن أجل هذا قمت بدراسة اللاهوت مطوّلاً في هايدلبرغ! كان أهلي يحبّونك، ولولا قرارك لكنا متزوّجين اليوم. ولكنا، بدل لقاءاتنا المسروقة تحت الأشجار الجرداء في الحديقة الإمبراطورية، جالسين جنباً إلى جنب قرب مدفأة سكسونية، داخل غرفة استقبال مغلقة جيّداً، متحدّثين عن مستقبل أبنائنا: ألا ترى أنّ من شأن ذلك أن يكون مصيراً سعيداً يا هنريش؟

- نعم، يا كاتي، سعيداً جدّاً، أجب الشاب وهو يضغط تحت الساتان والفرو على الذراع البضّة للحساء الفييناوية؛ لكن، ما العمل؟ إنّه طالع لا يُقهر؛ المسرح يجذبني؛ أحلم به نهراً وأفكر فيه ليلاً؛ أشعر بالرغبة في معايشة إبداعات الشعراء، فيخيّل إليّ أنّ لي أكثر من حياة واحدة. كلّ دور أوّديه يقدّم لي حياة جديدة؛ وكلّ أنواع الشغف التي أعبر عنها أعيشها؛ فأنا هاملت، عطيل، كارل مور⁽¹⁾: عندما يكون المرء كلّ ذلك يصعب عليه الاستسلام لوضعية متواضعة مثل وظيفة قسّ في قرية.

- هذا جميل جدّاً؛ لكن تعرف جيّداً أنّ عائلتي لن ترغب أبداً في صهرٍ ممثّل.

- بالتأكيد، لا، لن ترغب في ممثّل غامض، فتان بائس متنقل، لعبة

(1) كارل مور Karl Moor : صعلوك وقاطع طرق، طيّب القلب، بطل مسرحية شيلر Schiller «فُطّاع الطرق» Die Räuber (1781).

في أيدي مديري المسارح والجمهور. أمّا ممثل كبير، مسرّبَل بالمجد والتصفيق، وراتبه أفضل من وزير، فمهما كان تشدّد العائلة فهي سوف ترغب فيه. عندما أجيء كي أطلب يدك في عربة خيل صفراء يمكن لبرنيقها أن يكون مرآة للجيران المندهشين، في حين يتولّى خادم كبير مزين بشرائط خفص مرقاة العربة من أجلي، هل تظنين، يا كاتي، أنهم سيرفضونني؟

- لا أظنّ ذلك... لكنّ من يجزم، يا هنريش، أنّك قد تتوصّل ذات يوم إلى ذلك؟... أنت موهوب؛ غير أنّ الموهبة لا تكفي، يتطلّب الأمر الكثير من التوفيق أيضاً. عندما تصير ذلك الممثل الكبير الذي تتحدّث عنه، يكون أجهل وقت في شبابتنا قد مرّ، عندئذ هل ستبقى راغباً في الزواج من العجوز كاتي، والحال أنّ في إمكانك حبّ أميرات المسرح الفرحات والمتزيّنات بشكل فاتن؟

- هذا المستقبل، أجباب هنريش، هو أقرب مما تصوّرين؛ لديّ التزام مغرّ مع مسرح بورت دو كارينتي، وكان مديره في غاية الرضى على الطريقة التي أدّيت بها دوري الأخير، حتّى إنّه قدم لي مكافأة بألفي تالر⁽¹⁾.

- نعم، تابعت الفتاة بنبرة جادة، دور الشيطان في المسرحية الجديدة؛ أعترف لك، يا هنريش، أنّني لا أحبّ رؤية مسيحيّ يضع قناع عدوّ البشرية وينطق بكلمات تجديفية. ذلك اليوم، كنت ذاهبة لرؤيتك في مسرح كارينتي، وفي كلّ لحظة كنت متخوّفة من خروج نار جهنميّة حقيقيّة من الفتحات الأرضية التي كنت تنغمر فيها داخل زوبعة من الشمالة. عدت إلى البيت مضطربة ورأيت أحلاماً

(1) عملة ألمانية قديمة.

مريضة.

- كل ذلك مجرد أوهام، يا كاتي الطيبة؛ وعلى أية حال غداً يكون العرض الأخير، ولن أعود إلى ارتداء البدلة السوداء والحمراء التي تكرهينها كثيراً.

- هذا أفضل! لأنني لم أعد أعرف ما هي أنواع القلق الغامضة التي تعصف بذهني، وأخشى ألا يكون هذا الدور النافع لأجسادك نافعاً لخلاصك؛ أخشى أيضاً أن تكتسب عادات سيئة مع هؤلاء الممثلين الملعونين. أنا متأكدة أنك لم تعد تؤذي صلواتك، وأراهن أنك أضعت الصليب الصغير الذي أهديتك إياه.

سارع هنريش إلى تبرئة نفسه برفع طية ثوبه؛ كان الصليب الصغير لا يزال يلمع على صدره.

وأثناء هذا الحوار بلغ العاشقان شارع تابور بمدينة ليوبولدشتات، أمام دكان الإسكافي الشهير بجودة جزماته الرمادية؛ وبعد حديث قصير عند العتبة، دخلت كاتي يتبعها كلبها البربيت الأسود، دون أن تنسى قبل ذلك تسليم أصابعها الجميلة الرقيقة لضغط يد هنريش.

حاول هنريش اقتناص المزيد من ملامح عشيقته بين الأحذية الظرفية والجزمات الظرفية المصنفة بتناظر على العلاقات النحاسية في الواجهة؛ غير أن الضباب كان قد بيّض مرتبعات الزجاج بأنفاسه الرطبة، فلم يتمكن إلا من تمييز خيال غامض؛ عندئذ اتخذ قراراً بطولياً فدار حول نفسه وانطلق بخطوة إلى حانة «النسر ذي الرأسين».

حانة النسر ذي الرأسين

في ذلك المساء كان الحضور كبيراً في حانة «النسر ذي الرأسين». كانت الجماعة من أكثر الجماعات اختلاطاً في العالم، ولا شك أن مخيلتي كالو⁽¹⁾ أو غويا⁽²⁾ مجتمعتين، ما كان بإمكانهما إنتاج مثل ذلك المزيج الغريب من النماذج المميّزة. كانت حانة النسر ذي الرأسين من تلك الأقبية السعيدة التي احتفى بها هوفمان⁽³⁾، بدرجاتها التي كانت من التآكل والتزيّت والانزلاق، حتّى أن المرء لا يكاد يضع قدمه على الدرجة الأولى حتّى يجد نفسه في الداخل فوراً، بكوعين على الطاولة وغلبيون في الفم، ما بين قذح بيرة وكأس نبيذ جديدة.

وعبر الغيمة الكثيفة التي تمسك بك في البداية من حلقك وعينيك، ترتمس، بعد بضع دقائق، كلّ أنواع الوجوه الغريبة. كانوا من الفالاك، بقفاطين وقلنسوات استراخان، وُصُرباً، وهنغارين ذوي شوارب سوداء طويلة، وألبسة مزركشة بقيطان حريرية ومعدنية، وبوهيميين ذوي سحنات نحاسية، وجباه ضيقة، ووجوه

(1) جاك كالو Jacques Callot : رسّام ونحات فرنسي (1592-1653) تميّز بالطابع الفنتازي لأعماله.

(2) فرانثيسكو غويا Francisco Goya : رسّام إسباني (1746-1828) تميّز برسومه الفظة والرؤيوية. عكس فنّه الاضطرابات السياسية والاجتماعية في عصره، ومارس قطعية أسلوبية بشرت بالرومنطيقية وأعلنت عن بداية الرسم الحديث.

(3) إرنست هوفمان Ernst Hoffmann : كاتب وموسيقار ألماني (1776-1822) عُرف بكتابات الفنتازية، ترك أثره الشديد في أوروبا وفي مؤلّف هذه القصص.

محدّبة، وألمانيين شرفاء بسترات ريدنغوت طويلة ذات عُرى مزخرفة بطريقة بريندبورغ، وتتاريين مغبوني العيون على الطريقة الصينية؛ كلّ الشعوب التي يمكن تخيلها. وكان الشرق ممثلاً بتركي سمين مقرفص في زاوية، يدخن تبغ اللاذقية⁽¹⁾ بسلام في غليون ذي خرطوم مصنوع من خشب كرز مولدافيا، مع محرق مجبول من طين أحمر وحاقة عنبر أصفر. كان كلّ هؤلاء البشر، المستندون إلى موائد، يأكلون ويشربون: المشروب يتمثل في بيرة قويّة ومزيج من النبيذ الأحمر الجديد مع نبيذ أبيض أعتق؛ أما الأكل فهو شرائح من لحم العجل الباردة، وجامبون أو حلويات.

حول الموائد تدور بدون توقّف إحدى رقصات الفالس الألمانية الطويلة التي تُحدث في المخيلات الشالية ما يحدثه الحشيش والأفيون على الشرقيين؛ كان أزواج الراقصين يمرّون ويعودون بسرعة؛ والنساء شبه مغمى عليهنّ من المتعة على سواعد مراقصيهنّ، على إيقاع معزوفة فالس للانير⁽²⁾، فيكنسن بتنانيرهنّ سُحب دخان الغلايين وينعشن وجوه الشاريين. وعلى المشرب يوجد بعض المرتجلين المورلاك⁽³⁾ يرافقهم عازف ربابة وينشدون نوعاً من الأغاني الحزينة التي يبدو أنّها تروق كثيراً لحوالى دزينة من الوجوه الغربية يعتمر أصحابها طرابيش ويرتدون جلود خرفان.

توجّه هنريش إلى آخر القبو نحو مائدة سبقه إليها ثلاثة أو أربعة

(1) تبغ عميل لونه إلى السواد، كان يُستورد من مدينة اللاذقية السورية، ويُدخن في أرجاء الامبراطورية العثمانية.

(2) يوزيف لانير Joseph Lanner (1802-1843) : موسيقار كان سيّد الفالس في فيينا قبل

يوهان شتراوس.

(3) سكّان شمال دلماسيا.

أشخاص من ذوي الملامح الباشة والمزاج الرائق.

- عجباً، هذا هنريش! هتف أكبر الجماعة ستاً؛ انتبهوا لأنفسكم يا أصدقائي: *fœnum habet in cornu*⁽¹⁾. أتعلّم أنّك كنت حقاً في هيئة شيطان تلك الليلة: لقد أخفتني تقريباً. كيف عسانا نتخيّل أنّ هنريش الذي يحتمي البيرة مثلنا ولا يتأخر أمام تناول شريحة قديد بارد، يكتسب مثل تلك الملامح السامة والشرسة والمستهترة، ويكفيه الإتيان بإيلاء واحدة لينشر القشعريرة في القاعة كلّها؟

- آه! بالتأكيد! ذلك ما يجعل هنريش فتاناً كبيراً، ممثلاً عظيماً. ما من مجد في تمثيل دور يكمن في طباعك؛ النصر بالنسبة لفتاة مغرية هو أن تلعب أدواراً ساذجة بطريقة متفوّقة.

جلس هنريش بتواضع، وطلب قدحاً كبيراً من النبيذ الممزوج، وتواصل الحوار حول الموضوع نفسه. ولم يكن هناك سوى الإعجاب والثناء.

- آه! لو تفرّج عليك العظيم فولفغانغ غوته! قال أحدهم.

- أرنّا قدميك، قال الآخر: أنا متأكد من أنّ لك قدماً ظلفاء⁽²⁾.

كان الشاربون الآخرون قد انتبهوا إلى هتافات الإعجاب وبدؤوا ينظرون إلى هنريش نظرات جدية، وهم في غاية السرور لنيلهم الفرصة لأن يستكشفوا عن قرب رجلاً متميزاً. وكان الشبان الذين عرفوا هنريش سابقاً في الجامعة ولا يكادون يتذكّرون إلا اسمه، يقتربون منه ويصافحونه بحرارة كما لو كانوا من أصدقائه الحميمين. وكانت أجمل راقصات الفالس يرشقنه لدى مرورهنّ بأرقّ نظرة من عيونهنّ

(1) لاتينية، من بيت شعري لهوراس. كان يقال «إنّ لفلان علفاً على قرنه» أي أنّه ساخط

(كان من العادات القديمة وضع العلف على قرون الثيران الشرسة).

(2) هكذا يُصوّر الشيطان في الفولكلور المسيحيّ.

وحده رجل جالس إلى المائدة المجاورة لم تكن تبدو عليه المشاركة في الحماسة العامة؛ كان رأسه مائلاً إلى الخلف وهو يدقّ بأصابعه ساهماً لحنَ مسيرةٍ عسكرية على قعر طاقيته، وبين الفينة والأخرى يرسل صوتاً أقرب إلى همهمة مربية جداً.

كان مظهر ذلك الرجل من أغرب المظاهر، رغم أنه يُعتَبَر بورجوازيّاً شريفاً من فيينا، ويملك ثروة معقولة؛ كانت عيناه الرماديتان تتلوانان بقليل من الخضرة وترسلان بريقاً فوسفورياً مثل عيون الققط. وعندما تنفرج شفاه الشاحبتان والمسطّحتان تكشفان عن أسنان ناصعة البياض، حادة ومنفصلة، أي من نوع أسنان أكلة لحوم البشر الأكثر افتراساً؛ أمّا أظافره الطويلة، اللامعة والمتقوسة، فكانت نسبتياً أقرب إلى براثن؛ غير أنّ هذا المظهر لم يكن ليلوح إلّا عبر لمحات سريعة؛ إذ إنّ وجهه، حالماً تركّز عليه العين، يعود بسرعة فائقة إلى المظهر البورجوازيّ والسّمح لتاجر فييناوي منسحب من أعمال التجارة، وهكذا يلوم المرء نفسه على تسرّعه في الارتياح واتّهام وجهه في منتهى البساطة والابتدال بالخشّة والشيطنة.

كان هنريش مصدوماً في داخله من لامبالاة الرجل؛ فذلك الصمت الاحتقاريّ كان ينزع قيمة المدائح التي أسبغها عليه رفاقه الصاخبون. ذلك الصمت كان صمّتَ خبيرٍ عجوز، عارف ومتمرس، لا تغرّه المظاهر، وسبق له رؤية ما هو أهمّ في زمانه.

لم يتمكّن آتامير، وهو أصغر أفراد الفرقة، وأكثرهم تحمّساً لهنريش، من تحمّل تلك السيء الباردة، فوجهه للرجل الغريب الأطوار كما لو كان يُشّهده على هذا الإثبات الذي قدّمه:

- أليس صحيحاً يا سيدي أنه لا يوجد أحد مثل دور مفيستوفيليس⁽¹⁾
أفضل من صديقي هذا؟

- أوه! قال الرجل غير المعروف وهو يبخلق ببؤبؤيه الأخضرين
المزرقين ويصرّ على أسنانه الدّريّة، إنّ السيد هنريش شابّ موهوب
وأنا أقدره عالياً؛ لكن من أجل تمثيل دور الشيطان ينقصه الكثير.
وانتصب فجأة:

- هل سبق لك رؤية الشيطان، يا سيّد هنريش؟
طرح هذا السؤال بنبرة كانت من الغرابة والتهمك حتى أن كلّ
الحضور شعروا بقشعريرة تعبر ظهورهم.

- من شأن ذلك أن يكون ضرورياً جداً لصدقيّة تمثيلك. البارحة
كنتُ في مسرح بورت دو كاريتي، ولم ترصني ضحكتك؛ كانت
ضحكة ولد خبيث، هذا أكثر ما يمكن القول عنها. إليك الطريقة
المثلى للضحك، عزيزي السيّد هنريش الصغير.

بناء على ذلك، وكأنه يريد أن يكون قدوة له، أطلق قهقهة كانت من
الحدة والصريخ والتشنج أنّ الجوقة ورقصات الفالس توقفت لتوها؛
وتساقط بلّور نوافذ الحانة. ولبضع دقائق تابع السيّد المجهول هذه
القهقهة القاسية والعصبية حتى أنّ هنريش ورفاقه، رغم ارتعابهم، لم
يتمكّنوا من الامتناع عن تقليدها.

وعندما استرجع هنريش أنفاسه، ظلّت قباب الحانة تردّ بما يشبه
الصدى المتناقص، آخر نغمات تلك الضحكة الحادة والفظيعة، في حين لم
يعد الرجل الغريب موجوداً.

(1) شخصيّة الشيطان في مسرحية «فاوست» Faust لغوته.

مسرح بورت دو كارينتي

بعد مرور بضعة أيام على هذا الحادث العجيب، نسيه هنريش تقريباً، ولم يعد يتذكره أكثر من مزحة برجوازيّ ساخر، وكان يمثل دوره الشيطانيّ في المسرحيّة الجديدة.

على المقعد الأوّل المخصّص للجوقة كان يجلس غريب الحانة، ومع كلّ كلمة ينطق بها هنريش، يحرّك رأسه ويرمش بعينه ويفرقع لسانه على سقف حلقه ويظهر علامات قويّة على نفاد الصبر، متمتماً بصوت خافت: «سَيِّء! سَيِّء!»

وكان مجاوروه المدهوشون والمصدومون بصنيعه، يصفّقون ويقولون:
- هوذا سيّد في منتهى الصعوبة والتشدد!

مع نهاية الفصل الأوّل، وقف الغريب كما لو أنّه اتخذ قراراً فجائياً، وتخطّى النقارات والطبل الكبير والطبل الأفريقيّ، واختفى داخل الباب الصغير الذي يصل بين الجوقة الموسيقية والمسرح.

كان هنريش في انتظار رفع الستار، يتجوّل في الكواليس، وما إن بلغ آخر جولته الصغيرة حتّى ارتعب، وهو يلتفت، من رؤية شخص غريب واقف وسط الممرّ الضيق، ويلبس مثله تماماً، ينظر إليه بالتماع خارق لعينين مخضرتين في عمق العتمة!، وأسنان حادّة، بيضاء، منفصلة تضيئي نوعاً من الشراسة على ابتسامته المستهزئة.

لم يفتّ هنريش التعرف على غريب حانة النسر ذي الرأسين أو بالأحرى، الشيطان متجسّداً؛ فقد كان هو فعلاً.

- آه! آه! أيها السيّد الصغير، تريد تمثيل دور الشيطان! كنت في منتهى الركافة خلال الفصل الأول، وستقدّم عني صورة سيئة جداً لسكان فيينا الطيبين. ستسمح لي بتعويضك هذا المساء، وبالنظر إلى كونك قد تزعجني سأرسل بك إلى الطبقة السفلى الثانية.

ميّز هنريش للتوّ ملاك الظلمات وشعرَ بالضياع؛ وضع يده آلياً على صليب كاتي الصغير الذي لا يفارقه أبداً، وحاول طلب النجدة والهمس بصيغة تعويذته؛ غير أنّ الرعب كان يخنقه، ولم يتمكن سوى من إصدار حشرة ضعيفة. ضغط الشيطان برائنه يديه على كتفي هنريش وأسقطه بالقوّة على الأرضية؛ ثمّ دخل إلى الخشبة، مع اقتراب دوره مثل ممثل محترف.

ذلك الأداء القاطع، القارض، السامّ والشيطانيّ حقّاً، فاجأ الجمهور أولاً.

- كم أنّ قريحة هنريش متفتحة اليوم! تصاعد الهتاف من كلّ صوب. لكنّ ما أحدث تأثيراً قوياً ممثّل في تلك الضحكة الحادة مثل صرير منشار، ضحكة الملعون المجدّف بمسرات الفردوس. لم يسبق لأيّ ممثّل أن بلغ تلك الدرجة من قوّة التهكم، وتلك الدرجة من العمق في الأداء الأثم: كان الحضور يضحكون ويرتعدون. كلّ القاعة تلهث من الانفعال، شرر فوسفوريّ ينبعث من تحت أصابع الممثل المخيف، نثار لهيب يتطاير بين قدميه، أضواء الثريّا تشحب، أنوار المسرح ترسل بروقاً حمرةً ومخضرةً؛ ولا أدري أيّة رائحة كبريتية عمّت القاعة؛ كان المتفرّجون في حالة تشبه الهذيان، فيما تنهال رعود من التصفيق الحادّ متزامنة مع كلّ جملة ينطق بها ميفيستوفيليس الذي كثيراً ما كان يستبدل بعض أبيات الشاعر بأبيات من ابتكاره، وكان استبدالاً موقفاً دائماً ومقبولاً بأريحية.

أما كاتي التي أرسل لها هنريش بطاقة للجلوس في شرفة من شرفات المسرح، فقد كانت في قلق عارم؛ لم تتمكن من التعرف على عزيزها هنريش؛ كانت تحس بغموض أن هناك مكروهاً ما، بفضل تلك الروح التنبؤية التي يهبها الحب، تلك الرؤيا الثانية بالروح.

انتهى العرض في فورة فرح غامر. وبعد إسدال الستار تعالى صراخ الجمهور مطالباً بظهور ميفيستوفيليس من جديد. فجرى البحث عنه دون طائل؛ غير أن عاملاً في المسرح جاء يخبر المدير بالعثور على السيد هنريش في الطبقة السفلى الثانية ولعله كان قد سقط عبر إحدى الفتحات الأرضية. كان هنريش غائباً عن الوعي: فتم نقله إلى مسكنه، ولدى تخليصه من ثيابه لوحظ وجود خدوش عميقة مفاجئة على كتفيه كما لو أن نمراً حاول خنقه بين قائمته. لقد حفظه صليب كاتي الفضي الصغير من الموت، أما الشيطان المتأثر بفعل الصليب فقد اكتفى برميهِ في أقبية المسرح.

استغرقت نقاهة هنريش وقتاً طويلاً: وما إن تحسنت حاله حتى جاء مدير المسرح وعرض عليه عقداً مغرياً، لكن هنريش رفضه، إذ أنه لم يعد راغباً في المجازفة بخلاصه مرّة أخرى، بل صار مدركاً أنه لن يتمكن أبداً من مضاهاة بديله المخيف.

بعد مرور عامين أو ثلاثة، وإثر حصوله على ميراث صغير، تزوج كاتي الجميلة، وجلس الإثنان جنباً إلى جنب قرب مدفأة سكسونية، داخل غرفة استقبال مغلقة جيداً، يتحدثان عن مستقبل أبنائهما. وما زال عشاق المسرح يتحدثون بإعجاب عن تلك السهرة الرائعة، ويندهشون من نزق هنريش الذي تخلى عن المسرح بعد ذلك النجاح المنقطع النظير.

آريا مارتشيليا

ذكري من يومبي (1)

كان هناك ثلاثة شبان، هم ثلاثة أصدقاء، ذهبوا في رحلة إلى إيطاليا خلال السنة الماضية، فزاروا متحف الستودي⁽²⁾، في نابولي، حيث جُمعت مختلف المواد العتيقة التي تم التنقيب عنها بين حفريات يومبي وهركولانوم⁽³⁾.

انتشروا عبر القاعات وشرعوا يشاهدون لوحات الفسيفساء وقطع البرونز والجداريات المقتلعة من حيطان المدينة الميتة، وتشتتوا وفق أمزجتهم، وكلما رأى أحدهم أمراً مثيراً للفضول نادى رفيقه بصيحات فرح، ما يثير استنكار الإنجليز الصموتين والبورجوازيين الرصينين المنكبين على تصفح دفاترهم.

غير أن أصغر الثلاثة، وقد توقف أمام واجهة بلورية، كان يبدو كأنه لا يسمع هتاف صديقه، بسبب انغماسه في تأمل عميق. وما كان يتفحصه بكثير من الاهتمام هو قطعة رماد سوداء متجمدة تحمل أثر تجويف: يمكن القول إنها أقرب ما تكون إلى جزء من قالب تمثال، تهشم بفعل

(1) نُشرت للمرة الأولى في مجلة *Revue de Paris*، عدد آذار 1852.

(2) «ستودي»: *Studi*: الدراسات. هذه التسمية آتية من الاسم القديم للمتحف الوطني الذي كان يحمل اسم «قصر الدراسات» (جامعة) في بداية القرن السابع عشر، ثم تحول إلى متحف سنة 1777.

(3) هركولانوم *Herculanum*: واحدة من المدن الأربع التي أتى عليها بركان فيزوف.

الذوبان؛ ولا شك أنّ عينَ فنانٍ متمرّسةٍ كان من شأنها أن تتعرّف بيسرٍ على شكل صدرٍ مدهشٍ وخاصرة ذات أسلوب لا يقلُّ أصالةً عن تماثيل الإغريق. ومن المعروف، وأبسط دليلٍ سياحيٍ مطبوعٍ يوضّحه لك⁽¹⁾، أنّ ذلك الطفح من الحمم البركانية الذي برّد حول جسد امرأة، حافظ على تكويراتها الجذّابة. وبفضل نزوة الهيجان البركانيّ الذي دمر أربع مدن، تمكّن هذا الشكل المثير، بعد تحوّلِهِ إلى غبارٍ منذ ما يقرب من ألفي سنة، من الوصول إلينا؛ لقد احترقت استدارةٌ عنقٍ عدّة قرونٍ بيننا اختفت عدّة امبراطورياتٍ من دون أن تحلّف أثرًا! هذا الختم الجماليّ الذي طُبِع بالصدفة على حمم بركان، لم يتلاشّ مع الزمن.

وعندما رأى صديقًا أوكتافيان أنّه مصرّ على الاستغراق في تأملاته عاديًا إليه، وما إن لمسه ماكس من كتفه حتّى جعله يختلج مثل رجل فوجئ في أمر سرّي. وطبعاً لم يكن أوكتافيان قد سمع ماكس أو فابيو يأتيان. «هيا يا أوكتافيان، قال ماكس، لا تتوقّف هكذا لمُدّة ساعات أمام كلّ خزانة، وإلا فإننا سنفوّت موعد القطار، ولن نتمكّن من رؤية يوميّ اليوم».

- ماذا كان رفيقنا يُعاین يا ترى؟ أضاف فابيو وهو يقترب. أه! الأثر الذي وُجد في بيت آزيوس ديوميديه⁽²⁾. ثمّ ألقى على أوكتافيان نظرة سريعة وحادة.

(1) استقى المؤلف الكثير من التفاصيل من رحالة قدامى مثل القسّ دومينيك رومانيلي Dominique Romanelli، وفرانسوا مازوا François Mazois، صاحب كتاب «آثار يوميّ» *Les ruines de Pompéi*.

(2) تفاصيل ينقلها المؤلف من كتابات رومانيلي ومازوا المشار إليها أعلاه، مع تأثر بالأوّل، حتّى أنّ «الفتاة»، كما سمّاها مازوا، الذي اقتفى غوتيه خطاه في البداية، تصبّح في الصفحة القادمة «سيّدة»، وذلك محاكاةً لرومانيلي الذي افترض أنّها ربة ذلك البيت.

احمرّ وجه أوكتافيان قليلاً، وأمسك بيد ماكس، وانتهت الزيارة من دون أيّ حادث آخر. ولدى خروج الأصدقاء الثلاثة من المتحف استقلّوا عربة كورّيكولو⁽¹⁾ نقلتهم إلى محطة سكة الحديد. وتعتبر هذه العربة، بعجلاتها الكبيرة الحمراء، ومقاعد المزيّنة بمسامير نحاسية، وحصانها النحيل والممتلئ حيوية، والمسرح مثل بغلة إسبانية، والراكض بعدو مترافقٍ مع وثبٍ فوق البلاط البركانيّ الكبير، عربة من الشهرة بحيث لا نحتاج إلى وصفها هنا، يضاف إلى ذلك أنّنا لسنا هنا بصدد كتابة انطباعات عن رحلة إلى نابولي، بل مجرد حكاية عن مغامرة غريبة وعصية على التصديق، رغم أنّها حقيقية.

سكة الحديد المؤدية إلى پومبيّ تحاذي البحر على نحو شبه دائم، حيث تأتي موجات الزبد اللؤلؤية لتنتشر على رمل مسودّ يشبه فحماً مغربلاً. فهذه الضفّة متكوّنة فعلاً من طفح حم ورماد بركانيّ، وتنتج، بلونها الغامق، تناظراً مع زرقة السماء وزرقة الماء؛ وبين كلّ هذا الألق تبدو الأرض وحدها هي التي تتمسك بالظلّ.

والقرى التي يتم اجتيازها أو محاذاتها، مثل بورتيتشي التي غدت شهيرة بفضل أوبرا السيّد أوبر⁽²⁾، وكذلك ريزينا، وتوري دال غريكو، وتوري دال آنونسيانا، التي نلمح لدى مرورنا بيوتها ذات الأقواس والأسطح ذات المصاطب، تتميز، رغم كثافة أشعة الشمس وبياض الكلس وقت الهاجرة، بما يشبه تجويّفات دالة على صخور بركانية، أو مناجم حديدية كما في مانشستر وبرمنغهام؛ فالغبار فيها أسود وهناك

(1) الكورّيكولو Corricolo واسطة نقل في نابولي.

(2) «خرساء بورتيتشي» *La Muette de Portici* أوبرا فرنسية لأوبر Auber عُرضت للمرّة الأولى في 29 شباط 1828، وحققت شهرة آنذاك. موضوعها انتفاضة شعب بورتيتشي (ميناء في نابولي بإيطاليا) على الهيمنة الإسبانية.

سُخام دقيق جداً يلتصق بكلّ شيء؛ فيشعر المرء أنّ مصهر بركان فيزوف يلهث ويدخّن على بعد خطوتين.

نزل الأصدقاء الثلاثة في محطة پومبي متصاحكين حول الخليط العتيق والحديث الذي يقفز للذهن مباشرةً من مثل هذه الكلمات: محطة قطار پومبي. إنّها مدينة إغريقية-رومانية ورصيف سكة حديد!

اجتازوا الحقل المزروع بشجيرات قطن ترفرف عليها بعض الثدّف البيضاء، وهو حقل يفصل سكة الحديد عن موقع المدينة المنبوشة، واتخذوا دليلاً من حانة خارج الأسوار القديمة، أو بدقّة أكثر، فإنّ الدليل هو الذي أخذهم. وهذه آفة يصعب تجنّبها في إيطاليا.

كان النهار من تلك النهارات السعيدة المعتادة كثيراً في نابولي، حيث تتخذ الأشياء، من خلال بريق الشمس وشفافية الهواء، ألواناً تبدو خرافية في الشمال، وتبدو متممة بالأحرى إلى عالم الحلم أكثر من انتهائها للواقع. وكلّ من شاهد مرّة واحدة ذلك الضوء المجبول من ذهب ولازورد يحمل منه في ضبابه الشخصيّ حيناً لا يشفى منه.

كانت المدينة العائدة إلى الحياة، بعد أن نفضت زاوية من كفن الرماد، تلوح بتفاصيلها العديدة تحت ضوء النهار الباهر. وكان بركان فيزوف يرسم في الخلفيّة قمته المخدّدة بحزوز هم زرقاء، وردية، وبنفسجية لوّحّها الشمس بسمرة ذهبية. وكان هناك ضباب خفيف، لا يكاد يلمح عبر الضوء، يرسم قلنسوة حول ذروة الجبل الجرداء؛ وللوهلة الأولى كان يمكن للمرء اعتباره من تلك الغيوم التي تظللّ جبين الذرى العالية حتّى خلال الطقس الأكثر صفاء. ومع زيادة الاقتراب منه يمكن مشاهدة خيوط رقيقة من البخار الأبيض تخرج من أعلى الجبل وكأنتها تخرج من ثقوب في مجمره عطور، ثمّ تجتمع لاحقاً في بخار خفيف. كان البركان

الرائق المزاج في ذلك اليوم يدخن غليونه بهدوء، ولولا مثال بومبي المطمورة عند قدميه، لما أمكن اعتباره ذا طابع أشرس من تلة مونتهارت⁽¹⁾؛ في الجانب الآخر، توجد هضاب جميلة ذات خطوط متموجة ومثيرة مثل أوراك نساء، تسد الأفق؛ وأبعد من ذلك يوجد البحر الذي كان قديماً يجلب المراكب ذات صفي المجاذيف وكذلك المراكب ثلاثية صفوف المجاذيف حتى أسوار المدينة، وهو يجرّ خط أفقه الوديع.

مظهر بومبي من الأكثر إدهاشاً؛ فالفقزة المفاجئة من القرن التاسع عشر إلى الورا تدهش حتى الأذهان الأكثر ابتذالاً والأقلّ قدرة على الفهم؛ تكفي خطورتان لنقلك من الحياة القديمة إلى الحياة الحديثة، ومن المسيحية إلى الوثنية؛ لذلك عندما شاهد الأصدقاء الثلاثة تلك الشوارع التي ظلت فيها أشكال حياة مندثرة في حال سليمة، أحسّوا، رغم اطلاعهم السابق على بعض الكتب والرسوم ذات العلاقة، بمشاعر غريبة بمقدار ما كانت عميقة. وكان أوكتايفان بوجه خاص يبدو مندهشاً ويتبع الدليل آلياً بخطى مسرنة، من دون إصغاء إلى المدونة الاصطلاحية الرتيبة والمحفوظة عن ظهر قلبٍ من طرف ذلك البائس الذي كان يستعرضها مثل درس.

كان ينظر بعين فزعة إلى أثلام العربات المحفورة على البلاط الخرافي للشوارع، وهي أثلام تبدو متمية إلى الأمس القريب بسبب جدّة آثارها؛ وإلى تلك الكتابات المدونة بحروف حمراء، بواسطة فرشاة سريعة، على حيطان الأسوار: لافتات عروض فتيّة، طلبات استتجار، صيغ نذورية، شعارات، وإعلانات من كلّ الأنواع، وكلّها مثيرة للفضول، تماماً

(1) تقع تلة مونتهارت La butte Montmartre في القسم الشمالي من باريس وتشكّل إطلالة جميلة وهادئة على المدينة.

كما يمكن أن تلوح قطعة من جدار باريستيّ يتمّ العثور عليها بلافتاتها وخزائنها الحائطية، بعد ألفي سنة، في نظر شعوب المستقبل المجهولة؛ ويعاين أيضاً تلك البيوت ذات السطوح المنهارة التي تُمكن بنظرة واحدة من رؤية كلّ تلك الأسرار المنزلية الداخلية، وكلّ تلك التفاصيل العائلية التي يهملها المؤرخون وتحمل الحضارات أسرارها معها؛ وتلك الينابيع المائية التي لم تكد تجفّ، وذلك الميدان الذي فوجئ بالكارثة خلال تحضيرات العروض، وما زالت أعمدته، وعوارضه المقطوعة والمنحوتة تماماً تنتظر، في صفاء أضلاعها النائية، نصبها في مواضعها؛ وتلك المعابد المنذورة إلى آلهة انتقلت إلى التصنيف الأسطوريّ والتي لم يكن بين مرتادها يومذاك أيّ ملحد؛ وتلك الدكاكين التي لا ينقصها إلا التاجر؛ وتلك الحانات التي لا تزال تُرى على رخامها بقعة دائرية تركتها أكواب الشارين؛ وتلك الشكنة ذات الأعمدة المدهونة باللون الصلصاليّ الأغر والزنجفيري⁽¹⁾ وقد جرّحها الجنود برسوم كاريكاتورية لمقاتلين، وتلك المسارح المزدوجة المتجاورة لعروض المسرحيات والأناشيد، والتي كان يمكنها استئناف عروضها لولا أنّ الفرقة التي كانت تؤمّنها، وقد تحوّلت إلى حالة طينية، لم تعد مكترثة، ربّما، بتطين سدّادة برميل الجعة أو سدّ شقّ في الجدار، مثل غبار الإسكندر أو قيصر، وفق تأملات هاملت السوداوية⁽²⁾.

صعد فايبو إلى منصّة مسرح العروض التراجيدية فيما تسلّق أوكتافيان وماكس أعلى المدرّجات، وهناك بدأ يلقي، بحركات تعبيرية قويّة، بعض المقاطع الشعرية التي كانت تخطر بذهنه، ما أثار هلع العظايا التي

(1) أو كسيد الرصاص الأحمر.

(2) إشارة إلى مشهد المقبرة في مسرحية «هاملت».

صارت تشتت محتلجة الأذنان ومختفية في شقوق مداميك الأساس المقوّضة؛ ومع أنّ أصص البرونز أو الصلصال المخصصة لارتداد الصوت لم يعذ لها وجود، فقد دوى صوته، من دونها، بطريقة لم تكن أقلّ امتلاءً وتموّجاً.

قادهما الدليل بعد ذلك، عبر المساحات المزروعة التي تغطي الأجزاء المطمورة من يومئذ، إلى المدرج الموجود في الطرف الثاني من المدينة. ساروا تحت تلك الأشجار التي تتمدد جذورها في سطوح المباني المدفونة، فتخلخل قرميدها، وتقلق سقوفها، وتصدّع أعمدها، ثم مرّوا عبر الحقول حيث توجد بقولّ معتادة تثمر فوق روائح فنية، كصور مادية للنسيان الذي ينشره الزمن على أجمل الأشياء.

لم يفاجئهم المدرج. إذ سبقت لهم رؤية مدرج فيرونا الأكثر اتّساعاً وحفظاً أيضاً، كما كانوا يعرفون جيّداً مخطّط تلك الميادين القديمة المخصّصة للمصارعة تماماً كما يعرفون ساحات مصارعة الثيران في إسبانيا التي تشبهها كثيراً إلا في متانة البناء وجمال المواد.

عادوا إذن أدراجهم، وبلغوا شارع الحظّ عبر درب مختصر، مستمعين للدليل بأذان غير صاغية، وهو يسمّي لهم كلّ بيت يمرّ به بالاسم الذي أعطي له لدى اكتشافه، ووفق خصائص مميزة له: بيت ثور البرونز، بيت الحيوانات، بيت السفينة، معبد الحظّ، بيت ميلياغر، حانة الحظّ عند زاوية شارع القنصلية، أكاديمية الموسيقى، الفرن العاديّ، الصيدلية، دكان الجراح، الجمارك، مسكن كاهنات الآلهة، نزل آلبينوس، والتيرموبولس، وهكذا دواليك حتّى البوّابة التي تؤدّي إلى طريق المقابر.

هذه البوّابة المبتّية بالأجر، والمغطّاة بتمائيل، وقد تلاشت زينتها، تُظهر في قوسها الداخليّ مزلقين عميقين مخصّصين لاستقبال باب زلاق على

طريقة البرج الرئيسي في حصون القرون الوسطى، في نوع من الاستحكام الدفاعي الخاص.

«مَنْ كان يتصوّر، قال ماكس لصديقيه، أن تكون بومبي المدينة الإغريقية اللاتينية، ذات بوابات على هذه الدرجة من الطراز القوطي بمسحة رومنطيقية؟ هل تتخيلان فارساً روماتياً تأخر عن العودة وهو ينفخ في بوقه أمام هذه البوابة كي يرفعوا له الباب الزلاق، مثل غلام من القرن الخامس عشر؟

- لا جديد تحت الشمس، أجب فايبو، وحتى هذه المقولة نفسها ليست جديدة، بما أنّ الملك سليمان هو الذي نطق بها.
- ربّما كان هناك جديد تحت القمر! تابع أوكتافيان يقول وهو يضحك بسخرية حزينة.

- عزيزي أوكتافيان، قال ماكس الذي توقف خلال هذا الحوار القصير أمام نقش محفور كإعلان على السور الخارجي، هل ترغب في رؤية معارك مصارعين؟ هي ذي اللآفئات: «معركة وصيد، يوم 5 نيسان بعد الظهر، سوف ترفع الصواري، عشرون ثنائياً من المصارعين سوف يتواجهون خلال فترة ما بعد الظهر، وإذا كنت تخشى على نضارة سحتك، فعليك أن تطمئن، إذ سيتمّ مدّ الستائر؛ إلا إذا كنت تفضّل الذهاب إلى المدرج في ساعة مبكرة، فهناك سوف يتواجه هؤلاء المصارعون لتبادل نحر أعناقهم صباحاً، يكون ذلك في الصباح، ولا مراعاة ممكنة أكثر من ذلك». ومع هذا الحوار المازح كان الأصدقاء الثلاثة يسرون محاذين ذلك الدرب المحاط بالقبور، ومن شأنه بمقياس مشاعرنا الحديثة أن يكون شارعاً مشؤوماً بالنسبة لمدينة، غير أنه لم يكن ليثير المعاني الكئيبة نفسها

بالنسبة للقدامى، فقبورهم لا تضمّ جثثاً مريعة بل قبضة رماد، كفكرة مجردة عن الموت. كان الفنّ يجمل تلك القبور، وكما يقول غوته فقد كان الوثنيّ يزيّن النواويس والمرامد بصور من الحياة.

وربّما كان ذلك هو ما جعل ماكس وفايو يزوران هذه الأضرحة المأتمّة بفضول جدل وامتلاء سعيد بالوجود لم يكن من شأنها الشعور بهما في مقبرة مسيحية، إذ كانت هذه الأضرحة في غاية البهجة وقد ذهبتها أشعة الشمس، فلاحت، في تموقعها على طرقي السبيل، كأنها تواصل تشبثها بالحياة من دون أن توحى بأي نوع من أنواع النفور البارد، أو الرعب الفنطازي الذي تسبّب به أضرحتنا الكثيرة. توقّفا عند قبر ماميا، الكاهنة العمومية، حيث نبتت شجرة، من فصيلة السرو أو الحور؛ وجلسا في بناء التريكلينيوم⁽¹⁾ نصف الدائريّ المخصّص لوجبات المآتم، ضاحكين مثل وريثين جديدين؛ وقرأ بمزاج ماجن ما كتّب على شواهد قبور نيفوليجا، ولايون، وعائلة آرّيا، وكان أوكتايفان يتبعهما وهو يبدو أكثر تأثراً من صديقيه غير المبالين بمصير هؤلاء الموتى قبل ألفي عام.

وهكذا بلغوا دارة آرّيوس ديوميديه وهي من أفخم مساكن يوميّ. يتمّ الصعود إليها بدرجات من الآجر، وبعد اجتياز الباب المدعوم بعمودين جانبيين صغيرين، يجد المرء نفسه في باحة تشبه الصحن الذي يتوسّط البيوت الإسبانية والموريسكية⁽²⁾، والذي كان القدامى يدعونه (1) التريكلينيوم Triclinium : غرفة طعام في المساكن الرومانية تحتوي ثلاث أرائك مرتبة بشكل نضوة أو حدوة فرس.

(2) الموريسكيون (بالإسبانية Los Moriscos وبالفرنسية Les Morisques) هم المسلمون الذين بقوا في إسبانيا بعد 1492، أي بعد سقوط جميع الممالك المسلمة، وقد أُجبروا على التنصّر أو الهجرة على أثر خرق الملوك الكاثوليكين الموائق المبرمة مع عبد الله الصغير، والتي منح أولئك المسلمين الحقّ في البقاء على ديانتهم رغم هزيمتهم. وكانوا يشكّلون أقلية كبيرة في مملكة بلنسية ووادي إييرو وشرقيّ الأندلس.

إمبليفيوم⁽¹⁾ أو كافوديوم؛ وهناك أربعة عشر عموداً من الأجر مغطاة بالحصص، تشكّل، من الجهات الأربع، رواقاً أو باحة بأعمدة مغطاة، شبيهة برواق الأديرة، حيث يمكن العبور تحتها دون خشية المطر. بلاط هذه الباحة فسيفساء من الأجر والمرمر الأبيض، ذو أثر ناعم ولطيف على العين. في الوسط، توجد بركة رخامية رباعية الأضلاع، ما زالت موجودة حتى الآن، وتستقبل مياه الأمطار التي ترشح من سطح الرواق. - يشعر المرء بأحاسيس فريدة عند الدخول بهذه الطريقة إلى الحياة القديمة والمشى بجزمة مبرنقة على رخام أتت عليه صنادل وأخفاف معاصري أوغسطس وتيبريوس.

رافقهم الدليل للتجوّل في القاعة الصيفية المفتوحة على واجهة البحر من أجل استنشاق النسائم العليلة. ففي هذه القاعة كان يتمّ الاستقبال والقبولة خلال الساعات الحارقة، عندما يهبّ النسيم الأفريقي القويّ محمّلاً بالخدر الكئيب والزوابع. أدخلهم إلى البازيليك، بهو طويل مهيباً ليوزّع الضوء على الشقق، وهناك كان الزوّار والزبائن ينتظرون مناداة المدوّن عليهم؛ رافقهم الدليل بعد ذلك إلى مصطبة الرخام الأبيض حيث يفتح المشهد على البساتين الخضراء والبحر الأزرق؛ ثمّ أراهم النيمفوم أو قاعة الحمام، بأسوارها المطلية باللون الأزرق، وأعمدة الحصص، وبلاطها الفسيفسائيّ وحوضها المرمريّ الذي استقبل أجساداً كثيرة فاتنة تلاشت مثل الظلال؛ والكوبيكولوم أو الردهة الجنازتيّة، حيث طفّت أحلام كثيرة جاءت من الباب العاجي، وكانت مضاجعه المحفورة في الجدار مغلقة بكونوبوم أو ستارة ما زالت حلقاتها البرونزية تثوي على

(1) إمبليفوم impluvium : مكان مكشوف داخل فناء المنازل الرومانية القديمة يضمّ بركة لجمع مياه المطر.

الأرض، ثم القاعة الرباعية الأعمدة أو قاعة الاستراحة، ومصلى الإله البيتي لار⁽¹⁾، ومكتب الأرشيف، والمكتبة، ومتحف اللوحات، والحذر أو جناح النساء، المكوّن من غرف صغيرة تهدمت جزئياً، وما زالت جدرانها الداخلية تحافظ على آثار رسوم وزخارف عربية مثل حدود لم تُمسح عنها الزينة بشكل جيّد.

بعد هذه المعاینات، نزلوا إلى الطابق السفليّ، ذلك أنّ الطبقة الأرضية أوطأ من ناحية الحديقة منها من ناحية طريق المقابر؛ اجتازوا ثماني قاعات مطلية باللون الأحمر القديم، إحداها محفورة بكوّ معمارية مثل تلك التي يمكن للمرء أن يراها داخل قاعة السفراء في قصر الحمراء، ووصلوا أخيراً إلى ما يشبه كهفاً أو بيتاً للمؤن، وقد دلّت عليه بوضوح ثمانية دنان من الخزف مرفوعة على الحائط، ولا شكّ أنّها تعطّرت في السابق بنبيد كريت وفاليرنا وماسيك، كما بأناشيد هوراس⁽²⁾.

كان هناك شعاع ضوء يمرّ عبر منفذ ضيق مسدود بنبات القراص فيغيّر لون أوراقه المخترقة بالضوء إلى زمرد وزبرجد، وهذه الجزئية الطبيعية الزاهية كانت تتسم بالمناسبة عبر كآبة المكان.

«هاهنا، قال الدليل بصوته اللامبالي الذي لا تكاد نبرته تتوافق ومعنى كلماته، تمّ العثور، بين سبعة عشر هيكلًا عظيمًا، على هيكل السيدة الذي يُعرض قلبه في متحف نابولي. كانت لها خواتم ذهبية، وظلّت مرقّ قميصها الناعم ملتصقة بالرماد المضغوط الذي حافظ على شكلها».

أحدثت الجمل البسيطة التي نطق بها الدليل تأثراً حاداً لدى أوكتافيان. وجعل الدليل يُريه المكان الدقيق حيث اكتشفت تلك البقايا

(1) لار Lare : إله البيت عند الرومان.

(2) كثيراً ما يذكر هوراس (هوراتوس) أسماء هذه الخمور ولا سيما نبيد ماسيك وفاليرنا.

الشمينة، ولولا العرقلة المتأتية من حضور صديقيّه، لأسلم نفسه لحماسة مبالغ فيها؛ كان صدره ينتفخ وعينه تخضلانّ بنداوة خفيّة: كانت تلك الكارثة التي محتها عشرون قرناً من النسيان، تثير مشاعره مثل مصيبة حديثة العهد تماماً؛ ولم يكن لموتِ عشيقه أو صديقٍ أن يُخزنه أكثر من ذلك؛ وهكذا، وبينما كان ماكس وفايو يشيحان بظهريهما، انهمرت منه دمعة متأخرة بقرنين من الزمن، على الموضوع الذي هلك في تلك المرأة، التي شعر تجاهها بحب استعاديّ، مخنوقة بالرماد الحامي للبركان.

«كفانا ما تعاطينا من علم آثار! هتف فايو؛ لا نريد تحرير بحثٍ حول جرّة أو آجرّة من عصر يوليوس قيصر كي نصير أعضاء في أكاديمية إحدى المقاطعات، هذه الذكريات الكلاسيكية تثير معدتي. فلنذهب لتناول العشاء، إن أمكن ذلك، في تلك الحانة الرائعة حيث أخشى ألاّ يقدّموا لنا سوى شرائح بقر متحجرة وبيض طازج باضه الدجاج قبل موت بلينيوس⁽¹⁾.

- لن أقول كما قال بوالو:

«الأحق يُيدي، أحياناً، رأياً مهماً»⁽²⁾

قال ماكس ضاحكاً، فقد تكون في ذلك مجانبة للصواب؛ غير أنّ هذه الفكرة لا تخلو من صواب. رغم أنّه كان من الأجل إعداد الوليمة هنا،

(1) الكاتب بلينيوس Gaius Plinius (23-79 م.)، ويدعى بلينيوس القديم، أو الأكبر، مميّزاً له عن سمّيّه بلينيوس الأصغر، (61-114 م.). مات خلال ثورة بركان فيزوف. ونقلاً عن ابن شقيقه، مات بلينيوس تحت رماد فيزوف قرب نابولي، في إيطاليا، خلال ثورة البركان سنة 79 التي غمرت مدينتي هيركولانيوم. وفي حين كان كلّ الناس يهربون افتتن بلينيوس بالظاهرة وسعى إلى الاقتراب منها. ففضى نجه بعد أن ترك مؤلفاً مهماً لمعرفة العصور القديمة بعنوان «التاريخ الطبيعي» *Naturalis Historia* في سبعة وثلاثين مجلداً.

(2) يدرج المؤلف هنا بيتاً غير دقيق من منظومة «فنّ الشعر» *Art poétique* لبوالو Boileau، وفي الأصل: «المغرور يُيدي، أحياناً، رأياً مهماً».

في تريكيلينيوم أو صالة طعام ما، مع استرخاء على الطريقة القديمة، وخدمة يوفرها عبيد، على طريقة لوكولوس أو تريمالتيو⁽¹⁾. صحيح أنني لا أرى الكثير من محار بحيرة لوكران؛ وما من سمك تزنس أو سلطان ابراهيم من البحر الأدرياتيكي؛ ولا وجود لخنزير أبوليا في السوق؛ أما الخبز والكعك المعسل فهما يوجدان في متحف نابولي بصلابة الحجر وبجانب قوالبها الصدئة؛ تبقى المعكرونه النيئة، والمرشوشة بمهروس جبنة الكاتشو-كافالو، رغم رداءتها، أفضل من العدم. ما رأي العزيز أوكتافيان؟

لم يسمع أوكتافيان أي جملة من هذه المحاوره المتعلقة بالأكل، إذ كان يتأسف كثيراً لكونه لم يكن موجوداً في يومه يوم هيجان فيزوف حتى يتمكن من إنقاذ السيدة ذات الخواتم الذهبية والفوز بحبها مكافأة له على ذلك. ولم يتبه فجأة إلا للكلمتين الأخيرتين اللتين نطق بهما ماكس، ونظراً لعدم رغبته في الحوار، فقد أظهر كيفما اتفق إشارة موافقة، وهكذا عادت مجموعة الأصدقاء إلى طريق المضائف محاذين الأسوار.

أعدت المائدة تحت ما يشبه رواقاً مفتوحاً وملحفاً بالحانة، وكانت أسواره المعقدة بالكلس، مزينة بلوحات رديئة من اختيار المضيف: سلفاتوره روزا، إسبانيوليه، الفارس ماسيمو وأسماء أخرى مشهورة من مدرسة نابولي للرسم، وقد رأى أن من واجبه تعظيمها.

«أيها المضيف الموقر، قال فايو، لا تنهك فصاحتك بلا طائل. نحن لسنا من الإنجليز، ونفضل الفتيات على اللوحات القديمة. عليك

(1) لوكولوس Lucullus : جنرال روماني من هذه المرحلة التاريخية كان ذواقة في مجال الأكل. تريمالتيو Trimalcio (تريمالسيون Trimalcion عند الفرنسيين): من شخصيات «ساتيريكون» Satyricon، رواية بيترونه Petrone (14-66 م). الساخرة. ويجسد تريمالتيو حديث النعمة، الوصولي، النجاج.

بالأحرى أن ترسل إلينا قائمة خمورك مع تلك الحساء السمراء، ذات العينين المخمليتين، والتي لمحتها على الدرج».

أدرك المضيف أنّ زوّاره لا ينتمون إلى الطراز القابل للمخداع، فانصرف عن تمجيد رواق فنونه لتمجيد قبو خموره. بدايةً، هو يمتلك كلّ الخمور المتأتية من أفضل الكروم: شاتو-مارغو، غراند-لافيت العائد من الهند، سيلري دو موات، هوشاير، سكارليت-واين، بورتو، وجعة بورتو، جعة آليه وكذلك جعة زنجبيل، لاكربيا-كريستي أو دمة المسيح، أبيض وأحمر، وكابري وفاليرنا.

«ماذا! لديك نبيذ فاليرنا⁽¹⁾، يا حيوان، وتضعه في آخر القائمة؛ تجلدنا بلائحة خمرية مملّة، قال ماكس واثباً على عنق المضيف بحركة هيجان هزليّ؛ ألا تتحلّى بانحياز للمنتج المحليّ؟ أنت إذن غير جدير بالعيش في هذا الجوار العريق؟ أخبرني هل نبيذك الفاليريّ طيب على الأقلّ؟ هل تمّ تخزينه في الدنان في عصر القنصل بلانكوس؟

- لا أعرف القنصل بلانكوس، ونبيذي ليس مخزّناً في دنان، لكنّه معتق وثمن الزجاجة منه عشر كرلانات⁽²⁾»، أجاب المضيف.

مال النهار وحلّ اللّيل، ليل رائق شفاف، أكثر صفاءً بالتأكيد من ظهيرة لندن؛ كان للأرض درجات ألوان لازوردية وللسماء انعكاسات فضية ذات اعتدال لا يمكن وصفه؛ وكان الهواء من الهدوء إلى درجة أنّ شعلة الشموع الموضوعه على المائدة لم تكن تنوس أصلاً.

اقرب من المائدة فتّى عازف ناي وظلّ واقفاً، مثبّأ عينيه في الضيوف الثلاثة، في هيئة كأثما منقوشة، وبدأ ينفخ في مزماره ذي الألحان العذبة

(1) نبيذ إيطالي باسم المدينة التي تصنعه.

(2) نقد إيطالي قديم.

والشجيرة، بعض تلك الأغاني الشعبية الملحّنة بالنغمة الصغرى، بسحرها الأخاذ.

لعلّ هذا الفتى ينحدر رأساً من عازف الناي الذي كان يتقدّم خطى دويليوس⁽¹⁾.

«عشاؤنا يتنظم بطريقة قديمة بما فيه الكفاية؛ لا تنقصنا إلا راقصات من كاديث⁽²⁾ وأكاليل من لبلاب، قال فايو وهو يسكب كأساً دهاقاً من نبيذ فاليرنا.

- أشعر بقدرة قريحتي على ذكر الكثير من الأمثال اللاتينية كما في حلقات النشر المتسلسل في جريدة «لي ديبا»؛ وأستذكر مقاطع من قصائد غنائية، أضاف ماكس.

- احتفظ بها لنفسك، صاح أوكتافيان وفاييو، وقد انتبها في الوقت المناسب؛ لا شيء يتسبّب في عسر الهضم مثل اللاتينية على مائدة الطعام».

ولم يتأخّر الحوار بين هؤلاء الشبان، مع سيجار في الفم، ومرفق على المائدة، محمّلين في عدد من القناني الفارغة، لا سيّما عندما يكون النبيذ مثملاً، لم يتأخّر في التعرّيج على موضوع النساء. وهكذا عرض كلّ واحد مذهبه، وهذا ملخّص تقريريّ لذلك.

لا يهتمّ فايو إلا بالجمال والشباب. فهو شهواني وإيجابي ولا يكتفي بالأوهام وليست له أيّ أحكام مسبقة إزاء الحبّ. ويمكن أن يتساوى

(1) دويليوس Duilius : حاكم روماني خلال الحرب البونيقية الأولى 261 ق م. ممثّلت مكافأة انتصاره الأوّل على القرطاجيين في ممكينة طيلة حياته من مرافقين له من عازفي الناي وحملّة المشاعل.

(2) كاديث Cádiz مدينة وميناء في إسبانيا، أسسها الفينيقيّون وسمّوها «غاديس» في 1104 ق م.

إعجابه بفلاحة أو دوقه، المهم أن تكون جميلة؛ والجسد هو الذي يثيره أكثر من اللباس؛ وكان يسخر كثيراً من بعض أصدقائه العاشقين لبضعة أمتار من الحرير والدنتيلا، ويقول إنَّ من المنطقي أكثر أن يكون التعلق بمعروضات تاجر أقمشة. وهذه الآراء التي تبدو منطقية في العمق، وهو لا يخفيها، تجعله يظهر بمظهر إنسان منحرف.

أما ماكس الذي يعتبر أقل من فايو ميلاً إلى الفن، فهو لا يحب إلا المشاريع الصعبة، والمغامرات الغرامية المعقدة، فكان يبحث عن حالات صعبة وذات مقاومة كي يتمكن من التغلب عليها، وعن عفاف يفتنه، ويتصرف مع الحب مثل مباراة شطرنج، بنقلات يتم التأمل فيها مطوّلاً، وتأثيرات مؤجلة، ومفاجآت واستراتيجيات جديدة ببوليب⁽¹⁾. وعندما يكون في أحد الصالونات، ينتقي المرأة الأقل انجذاباً إليه كي تكون هدفاً لهجوماته، ويشعر بلذة فائقة عندما يجعلها تنتقل من النفور إلى الحب عبر مراحل انتقالية ماهرة؛ كما إنه يعتبر فرض نفسه على الأرواح التي كانت تسمثر منه، وقهر العزائم المتمردة على سطوته، من أعذب الانتصارات. وعلى شاكلة بعض الصيادين الذين يجوبون الحقول والغابات والسهول تحت المطر والشمس والثلج، مع متاعب مفرطة وحماسة لا تحمد، من أجل طريدة هزيلة قد يرفضون أكلها في أغلب الأحيان، فإنَّ ماكس يكف عن الاهتمام بطريدته حال بلوغها، ويعود إلى البحث من جديد.

أما أوكتافيان، فهو يعترف بأنَّ الواقع لا يغريه البتة، ليس لأنه مال إلى أحلام المراهقة المجبولة بالزنابق والورود مثل قصيدة غزلية للشاعر

(1) باليونانية بُولِيبْيُوس، مؤرّخ وسياسي إغريقي. كان جنرالاً ورجل سياسة ومؤرخاً ومنظراً سياسياً. وهو صاحب كتاب «التاريخ العام للجمهورية الرومانية»، يذكر فيه تاريخ روما منذ غزو الغاليتين (القرن الرابع ق. م). إلى غزو قرطاج وكورنث ونيوميسيا، وهو يعدّ مرجعاً نفيساً لدراسة تاريخ الحروب البونيقية.

دوموستيه⁽¹⁾، لكنّ هناك حول كلّ ما هو جميل كثيراً من التفاصيل الثرية المنقّرة؛ كثيراً من الآباء الثرثارين والموسمين؛ وأمّهات متأنّقات، يحملن زهوراً طبيعية على شعور مصطنعة؛ وأبناء عمومة تُحرم الوجوه ويضمرون بوحاً؛ وخالات سخيفات عاشقات لكلاب صغيرة. ويكفي بالنسبة له وجود صورة بالحفر المائيّ، نقلاً عن هوراس فيرنيه، أو دولاروش، معلقة على جدار إحدى النساء، حتّى تُحمد عنده أيّ شغف ناشئ. وكثيراً ما يكون شاعريّاً أكثر منه عاشقاً، فيطلب شرفة في الإيزولا بيلا على بحيرة ماجور⁽²⁾، خلال ليلة مقمرة، إطاراً لموعد. ويرغب لو تمكّن من عزل حبّه عن بيئة الحياة المشتركة ونقل مشاهدته إلى النجوم. لذلك تعلق تباعاً بعلاقات غرامية مستحيلة وجنونية مع كلّ النماذج النسائية الكبرى التي خلّدها الفنّ أو التاريخ. وعلى غرار فاوست، أحبّ هيلانة الطروادية، وتمنّى لو أنّ تموجات القرون تأتي إليه بأحد تلك التجسيّدات الرائعة للرغبات والأحلام البشرية التي، وإنّ كانت لامرئية بالنسبة للعيون العادية، فهي لا تنفكّ مستمرة في المكان والزمان. وهكذا أعدّ حريماً مثاليّاً يشمل سميراميس، وأسبازي، وكليوبترا، وديانا بواتيه، وجانّ دو أراغون. ويحدث له أحياناً أن يعشق تماثيل أيضاً. وذات يوم، لدى مروره في المتحف أمام فينوس التي أنجزها ميلو، صاح: «أوه! من عساه يعيد إليك ذراعيك كي تتمكّني من تهشيمي على صدرك المرمرى!» وفي روما أدتْ به رؤية شعر كثيف ذي خصلات، منبوش من قبر قديم، إلى الوقوع

(1) دموتيه Demoustier (1760-1801): كاتب فرنسيّ، مؤلّف «رسائل الى إيميلي حول الميثولوجيا» *Letters à Émilie sur la mythologie*، كان يضمّن نثره قصائد غزلية في منتهى الضحالة. كما كان يدّعي أنه من سلالة راسين ولافونتين.

(2) بحيرة ماجور أو البحيرة الكبرى Le lac Majeur، تمتدّ على متبتين واثني عشر كيلومتراً في كلّ من إيطاليا وسويسرا، وهي معروفة بمنتجعاتها السياحية.

في حال غريبة من الهذيان؛ ولقد حاول، بعد حصوله على شعرتين أو ثلاث من حارس أغراه بسعرٍ عالٍ، وتقديم تلك الشعرات إلى مسرمة ذات اقتدار، أن يبعث خيال تلك المرأة الميتة وشكلها؛ غير أن السائل الناقل كان قد تبخّر بعد كلّ تلك السنين، ولم تتوصّل الرؤيا إلى الخروج من الظلمات الأبدية.

وكما تخنّ فابيو أمام واجهة المتحف، فقد هتج الأثر الملتقط من قبو دارة آرّيوس ديوميديه، اندفاعات خرقاء لدى أوكتافيان نحو أنموذج مثاليّ استرجاعيّ؛ فقد كان يحاول الخروج من الزمان ومن الحياة، ونقل روحه إلى عصر تيتوس⁽¹⁾.

انسحب كلّ من ماكس وفابيو إلى غرفتيهما، وما لبثا أن ناما بتأثير من نشوة نبيذ فاليرنا. أمّا أوكتافيان الذي عمد مراراً إلى ترك كأسه ممتلئة أمامه، حتّى لا يترك المجال لسكرة ماجنة أن تترك النشوة الشاعرية التي كانت تغلي في دماغه، فقد أحسّ من خلال اضطراب أعصابه أنّ النوم لن يأتيه، وخرج من المضافة بخطوات بطيئة كي ينعش جبينه ويهدئ أفكاره بهواء ليليّ.

ومن دون وعي منه، حملته قدماه نحو المدخل المؤدّي إلى المدينة الميتة، فحرّك الرّجاج الخشبيّ الذي يغلقه وتقدّم كيفما اتفق داخل الأنقاض.

كان القمر ينير البيوت الشاحبة بألغه الأبيض، مقسماً الشوارع إلى قسمين من الضوء الفضيّ ومن العتمة المزرقة. كان ذلك الضوء الليليّ، مع ألوانه المدّارية، يخفي خراب البنايات. فتحت نور الشمس الساطع، لا يمكن للمرء أن يميّز الأعمدة المبتورة وواجهات المباني المشققة والأسطح المنهارة بفعل هيجان البركان؛ كانت الأقسام الغائبة تكتمل

(1) تيتوس Titus : الإمبراطور الروماني الذي حدثت في عهده ثورة بركان فيزوف.

من خلال الألوان المعتدلة، ويكفي شعاع مباحث، مثل لمسة مشاعر في مشروع لوحة فنية، لكي يشير إلى كل منهار. كأنّ عفاريت الليل الصموتة قد أصلحت المدينة المتحجرة لعرض يخصّ حياة فنطازيّة.

وبلغ الأمر بأوكتافيان أن تخيل أحياناً تسلّل بعض الأشكال الآدمية الغامضة في العتمة؛ غير أنّها كانت تتلاشى بمجرد بلوغها القسم المضاء. وكان هناك وشوشات وضجّة غير محدّدة تخفق في الصمت. أرجع متجوّلنا كلّ ذلك إلى تزعزل محتمل في عينيه، وإلى طنين في أذنيه،- ويمكن أن يكون أيضاً مجرد ارتباك بصريّ، أو تنهيدة من النسيم البحريّ، أو هروب عظاية أو حنش بين نبات القراص، فكّل شيء يعيش في الطبيعة بما في ذلك الموت، وكلّ شيء يصدر ضجّة بما في ذلك الصمت. ومع ذلك كان يشعر بقلق غير إراديّ، رجفة خفيفة، يمكنها أن تكون ناجمة عن هواء الليل البارد، تجعل جلده يقشعر. التفت مرتين أو ثلاثاً؛ فلم يشعر بعزلة أكبر ممّا كانت عليه حاله قبل قليل في المدينة المهجورة. أيكون صديقه قد خامرتها الفكرة نفسها وصارا يبحثان عنه بين الخرائب؟ وتلك الأشكال التي لمحها لمحاً؟ وتلك الضجّة غير الواضحة لخطوات، هل تكون لماكس وفابيو وهما يمشيان ويتحدّثان ثمّ يختفيان عند زاوية منعطف؟ كان أوكتافيان يدرك مرتبكاً أنّ هذا التفسير الطبيعيّ تماماً ليس صحيحاً، وأنّ استدلالاته حول ذلك لا تقنع سواه. امتلأت العزلة والعتمة بكائنات لا مرئية صار وجوده يقلقها؛ كان يسقط وسط سرّ خفيّ، ويات يظهر أنّ هناك من ينتظر ابتعاده كي يتابع. تلك كانت الأفكار المُشطّة التي تجول بذهنه وتأخذ الكثير من غموض الوقت والمكان وتفصيل أخرى كثيرة مُنذرة، يمكن أن يتفهّمها أولئك الذين وجدوا أنفسهم ليلاً بين آثار ممتدّة.

لدى مروره أمام بيتٍ عاينَه خلال النهار، وصار القمر يرسل عليه أشعته المباشرة، رأى رواقاً في حال سليمة فأراد تدقيق تناسقه: أربعة أعمدة من الطراز الدوري⁽¹⁾ المصلَّع حتى منتصف الارتفاع، وجذع العمود يبدو ملفوفاً بما يشبه قماشٍ جوخٍ قرمزيّاً فاتحاً، يسند زخرفة متموجة في أعلى الإفريز متعددة الزينة، تبدو كما لو أنّ الرسام المزوّق قد أنهاها بالأمس؛ في الجانب الداخلي للباب كلب حراسة مولوسيّ من لاكونيا⁽²⁾ مرسوم بالورنيش ومرفق بتدوين: «انتبه للكلب»⁽³⁾، كان ينبح على القمر وعلى الزوّار بضراوة ينطق بها الرسم. على العتبة الفسيفسائية توجد كلمة «آفي»⁽⁴⁾، بحروف أوسكية⁽⁵⁾ ولاتينية تحمي الضيوف بنبرتها الودية. ولم تكن الجدران الخارجية، المطلية باللون الصلصاليّ الأغر والأحمر، مصدّعة. ويرتفع البيت بطابق إضافي، وسطح القرميد، المحزّز بقاعدة برونزية، يعرض مظهره السليم على زرقة السماء الخفيفة حيث كانت تشحب بعض النجوم.

كان هذا الترميم الغريب الذي تمّ بين الظهيرة والمساء من قبل مهندس معماريّ مجهول، يعذب أوكتافيان كثيراً، وهو المتأكد من رؤية هذا البيت في النهار نفسه في حال يرثى لها من الخراب. ولقد اشتغل المرمّم الغريب بسرعة فائقة، ذلك أنّ المساكن المجاورة كانت بالمظهر الحديث والقريب العهد ذاته؛ وكانت كلّ الأعمدة مغطّاة بتيجانها؛ ولا ينقص جدران الواجهات اللامعة حجر، أو آجرة، أو غشاء جصّ أو

(1) مرحلة إغريقية.

(2) منطقة من اليونان القديمة.

(3) باللاتينية في الأصل: Cave canem.

(4) باللاتينية: Ave، وتعني «سلام». بمعنى التحية.

(5) إيطالية قديمة.

قشرة دهان، ويمكن، عبر فجوة أعمدة الواجهة، لمح غار وردّي وأبيض، وآس وأشجار رمان، حول بركة رخام الباحة. لقد أخطأ كلّ المؤرخين: ثورة البركان لم تحدث، أو إنّ عقرب الزمن قد تأخرت بعشرين ساعة قرنيّة على مزولة الأبدية.

تساءل أوكتافيان، الذي فوجئ إلى حدّ بعيد، عمّا إذا كان ينام واقفاً ويسير في حلم. تساءل حقاً ليعرف إنّ لم يكن الجنون وحده هو الذي يُرَقِّص هلوسات أمامه؛ لكنّه أكره على التحقق من أنّه لم يكن نائماً ولا مجنوناً.

لقد حدث تغييرٌ فريد في الجو؛ هناك لوينات وردية غامضة تختلط، عبر نصول بنفسجيّ، بالضياء المزرّق للقمر؛ كانت السماء تنجلي على الحافات؛ حتّى ليتمكن الاعتقاد أنّ النهار سيبزغ. أخرج أوكتافيان ساعته؛ كانت تشير إلى منتصف الليل. وخشية أن تكون قد توقفت، دفع نابض الجرس فدقّ اثنتي عشرة مرّة؛ الساعة منتصف الليل حقاً، ومع ذلك كان الصحو يزداد والقمر يذوب في الزرقة المضيئة بأطراد؛ كانت الشمس تشرق.

وهكذا تمكّن أوكتافيان الذي اختلطت عنده كلّ الأفكار المتعلقة بالزمن، من الاقتناع بأنّه لا يتنزّه في يوميّ ميته، جثة باردة لمدينة تمّ كشف نصفها من كنفها، بل في في يوميّ حيّة، شابّة، سليمة، لم تتدفّق عليها سيول فيزوف من الأوحال الحارقة.

حدثت معجزة فوق التصوّر ونقلته، وهو الفرنسيّ القادم من القرن التاسع عشر، إلى عصر تيتوس، ليس بالروح بل بالواقع، أو إنّها أعادت إليه من الماضي السحيق مدينة مهذّمة مع سكّانها المفقودين؛ إذ أنّ رجلاً يرتدي ثياباً على الطريقة القديمة لاح خارجاً للتوّ من بيت مجاور.

كان هذا الرجل ذا شعر قصير ولحية حليقة، ويرتدي قميصاً داكناً ومعطفاً ضارباً إلى الرماديّ سُمرت أطرافه لكي لا تعيق مشيته؛ كان يمشي بخطوة سريعة، بل حثيثة، ومرّ بجانب أوكتافيان دون أن يراه. في ساعده سلّة منسوجة من الخلفاء وهو يتّجه إلى فوروم نونديناريوم⁽¹⁾؛ كان عبداً، دافوس⁽²⁾ عادياً ذاهباً إلى السوق؛ لا مجال للخطأ في ذلك.

سُمعت ضجّة عجلات، ودخلت إلى الشارع عربة نقل قديمة محمّلة بالبقول تجرّها ثيران بيضاء. وبجانب الثيران المقرونة كان يمشي راعي بقر عاريّ الساقين المفلوحتين بالشمس، يتعلّ خفّاً، ويرتدي ما يشبه قميصَ كَتانٍ منتفخاً عند الحزام؛ وهناك قُبعة قشّ مخروطية الشكل ملقاة خلف ظهره وممسوكة برباط عند الرقبة، ساحة برؤية رأسه الذي لا يشبه رؤوس اليوم، وجبينه الخفيض المخترق بعقد قاسية، وشعره الأسود المجعد، وأنفه المستقيم، وعينيه الهادئتين مثل عيون ثيرانه، وعنقه الذي يشبه عنق هرقل ريفيّ. كان يهمز حيواناته بشدّة بواسطة المنخس، مع هيئة تمثال يمكنه أن يغمر آنغر⁽³⁾ بالنشوة.

لمح الراعي أوكتافيان وبدا مُفاجأً، لكنّه تابع طريقه؛ التفت مرّة، وقد لا يكون وجد تفسيراً لمظهر هذه الشخصية الغريبة بالنسبة إليه، لكنّه اكتفى، في غبائه الريفيّ المسالم، بترك كلمة اللّغز لمن هم أمهر منه. وظهر أيضاً مزارعون ريفيون، يسوقون أمامهم حميراً محمّلة بقرّب من النييد، ويصدر عنها رنين أجراس برونز؛ كانت سيارهم تختلف عن سيار مزارعي اليوم اختلاف الميدالية عن الفلس.

(1) نونديناريوم Nundinarium (لاتينية): المكان المخصّص للأسواق.

(2) دافوس Davus هو الاسم المعتاد للعبد في المسرحيات الكوميدية اللاتينية.

(3) آنغر Ingres : رسّام فرنسي (1780-1867).

ظَلَّت الحياة تزدهم تدريجيًّا مثل إحدى لوحات الديوراما⁽¹⁾ التي تبدأ مقفرة، ثم ينشطها تغيير الإضاءة ببروز شخوص كانوا غير مرئيين حتى تلك اللحظة.

لقد تغيّرت طبيعة الأحاسيس التي كانت تخالج أوكتايفان. قبل قليل، في ظلام الليل الخادع، كان ضحيّة ذلك الضيق الذي لا يقدر عليه حتى الشجعان، وسط ظروف مقلقة وفتنازية لا يستطيع العقل تفسيرها. ثم تحوّل رعبه الغامض إلى اندهاش عميق؛ لم يعد قادراً على الشك، بسبب وضوح الإدراك، في شهادة حواسّه، ومع ذلك فإنّ ما كان يراه غير قابل للتصديق تماماً. - ولأنّه ظلّ غير كامل الاقتناع فقد كان يسعى، من خلال معاينة التفاصيل الصغيرة الواقعية، إلى البرهنة لنفسه أنّه ليس ضحيّة هلوسة. - وليست تلك شياطين تتابع أمام عينيه، فضوء الشمس الساطع كان ينيرها بواقعية لا يمكن دحضها، وظلالها التي كان يمدّدها ضوء الصباح ترتسم على الأرصفة والأسوار.

لم يفهم أوكتايفان ما يحدث له، وكان مفتوناً في الحقيقة لرؤية أحد أحبّ أحلامه يتحقّق، فلم يعد يقاوم مغامرته، وانساق مع كلّ تلك العجائب، من دون الزعم أنّه متأكد من ذلك؛ وقال لنفسه إنّّه بموجب وجوده تحت تأثير قوّة غريبة تمكّنه من عيش بضع ساعات في قرن آفل، لن يضيع وقته في البحث عن حلّ لمشكلة غير قابلة للفهم، وتابع طريقه ببسالة، متطلّعاً ذات اليمين وذات الشمال إلى هذا المشهد الذي يُعدّ في منتهى القدم وفي منتهى الجدّة بالنسبة إليه. لكنّ، إلى أيّ مرحلة من حياة بومبي تمّ نقله يا ترى؟ هناك كتابة تابعة لقيّم المدينة⁽²⁾، منقوشة

(1) الديوراما لوحة تصوّر مشاهد وشخصيات يحسبها المشاهد حيّة أو متحرّكة بفعل التلاعب بالإضاءة.

(2) ناظر الأبنية والملاعب والمسؤول عن تموين المدينة في عهد الرومان.

على أحد الأسوار، توضّح له، من خلال أسماء الشخصيات العامة، أنّ العصر هو في بداية حكم تيتوس،- أي في العام 79 من تاريخنا. اخترقت روح أوكتافيان فكرة مباغته؛ لا شك أنّ المرأة التي أعجب بأثر قالبها في متحف نابولي، ما زالت حيّة، نظراً لكون ثورة بركان فيزوف التي قضت فيها حدثت في شهر آب من هذه السنة نفسها؛ يمكنه إذن العثور عليها، ورؤيتها، والتحدّث إليها... ربّما كانت الرغبة المجنونة التي أحسّ بها أمام مظهر ذلك الرمد المقلّب حول تكويرات إلهيّة، ستتحقّق أخيراً، إذ لا يتعيّن أن يكون هناك مستحيل أمام حبّ كانت له قوّة العودة بالزمن إلى الوراء، وقضاء الساعة نفسها مرّتين في الساعة الرملية للأبدية.

وبينما كان أوكتافيان يغوص في هذه التأمّلات، كان هناك صبايا جميلات يقصدن الينابيع، ماسكاتٍ بأطراف أصابعهنّ البيضاء جراراً متوازنة على رؤوسهنّ؛ ونبلاء رومان يتوجّهون إلى ساحة الفوروم بأثوابهم الفضفاضة البيضاء المقصّبة بشرائط قرمزية، يتبعهم موكب من زبائنهم. المتبصّعون يسرعون حول الدكاكين المميّزة بلافتات منحوتة ومرسومة، ويذكر صغر أحجامها وكذلك أشكالها بالدكاكين الموريسكية في الجزائر؛ وفوق معظم هذه الحوانيت الصغيرة ينتصب قضيب مجيد من الصلصال المشويّ والملوّن، مع نقش: هنا تسكن السعادة، وهو ما يدلّ على الحذر المتطرّف من العين الشريرة؛ بل إنّ أوكتافيان لاحظ أيضاً وجود حانوت تعاويد يعرض قروناً وأغصاناً مرجانٍ متشعب وتماثيل لبريّاوس⁽¹⁾ مجبولة من الذهب، وهي لا تزال توجد في نابولي اليوم، من أجل توقّي الجتّاتورا⁽²⁾، ومن الأقوال الشائعة في أنّ التطرّف يدوم أكثر من

(1) بريّاوس Priapos: إله إغريقي يرمز إلى الخصوبة والفحولة.

(2) العين الشريرة، ويؤمن بها سكان نابولي. وقد ألهمت المؤلف قصّة أخرى ينتهي بها هذا الكتاب بعنوان «جتّاتورا».

مع تعقب الرصيف الذي يحاذي كل شارع في پومبي، وهو بذلك ينزع عن الإنجليز رغد هذا الابتكار، وجد أوكتافيان نفسه وجهاً لوجه مع شاب جميل، في سته تقريباً، يرتدي زياً زعفراني اللون، ويتغطى بمعطف من صوف ناعم أبيض، مرن مثل الكشمير. بدا مندهشاً لدى رؤيته أوكتافيان، معتمراً القبعة العصرية الفظيعة، محزماً في ستره ريدنغوت هزيلة، محبوس الساقين في سروال والقدمين في جزميتين لامعتين، تماماً مثلما قد تدهشنا، في جادة غند بباريس، رؤية هندي أحمر من شعب الإيواي، أو بوتوكودو⁽¹⁾ مع ريشاته، وأساوره التي هي من برائن دب، ووشمه الباروكي.

لكنه، وباعتباره شاباً مهذباً، لم ينفجر ضاحكاً في وجه أوكتافيان، ونظراً لعطفه على هذا البربري المسكين التائه في هذه المدينة الإغريقية-الرومانية، فقد قال له بصوت مفتحم ورخيم:

«آدفيئا، سالفى.»⁽²⁾

لم يكن من المستغرب أن يعمد أحد سكان پومبي تحت حكم الإمبراطور الإلهي تيتوس، ذي الجبروت والمهابة، إلى التكلّم باللاتينية، ومع ذلك اختلج أوكتافيان لدى سماعه هذه اللّغة الميتة في فم حيّ. وعندئذ ارتاح لأنّه كان متفوقاً في النقل عن اللاتينية، وحصل على جوائز في المسابقة العامة. ولم يستخدم اللاتينية التي تعلّمها في الجامعة إلّا في هذه المناسبة الوحيدة، وباستدعاء ذكرياته المدرسية أجاب على تحية مواطن پومبي الفتى بأسلوب كُتب تدريس اللاتينية، أي بطريقة جلّية بما

(1) بوتوكودو Botocudo : اسم قبيلة هندية في البرازيل يأتي اسمها من الأفراس (البوتوك)

التي يضعونها في شفاههم وفي آذانهم.

(2) «مرحياً أيها الغريب».

فيه الكفاية، لكن مع لكنة باريسية جعلت الفتى يتسم.

«ربّما كان من الأسهل لك أن تتكلّم الإغريقية، قال فتى پومپي؛ أنا أيضاً أجد هذه اللّغة، لأنّي أزاول دراستي في أثينا.

- ما أعرفه من الإغريقية أقلّ بكثير من اللّاتينية، أجب أوكتافيان؛
أنا من بلاد الغاليتين، من باريس، من لوتيس⁽¹⁾.

- أعرف هذه البلاد. جدّي حارب في بلاد الغال تحت إمرة يوليوس قيصر العظيم. لكنّ، ما هذا الزيّ الغريب الذي ترتديه؟ الغاليتون الذين رأيتهم في روما لم يكونوا يلبسون هكذا».

ارتأى أوكتافيان أن يفهم فتى پومپي أنّ عشرين قرناً قد مرّت منذ غزو يوليوس قيصر لبلاد الغال، وأنّ العالم تغيّر فعلاً؛ لكنّه فقد ما يعرف من اللّاتينية، رغم أنّ ما كان يعرفه قليل.

«اسمي روفوس هولكونيوس، وبيتي هو بيتك، قال فتى پومپي؛
إلا إذا كنت تفضّل حرّيّة الحانة: هناك استضافة جيّدة في حانة آلبينوس،
قرب باب ربض أوغستوس فيليكس، وفي نزل سارينوس، ابن بيبليوس،
قرب البرج الثاني؛ وإذا ما رغبت فأنا مستعدّ لأنّ أكون دليلك في هذه
المدينة المجهولة بالنسبة إليك. أنت تعجبني أيّما الغريب الشاب، رغم
أنّك حاولت اللّعب على احتمال سذاجتي عندما زعمت أنّ الإمبراطور
تيتوس الذي يحكم اليوم مات منذ ألفي عام، وأنّ الناصريّ الذي تولى
السفلة الموالبون له، والمدهونون بالقطران، مهمّة إضاءة حدائق نيرون⁽²⁾

(1) لوتيس Lutèce هو الاسم القديم لباريس.

(2) هذه الإشارة إلى إعدام المسيحيّين الذين اعتبرهم نيرون مسؤولين عن حريق روما لم تكن
أمراً مستغرباً في القرن التاسع عشر: فقبل أعمال جيروم كاركوينو Jérôme Carcopino
«دراسات في التاريخ المسيحيّ» (Études d'histoire chrétienne) 1953 كان هناك
اعتقاد بانتشار المسيحية في پومپي قبل ثورة بركان فيزوف سنة 79.

له، سيجلس وحيداً على العرش سيّداً في السماء المقفرة التي هوى منها الآلهة الكبار. أقسم ببولوكس!⁽¹⁾ أضاف يقول وهو يلقي بنظره على إعلان أحمر منقوش عند زاوية أحد الشوارع، لقد جئت في الوقت المناسب، هناك عرض مسرحية بلاتو «لاكاسينا»⁽²⁾، وقد تمّ إخراجها مؤخراً؛ وهي كوميديا عجيبة وهزلية من شأنها أن تسليك، وإن لم تفهم إلا الإيحاءات. اتبعني، موعد عرضها يقرب؛ سوف أجعلك تجلس على مقعد الضيوف والأجانب».

وتوجه روفوس هولكونيوس نحو المسرح الكوميدي الصغير الذي زاره الأصدقاء الثلاثة خلال النهار.

سلك الفرنسي وقتي يومّي شوارع نبع الخصب، والمسارح، وحاذياً الكلية ومعبد إيزيس، وورشة نحات التماثيل، ثم دخلا إلى الأوديون أو المسرح الهزلي، عبر مدخل جانبي. وبفضل توصية هولكونيوس تمّ جلوس أوكتافيان قرب البروسنيوم، وهو موضع يشبه مقصورات صدر المسرح في مسارح اليوم. وسرعان ما التفتت كل الأنظار إليه مع فضول متعاطف وسري همس خفيض عبر المدرج.

لم تبدأ المسرحية بعد؛ فانتهاز أوكتافيان الفرصة لمعاينة القاعة. كانت الدرجات نصف الدائرية والتي تنتهي من كلّ جانب بقائمة أسد رائعة منحوتة من حمم بركان فيزوف، تتقدّم متوسّعة عبر فسحة فارغة تعادل ردهة المسرح عندنا، لكنّها محدودة أكثر ومبلّطة بفسيفساء رخام إغريقي؛ وهناك درجة أوسع كانت تشكّل، من مسافة إلى أخرى، منطقة ممّيزة،

(1) بولوكس Pollux : هو في الميثولوجيا الإغريقية بطل أسطوري في عداد الآلهة.

(2) عُثِرَ في خرائب يومّي على «فيشة»، وهي قطعة تصنع من موادّ مختلفة وتحلّ محلّ النقود، وتعادل بطاقة الدخول إلى المسرح. وقد كُتب عليها اسم المسرحيّ اللاتيني بلاوتوس Tutus Plautus وعنوان مسرحيته «لاكاسينا».

وأربعة سلام متوافقة مع المخارج الجانبية وصاعدة من الأرضية إلى قمة المدرج لتقسّمه إلى خمس زوايا أكثر اتساعاً في أعلاها مما هي عليه في أسفلها. وكان المتفرجون يصلون بسهولة إلى مقاعدهم بفضل بطاقاتهم المتمثلة في صفائح عاجية صغيرة سُجِّلَ عليها، حسب الأرقام الترتيبية، الصف، والزاوية والدرجة، مع عنوان المسرحية واسم مؤلفها. وكان هناك صفوف منفصلة مخصصة لكل من القضاة، والنبلاء، والرجال المتزوجين، والشبان، والجنود الذين تظهر حوذهم البونزية اللامعة. - كان المشهد جذاباً بما يضمّ من توغات⁽¹⁾ جميلة ومعاطف بيضاء واسعة حسنة الطي، معروضة على الدرجات الأولى ومتعارضة وتنوّع زينة النساء الجالسات في الأعلى، والقبعات المستديرة لأبناء الشعب وقد أبعادوا إلى المقاعد العليا، قرب الأعمدة التي تسند السقف، والتي ترك مجالاً عبر فجواتها لرؤية سماء كثيفة الزرقة مثل حقل لازورديّ في حفل أثينيّ؛ وكان هناك مطر خفيف من ماء معطر بالزعفران، ينزل من الأفاريز في قطرات لا تُرى، فتعطر الجو وتنعشه. فكّر أوكتافيان في انبثاق الروائح الكريهة التي تعيب جوّ مسارحنا غير المريحة إلى درجة تسمح باعتبارها أمكنة تعذيب، وتوصل إلى أنّ الحضارة لم تتقدّم كثيراً. تراجعت الستارة المسنودة برافدة عرضانية إلى خلفيّة الأوركسترا، واستقرّ العازفون في منصّتهم، ولاح مقدّم المسرحية مرتدياً زياً مضحكاً وعلى رأسه قناع مشوّه، حوّله هو إلى قبعة.

بعد أن حيّا المقدّم الحضورَ وطلب التصفيق، بدأ بعرض تهريجيّ موجز. قال: «المسرحيات القديمة تشبه النييد الذي يزداد قيمة مع مرّ السنين، ومسرحية «لاكاسينا»، المحبّبة لكبار السنّ، لا ينبغي أن

(1) التوغا Toga : ثوب روماني فضفاض.

تكون أقلّ من ذلك بالنسبة لبقية الشبان؛ الجميع يمكنهم التمتع بها: البعض لأنهم يعرفونها، والآخرين لأنهم لا يعرفونها. يضاف إلى ذلك أنّ المسرحية قد أعيد إخراجها بعناية، ولا بدّ من الإصغاء إليها بروح متحرّرة من كلّ همّ، من دون التفكير في الديون، ولا في الدائنين، فما من عمليّات توقيف من داخل المسرح؛ إنّه يوم سعيد، والطقس جميل، والألسيون⁽¹⁾ يخلّق فوق الفوروم». بعد ذلك قدّم تحليلاً للمسرحية التي سيقدّمها الممثلون مع تفاصيل تدلّ على أنّ عنصر المفاجأة لا يدخل كثيراً في تمتع القدامى بالمسرح: فحكى كيف أنّ الشيخ ستالينو، عاشق أمته الجميلة كاسينا، يريد تزويجها لمزارعه أولمبيو، كزوج مُتغاضٍ سوف يحلّ هو محلّه في ليلة العرس؛ وكيف أنّ ليكوستراتا، زوجة ستالينو، تعمل على إفشال فسق زوجها الفاجر، بتزويج كاسينا لسائس الخيول كالينوس، حتّى تتمكن من إنجاح حبّ ابنها؛ وأخيراً الطريقة التي ظنّ بها ستالينو المخدوع أنّ عبداً شاباً جيء به إليه متنكراً هو كاسينا، أمّا هذه الأخيرة، التي تمّ الاعتراف بها حرّة ومن ولادة بريئة، فتتزوج الابن الذي تحبّه ويبادلها الحبّ.

كان الشاب الفرنسي يتفرّج بلا انتباه على الممثلين، مع أقنعتهم المزوّدة بأفواه من البرونز، وهم يبذلون جهودهم على المسرح؛ وكان العبيد يهرعون هنا وهناك ليتظاهروا بالعجلة؛ والشيخ يهزّ برأسه ويمدّ يديه المرتعشتين؛ والسيدة ذات النبرة العالية والمظهر الشرس والمزدري تنفخ في أهميّتها وتخاصم زوجها، وسط استمتاع القاعة. - كان كلّ أولئك الشخوص يدخلون ويخرجون عبر ثلاثة أبواب موجودة في الجدار الخلفيّ وتتصل بمجمّع الممثلين. - ويحتلّ بيت ستالينو زاوية من المسرح،

(1) طائر بحريّ أسطوريّ.

ويقابله بيت صديقه القديم ألسيسيموس. وهذا الديكور، رغم جودة رسمه، كان يمثل بالأحرى فكرةً عن مكانٍ وليس المكان نفسه، كما في كواليس المسرح الكلاسيكيّ الغامضة.

عندما بدأ موكب الزواج الذي يضمّ كاسينا المزيّفة يظهر على المسرح، عمّ انفجار بالضحك، على غرار ذلك الذي ينسبه هوميروس للآلهة، كلّ مقاعد المدرّج، وحركت رعود من التصفيق أصداء المكان؛ غير أنّ أوكتافيان لم يكن ينصت ولم يكن ينظر.

لقد لمح للتوّ، في الصفوف المخصّصة للنساء، مخلوقة ذات جمال رائع. ومنذ تلك اللّحظة تلاشت الوجوه الجذّابة التي لفتت انتباهه، مثل تلاشي النجوم أمام فوبي⁽¹⁾؛ غاب كلّ شيء، اختفى كلّ شيء كما في حلم؛ وحجب ضبابٌ كلّ المقاعد والدرجات المكتنّزة بالبشر، وياتت أصوات الممثلين الصاخبة تبدو كأنها تضيع في بعيد لانهائي.

لقد استقبل في قلبه ما يشبه صدمة كهربائية، وصار يحس بأنّ شرراً يتطاير من صدره عندما تلتفت نظرة تلك المرأة نحوه.

كانت سمراء شاحبة؛ شعرها المتموّج والمجعد، والأسود مثل الليل، يرتفع قليلاً فوق الصدغين، على الطريقة الإغريقية، وفي وجهها الأكد تلمع عينان داكنتان عذبتان، ومشحونتان بتعبير غير محدّد من الحزن الشهوانيّ والملل المشوب؛ فمها المقوّس باستخفافٍ عند زاويتيّه، يحتاج باضطرام متوقّد على بياض قناعها الهادئ؛ ورقبتها تقدّم تلك الخطوط الرشيقة الخالصة التي لم نعد نجدها إلّا في التماثيل. وكانت ذراعاها عاريتين حتّى الكتفين، ومن أعلى نهديا المزهويّين، والرافعين قميصها الوردّي المائل إلى البنفسجيّ، تنطلق طيّتان يسهل اعتبارهما من حفر

(1) فوبي Phœbé : ابنة أورانوس (السماء) وغايا (الأرض) شخصيّة أسطوريّة إغريقية.

فيدياس أو كليومان⁽¹⁾ على الرخام.

رؤية ذلك الصدر باستداراته الفائقة الدقة ونحته الخالص أدت إلى اضطراب مغناطيسي في نفس أوكتافيان؛ وبدأ له أنّ تلك التكويرات تتطابق تماماً والقالب المفرغ في متحف نابولي، والذي رمى به إلى حال محترمة من أحلام اليقظة، وهتف به صوت من أعماق قلبه أنّ تلك المرأة هي فعلاً المرأة التي اختنقت برماد فيزوف في دارة آرّيوس ديوميديه. آية معجزة جعلته يراها حيّة تحضر عرض مسرحية «لاكاسينا» لبلاوتوس؟ لم يجهد نفسه بالبحث عن تفسير؛ وإلا كيف كان، هو نفسه، حاضراً هناك؟ تقبل حضوره كما في الحلم عندما نتقبل تدخل أشخاص موتى منذ وقت طويل ومع ذلك يتصرفون كما لو كانوا أحياء؛ زد على ذلك أنّ انفعالاته لم تكن لتسمح له بتحليل عقلائيّ. عجلة الزمن، بالنسبة إليه، خرجت من محورها، وساقته رغبتة الغالبة إلى اختيار مكانه في القرون المنصرمة! كان يقف وجهاً لوجه مع فكرته الوهميّة الأصعب إدراكاً، لأنّها استعاديّة. كانت حياته تمتلئ دفعة واحدة.

أدرك، وهو ينظر إلى ذلك الوجه المغرق في صمته وفي شغفه، في برودته وفي احتدامه، في موته وفي حيويته، أنّه أمام حبّه الأوّل والأخير، كأس نشوته العليا؛ أحسن بذكريات كلّ النساء اللّاتي اعتقد أنّه أحبهنّ تتلاشى مثل ظلال خفيفة، وبروحه تعود بكرّاً من كلّ انفعال سابق. لقد اختفى الماضي.

في تلك الأثناء كانت حسناء بوميّ، وهي تسند ذقنها إلى كفّ يدها، ترسل نحو أوكتافيان، مع تظاهرها بالانتباه للعرض، تلك النظرة المخمليّة من عينيها اللّيليتين، فتصله النظرة ثقيلة وحرارة مثل انبثاق

(1) من نحاتي الإغريق.

رصاص ذائب. ثم انحنت على أذن فتاة جالسة بجانبها.

انتهى العرض؛ وبدأ الجمهور ينصرف عبر المخارج الجانبية.

رفض أوكتايفان خدمات دليله هولكونيوس واندفع عبر أوّل مخرج صادفته خطاه. ولم يكذب يبلغ الباب حتّى حطّت يد على ذراعها، وقال له صوت أثويّ بنبرة خفيضة، لكن مع حرص على ألا تفوته أيّ كلمة:

«أنا تيشي نوفوليجا، الخادمة المؤمنة على ملذات آرّيا مارتشيللا، ابنة آرّيوس ديوميديه. سيّدتي تحبّك، اتبعني».

كانت آرّيا مارتشيللا قد صعّدت للتوّ إلى محفّتها التي يحملها أربعة من العبيد السورّيين الأقوياء المكشوفين حتّى الخصر بحيث تلتصق جذوعهم البرونزية في الشمس. انفرجت ستارة المحفّة، وقامت يد شاحبة، تزيّنها خواتم، بإشارة وديّة نحو أوكتايفان، كما لو كانت تريد تأكيد كلام الخادمة. ثمّ انسدلت طيّة الستارة الأرجوانية، وابتعدت المحفّة على إيقاع خطوات العبيد.

عمدت تيشي إلى جعل أوكتايفان يمرّ عبر دروب ملتوية، مع اجتياز الشوارع بوضع القدم بشكل خفيف على الأحجار المتباعدة التي تربط ما بين الأرصفة والتي تتدحرج بينها عجلات المركبات، فيتوجّه عبر المتاهة بدقّة من يعرف المدينة. لاحظ أوكتايفان أنّه كان يجتاز أحياء من يومّي لم تكتشفها الحفريات، وبالتالي فقد كانت مجهولة تماماً بالنسبة إليه. هذه الحال الغريبة، من بين حالات أخرى كثيرة، لم تدهشه. فقد قرّر عدم الاندهاش من أيّ شيء. وفي كلّ هذا المشهد الخارق القديم، والذي من شأنه أن يجعل بائع عاديّات يُجنّ من الفرح، لم يكن يرى إلّا العين السوداء العميقة لآرّيا مارتشيللا، وذلك الصدر الرائع المنتصر على القرون، والذي شاء الدمار نفسه أن يحافظ عليه.

بلغا باباً موارباً، سرعان ما انفتح وانغلق، ووجد أوكتافيان نفسه في باحة تحيط بها أعمدة رخام إغريقية من النسق الإيوني⁽¹⁾، مدهونة حتى منتصف ارتفاعها بلون أصفر فاقع، مع تاج عمود ينتهي بزينة حمراء وزرقاء؛ وهناك شريط زخرفة من نبات الزراوند يُدلي أوراقه الكبيرة الخضراء على شكل قلب في نتوءات المعمار مثل زخرفة عربية حقيقية، وقرب بركة تحيط بها النباتات، يوجد طائر نُحام وريدي واقف على قائمة واحدة، زهرة من ريش بين زهور نباتية.

كانت الجدران مزينة بلوحات جدارية تمثل هندسات نزوية أو مشاهد فنتازية. رأى أوكتافيان كل تلك التفاصيل بنظرة سريعة، لأن تيشي سلّمته إلى العبيد المكلفين بحوض الاستحمام والذين أخضعوه، رغم تلهّفه، إلى كل مراحل الاستحمام القديمة. فبعد مروره بمختلف درجات الحرارة المتبخرة، وتحمل مكشط التنظيف، والشعور بمواد التجميل والزيوت المعطرة تسيل على جسده، ألبس قميصاً أبيض، وأعيد إلى تيشي التي أمسكت بيده وقادته إلى قاعة أخرى في منتهى الزينة.

على السقف توجد رسوم لمارس وفينوس وإله الحب، مرسومة بصفاء في التصوير، وألق في الألوان، وحرية في اللّمسات، تدلّ على أثر فنان كبير وليس مجرد مزوّق يعمل تحت الطلب؛ وهناك لوحة تتكوّن من أيائل وأرانب وطيور تتلاعب بين الأوراق، تهيمن رسومها فوق طبقة تلبس من الرخام البصلي⁽²⁾؛ أما سيفسنا البلاط، وهي عمل رائع، لعلّه يعود إلى سوسيموس دو بيرغام، فيمثل نقوشاً بارزة لمأدبة، وقد تمّ تنفيذها بمهارة فنيّة قادرة على الخداع.

(1) النسق الإيوني هو واحد من أساليب البناء اليونانية يمتاز بالتاج المزين بحلقتين حلزونيتين جانبيتين.

(2) الرخام البصلي هو رخام رماديّ متموّج الخطوط بحيث يشبه مقطع بصلة.

داخل القاعة، وعلى بيكلينيوم، أي سرير لشخصين، كانت آريا
مارتشيلا متكئة في وضعية مثيرة ورائقة تذكر بالمرأة النائمة لفيدياس على
زخارف مدخل البارثينون⁽¹⁾؛ كان حذاؤها المطرز باللؤلؤ أسفل السرير،
فيما قدمها الجميلة الحافية، التي هي أصفى وأبيض من المرمر، تتمدد على
طرف غطاء خفيف وناعم مرمي عليها.

حول خديها الشاحبين يرتعش في الضوء قرطان مصنوعان على شكل
ميزان ويحملان لآلي في كل كفة؛ وعلى صدرها قلادة كريّات ذهبية تجسد
بذوراً ممددة على شكل إجاصة، تتحرك على صدرها نصف المكشوف
بسبب طية مهملة في المشمال⁽²⁾ ذي اللون التبنّي المزيّن برسم إغريقية
سوداء؛ وهناك شريطة سوداء وذهبية تلمع في شعرها الأبنوسيّ وتخلله
حسب المواضع، إذ أنّها غيرت ثيابها بعد عودتها من المسرح؛ وحول
معصمها، وبصورة تذكّر بأفعى الصلّ حول ذراع كليوباترا، ثعبان ذهبيّ
ذو عينين من أحجار كريمة، يلتف عدة مرّات محاولاً عضّ ذيله.

قرب السرير المزدوج، توجد مائدة صغيرة ذات قوائم على شكل
عنقاء خرافية، مطعمة بالصدف والفضة والعاج، وقد حمّلت بعدد من
المأكولات المقدّمة في صحون فضية وذهبية أو من الصلصال المرصع
برسوم ثمينة. ويرى فيها طائر تُدرج يثوي في ريشه، وعدة فواكه تحوّل
مواسم ظهورها دون تلاقحها معاً.

كان كلّ شيء يشير إلى انتظار ضيف؛ فهناك أزهار يانعة تنتشر على

(1) من الإغريقية القديمة Parthenon ويعني «الفتاة» أو «العذراء»، وهو معبد كان مخصّصاً
للإلهة الإغريقية أثينا، حامية المدينة وإلهة الحرب والحكمة، ويوجد في الأكروبول. شيده
المهندس المعماريّ إيكينوس وزينه النحات فيدياس Phidias، بمبادرة من بيريكليس
Periklés الذي كان يحكم أثينا آنذاك.

(2) المشمال: ملحفة كانت تشتمل بها نساء الإغريق.

الأرضية، ودنان نبيذ مغمورة في جرار مملوءة بالثلج.

أشارت آريا مارتشيليا على أوكتافيان بالاستلقاء بجانبها على البيكلينيوم أو السرير المزدوج وتناول قسطه من الطعام؛ تناول الشاب كيفما اتفق، وهو في حالة من نصف الجنون الناجمة عن المفاجأة والحب، بعض اللقييات من الصحون التي كانت تقدمها له إماء آسيويات قصيرات، ذوات شعور مجعدة وأثواب قصيرة. لم تكن آريا تأكل، لكنها كانت أحياناً تُذني من شفيتها كوباً ملوناً بألوان لبنيّة خفيفة ومملوءةً بنبيذ أرجوانيّ غامق يشبه الدم المتخثر؛ وكانت كلما شربتْ صعد من قلبها الذي لم يخفق منذ سنين، إلى خديها الشاحبين، بخارٌ ورديّ غير محسوس؛ مع ذلك كانت ذراعها العارية التي لامسها أوكتافيان وهو يرفع كوبه باردة مثل جلد ثعبان أورخام قبر.

«آه! عندما توقفت في متحف الستودي لتأمل قطعة الطين اليابس الذي يحافظ على شكلي، قالت آريا مارتشيليا وهي ترمق أوكتافيان بنظرة طويلة رطبة، وانطلقت أفكارك نحوي بحرارة، أحسّت روعي بذلك في هذا العالم الذي أطفو فيه غير مرتيّة بالنسبة للعيون الفظة؛ الإيوان يصنع الإله، والحب يصنع المرأة. لا يمكن لامرأة أن تكون ميتة حقاً إلا إذا لم تعدّ محبوبة؛ رغبتك أعادت لي الحياة، الاستحضار القويّ الذي بذله قلبك ألغى المسافات التي كانت تفصل بيننا».

كانت فكرة الاستحضار العاشق التي عبرت عنها الفتاة تدرج ضمن معتقدات أوكتافيان الفلسفية، وهي معتقدات لا نختلف فيها عنه كثيراً. لا شيء يموت فعلاً، كل شيء يوجد دائماً؛ ولا أحد بإمكانه القضاء نهائياً على ما وُجد ذات مرّة. كل فعل، كل كلمة، كل شكل، كل فكرة هوت في الأوقيانوس الكونيّ للأشياء تُنتج فيه دوائر تتقدّم متوسّعة

حتى تخوم الأبدية. الصورة المادية لا تتلاشى إلا لدى النظرات المتبدلة، والأطياف التي تنفصل عنها تعمّر اللآنهاية. ما زال البطل باريس يخطف هيلانة في منطقة مجهولة من الفضاء. وما زال مركب كليوباترا، قادم، ينفخ أشرعته الحريرية على زرقة نهر طرسوس آخر مثالي. وثمة عقول مشبوبة وقوية استطاعت أن تجلب إليها قروناً مندثرة ظاهرياً، وأن تجعل شخصيات ميتة في نظر الجميع تعيش من جديد. اتخذت فاوست ابنة تيندار عشيقة له، ونقلها إلى قصره القوطي، من أعماق هاديس، هاوية العالم السفلي الغامضة. وها إن أوكتافيان قد عاش للتو يوماً في عهد تيتوس ليكون محبوباً من آريا مارثيلا، ابنة آريوس ديوميديه، النائمة في هذه اللحظة قربه على سرير عتيق في مدينة يحسبها الجميع مهذّمة.

«بسبب اشمزازي من النساء الأخريات، أجب أوكتافيان، ونتيجة لأحلام يقظتي التي لا تُهزم والتي كانت تقودني نحو نهاجها الساطعة عبر القرون مثل كواكب محرّضة، أدركت أنني لن أحبّ أبداً إلا خارج الزمان والمكان. كنت أنتظركِ أنتِ، وذلك الأثر الواهي الذي حافظ عليه فضول البشر، وضعني، بفضل سرّه المغناطيسي، في صلة بروحك. لست أدري إن كنتِ حلماً أم حقيقة، شبهاً أم امرأة، أنا مثل إيكسيون أحضن غيمة في صدري المخدوع⁽¹⁾، أم أنني ضحية عملية سحر دينية، غير أنّ ما أعرفه جيداً هو أنّك سوف تكونين حبيّ الأولى والأخير.

- فليستمع إيروس، ابن أفروديت، إلى وعدك لي، قالت آريا مارثيلا وهي تحني رأسها على كتف حبيبها الذي رفعه بعناق عاشق. آه! ضمّني إلى صدرك الفتّي، غطّني بأنفاسك الدافئة، أحسّ بالبرد

(1) في الأسطورة الإغريقية، حاول إيكسيون إغواء يونون فأرسل إليه زفس غيمة لها شكل الإلهة.

لبقائي كلّ هذا الوقت الطويل بلا حبّ». وهكذا صار أوكتافيان يحسّ في مواجهة قلبه بارتفاع ذلك الصدر الجميل وانخفاضه، وكان في الصباح نفسه يبدي إعجابه بقلبه من خلال واجهة خزانة متحف؛ كانت نضارة ذلك الجسد الجميل تتغلغل فيه عبر ثيابه وتجعله يلتهب. وكانت الشريطة الذهبية والسوداء قد انفصلت عن رأس آرّيا التي باتت مشبوبة العاطفة، وانتشر شعرها مثل نهر أسود على المخدّة الزرقاء.

كان العبيد قد نقلوا المائدة. ولم تعد تُسمع سوى غمغمات مبهمة من القُبل والآهات. وكانت طيور الشّمائي المدجّنة غير المكترثة بهذا المشهد العاشق تنقر على بلاط الفسيفساء بقايا الأدبة مُطلقةً صيحات صغيرة. فجأةً انزلقت حلقات البرونز في ستارة الباب الذي يغلق الغرفة، ولاح على العتبة شيخ ذو هيئة صارمة يلتفّ في معطف واسع داكن اللّون. كانت لحيته البيضاء مفصولة ضمن حدّين مثل لحي الناصريين أتباع المسيح، ويبدو وجهه مخدداً من تعب إماتة الجسد: كان صليباً صغير من خشب أسود يتلّى من رقبته ولا يدع مجالاً للشكّ حول عقيدته: كان ينتمي إلى ملّة، حديثة العهد آنذاك، تلامذة المسيح.

ارتبكت آرّيا مارشيللا، لدى رؤيته، وخبّأت وجهها تحت طيّة من معطفها مثل طائر يضع رأسه تحت جناحه في مواجهة عدوّ لا يمكنه تحاشيه، ومن أجل التخلّص من هول رؤيته على الأقلّ؛ في حين كان أوكتافيان يتكئ على مرفقه ويثبت نظره في الشخص المزعج الذي يدخل بهذه الطريقة المباغثة في سعاده.

«آرّيا، آرّيا، قال الشخص المتقشّف بنبرة لائمة، ألم يكفك زمن حياتك مجوناً، أكان لا بدّ لعشقتك الدنيء أن يتهادى إلى القرون التي ليست لك؟

ألا يسعك ترك الأحياء في فلّكهم، إذن لم يبرّد رمادك منذ اليوم الذي متّ فيه من دون توبة، تحت هطول نيران البركان؟ لم تتوصّل ألفا سنة من الموت إلى تهدّتكِ إذن، وما زالت ذراعاك الضاريتان تسحبان إلى صدرك المرمرّي، الخالي من القلب، هؤلاء المساكين المعتوهين المنتشين بشراب المحبة.

- آريوس، عفوك، يا أبتاه لا ترهقني باسم تلك الديانة الكثيية التي لم تكن ديانتي قطّ؛ أنا أو من بأهتنا القديمة التي كانت تحبّ الحياة والشباب والجمال واللذة؛ لا تُعدني إلى العدم الشاحب. دعني أتمتع بهذا الوجود الذي أعاده لي الحبّ.

- اخرسّي أيتها الكافرة، لا تحدّثيني عن آهتك الشيطانية. اصرفي هذا الرجل المقيّد بإغراءاتك النجسة؛ لا تجذّبه مجدّداً خارج دائرة حياته التي حدّدها الربّ؛ عودي إلى يلبوس الوثنية مع عشاقك الآسيويين، أو من الرومان أو الإغريق. وأنت أيها المسيحي الشاب، اهجرْ هذه المرأة الشبح التي من شأنها أن تلوح لك أبشع من أمبوز وفوركياس⁽¹⁾، لو تمكّنت من رؤيتها كما هي.

أراد أوكتايفان أن يتكلّم، وقد شحب لونه وتجمّد من الرعب، غير أنّ صوته ظلّ محبوساً في حنجرتة، حسب تعبير فرجيل⁽²⁾.

«هل ستطيعيني يا آريّا؟ صاح الشيخ العجوز الطويل بحسم.
- كلاً، أبداً»، أجابت آريّا، وقد لمعت عيناها واتّسع منخراها وارتجفت شفّتها، وهي تحضن جسد أوكتايفان بذراعي التمثال الجميلتين

(1) أمبوز Empouse وفوركياس Phorkyas من الشخصيات الفنتازية المتوحّشة في مسرحيّة «فاوست» الثانية لغوته.

(2) تعبيراً عن الذهول والدهشة، يقول فرجيل في «الإنياذة» (النشيد الثالث، 48): «توقّف صوتي في حنجرتي».

الباردتين، الصلبتين والصارمتين مثل الرخام. كان جمالها الهائج والمغتاز بفعل الصراع يشع ببريق خارق للطبيعة في تلك اللحظة القصوى، وكأنها أرادت بذلك أن تترك لعاشقها الشاب ذكرى لا مفرّ منها.

«هيا، أيتها الشقيّة، تابع الشيخ المسنّ، ينبغي اللّجوء إلى الوسائل الكبرى، وإعادة عدمك ملموساً ومرتباً إلى هذا الطفل المفتون»، ثمّ نطق، بصوت ملؤه الوصايا، بصيغة تعزيم ما لبثت أن أسقطت من خدي آريا تلك اللّوينات الأرجوانية التي كان قد بعثها فيها كوب النييد. في تلك اللّحظة دقّ جرس بعيد في إحدى القرى المحاذية للبحر أو الأكواخ الضائعة في ثنايا الجبل، ليُسمع الدفقات الأولى من السلام الملائكيّ.

ولسمع هذا الصوت، خرجت تنهيدة احتضار من الصدر المحطّم للمرأة الشابة. أحسّ أوكتافيان بارتخاء الذراعين اللّتين كانتا تحيطان به؛ وتجمّع القماش الذي كان يغطيها في كومة كما لو أنّ التكويرات التي كانت تشده قد انهارت، ولم يعد المتجول الليليّ البائس ليرى بجانبه، على فراش المأدبة، سوى قبضة من رماد مختلطة ببضعة عظام متكلسة، تلمع بينها أساور وحلي ذهبية، وبقايا لا شكل لها، ربّما كانت كما تمّ اكتشافها أثناء تكنيس بيت آرّيوس ديوميديه. أطلق صيحة رهيبة وفقد وعيه.

لقد اختفى الشيخ. وكانت الشمس تشرق، ولم يبقَ من القاعة التي كانت مزينة قبل قليل بالكثير من الروعة، إلّا آثار مدمّرة. بعد نوم أثقله الإفراط في الشرب ليلة البارحة، استيقظ ماكس وفابيو مذعورين، وكان هُمّهما. الأوّل مناداة رفيقهما الذي كانت غرفته مجاورة

لغرفتهما، بصرخة من صرخات لم الشتات الهزلية المستخدمة أحياناً خلال الرحلات. لم يجيها أوكتافيان، لأسباب وجيهة. وبما أنّ فاييو وماكس لم يستلما أيّ ردّ منه فقد دخلا إلى غرفة صديقهما، وشاهدا الفراش غير مستخدم.

«لعلّه نام على كرسيّ، قال فاييو، عاجزاً عن الالتحاق بمرقده؛ فهو قليل التحمّل، أوكتافيان العزيز؛ ولعلّه خرج باكراً كي يبّد أبخرة الخمر بفضل نداوة الصبح.

- لكنّه لم يشرب كثيراً، أضاف ماكس متأملاً. كلّ هذا يبدو لي غريباً بما يكفي. فلنذهب للبحث عنه».

جاب الصديقان، بمعيّة الدليل، كلّ الشوارع والمفرقات وساحات يومّي وأزقتها، ودخلوا إلى كلّ البيوت المثيرة للفضول، حيث افترضوا أن يكون أوكتافيان موجوداً فيها ومنكبّاً على نسخ رسم أو نقل نقش، وانتهى بهم الأمر إلى العثور عليه فاقداً وعيه ممدداً على الفسيفساء المخلّعة لغرفة صغيرة شبه منهارة. بذلوا جهداً كبيراً لجعله يستعيد وعيه، وعندما استعاده، لم يقدّم أيّ توضيح آخر عدا أنّه خطر بباله مشاهدة يومّي تحت ضوء القمر، وأنّه أصيب بإغماء لن يكون له على الأرجح عواقب وخيمة. عادت المجموعة الصغيرة إلى نابولي عبر سكة الحديد كما جاءت، وفي المساء، كان ماكس وفايو يتفرّجان، داخل مقصورتها في سان كارلو، بمساعدة إضافية من منظر مقرّب، على كوكبة من الحوريات يقفزن في باليه، على طريقة أماليا فيراريس الراقصة الشهيرة آنذاك، وكنّ يرتدين، تحت تنانيرهنّ الشاش، سراويل شنيعة خضراء وحشية تجعلهنّ يشبهن ضفادع لسعتها رتيلاء سامة. وكان أوكتافيان الشاحب، بعينه المشوّشتين وتماسكه المرهق، لا يبدو مبالياً بما يحدث على المسرح، لفرط عجزه، بعد

مغامرات اللّيل الرائعة، عن استعادة الإحساس بالحياة الواقعية. ومنذ تلك الزيارة إلى يومِي ظلّ أوكتافيان يعيش ضحيّة كآبة مكدّرة، لم تفلح بشاشة صديقِهِ ومزاحهما إلّا في مفاقتها بدلاً من تخفيفها؛ كانت صورة آرّيا مارشيلّا تلاحقه دائماً، ولم تتمكّن خاتمة حظه الجميلة من إتلاف فنتها.

ونظراً إلى عجزه عن التماسك، عاد سرّاً إلى يومِي وتجوّل، كما في المرّة أولى، عبر الآثار، تحت ضوء القمر، وقلبه يخفق بأمل أخرق، غير أنّ اهلوسة لم تتجدّد؛ لم يرَ إلّا عظاميات تهرب فوق الحجارة، لم يسمع إلّا صَيّ طيور ليليّة مفزوعة؛ لم يلتقِ مرّة أخرى بصديقه روفوس هولكونيوس؛ لم تأتِ تيشي لتضع يدها الرقيقة على ذراعه؛ لقد ظلّت آرّيا مارشيلّا في الرماد، بكلّ عناد.

وكوسيلة أخيرة، تزوّج أوكتافيان مؤخّراً من شابة إنجليزية فاتنة، تميم به حبّاً. وهو رجل رائع بالنسبة لزوجته؛ مع ذلك تشعر إيلين، بغريزة القلب التي لا يخدعها شيء، أنّ زوجها يحبّ امرأة أخرى، لكنّ مَنْ عساها تكون؟ هذا ما لم تستطع كشفه رغم التجسّس الشديد. ذلك أنّ أوكتافيان لا يُنق على راقصة؛ وفي الحياة اليومية لا يخاطب النساء إلّا بمجاملات معتادة؛ بل إنّه ردّ ببرود على مبادرات متقدّمة من أميرة روسية، شهيرة بجمالها وغُنجها. وحتى فتح دُرج سرّي، خلال غياب زوجها، لم يقدّم لشكوك إيلين أيّ دليل على خيانه. وكيف عساها تدرك أنّها تغار من مارشيلّا، ابنة آرّيوس ديوميديه، الذي أعتقه الامبراطور تيبيريوس؟

تَقْصُّصٌ (1)

لم يكن أحدًا قادرًا على فهم المرض الذي كان يتأكل أوكتاف دو سافيل ببطء. لم يكن يلزم الفراش بل كان يقضي نسق حياته بطريقة اعتيادية؛ فما من شكوى تخرج من بين شفثيه قَطًّا، ومع ذلك كان يذبل بشكل واضح للعيان. وحتى عندما سأله الأطباء الذين اضطرَّ إلى مراجعتهم بطلبات ملحة من ذويه ومن أصدقائه، لم يُشر إلى أيِّ ألم محدد، ولم يكتشف فيه العلم أية أعراض منذرة: فصدره يردُّ بصوت ملائم لدى فحصه بساعة الطبيب، ولا تكاد الأذن، عند وضعها على قلبه، تُفاجأ بنبض أبطأ أو أسرع من اللازم؛ لم يكن يسعل، ولا يشكو من حمى، غير أن الحياة كانت تنسحب منه وتفلت عبر أحد تلك الخروق اللامرئية التي تملأ الإنسان كما قال تيرينتيوس⁽²⁾.

يحدث أحياناً أن تجعله حالة من الإغماء الغريب يشحب ويبرد مثل الرخام. حتى ليتمكن الاعتقاد، لدقيقة أو دقيقتين، أنه ميت؛ ثم يعود رقاص التوازن وقد تحرَّر من التعطيل، بعد أن أوقفه إصبع غريب، إلى سالف حركته، حينئذ يلوح أوكتاف كأنه يستيقظ من حلم. لقد أرسل إلى مشافي المياه المعدنية؛ غير أن حوريات المياه المعدنية الحارة لم يستطعن فعل أيِّ شيء بالنسبة إليه. وأعقب ذلك زيارة إلى نابولي لم تُحدث نتيجة

(1) نُشرت للمرَّة الأولى في صحيفة *Le Moniteur universel*، في الأعداد من 29 شباط إلى 3 نيسان 1856.

(2) بوبليوس تيرينتيوس آفر، *Publius Terentius Afer*، شاعر ومسرحي كوميدِّي. ولد في قرطاج نحو 190 ق. م وتوفِّي سنة 159 ق. م

أفضل. فحتى تلك الشمس الجميلة التي طالما بولغ في التغني بها، بدت له سوداء مثل لوحة ألبريشت دورر⁽¹⁾ المحفورة؛ كان الخفاش الذي كُتِبَتْ على جناحه كلمة «مالنخوليا»، يسوط تلك الزرقة المتلاثة بجناحيه الغشائيتين المغبرتين ويرفرف بين الضوء وبينه؛ ولقد أحسّ بالتجمّد على رصيف لامارجيلينا، حيث كان الصعاليك نصف العراة يَنْشُوون ويُكْسِبون جلودهم زنجار البرونز.

وهكذا عاد إلى شقته الصغيرة في شارع سان لازار واستعاد ظاهرياً عاداته القديمة.

كانت تلك الشقة مريحة التأثيث تماماً كما يمكن أن يكون مسكن عازب. لكن، وبما أن داخل البيت يكتسب مع مرور الوقت مظهر ساكنه، وربّما فكره أيضاً، لم يلبث مسكن أوكتاف أن بدأ يتكدر شيئاً فشيئاً؛ شُحِب دمعس الستائر ولم يعد يسرّب إلّا ضوءاً رمادياً. كما كانت الباقات الكبيرة من أعشاب الفوانيا التزيينية تذبل على الأرضية الأقلّ بياضاً للسجادة؛ وكان ذهب الأطر على أطراف بعض اللوحات المائية والتخطيطات الأولية لفتانين متميّزين قد بدأ يحمرُّ تدريجياً تحت غبار عنيد؛ والوهن يصيب النار فتتطفئ وتدخن وسط الرماد. وساعة بول⁽²⁾ العتيقة المرصعة بالنحاس والأصداف الخضراء تحجز ضجّة تكتكاتها، فيما كان صوت ناقوس الساعات الضجّرة يتكلّم بصوت خفيض كما يفعل الناس عادةً في غرفة مريض. كانت الأبواب تصطفق صامتة، وحتى خطوات الزوّار

(1) ألبريشت دورر Albrecht Dürer : رسّام ألماني (1471-1528)، ترك عمله *Melancholia* («الكآبة») تأثيراً عميقاً في الرومنطقيّين مثل غوتيه وهوغو ونرفال.

(2) نسبة الى أندريه-شارل بول André-Charles Boule (1642-1732): تجار الأبنوس الخاصّ بلويس السابع عشر والثامن عشر، ويدلّ اسم الصانع على الأسلوب الذي تميّز بالترصيع بالذهب أو النحاس.

النادرين كانت محمد على البساط الوبري، والضحك يتوقّف من تلقاء نفسه لدى دخوله إلى تلك الغرف الكثيرة، الباردة والمعتمة، حيث، بالمقابل، لا شيء ينقص من البذخ العصريّ. كان جان، خادم أوكتاف، يتسلّل إليها مثل ظلّ، تحت ذراعه منفضة ريش، وطبق على يده، لقد تأثر بكآبة المكان من دون أن يعلم، فأنتهى به الأمر إلى فقدان ثرثرته. - على الجدران تتلّى، على هيئة تذكارات، قفازات ملاكمة، وأقنعة وسيوف تدرّيب؛ غير أنّه كان من السهل فهم أنّها لم تُلمس منذ زمن طويل؛ وهناك كتب تمّ تناولها ورميها بعدم اكتراث، تتوزّع على كلّ الأثاث، كما لو كان أوكتاف قد أراد، من خلال تلك القراءة الآليّة، حجب فكرة متسلّطة. وهناك رسالة تمّ الشروع في كتابتها، وقد اصفرّت ورقتها، تبدو كأنّها كانت تنتظر إكمالها منذ أشهر، قابعة مثل عتاب أخرس يتوسّط المكتب. ومع أنّ الشقة مسكونة فقد كانت تبدو مقفرة. الحياة غائبة عنها، ولدى دخول المرء إليها يستلم على وجهه تلك النفثة من الهواء البارد التي تخرج من القبور عندما تُفتح.

في هذا المسكن الكئيب الذي لم تغامر بدخوله أية امرأة ولو بطرف جزمته، كان أوكتاف يجد من الراحة ما لا يجده في أيّ مكان آخر، يلائمه كلّ هذا الصمت والحزن والتخلّي؛ صخب الحياة الجذِل يفزعه، رغم بذله بعض الجهود أحياناً للمشاركة فيه؛ لكنّه كان يعود أكثر كآبة من الحفلات التنكّرية أو الحفلات الراقصة أو لقاءات العشاء التي يجزّه إليها أصدقاؤه؛ لذلك لم يعد يقاوم ذلك الألم الغريب، وصار يترك الأيام تنقضي بلامبالاة إنسانٍ لا يراهن على الغد. لم يعد يُهَيء أيّ مشروع، لانتهاء إيمانه بالمستقبل، ولقد أرسل ضمناً إلى الربّ تقاعده من الحياة، في انتظار موافقته عليه. ومع ذلك، إنّ كنت تتخيّل وجهاً هزيباً مجوّفاً،

وسحنة شاحبة، وأطرافاً منهكة، ودماراً داخلياً كبيراً، فستكون مخطئاً؛ فلا يكاد المرء يلحظ بعض الهالات السوداء تحت العينين، وبعض التدرجات البرتقالية حول المحجرين، وبعض اللبونة حول الصدغين تخددها أوردة مزرقّة. لكنّ شرارة الحياة لم تعد تلمع في عينيه اللّتين فقدتاً العزم والرغبة. وتلك النظرة الميتة في ذلك الوجه الفتّي تشكّل تناقضاً غريباً وتُحدث أثراً أصعب ممّا يحدثه المرض العاديّ من سحنة شديدة النحول وعينين تشعان بالحتمى.

كان أوكتاف، قبل وَهِنِهِ الأخير، بمثابة الفتى الجميل، كما يُقال، وهو ما زال كذلك: بشعر أسود كثيف ذي خصلات وفيرة متراكمة بنعومتها ولمعانها على جانبي الصدغين؛ وعينين واسعتين مخمليتين، مع زرقة ليليّة، وهديين مشيتين، تلتمعان أحياناً بشرارة رطبة؛ في أوقات الراحة، وعندما لا ينعش أيّ شغف تينك العينين، فإنّها تلفتان الانتباه إلى تلك السكينة الرائقة التي تميّز بها عيون الشرقيّين، عندما ينتشون بالقبيلولة على باب مقهى في سمرنا⁽¹⁾ أو القسطنطينية، بعد تدخين نارجيلاتهم. لم تكن سحنته زاهية قطّ، بل كانت أشبه ما تكون بسحنات جنوبي أوروبا بياضها الزيتونيّ المخضّر والتي لا يظهر مفعولها إلّا تحت الأنوار؛ كانت يده ناعمة ورقيقة، وقدمه صغيرة ومقوّسة. كان يتأتق في لباسه من دون استباق الموضّة أو اللّحاق بها متأخراً، ويدرك بشكل رائع كيفية إبراز مزاياه الطبيعية. وعلى الرغم من عدم ادّعائه الأناقة أو الفروسية، فإنّ نادي الفروسية ما كان ليرفضه لو تقدّم لعضويّته.

فكيف حدث أنّ شاباً فتياً، جميلاً وغنياً، مع دوافع كثيرة ليكون سعيداً، قد استفد قواه بهذه الطريقة البائسة؟ ستقول إنّ أوكتاف كان

(1) إزمير حالياً.

يعاني من الضجر، وإن الروايات المنتشرة في زمنه قد أفسدت دماغه بأفكار سقيمة، وإنه لم يعد يؤمن بشيء، ولم يتبقَّ له من شبابه ومن ثروته المبددة في حفلات مجون جنونية، إلا الديون؛ كل هذه الفرضيات تفتقر إلى الصواب. لم يغمس أوكتاف في الملدّات كثيراً، وبالتالي لا يمكن أن يكون قد بلغ مرحلة القرف؛ لم يكن من أتباع دُرْجة الكآبة والسأم ولا من المتأثرين بأبطال الروايات ولا من الحالمين أو الملحدّين أو الإباحيّين أو المبدّرين؛ ظلّت حياته حتّى هذه المرحلة تجمع بين الدراسة والتسلية، على غرار بقية الشبان؛ كان يحضر درس السوربون صباحاً، وفي المساء يقف على درج الأوبرا مشاهداً مرور الجميلات. ولم تُعرف له علاقة بفتاة من مرمر⁽¹⁾ أو دوقه، وكان ينفق عائداته دون أن يترك أهواءه تمسّ رأسه، ما أكسبه احترام كاتبه العدل؛ إذن فهو شخص سويّ، وأعجز من أن يرمي بنفسه في جبل مانفريد الجليدي⁽²⁾ أو يشعل موقد إسكوس⁽³⁾. أمّا بالنسبة للسبب في حالته الفريدة التي يقف العلم عاجزاً أمامها، فلا نجرؤ على الاعتراف به، إذ لا يمكن تصديقه في باريس القرن التاسع عشر، ولذا نترك مجال الاعتراف لبطلنا بصفته الشخصية.

بما أنّ الأطباء العاديين لم يفهموا شيئاً من هذا المرض الغريب،

-
- (1) هذا التعبير الذي يعتبر اليوم غامضاً يدلّ على نجاح مسرحية «بنات من مرمر» *Filles de marbre* من تأليف تيودور باريري Théodore Barrière ولامبير تيبوست Lambert Thiboust، كانت قد عُرضت سنة 1853 وكتب عنها تيوفيل غوتيه. وكانت هذه الميلودراما قد اعتُبرت رداً على «غادة الكاميليا» *La Dame aux camellias* لألكسندر دوما الابن. وتوصف فيها المحظية بكونها مخلوقة بلا مشاعر، و«فتاة من مرمر».
- (2) مانفريد *Manfred*: تلميح لمشهد من دراما شعرية لبايرون بالاسم ذاته، حيث يصعد مانفريد إلى قمة جبل «يونغفراو» بنية الانتحار.
- (3) تلميح إلى انتحار الشاعر الرومنطيقي فيكتور إسكوس Victor Escousse (1832-1813) بثاني أكسيد الكربون.

إذ لم يحصل بعد إخضاع الروح للتشريح، تمّ اللجوء في نهاية المطاف، إلى طبيب متفرّد، عائد من الهند بعد إقامة طويلة هناك، وصار معروفاً بتحقيق حالات شفاء رائعة.

أبدى أوكتاف خشية من زيارة الطبيب، لحدسه بوجود حدة ذهن عليا قادرة على اختراق سرّه، ولم يوافق على استقبال السيّد بالتازار شيربونو إلا نزولاً تحت إلحاح أمّه اللّجوج.

عندما دخل الطبيب، كان أوكتاف متمدّداً على أريكة؛ مخدّة تسند رأسه، وثانية تدعم مرفقه، وثالثة تغطّي قدميه، مع غندورة⁽¹⁾ تغطيه بطيّاتها اللّينة والرقيقة؛ كان يقرأ أو بالأحرى يمسك بكتاب، لأنّ عينيه كانتا متوقفتين عند صفحة من الكتاب من دون النظر إليها. كان وجهه شاحباً، لكنّ، وكما سبق لنا القول، لم يكنْ يبدي أيّ خور صحيّ واضح. وأي تشخيص سطحيّ لا يمكنه إدراك الخطر الذي يعاني منه هذا المريض الشاب، حتّى إنّ منضدته كانت تحفل بعلبة سيجار بدل القوارير وأجهزة القياس والجرعات والمغليّات، وغيرها من اللّوازم التي ينصّ عليها دستور الصيدلة والأدوية في مثل هذه الحال. لم تكد قسماته الصافية، رغم بعض التعب، تفقد شيئاً من لطفها، وباستثناء الوهن العميق وقنوط النظرة اليائسة، كان يمكن لأوكتاف أن يبدو متمتّعاً بصحة اعتيادية.

ومهما يكن من لامبالاة أوكتاف، فقد استرعى انتباهه المظهر الغريب للطبيب. كان للسيّد بالتازار شيربونو ملامح وجه هارب من إحدى حكايات هوفمان⁽²⁾ يتجوّل في الواقع المندھش من هذا التكوين المضحك. كان وجهه الشديد السّمرة يبدو ضحيّة جمجمة ضخمة جعلها تساقط

(1) الغندورة (كتبها المؤلّف بتسميتها الأفريقيّة الشماليّة) ثوب منزليّ بلا كُمين.

(2) إرنست هوفمان مؤلّف حكايات فنطازيّة ألمانيّ، سبق التعريف به.

الشعر أكبر بكثير. جمجمة صلعاء، مصقولة مثل العاج، وقد حافظت على لونها الأبيض بينما اكتسب الوجه- القناع، بعد تعرّضه لأشعة الشمس، وبفضل تراكم طبقات لفحها، مظهرَ سنديانة عجوز، أو رسماً لوجه اسودّ بفعل الدخان. ويزداد عرض عظامه وتجويفاتها وتواءاتها، بقوة تجعل القليل من اللحم الذي يغطيها مع كثرة الغضون المجعّدة، أشبه ما يكون بجلد مرطب ومرتب على رأس ميت. والشعرات القليلة الرمادية التي ما زالت تتسكع عند مؤخرة الجمجمة، وقد اجتمعت في ثلاث خصلات رفيعة، اثنتين منها تنتصبان فوق الأذنين، فيما تنطلق الثالثة من الرقبة لتتلاشى عند نهاية الجبين، تجعل المرء يتأسّف على استخدام «باروكة» الشعر المستعار القديمة بخصلاتها الطوال الملفوفة، أو الشعر الكثيف العصريّ، وتتوّج بشكل مضحك ذلك المظهر الشبيه بكسارة البندق. لكنّ ما يلفت الانتباه حقاً لدى الطيب ولا يمكن مقاومته، يتمثّل في عينيه؛ ففي وسط ذلك الوجه الذي دبغته السنّ، وتكلّس تحت سموات متأججة، واستنفدته الدراسة، حيث ترسم متاعب العلم ومتاعب الحياة ضمن تجاعيد عميقة، ومع تغضن مشعّ في المآقي، وطيات مضغوطة أكثر من أوراق كتاب، تتلألأ حدقتان بلون زرقة الفيروز، فيهما صفاء وألق وفتوة لا يمكن تصوّرها. كائنا نجمتين زرقاوين تلمعان داخل محجرين أسمرين وغشائين متّحدين في المركز، تذكّر دائرتاهما الوحشيّتان نوعاً ما بالريش المنتظم في هالة حول الحدقة الجهراء⁽¹⁾ لدى طائر البوم. حتّى ليذهب الاعتقاد بالمرء إلى أنّ هذا الطيب، وبواسطة بعض أعمال السّحر التي تعلّمها من البراهمة⁽²⁾ أو البنديت⁽³⁾، قد تمكّن

(1) أو الحفشاء: أي التي لا تبصر إلّا في الليل.

(2) أفراد طبقة الكهنوت العليا عند الهندوس، نسبة إلى «براهما»، اسم الإله في هذه الديانة.

(3) عالم دين في الهند.

من سرقة عيني طفل وثبتها في وجهه الشبيه بوجه جثة. كانت نظرة المسن تشير إلى أنّ عمره في العشرينات؛ بينما كانت نظرة الشاب تشير إلى أنّه في الستين من عمره.

كانت بدلته هي البدلة المعتادة للطبيب: سترة وسروال من القماش الأسود، صدرية حريرية من اللّون نفسه، وعلى قميصه تلوح قطعة ألماس كبيرة، قد تكون هدية من أحد أمراء الهند أو أثريائها. غير أنّ ثيابه كانت تطفو كما لو كانت معلقة على مشجب، وترسم طيات عمودية تجعلها عظام الفخذ وعظام قصبتي الساقين تنكسر ضمن زوايا قائمة عندما يجلس الطبيب. لم تكفِ الشمس المفترسة في الهند للتسبب في هذا الهزال الهائل. والأرجح أنّ بالتازار شيربونو قد أخضع نفسه، ضمن هدف تدريبيّ، إلى طقوس الصوم عند نُسّاك الهند، وجلس على جلد غزالة قرب الزهاد الممارسين لليوغا بين أربعة مواقد مضطربة؛ غير أنّ هذا النقص في القوت لا يشير إلى أيّ مظهر من مظاهر الضعف. كان هناك ألياف صلبة وتمدّدة على يديه، مثل أوتارٍ على مقبض الكمنجة، تربط ما بين العظيَّات المجرّدة من اللّحم في سلاميات الأصابع وتجعلها تتحرّك دون صرير زائد.

جلس الطبيب على المقعد الذي دلّه عليه أوكتاف قرب الأريكة، عمداً مرفقيه مع حركات تدلّ على عادة متأصلة في الجلوس على الحصائر. وبتلك الجلسة كان السيّد شيربونو يُعرض بظهره عن الضوء الذي كان مسلّطاً على وجه مريضه، في وضعيّة ملائمة للمعاينة كثيراً ما يلجأ إليها الفاحصون، مفضلاً أن يرى على أنّ يُرى. ورغم أنّ وجه الطبيب كان مغموراً بالظلّ وأعلى جمجمته اللّامعة والمستديرة مثل بيضة ضخمة لنعام، يرسل شعاعاً من ضوء، فقد كان أوكتاف يميّز لمعان البؤبؤين

الأزرقين الغريبين اللذين يبدوان مشحونين ببريق ذاتي مثل الأجسام الفوسفورية: كان ينبثق منها شعاع حادّ وصافٍ يستقبله المريض الشاب في عمق صدره مع شعور بحكّة وحرارة ناجمتين عن ذلك الناسك.

«إذن يا سيّدي، قال الطبيب بعد لحظة صمت لاح فيها يلخص الأعراض التي تعرّف عليها خلال معاينته السريعة، توصلتُ حتى الآن إلى أنّ حالك لا علاقة لها بمرض معتاد؛ أنت لا تشكو من أيّ مرض من الأمراض المصنّفة، ذات الأعراض المعروفة جيّداً، والتي يتمكن الطبيب من معالجتها أو مفاقتها؛ لذا وبعد التحدّث إليك قليلاً لن أطلب ورقة لأسجّل فيها وصفة مسكّنات من سجلّ الأدوية، وأوقع في أسفلها توقيعاً طلسمياً ليحملها خادمك إلى الصيدلية المجاورة».

ابتسم أوكتاف بوّهن، كما لو كان ذلك لشكر السيّد شيربونو الذي وقر عليه أدوية منقرّة وغير مجدّية.

«لكن، تابع الطبيب يقول، لا تسرع بالفرح لأنك لا تعاني من تضخّم في القلب، أو سلّ في الرئتين، أو ليونة في النخاع الشوكي، أو دفق مّضليّ في الدماغ، أو حمى تيفوئيدية أو عصبية، فكلّ هذا لا يعني أنّك في صحّة جيّدة. ناولني يدك».

ذهب الاعتقاد بأوكتاف إلى أنّ السيّد شيربونو سيجسّ نبضه، وانتظر أن يراه يُخرج ساعته ذات الثواني، فشمر كُمّ غنّدورته كاشفاً عن رسغه ليمدّه آلياً نحو الطبيب. ودون أن يبحث السيّد شيربونو بإبهامه عن ذلك النبض السريع أو البطيء الذي يشير إلى وضعيّة ساعة الحياة لدى الإنسان، أمسك في يده السمراء التي تشبه أصابعها كمّاشات سرطان، بيد الشابّ النحيفة والمُعرّقة والرطبة؛ جسّها، دعكها، وعجنها بمعنى ما، كما لو كان ينوي التواصل مغناطيسيّاً مع مريضه. ومع أنّ أوكتاف

كان متشككاً في مجال الطب، لم يتوصل إلى منع نفسه من الشعور بنوع من الانفعال القلبي، إذ بدا له أنّ الطبيب كان يستلّ منه روحه من خلال ذلك الضغط، حتّى إنّ الدم غادر وجنتيه تماماً.

«سيدي العزيز أوكتاف، قال الطبيب تاركاً يد الشاب، وضُعت أخطر ممّا تتصوّر، وحتّى العلم، على الأقلّ كما تمارسه الرتابة الأوروبية العجوز، لا يستطيع أن يقدم لك شيئاً، لم تعد لديك عزيمة في العيش، وروحك تنفصل تدريجياً عن جسدك؛ أنت لا تعاني من وسواس مرضي، ولا من ليبمانيا⁽¹⁾، ولا من نزعة انتحار سوداوية. - كلاً! - حالة نادرة وعجبية، يمكنك، إنّ لم أحلّ دون ذلك، أن تموت من دون أيّ آفة داخلية أو خارجية يمكن تقديرها. لكنك طلبتني في الوقت المناسب، فالروح لم تعد ممسكة بالجسم إلّا عبر خيط رفيع؛ غير أنّنا ستمكّن من تحويله إلى عقدة جيّدة.

وفرك الطبيب يديه فرحاً ومقطباً بابتسامة شقّت الغضون في طبّات وجهه الألف.

«يا سيّد شيربونو، لست أدري إنّ كنت ستشفيني، مع أنّي لست راغباً في ذلك على أيّة حال، لكنّ يتوجّب عليّ الاعتراف بأنك استطعت من أوّل محاولة إدراك سبب الوضع الغريب الذي أنا فيه. يبدو لي أنّ جسدي صار قابلاً للاختراق، تاركاً أناني تفلت متي كما يترك الغربال الماء يفلت من ثقوبه. أشعر أنّي أذوب في الكلّ الشموليّ، وصار يصعب عليّ تمييز نفسي في الوسط الذي أغطس فيه. فالحياة التي أستكملها، وفق ما يتيسّر لي، بالتمثيل الإيمائيّ المعتاد حتّى لا أحزن أهلي وأصدقائي، تبدو لي في غاية البعد عني، حتّى أنّني في بعض اللحظات أشعر بخروحي من

(1) الليبمانيا Lypémanie نوع من الكآبة.

الدائرة الإنسانية: أروح وأغدو بالدوافع التي كانت تسوقني في الماضي، والتي ما زال دفعها الآلي يدوم حتى الآن، لكن من دون المشاركة في ما أفعل. أجلس إلى المائدة في الأوقات المعتادة، وأبدو كأنني أكل وأشرب، مع أنني لا أشعر بأي مذاق لأكثر الأطباق تنبيلاً وأكثر الخمور كحولاً؛ يبدو لي ضوء الشمس شاحباً مثل ضوء القمر، وللشموع شعلة سوداء. يتملكني البرد في أسخن أيام الصيف؛ وأحياناً يتملكني صمت داخلي كما لو أن قلبي توقّف عن الخفقان وتوقّف النوايض الداخلية لسبب مجهول. لا شك أن الموت لا يختلف عن هذه الحال لو وصفه الموتى.

- أنت تشكو، تابع الطبيب يقول، من استحالة عيش مزمنة، مرض معنويّ تماماً وهو مُتَفَسِّحٌ أكثر مما يُعْتَقَد. الفكر قوّة قادرة على القتل مثل حمض السيانيد، مثل شرارة قارورة ليدن⁽¹⁾، وإن لم تكن آثار خرابها في تناول وسائل التحليل الضعيفة التي يمتلكها العلم المتاح. أيّ غمّ أنشب منقاره المعقوف في كبذك؟ من ارتفاع أيّ طموح سرّي سقطت محطماً ومسحوقاً؟ أيّ يأس مرّ تجرّه في سكونك؟ أنكون شهوة السلطة هي التي تعذبك؟ هل تخلّيت إرادياً عن هدف فوق قدرة البشر؟ ما زلت في بداية الشباب بالنسبة لكلّ ذلك؛ هل خانتك امرأة؟

- كلاً يا دكتور، أجاوب أوكتاف، لم أتشرّف حتى بهذه النعمة.
- ومع ذلك، تابع السيد بالتازار شيربونو، أقرأ في عينيك الكابيتين، وفي حركات جسدك اليائسة، وفي نبرة صوتك الصمّاء، عنوان مسرحية لشكسبير، بوضوح كما لو أنّه رُسم بحروف من ذهب على كعب كتاب مجلّد.

(1) قارورة ليدن هي أول اختراع لحفظ الطاقة في دوائر كهربائية في العام 1745.

- وما هي هذه المسرحية التي أترجمها دون أن أعلم؟ قال أوكتاف، وقد بدا فضوله يستيقظ رغماً عنه.

- إنها مسرحية *Love's labour's Lost*، تابع الطبيب بلكنة صافية تدلّ على إقامة مطوّلة في المستعمرات الإنجليزية من الهند.
- هذا يعني، إن لم أخطئ، «متاعب حبّ ضائعة».
- بالضبط».

لم يجب أوكتاف؛ تلوّنت وجنتاه بحمرة خفيفة، ومن أجل استعادة رباطة جأشه شرع يلعب بشرّابة حزامه. كان الطبيب قد حطّ ساقاً على ساق، ما أنتج أثراً يشبه العظام المتصالبة المنحوتة على القبور، وأمسك قدمه بيده على الطريقة الشرقية. كانت عيناه الزرقاوان تغوصان في عيني أوكتاف وتستجوبانها بنظرة ملّحة وناعمة.

«هيا، قال السيّد بالتازار شيربونو، عليك أن تكاشفني، أنا طبيب الأرواح، وأنت مريض، وكما يفعل القسيس الكاثوليكيّ مع التائب عن أخطائه، فأنا أطلبك باعتراف كامل، ويمكنك فعل ذلك من دون الجثو على ركبتيك.

- وما جدوى ذلك؟ إذا افترضت أنك قد حزرت جيّداً، فلن تخفّ آلامي بالحديث عنها. لا أشكو من ألم يتطلّب الثرثرة، وما من قدرة بشرية، بها في ذلك قدرتك، ستقدّر على شفائي.

- ربّما، قال الطبيب وهو يستقرّ تماماً في أريكته، كمّن يهيمّ نفسه للإصغاء إلى بوح طويل نوعاً ما.

«لا أريد منك، عاد أوكتاف إلى القول، أن تتهمني بالعناد الصبيانيّ، ولا أنوي أن أترك لك، من خلال تمسّكي بالصمت، فرصة لراحة ضميرك أمام موتي؛ لكن، بها أنك تلخّ، سأروي لك حكايتي؛ لقد

حزرت جوهرها، ولن أجادلك حول تفاصيلها. لا تنتظر شيئاً متميزاً أو حالماً كما في الروايات. هي مغامرة بسيطة جداً، مشتركة كثيراً، ومبتذلة تماماً؛ لكن، وكما تقول أغنية هاينريش هاينه⁽¹⁾، من تحدث له يجدها دائماً جديدة، ومنها يتحطم قلبه. في الحقيقة أنا أخجل بقول مثل هذا الكلام المبتذل لرجل عاش في البلدان الأكثر غرابة والأكثر خيالاً وتخيلاً.

- لا تخش شيئاً؛ المشترك هو الذي يكون خارقاً أكثر بالنسبة لي، قال الطبيب مبتسماً.

- إذاً، أيها الطبيب، أنا أشرف على الموت بسبب الحب».

2

كنتُ موجوداً في فلورنسا في نهاية صيف ١٨٤٠ تقريباً، وهو أفضل فصل لرؤية فلورنسا. كنت على سعة من الوقت والمال ورسائل التوصية، وكنت وقتها شاباً صاحب مزاج جيد، لا يطلب غير التسلية. أقمت على ضفة اللونغ-آرنو، واستأجرت عربة خيل، وانسقت إلى تلك الحياة الفلورنسية العذبة التي تفتن الغريب كثيراً. في الصباح، كنت أذهب لزيارة بعض الكنائس والقصور أو المتاحف، كما يحلو لي، ومن دون استعجال، حتى لا أصاب بسوء هضم الروائع الفنية وهو ما يصيب السياح المتسرعين في إيطاليا بغثيان الفن؛ تارة أشاهد أبواب بيوت التعميد البرونزية، وطوراً منحوتة بيرسيه لبنفونوتو⁽²⁾ في لوجا

(1) هاينريش هاينه Heinrich Heine (1797-1856) شاعر وناقد وصحفي ألماني شهير، يُعد من أهم الشعراء الألمان الرومانطيين. وتعود شهرته أيضاً إلى تأليفه الكثير من القصائد الغنائية التي لحنها لاحقاً بعض عظماء الموسيقى مثل فرانتس شوبرت وروبرت شومان ويوهانس براهمس.

(2) «بيرسيه بمسك برأس ميدوزا» منحوتة برونزية لبنفونوتو تشيليني Benvenuto Cellini تم تدشينها سنة 1554 وتعتبر من روائع عصر النهضة.

ديه لانتسي؟⁽¹⁾، وبورترية الفورنارينا في متحف الأوفيتزي⁽²⁾، أو فينوس التي نحتها كانوفا في قصر بّي⁽³⁾، لكنني لا أشاهد أكثر من شيء واحد في كل مرة. بعد ذلك أتناول الغداء في مقهى دوناي، فأتناول قهوة مثلجة، وأدخن بضعة سيجارات، وأتصفح الجرائد، ثم أعود إلى بيتي من أجل القيلولة بعد أن تكون بائعات الزهور الجميلات المعتمرات قبعات كبيرة من القش والواقفات أمام المقهى، قد جعلن عرى سترتي مزهرة، بموافقتي أو غصباً عني؛ في الساعة الثالثة تأتي عربة الخيول لتأخذني وتنقلني إلى منتزه الكاتشيني. والكاتشيني في فلورنسا يعادل غابة بولونيا في باريس، مع فارق أن الجميع هنا يعرفون بعضهم بعضاً، وأن المفترق يشكل صالوناً في الهواء الطلق، حيث تُستبدل الأرائك بالعربات التي يتم توقيفها وتنظيمها ضمن نصف دائرة. وهناك تستقبل النساء المتبرجات والمستلقيات على وسائل، عشاقهن والمهتمين بهن، والمتعندرين، والملحقين بالقنصليات الذين يقفون خافضين قبعاتهم عند الاقتراب. لكنك تعرف كل هذا جيداً كما أعرفه أنا. - هناك تُحطط مشاريع السهرة، وتُجرى المواعيد، وتأتي الإجابات، وتُقبل الدعوات؛

(1) «لوجا ديه لانتسي» Loggia dei Lanzi : مبنى ذو قبة وأقواس شيد في فلورنسا بين 1376 و1382، تُشاهد فيه عدّة تماثيل آتية من متحف الأوفيتزي المجاور له.

(2) «بورترية امرأة شابة أو لا فورنارينا» *Ritratto di giovane donna (La Fornarina)* لوحة تعود فترة بين 1518 و1519 تُنسب إلى فنان النهضة الإيطالية رافائيل Raphael. ومتحف الأوفيتزي Galleria degli Uffizi في فلورنسا يضم الكثير من أشهر روائع التراث الفني القديم، أنشئ سنة 1765 في قصر يحمل الاسم ذاته. ويشير الشراح إلى عدم دقة ملحومات غوتيه بهذا الصدد، فلوحة «بورترية امرأة شابة» كانت منذ البداية في قصر باربريني Barberini بروما، وليس في لوجا ديه لانتسي كما نقرأ في نصه.

(3) أنطونيو كانوفا Antonio Canova (1757-1882) نحّات إيطالي، وقصر بّي هو قصر فلورنسي كبير من طراز النهضة جاء اسمه من صاحب بنك كان يدعى لوقا بّي Luca Pitti .

هي مثل بورصة اللذة تنعقد بين الثالثة والخامسة، تحت ظلال الأشجار الجميلة، تحت ألطف سماء في العالم. وكلّ شخص يريد ان يُعدّ مرموقاً نسبياً عليه أن يظهر يومياً في منتزه الكاتشيني. ولم أكن أقوى على الغياب، وفي المساء بعد تناول العشاء، كنت أذهب إلى أحد الصالونات، أو إلى البيرغولا، عندما تكون المغنّية جديرة بالاستماع إليها.

«بتلك الطريقة أمضيت واحداً من أسعد شهور حياتي؛ غير أنّ تلك السعادة لم يكن مقدراً لها أن تدوم. ذات يوم لاحت عربة خيول رائعة في منتزه الكاتشيني. كانت من إنتاج صناعة المزكبات في فيينا، روعة من روائع لورنتسي، مصقولة ببرنيق متلألئ، مزخرفة بشعار ملكيّ تقريباً، وكان يجرّها أجمل حصانين لم يُلمح مثلهما في هايدبارك أو في سان جيمس في الدراوينغ روم التابعة للملكة فكتوريا، وقد أسرجهما على طريقة دومون⁽¹⁾ وبأفضل ما يكون، حوذيّ في أوج الشباب يرتدي سروال ركوب من جلد أبيض وسترة فروسيّة خضراء؛ وكان نحاس عدّة الحصانين، وعلبتا محوّري العجلتين، ومقابض الأبواب، تلمع كلّها مثل الذهب وترسل بروقاً إلى الشمس؛ كانت كلّ الأنظار تتابع هذا العربة المتألّقة التي ذهبت، بعد أن رسمت على الرمل خطّاً منحنيّاً لا يقلّ دقّة عما يرسمه البركار، لتصطفّ قرب العربات. لم تكن العربة فارغة، كما تخمّن جيّداً؛ غير أنّ سرعة الحركة لم تسمح إلاّ بتمييز طرف جزمة ممدّدة على وسادة المقدّمة، وطية شال عريضة وقرص مظلة مهذبّة بحرير أبيض. أغلقت المظلة وشوهدت امرأة تتألق بجمال لا نظير له. كنت أمتطي حصاني وتمكّنت من الاقتراب بما يكفي حتّى لا تفوتني أدنى

(1) طريقة دومون Daumont وكذلك D'Aumont (نسبة إلى الفرنسيّ لويس دومون Louis d'Aumont)، طريقة في قرن العربات المجرورة بالخيول لا يتمّع فيها الحوذيّ بمقعد في مقدّم العربة بل يمتطي حصاناً يقوده هو والأحصنة الأخرى المرتبطة به بحبال.

جزئية من هذه الرائحة البشرية. كانت الغريبة ترتدي فستاناً بلون أقرب إلى خضرة مائية مطعمة بالفضة تجعل كل امرأة تبدو سوداء مثل خلد عندما تكون سحتها لا تشكو من عيب - هي وقاحة شقراء واثقة من نفسها. كان قماش من الكريب⁽¹⁾ الصيني الأبيض، المنفوش بزركشات من اللون نفسه، يغطيها بدثاره اللين والمجدد بطيات صغيرة، مثل قميص فيدياس⁽²⁾. وكانت هالة الوجه تتمثل في قبة من قش فلورنسا الأكثر نعومة، مزخرف بزهور أذن الفار ونباتات مائية رهيفة ذات أوراق صغيرة تميل إلى الخضرة المزرقة؛ أما قطعة الحلي الوحيدة فتمثل في عناية ذهبية مزخرفة بالفيروز وتحيط بذراعها التي كانت تمسك بمقبض المظلة العاجي.

«عذراً، أيها الطبيب العزيز، على هذا الوصف، الشبيه بما نشره مجلات الأزياء، يأتيك من عاشق تكتسي هذه التفاصيل الصغيرة بالنسبة إليه أهمية كبيرة. من جانبي جبينها الأبيض والأصفي من ثلج بكر يهطل ليلاً فوق أعلى قمة في جبال الألب، تنزل في شريطين وافرين، ضفيران من الشعر الأشقر المجعد الذي تشكل حلقاته ما يشبه أمواجاً ضوئية؛ ويظهر هذان طويلان ودقيقان مثل تلك الخيوط الذهبية التي كان صانعو المنمنمات في القرون الوسطى يجعلونها تشع حول رؤوس ملائكتهم، ليحجبا جزئياً حدقتها بلونها الأزرق المخضر والشبيه بالبريق الذي يخترق جبال الجليد بفعل مؤثرات معينة متأتية من الشمس؛ فمها المرسوم بمنتهى الإتقان، يعرض تلك اللوينات الأرجوانية التي تغسل شقوق أبواق فينوس الصدفية، وخذهاها يشبهان وردتين بيضاوين

(1) قماش حريري رقيق وجعد.

(2) فيدياس Phidias : نحأت أثني عاش بين العامين 490 و430 تقريباً قبل الميلاد. كان يشرف على نحأت التماثيل في البارثينون وعلى تزيينه، وهو من نحأت تمثال زفس.

خجولتين من شأنها بثّ الخضر في اعتراف العندليب أو قبلة الفراشة؛ ما من فرشاة بشرية بإمكانها نقل تلك السحنة المعنة في عذوبتها ونداوتها وشفافيتها الأثرية التي لا تبدو ألوانها متأتية من الدم الفظّ الذي يجمّر أليافنا؛ وحدها خيوط الاحمرار الأولى في مطلع الفجر على ذرى سيرا نيفادا، والفارق اللّحمي في درجة ألوان بعض أنواع زهرة الكاميليا البيضاء عند ظفّيرات بتلاتها، ورخام باروس⁽¹⁾ مستشفّاً عبر ستار وردّي من الشاش، هي التي يمكنها أن تعطي عنها فكرة بعيدة. كان المتاح لمحة من رقتها ما بين شرائط القبّعة وأعلى الشال يتلأأ بياض متقرّح، حول الحواف، بموجات بريق حجر عين الهرّ⁽²⁾ الكريم. هذا الرأس البهي لا يأسر بطريقة رسمه أولاً، بل بدرجات امتزاج ألوانه، على غرار أعمال مدرسة البندقية، رغم أنّ قسامتها كانت تعادل في صفائها ورهافة قسامتها الوجوه القديمة المنحوتة في عقيق الجزع المنقوش⁽³⁾.

«وكما نسي روميو روزالين⁽⁴⁾ بمرأى جوليت، فقد نسيّت بدوري حبيباتي السابقات لدى ظهور هذا الجمال الأسمى. استعادت صفحات قلبي بياضها: اختفت منها كلّ الأسماء وكلّ الذكريات. لم أكن لأفهم كيف تمكّنت من العثور على بعض الانجذاب إلى تلك العلاقات المبتذلة التي لا تتلافها إلا قلة قليلة من الشبان، ولقد لمّت نفسي عنها مثل خيانات آثمة. ومنذ ذلك اللّقاء المحتوم بدأت حياة جديدة. «غادرت المركبة منتزه الكاتشيني وسلكت درب المدينة، حاملة معها

(1) باروس Barus : إحدى جزر السيكلاد اليونانية (سانتوريني، باروس، وناكسوس)، التي

قدّمت مناجمها لفتاني الإغريق القدامى أفضل أنواع الرخام لصنع التماثيل.

(2) الأوبال أو حجر عين الهر: حجر لبني كريم متغيّر الألوان.

(3) نوع من العقيق يعرف بخطوط متوازية مستديرة مختلفة الألوان، يُنقش ويُتخذ حلية.

(4) حبيبته الأولى.

تلك الرؤيا الباهرة؛ أدنيتُ حصاني من حصان شاب روسي ودود جداً،
جوابِ بحار، مخالط للناس في كلِّ صالونات أوروبا الكوسموبوليتية،
كما كانت له دراية بأشهر الرخالة في أوساط عليّة القوم؛ نقلتُ الحوار
نحو الغربية، وعلمتُ أنّها الكونتيسة براسكوفي لابنسكا، ليتوانية من
محدد أصيل وذات ثروة فائقة، وزوجها يخوض غمار حرب القوقاز منذ
ستين.

«لا فائدة من ذكر ما استخدمتُ من مهارات دبلوماسية كي أحظى
باستقبال الكونتيسة لي، وقد جعلها غياب الكونت أكثر تحفظاً في مكان
الاستقبال والتعارف؛ وفي الختام تمّ قبولي. كان هناك أميرتان وأربع
بارونات مستات لا يمكن تخمين أعمارهنّ يتولّين الاعتناء بي وفق
أخلاقهنّ القديمة.

«كانت الكونتيسة لابنسكا قد استأجرت فيلاً رائعة، كانت سابقاً
تعود إلى آل سالفياي، وهي على بعد نصف ميل من فلورنسا، وفي
بضعة أيام تمكّنت من تثبيت كلّ الرفاهية العصرية في ذلك المنزل الريفي
القديم، دون أن تمسّ بجماله الصارم وأناقته الجادة. كان هناك بوابات
كبيرة مزخرفة تندمج بإتقان في الأقواس القوطية الطراز؛ وتتناسق
أرائك وأثاث من الطراز القديم مع الجدران المغطّاة بخشب أسمر أو
بجداريات ذات ألوان مخفّفة لتناسب ألوان السجّاد العتيق؛ فما من لون
في منتهى الجلّة وما من بريق ذهبي قويّ يزعج العين، والحاضر لا يتنافر
مع الماضي. فالكونتيسة كانت تبدو سيّدة قصر بشكل طبيعيّ حتّى ليبدو
القصر القديم كأنه شيد من أجلها عمداً.

«وإذا كنتُ قد فتنتُ بجمال الكونتيسة المشرق، فإنّ افتتاحي بروحها
التي كانت في منتهى الندرّة والرقة والأريحية، فاقت ذلك بكثير، بعد بضع

زيارات؛ كانت عندما تخوض في موضوع مهم، تأتي روحها إلى بشرتها، إن صحّ التعبير، وتصير مرئية. كان بياضها يشعّ مثل جبس مصباح بفعل شعاع داخليّ: يوجد في ساحتها ذلك اللّمعان الفوسفوريّ، وتلك الرجفات الضوئية التي يتحدّث عنها دانتي عندما يصف بهاء الفردوس؛ يمكن القول إنّها ملاك يرتسم بوضوح على الشمس. كنت أمكث مبهوراً ومنتشياً ومتبلّداً. وعندما تتوجّب عليّ الإجابة حتّماً، ولأنّني كنت أستغرق في تأمل جمالها، مسلوب اللّب برنين صوتها السهاويّ الذي يجعل من كلّ كلمة موسيقى تفوق الوصف، أتلعثم بوضع كلمات غير منسجمة لا شكّ أنّها تقدّم لها أسوأ فكرة ممكنة عن مدى ذكائيّ؛ حتّى إنّها، في بعض المرات، تصدر ابتسامة غير منظورة ذات تهكّم وديّ، تمرّ مثل لمعة وردية على شفّتها الفاتنتين، بسبب بعض الجمل التي تكشف اضطرابي العميق أو حماقتي التي لا شفاء منها.

«لم أقل لها بعدُ شيئاً عن حبّي؛ فأنا أمامها أغدو بلا فكر، بلا قوّة، بلا شجاعة؛ كان قلبي يدقّ كأنّه يريد الخروج من صدري والجنوّ عند ركبتي سيّدته. عزمّت عشرين مرّة على توضيح أفكارني، غير أنّ خجلاً لا يقاوم كان يمسك بي؛ كان أدنى برود أو تحفّظ من قبل الكونيتيسة يتسبّب لي برعدات قاتلة، شبيهة بتلك التي تصيب المحكوم بالإعدام عندما يكون رأسه على النطع وهو ينتظر اختراق شرارة البلطة عنقه. كانت تخنقني تشنّجات عصبية، ويغرق جسمي في حمّام عرق. كنت أحمّر خجلاً، وأشحب وأخرج من دون أن أقول شيئاً، مع صعوبة في إيجاد الباب، مترنحاً مثل رجل ثمل على درجات المدخل.

«لدى خروجي أستعيد مداركي وأرسل في الريح أحرّ المدائح. أوجّه لمعبودتي الغائبة ألف بوح بالحبّ بفصاحة لا تقاوم. وأتساوى في هذه

المناجاة الخرساء مع شعراء الغزل الكبار. فلا نشيد الإنشاد لسليمان، مع عطوره الشرقية المدوّخة وغنائتيّه المهووسة بالحشيش⁽¹⁾، ولا سونيات بترارك مع رقتها الأفلاطونية ولطفها الأثيريّ، ولا «أنترميترزو» هاينريش هاينه⁽²⁾، مع حساسيته العصبية والهاذية، كان بوسعها أن تقترب من فيض روعي الذي لا ينضب بينما تنضب حياتي. وفي نهاية كلّ مناجاة يخيّل إليّ أنّ الكونتيسة المنهزمة ستنزل من السماء على قلبي، وفي أكثر من مرّة شبكت ذراعنيّ حول صدري معتقداً أنّي سأضمتها.

«كنت مسكوناً بها إلى حدّ إمضاء ساعات في الهمس، على شكل صلوات حبّ، بهاتين الكلمتين: براسكوفي لابنسكا، مستشعراً جاذبية لا توصف في هذه النبرات الصوتية التي تبدو تارةً كأنّها تنفرط ببطء مثل الجواهر، ومنطوقة طوراً بدلالة محمومة من لسان عابد تزيد صلواته في تحميسه. وفي مرّات أخرى، كنت أرسم الاسم المحبوب على أجمل أوراق الرّق، مع تنقيب إضافيّ في مخطوطات العصر الوسيط حول فنّ الخط، عن لمسات ضوء ذهبيّة، وزخارف زهرية لازوردية، وتشجيرات خضراء. وكنت أمضي في هذا الكدّ بدقّة مشبوبة وإتقان صبيانيّ تلك الساعات الطويلة التي تفصل بين زياراتي للكونتيسة. ولم أكن قادراً على القراءة أو الانشغال بأيّ شيء كان. لا شيء كان يشغلني غير براسكوفي، حتّى أنّي لم أكن أفتح الرسائل التي تصلني من فرنسا. وفي العديد من المرّات بذلتُ جهوداً كي أخرج من هذه الحال؛ حاولت تذكّر قواعد

(1) أشار الشراح إلى هذا الإقحام الاستفزازيّ من قبل غوتيه. انظر طبعة غاليمار، سلسلة Folio-classique، ص 226، الحاشية 16.

(2) بهذا العنوان الموسيقيّ، *Intermezzo*، نشر هاينريش هاينه (سبق التعريف به) مجموعة شعرية ترجمها إلى الفرنسية جيرار دو نرفال. وتشير المفردة بالأصل إلى فاصل موسيقيّ أو غنائيّ يرافقه أحياناً رقص كان يوضع بين أقسام عمل مسرحيّ أو غنائيّ طويل.

الإغواء المسلّم بها لدى الشباب، والمناورات التي يستخدمها جماعة فالمون في مقهى باريس ودون-جوانات نادي فرسان السباق؛ لكنني خلال التطبيق يخذلني قلبي، وأتحسّر لأنني لا أمتلك، مثل جوليان سوريل، بطل ستاندال، رزمة رسائل شعرية تدرجيّة أنسخها لإرسالها إلى الكونتيسة. بقيت مكتفياً بالحبّ، أهب نفسي كلّها من دون المطالبة بمقابل، من دون أمل ولو كان بعيداً، ذلك أنّ أحلامي الأكثر جسارة كانت لا تكاد تجرؤ على ملامسة الأنامل الوردية لبراسكوفي بشفتيها. ولا شكّ أنّ المترهبين الجديد في القرن الخامس عشر، بجبينه الخاشع على درجات المذبح، والفارس الجاثي في شكّته المعدنية الصلبة، ما كانا يكتان لصورة العذراء عبادة أكثر خشوعاً.

أنصت السيّد بالتازار شيربونو إلى أوكتاف باهتمام عميق، ذلك أنّ حكاية الشاب بالنسبة إليه لم تكن مجرد حكاية رومنسية، ولقد قال وكأنّه يحدّث نفسه في إحدى المرّات التي توقّف فيها الراوي: «نعم، هوذا التشخيص الدقيق للحبّ في درجة الهوى، هو مرض غريب ولم أصادفه إلّا مرّة واحدة، في شاندرناغور، عند فتاة من طائفة المنبوذين تعلّقت ببرهمي؛ ولقد ماتت من جرّاء ذلك الحبّ، المسكينة، لكنّها كانت متوحّشة، أمّا أنت يا سيّدي أوكتاف، فمتحصّر، وسوف نشفيك». بعد إغلاقه للقوسين، أشار بيده إلى السيّد دو سافيل كي يتابع؛ وطوى ساقه على فخذه مثل قائمة مفصليّة لجرادة، بطريقة تجعله يسند ذقنه بركبته، وظلّ على هذه الوضعية المستحيلة على غيره، لكنّها كانت تبدو مريحة بالنسبة إليه.

«لا أريد أن أزعجك بتفاصيل آلامي السريّة، تابع أوكتاف؛ أصل الآن إلى مشهد حاسم. ذلت يوم، وقد عجزت عن تعديل رغبتني الملحة

في رؤية الكونتيسة، استبقت ساعة زيارتي المعتادة؛ كان الطقس عاصفاً وثقيلاً. لم أجد السيّدة لابنسكا في الصالون. كانت قد استقرت تحت رواق تسنده أعمدة رشيقة، وینفتح على باحة تتيح النزول إلى الحديقة؛ ولقد أمرت بجلب آلة البيانو مع أريكة وبعض كراسي الأسل؛ وكان هناك أحواض ملامى بزهور زاهية، لا توجد في أماكن أخرى زهور بتلك النداءة والعبق مثلما توجد في فلورنسا، تعجّ بها مساحات ما بين الأعمدة، فتشيع بأريجها نفحات النسيم النادرة التي كانت تُقبل من الآبينيني⁽¹⁾. ومن خلال فتحات الأقواس يمكن للمشاهد أن يلمح أشجار الطقسوس ونبات الشمشاد المشدّب لتزيين الحديقة، ومن هناك ترتفع بضع سرّوات معمرة، وتظهر بعض منحوتات الرخام الأسطورية مع الذوق المتكّلف في أسلوب باشيو باندينيلي أو لاماناتو⁽²⁾. في البعيد، وفوق الارتسام الشبحيّ لمدينة فلورنسا، تتكوّر قبة كاتدرائية سانتا ماريا دال فيوري، ويبرز البرج المربع لقصر فيكيو.

«كانت الكونتيسة بمفردها، متمدّدة على أريكة الأسل؛ لم تسبق لي رؤيتها على تلك الدرجة من الجمال؛ كان جسدها اللامبالي، وقد أضنته الحرارة، يستحمّ مثل جسد حورية بحرية في رغوة بيضاء لمئزر حمام من موسلين الهند وقد أحاطت به، من أعلاه إلى أسفله، زركشة فائرة تشبه الشُّجف الفضية على أطراف الموجة؛ وثمة مشبك معدنيّ مطعمّ بالعاج من خراسان يغلق عند الصدر ذلك الفستان الخفيف بخفة القماش الفضفاض الذي يتطاير حول تمثال أثينا المنتصرة وهي ترتدي صندلها. ومن كمّيها المفتوحين عند المفصّد، مثل المدقة في كأس الزهرة، تخرج ذراعاها بلون

(1) سلسلة جبال تمتدّ على مسافة تقدّر بألف كيلومتر من شمال إيطاليا إلى جنوبها على طول الساحل الشرقي.

(2) من نحاتي عصر النهضة.

أنقى من المرمر الذي ينحت منه صانعو التماثيل الفلورنسيون نسخاً من التماثيل القديمة؛ ويأتي وشاح أسود عريض معقود حول الخصر، وقد تدلّى طرفاه، ليعبر التباين الشديد مع كلّ ذلك البياض. غير أنّ ما يمكن أن يُحسب على الحزن، في تباين تدرّج الألوان المنسوب عادةً للحداد، يجد بهجته في رأس الخفّ الشركسي الصغير، وكان دون جوانب ومن الجلد الأزرق، وقد نُقش بزخارف صفراء، إذ كان طرفاً الخفّ ينتصبان تحت آخر طيّات الموسلين.

«كان شعر الكونتيسة الأشقر، بضفراته المنتفخة كما لو رفعها هبوب، يكشف جبينها الناصع، بينما يشكّل صدغها الشفافان ما يشبه الهالة، حيث يتلألأ النور في شرارات ذهبيّة.

«بالقرب منها، وعلى كرسيّ، كانت قُبعة كبيرة من تبن الأرز تخفق في الريح، مزينة بشرائط سوداء طويلة تشبه شرائط الفستان، وثمّة قفازان من السويد لم يتمّ استخدامها. لدى رؤيتي، أغلقت براسكوفي الكتاب الذي كانت تطالعها - أشعار ميكيفيتش⁽¹⁾ -، وأشارت لي بحركة ترحيب صغيرة من رأسها؛ كانت بمفردها: ظرف ملائم ونادر. جلستُ قبالتها على المقعد الذي أشارت إليه. خيم بيننا، لعدّة دقائق، نوع من أنواع الصمت التي تغدو شاقّة إذا طالّت. لم أجد ما يسعفني من تلك الصيغ الجاهزة للحوار؛ كنت أشعر باضطراب في رأسي، وكانت شعلات هيب تصعد من قلبي إلى عينيّ، بينما حتيّ يصرخ بي: «لا تُضِعْ هذه الفرصة الخارقة».

«لا أتصوّر ماذا كنت سأفعل لو أنّ الكونتيسة خمنت سبب اضطرابي

(1) آدم ميكيفيتش Adam Mickiewicz (1798-1855): شاعر وطني بولنديّ وكاتب مقالاتٍ ومترجم وناشر وكاتبٍ سياسيّ. كان ممثلاً رئيساً للحقبة الرومانطيقية البولندية، أقام في فرنسا لفترة وعلم في «كوليج دو فرانس».

فاستوت قليلاً مادةً نحوي يدها الجميلة، كما لو كانت تريد إغلاق فمي.
«لا تنبس بأيّ كلمة يا أوكتاف؛ أنت تحبّني، وأنا أعرف ذلك، أحسّ به، أصدّقه؛ لا ألومك أبداً فالحبّ لا يخضع للإرادة. ولا شكّ أنّ نساء أخريات أكثر صرامة سيظهرن شعوراً بالإهانة؛ أما أنا فأرثي لحالك، لأنني لا أستطيع أن أحبّك، ويجزني أن أكون سبب شقائقك. - أتأسّف لحصول لقاتك بي، وألعن النزوة التي جعلتني أغادر فينيسيا إلى فلورنسا. كنت أمل في البداية أن يتوصّل برودي الدائم تجاهك إلى إرهائك وإبعادك؛ غير أنّ الحبّ الحقيقيّ الذي أرى علاماته كلّها في عينيك لا يمكن أن يصدّه أيّ شيء. ولا يجعلك لطفي تزرع أيّ وهم في داخلك، أو أيّ حلم، ولا تعتبر شفقتي عليك تشجيعاً لك. هناك ملاك ذو درع من ألماس، وسيف متقد، يحميني من أية غواية، بأفضل من الديانة، وبأفضل من الواجب، وبأفضل من الفضيلة؛ وهذا الملاك، هو حبيّ: أعشق الكونت لابنسكي. وأنا سعيدة بعثوري على الهوى في الزواج».

«انجس سيل دموع من تحت جفنيّ لدى سماعي هذا الاعتراف القويّ في صراحتة، ووفائه، وحيائه النبيل، وأحسست في داخلي بانكسار نابض حياتي.

«وقفتُ براسكوفي متأثرة، وبحركة إشفاق نسائية رشيقة، مرّرت محرمتها القطنية على عينيّ:

«هيا، لا تبك، قالت لي، أمنعك من ذلك. حاول التفكير في شيء آخر، تخيّل أنّي سافرت نهائياً، أنّي متّ؛ إنساني. سافر، اعمل، شارك في أعمال خيرية، ساهم بنشاطٍ في الحياة الإنسانية ابحث عن العزاء في فنّ أو في حبّ..».

«قمتُ بحركة إنكار.

«أعتقد بأنك ستعذّب أقلّ إذا واصلتَ رؤيتي؟ تابعت الكونتيسة القول؛ تعال، سوف أستقبلك دائماً. الربّ يطالبنا بالصفح عن أعدائنا؛ فكيف سنتعامل بطريقة أسوأ مع من يحبّوننا؟ مع ذلك يبدو لي الغياب علاجاً أنجع. وبعد سنتين يمكننا التصافح بلا مجازفة، من طرفك»، أضافت وهي تحاول الابتسام.

«في الغد غادرتُ فلورنسا؛ لكنّ لم تتمكّن دراستي ولا أسفاري ولا مرور الزمن، من تقليل الآمي، وأحسّ بأنني أموت: فلا تمنعني من ذلك، أيها الطبيب!

- هل عدت إلى رؤية الكونتيسة براسكوفي لابنسكا؟ قال الطبيب الذي كانت عيناه الزرقاوان تلمعان بشكل غريب.

- كلاً، أجب أوكتاف، لكنّها في باريس». ومدّ إلى السيّد بالتازار شيربونو بطاقة منقوشة كتبت عليها:

«الكونتيسة براسكوفي لابنسكا تكون في بيتها يوم الخميس».

3

بين المتزّهين النادرين الذين كانوا آنذاك يجوبون شارع غابريال في الشانزليزيه، انطلاقاً من السفارة العثمانية حتّى الإليزيه بوربون⁽¹⁾، مفضّلين على الزوبعة الغباريّة والقرقعة الأنيقة للطريق الكبيرة المعبّدة، الانعزال والصمت والهدوء النديّ في هذه الطريق المزروعة بالأشجار من أحد جانبيها وبالساتين من الجانب الآخر، يوجد قليلون تمنّ لم يتوقّفوا، حاملين مع شعور بالإعجاب ممزوج بالحسد، أمام منزل شاعريّ غامض، حيث تبدو الثروة، وهذا أمر نادر، تؤوي السعادة.

(1) اسم أقدم لقصر الإليزيه في فرنسا.

من لم يحصل معه قطع سيره أمام سياج منتزه، والإطالة في مشاهدة الفيلا البيضاء عبر أجمات الاخضرار، ثم الابتعاد بقلب مغتم، كما لو كان حلم حياته محباً خلف تلك الأسوار؟ وبالعكس فإن مساكن أخرى، عندما تتم مشاهدتها من الخارج بالطريقة نفسها، توحى لك بحزن يتعدّر وصفه؛ فالضجر والتخلّي واليأس تجمّد الواجهة بألوانها الرمادية وتصفرّ ذرى الأشجار نصف العارية؛ وتلوح التماثيل مصابة ببرص الطحالب، وتذوي الأزهار، ويخضّر ماء البرك، وتغزو الأعشاب الطفيلية الممرات رغم المجرفة؛ وتسكت الطيور، إن وُجدت.

كانت الحدائق الموجودة أسفل المشى مفصولة بحفرة واسعة وتمتدّ ضمن مساحات متفاوتة الاتساع حتى تبلغ القصور التي تنفتح واجهتها على شارع فوبور- سان-هونوريه. والقصر الذي نتحدّث عنه ينتهي عند الحفرة بكومة تراب للزّدم يسند جداراً من صخور كبيرة تمّ اختيارها لعدم الاتساق الغريب في أشكالها، فكانت تنتصب من كلّ جانب بطريقة الكواليس لتؤطر بخشونتها الفظة وكتلتها الداكنة ذلك المشهد الأخضر النديّ المحصور بينها.

في تعرّجات تلك الصخور، تجد نباتات الصبار، والصقلاب القرمزي، والأوفاريقون، وكاسرات الحجر، وأبو قالس، والمخلّلات، وُخُنيس جبال الألب، ولبلاب إيرلندا، ما يكفيها من أرض صالحة للنبات كي تغدّي جذورها وتنشر اخضرارها المتنوع على الصخور الخشنة؛ وما كان لرسام أن يتكرّر في المنظور الأوّل للوحته جاذباً لبقيّة عناصر اللوحة أفضل من ذلك.

كانت الجدران الجانبية التي توصل هذا الفردوس الأرضيّ تحتفي وراء ستارة من نباتات معرّشة، زراوند، شرخ الفلك الأزرق، الجريس،

صريمة الجذبي أو زهرة العسل، الجصية، وستارية الصين، وبيريلوبكا اليونان التي تنطلق مخالها وحيوطها المبرومة وسيقانها لتشابك مع وشيعة خضراء، ذلك أنّ السعادة نفسها لا ترغب في أن تكون سجينه؛ وبفضل هذا الترتيب كانت الحديقة أشبه بفرجة في غابة أكثر منها روضة ضيقة محاصرة بأسيجة الحضارة.

إلى الخلف قليلاً من كتل الحجارة، كانت تتجمع بضع أشجار ذات مظهر أنيق، وإوراق كثيف، تتناقض أوراقها على نحو جذاب: إيلنطس أو شجرة السماء اليابانية، تويّا كندا، بلان فيرجينيا، دردار أخضر، صفصاف أبيض، ميس البروفانس، وتفوقها ارتفاعاً أرزيتان أو ثلاث. بعد الأشجار تمتد أرض معشبة من فصيلة النسيلة أو الزوان المعمر، وما من ذوابة عشبة فيها تعلو أكثر من غيرها، حشيش أنعم وألين من مخمل معطف ملكة، ومن هذا المثل الأعلى للاخضار الزمردية الذي لا يمكن الحصول عليه إلا في انجلترا أمام مدخل القصور الريفية الإقطاعية، مثل سجاد طبيعي ناعم الملمس ترغب العين في ملامسته وتحشى القدم دوسه، بساط نباتي لا يمكن أن يتدحرج عليه، نهاراً، تحت أشعة الشمس إلا الغزالة المدجّنة و«البابي» ابن الدوقة في لباس الدانتيل، بينما تتسلل إليه ليلاً، تحت ضوء القمر، تيتانيا من الويست إيند، ويدها مشتبكة بيد أوبرون المنهمك بتقليب كتاب عن «البريج والباروتينيغ»⁽¹⁾.

هناك ممشي من الرمل المغربي، خشية أن يتسبب صفق صدفة، أو نتوء

(1) تيتانيا Titiana وأوبرون Oberon من شخصيات «حلم ليلة صيف» *A Midsummer Night's Dream* لشكسبير. والكتاب الذي يشير إليه غوتيه بعبارة مزيج من الفرنسية والإنجليزية: «livre du peerage et du baronetage» هو واحد من تلك المصنفات المثمنة من قبل الأرسقراطية البريطانية، والتي تحتوي على تفاصيل الأنساب والألقاب من مركزات وفيكونات وبارونات، إلخ.

صوّان، في جرح الأقدام الأرستقراطية التي تترك عليه آثارها الرقيقة، وهو يتقدّم مثل شريط أصفر حول هذا السباط الأخضر، القصير والصلب، والذي تسوّيه الملائسة، ويحافظ مطر المرشّة المصطنع على رطوبته النديّة، حتّى في أشدّ أيام الصيف جفافاً.

في آخر الأرض المعشبة، كانت تنفجر، زمن حدوث هذه الحكاية، ألعاب نارية حقيقيّة مزهرة ترسلها أجمة من غرنوقيات إبرة الراعي، تتقدّ نجبياتها القرمزية على أرضيّة سمراء من تربة الخلنج.

ويكتمل المنظور بواجهة القصر الأنيقة؛ فهناك أعمدة رشيقة من الطراز الإيوني ترفع طبقة السطح التي تعلوها عند كلّ زاوية مجموعة لطيفة من المرمر، لتكسب القصر مظهر معبد إغريقيّ تمّ نقله هنا بنزوة مليونير، وتعّدّل، من خلال إحياء فكرة شاعرية وفنية، كلّ ما يمكن للبدخ أن يكون عليه من المبالغة في بعث الملل. وفي المساحات المنتشرة بين الأعمدة توجد ستائر مخطّطة بأشرطة عريضة وردية دائمة الإغلاق تقريباً، تحمي وتُبرز النوافذ التي تفتح على مستوى واحد تحت الرواق مثل أبواب من زجاج.

وعندما تتكرّم سماء باريس المتقلّبة بنشر رقعة من لازوردها خلف هذا القصر الصغير، ترتسم حدوده بدقّة ما بين الأجمات الخضراء، إلى درجة التمكن من اعتباره استراحة ملكة الجثيات أو إحدى لوحات بارون⁽¹⁾ المكبّرة.

في كلّ واحدة من جهات القصر تتقدّم في الحديقة دفيّتان مكوّنتين جناحين، تتلألأ جوانبهما الكريستالية تحت الشمس بين تعاريقهما المذهّبة، لتهيئ لمجموعة من النباتات النادرة والشمينة المجلوبة إيهاماً

(1) هنري بارون Henri Baron: رسّام فرنسي (1816-1885).

بمناخها الأصلي.

لو أنّ أحد الشعراء المبكرين مرّ بشارع غابريال مع لمسات الاحمرار الأولى للفجر، لسمع العندليب يستكمل آخر الحانهِ الليلية، ورأى الشحرور يتنزّه في حُقه الأصفر داخل ممزّ الحديقة مثل طائر في وكره؛ لكنّ في الليل، وبعد أنّ يكون دوران المركبات القادمة من الأوبرا قد تلاشى في صمت الحياة الراقدة، فإنّ هذا الشاعر نفسه قد يميّز بغموض ظلّ أبيض في حوضن شابّ وسيم، فينسحب إلى سقيفته المنعزلة، كئيبّ الروح إلى حدّ الموت.

هنالك، ومنذ بعض الوقت- ولعلّ القارئ قد توصل إلى تخمين ذلك- كانت تسكن الكونتيسة براسكوفي لابنسكا وزوجها الكونت أولاف لابنسكي، العائد من حرب القوقاز بعد حملة مجيدة، لم يشتبك فيها مجابهةً مع شاميل⁽¹⁾ الزاهد والمتعذّر إمساكه، لكنّه واجه أشرس مريدي ذلك الشيخ ولاءً. لقد تحاشى الرصاص كما يتحاشاه الشجعان، بالاندفاع نحوه، وتكثرت سيوف المحاربين المتوحّشين المدمشقة والمعقوفة على صدره دون أنّ تخدش جلده. فالشجاعة درع لا تشوبه شائبة. وكان الكونت لابنسكي يملك تلك البسالة الجنونية للأقوام السلافية التي تحبّ الخطر من أجل الخطر، والتي ما زال من الممكن أنّ تنطبق عليها هذه اللازمة من نشيد اسكندينا في قديم: «يقتلون، يموتون، ويضحكون!»

بأيّ نشوة التقى هذان الزوجان اللذان لم يكن الزواج بالنسبة إليهما سوى الشغف المسموح به من قبل الربّ ومن البشر، وحده توماس مور

(1) شاميل Schamy1 بطل قوقازي.

يستطيع التعبير عن ذلك بأسلوب «حبّ الملائكة»!⁽¹⁾ ينبغي أن تتحوّل كلّ قطرة حبر في ريشتنا إلى قطرة ضوء، وأنّ تبخّر كلّ كلمة على الورق باعثة شعلة وعطراً مثل حبة بخور. كيف يمكن رسم هاتين الروحين الذائبتين في روح واحدة والشبيهتين بدمعتي ندى تنزلقان على بتلة زنبقة فتلتقيان وتمتزجان وتمتصّ إحداها الأخرى فلا تشكّلان إلّا لؤلؤة فريدة؟ السعادة شيء في منتهى الندرة في هذا العالم، حتّى إنّ الانسان لم يفكّر في ابتكار كلمات للتعبير عنه، بينما تملأ مفردات الألم المعنوي والجسدي الكثير من الأعمدة في قاموس اللّغات كلّها.

بدأ حبّ أولاف وبراسكوفي منذ الطفولة؛ لم يخفق قلب كلّ منهما قطّ إلّا إلى اسم واحد؛ كانا يعرفان منذ المهد تقريباً أنّهما سينتميان أحدهما إلى الآخر، ولا وجود لبقية العالم بالنسبة لهما؛ كما لو أنّ طرفي الخنثى لدى أفلاطون، اللذين يبحثان واحدهما عن الآخر منذ القطيعة البدئية، قد التقيا واجتمعا فيهما؛ كانا يشكّلان تلك الثنائية في الوحدة، وهي الانسجام التام، لذا كانا يسيران جنباً إلى جنب، أو بالأحرى يطيران عبر الحياة في تحليق متساوٍ ومتّصل، محمّين مثل يامتين تناديهما الرغبة ذاتها، باستخدامنا التعبير الجميل لدانتي.

وحتى لا يكدر هذه الغبطة شيء فقد كان هناك ثروة طائلة تطوّقها مثل محيط جويّ من ذهب. فما إنّ يظهر هذان الزوجان المتألقان حتّى يغادر البؤس خرقه وقد لقي من يؤاسيه، وتجنّف الدموع؛ ذلك أنّ أولاف وبراسكوفي كانا يتمتّعان بالأناية النبيلة للسعادة، ولا يطيقان تحمّل الألم في محيط إشعاعها.

(1) «حبّ الملائكة» *The Loves Of The Angel* لتوماس مور (1772) -

(1852) تأثر به الكثير من الشعراء الفرنسيين بعدما تُرجم إلى لغتهم بعنوان *L'Amour des*

منذ ذهب مبدأ تعدّد الآلهة بأولئك الآلهة الصغار، أولئك العفاريات
المبتسمين، والفتيان السماويين، ذوي الأشكال البالغة الكمال وتناسق
الإيقاع، وصفاء المثل الأعلى، وكفّت اليونان القديمة عن ترديد مقاطع
نشيد الحب لباروس، أساء الانسان بقسوة استخدام الترخيص الذي
أعطى له بأن يكون بشعاً، ومهما كان مصوراً على هيئة الرب، فهو
يمثله أسوأ تمثيل. غير أنّ الكونت لابنسكي لم يستغل ذلك الترخيص؛
فشكّل وجهه البيضويّ المستطيل قليلاً، وأنفه الدقيق ذو النحت الجسور
والناعم، وشفته المرسومة بثبات والتي يُبرزها أكثر شارب أشقر محفوف
الطرفين، وذقنه المرفوعة والمختومة بغمّازة، وعيناه السوداوان، وهو تميّز
مثير، كلّ ذلك أضفى عليه مظهر أولئك الملائكة المحاريين مثل ميخائيل
أو رافائيل، من الذين يقاتلون الشياطين مرتدين شكّاتهم الذهبية. كان
من شأنه أن يكون في غاية الجمال حتّى من دون البريق الفحوليّ في بؤبؤيه
الداكنين والطبقة الملوّحة التي وضعتها شمس آسيا على قسماته.

كان الكونت ذا قوام متوسط، نحيف، رشيق، عصبيّ، يخفي عضلات
صلبة تحت رقّة ظاهرة؛ وكان عندما يشارك في إحدى حفلات السفراء
ويرتدي بدلة عظماء المجرّ سابقاً، مرصّعة بالذهب، متلألئة بالألماس،
مزرّكشة بالجواهر، يمرّ بين المجموعات مثل تجلّ متلألئ، مثيراً غير
الرجال وحبّ النساء، وهو أمر تتعامل معه براسكوفي بلا مبالاة. - لن
نضيف أنّ الكونت كان يمتلك خصال الروح مثلما يتمتّع بمواهب
الجسد؛ فقد حبّته الجنيات الحفّيرات بكلّ الخصال وهو في المهّد، بينما
لاحت الجنية الشرّيرة التي تُفسد كلّ شيء، في مزاج رائق آنذاك.

وهكذا تدركون أنّ حظّ أوكتاف دو سافيل ضئيل جداً أمام مثل
ذلك المنافس، وأنّ من الأفضل له أن يستسلم للموت بهدوء على

وسائد أريكته، رغم الأمل الذي كان الطبيب الخرافي بالتأازار شيربونو يحاول إعادته إلى قلبه. - لا شك أنّ نسيان براسكوفي كان سيشكل الحلّ الوحيد، لكنّه أمر مستحيل؛ هل يعود إلى رؤيتها، وما الجدوى؟ كان أوكتاف يشعر بأنّ قرار السيّدة الشابة لن يُضعف أبداً من شرستها الناعمة، وبرودها الحنون. كان يخشى أنّ تعود جراحه غير المندملة لتفتح مجدداً وتنزف أمام تلك التي قتلته بكلّ براءة، ولم يكن يرغب في اتهامها؛ تلك القاتلة العذبة المحبوبة!

4

مرّ عامان منذ اليوم الذي أوقفت فيه الكونتيسة لابنسكي، على شفتي أوكتاف، بوحه الذي لم تكن ترغب في سماعه؛ وهكذا ابتعد أوكتاف وقد سقط من ذروة حلمه، مع وخز كآبة سوداء في كبده، ولم يمكن براسكوفي من أخباره. فالكلمة الوحيدة التي كان قادراً على كتابتها لها هي الوحيدة الممنوعة. لكن، وفي أكثر من مرّة، كان فكر الكونتيسة المذعورة من هذا الصمت قد استحضر بكآبة عاشقها المسكين: هل نسيها؟ وفي الغياب الرائع للغنج لديها، كانت تتمنى ذلك دون أن تصدّقه، ذلك أنّ شعلة الشغف التي لا يمكن إخمادها كانت تضيء عيني أوكتاف، وما كان الأمر ليلتبس على الكونتيسة. فالحبّ والألهة يعرف كلّ منهم الآخر من خلال النظرة: هذه الفكرة ظلّت مثل غيمة صغيرة تخترق زرقة سعادتها الصافية، وتبعث فيها حزن الملائكة الخفيف عندما يكونون في السماء ويتذكرون الأرض؛ وكانت روحها الفاتنة تتألم لمعرفة بوجود شخص، هناك، يشقى من أجلها؛ لكن، ماذا يمكن للنجمة الذهبية المتلائة في أعلى القبة الزرقاء أن تفعل للراعي المعتم الذي يرفع نحوها ذراعين

مستهماًتين؟ في عصر الأساطير، نزلت فوبي فعلاً من السموات في أشعة فضية على آنديميون النائم⁽¹⁾؛ غير أنها لم تكن متزوجة من كونت بولندي. منذ وصولها إلى باريس أرسلت الكونتيسة لابنسكا إلى أوكتاف تلك الدعوة العادية التي كان الطبيب بالتازار شيربونو يقلبها بين أصابعه بلا مبالاة، وعندما تأكدت من عدم مجيئه، رغم أنها كانت راغبة في معالجته، فقد قالت لنفسها في إشارة فرح لا إرادية: «ما زال يحبني دائماً!» مع ذلك كانت امرأة بطهارة الملائكة وعفتها، مثل الثلج على أعلى قمة في الهالايا. غير أن الرب ذاته، في عمق لانهائته، لم يكن يملك كي يتسلى من ضجر الأبدية إلا لذة سماع قلب يخفق له لدى مخلوقة مسكينة صغيرة وفانية على كوكب هزيل، ضائع في الأمداء الرحبة. ولم تكن براسكوفي أكثر صرامة من الرب، وحتى الكونت أولاف ما كان بوسعه استنكار هذه الشهوة الروحية الهشة.

«حكايك التي أصغيت إليها بعناية، قال الطبيب لأوكتاف، تبرهن لي أن أي أمل من جانبك لن يكون إلا وهمياً. لن تشاطرك الكونتيسة حبك أبداً.

- ها إنك قد تأكدت، يا سيد شيربونو، أنني كنت على حق في عدم السعي إلى الإمساك بحياتي التي تأفل.

- قلت أن لا وجود لأمل مع الوسائل المعتادة، تابع الطبيب؛ لكن، توجد قوى خفية يجهلها العلم الحديث، وقد تمت المحافظة على تقاليدها في تلك البلدان الأجنبية المسماة بربرية من طرف حضارة جاهلة. هناك، وخلال الأيام الأولى من نشأة الكون، كان الجنس

(1) إشارة إلى الراعي آنديمون، في الأساطير الاغريقية، كانت تعشقه سيليني التي حصلت من زفس، كبير الآلهة، على أن يجعله يحافظ على جماله في نوم أبدي.

البشري في اتصال مباشر مع القوى الحية للطبيعة، وكان يعلم بأسرار نظمتها ضاعت ولم تصنها القبائل المهاجرة التي شكّلت شعوباً فيما بعد. في البداية تمّ انتقال تلك الأسرار من مطّلع إلى ملقّن، داخل أعماق المعابد الخفية، ثمّ دُوّنت بمصطلحات مقدّسة غير مفهومة بالنسبة للفرد العاديّ، ونُقِشت في ألواح هيروغليفيه على امتداد الجدران الداخلية في إيلورا⁽¹⁾؛ ويمكنك أن تجد حتّى الآن على تلال جبل ميرو الذي ينبع منه نهر الغانج، وتحت السلّم المرمريّ الأبيض في بيناريس المدينة المقدّسة، وفي أعماق معابد الباغود الأثرية في سيلان، بعض البراهمة المعتمّرين يتهجّون مخطوطات مجهولة، وبعض أتباع اليوغا من زهّاد الهند منكيّين على تكرار كلمة من مقطع واحد لا يمكن التعبير عنها وهي «أوم»⁽²⁾ من دون الانتباه إلى أنّ طيور السماء تبني أعشاشها في شعورهم؛ وبعض الدراویش المنتسكين الذين تحمل أكتافهم ندوب الكلابات الحديدية لجاجرنات⁽³⁾، ممّن يمتلكون تلك الألغاز الضائعة ويحصلون منها على نتائج رائعة عندما يوافقون على استعمالها. أوروبا المنكبّة على المصالح المادية لا تدرك الدرجة الروحانية التي توصل إليها روحانيّو الهند؛ من صيام مطلق، وتأملات مفزعة بثباتها، ووضعيات مستحيلة للجسم يحافظون عليها سنوات كاملة، تنحلّ أجسامهم جيّداً حتّى ليذهب بك

(1) موقع أثريّ هنديّ يميّز بكثرة منحوتاته.

(2) نيرة سنسكريتية الأصل، توجد في عدة ديانات مثل الهندوسية والبوذية والسيخية والبرهمية؛ تشير إلى «الذبذبة الحيويّة» أو «الصوت البدائيّ الأوّل» الذي انبنى عليه الكون.

(3) إله هنديّ على عربة كان يخرب كلّ شيء في طريقه.

الظنّ، بعد رؤيتهم مقرّفين تحت شمس حارقة وبين جمر متقدّ تاركين أظافرهم المطوّلة تخرق كفّ اليد، إلى أنّهم موميאות مصرية أُخرجت من توابيتها وطُوِيَتْ في وضعيات قِرْدَة؛ لم تعد قشرتهم البشرية سوى نَعْفَة⁽¹⁾، تستطيع الروح، كفراشة خالدة، أن تغادرها أو تعود إليها كما تشاء. وفي حين يظلّ هيكلمهم الهزيل هنا، ساكناً، كريبه الرؤيَة مثل يرقة ليليّة فاجأها الضوء، تنطلق روحهم، متحرّرة من كلّ القيود، على أجنحة الهلوسة، إلى أعالي لا تقاس، في عوالم ما فوق الطبيعة. ولهم رؤى وأحلام غريبة؛ فهم يتابعون، من انخفاف إلى انخفاف، تلك التموجات التي تُحدثها العصور الآفلة فوق محيط الأبدية؛ يجوبون اللامتناهي في كلّ الاتجاهات، ويشهدون خلق الأكوان، ونشأة الآلهة وتحولاتها؛ وتعود إليهم الذاكرة بالعلوم التي أتت عليها الكوارث الجوفية والطوفانية، وبالعلاقات المنسيّة بين الإنسان والعناصر. وخلال هذه الحال العجيبة، يتممون بكلمات تعود إلى لغات لم يعد يتكلّمها أيّ شعب على وجه البسيطة منذ آلاف السنين، ويعثرون على الكلمة الأولى، الكلمة التي فجّرت النور في الظلمات القديمة: هناك من يعتبرهم مجانين؛ لكنّهم بمستوى الآلهة تقريباً!

هذا الاستهلال الفريد هيّج انتباه أوكتاف إلى أقصى نقطة، غير مدرك إلى أين يريد السيّد بالتأزّار شيربونو الوصول، فكان يثبت فيه نظراته المنصعة والمتوقّدة بالتساؤلات: لم يكن يخمّن طبيعة العلاقة بين ناسكي الهند وحبّه للكونتيسة براسكوفي لابنسكا.

(1) كلّ عذراء من الفراشات، أي من حرشفيات الأجنحة خلال الطور الانتقاليّ بين اليرقة والحشرة الكاملة.

لكنّ الطيب الذي سبر أفكار أوكتاف، أشار إليه بيده كما لو كان يتوقّع أسئلته، وقال له: «صبراً، يا مريض العزيب؛ ستفهم بعد قليل أيّ لست في حالة استطراد بلا طائل. - بعد ضجري من استخدام الموضع، في المدرّجات الرخامية، على جثث لم تكن تجيبني ولا تدعني أرى إلّا الموت بينما أبحث عن الحياة، أعددتُ مشروعاً- وهو مشروع يعادل مشروع برومثيروس جرأة في الصعود إلى السماء ليسرق منها النار- لبلوغ الروح ومباغتها وتحليلها وتشرحها إذا صحّ التعبير؛ وهكذا أعطيتُ أولويةً للسبب على النتيجة، وازدرت العلم الماديّ ازدراء عميقاً، فقد بلغنتي البراهين على خواتمه. لقد بدا لي أنّ من نتائج التطيب التجريبيّ اللفظ، ذلك التعامل مع الأشكال الغامضة والدمج العرضيّ بين جزئيات سرعان ما تذوب. فحاولت عبر المذهب المغناطيسيّ فكّ الروابط التي تربط الروح في مغلفها؛ وكنت على وشك أن أتجاوز بسرعة كلّ من ميسمر وديلون ومكسويل وبويسيفور ودولوز وكلّ من هو أمهر منهم⁽¹⁾، في تجارب خارقة حقاً، لكنّها ظلّت لا ترضيني: فمن التخشب، إلى السرنمة، والرؤية عن بعد، والصحو الجليّ، كنت أتوصّل كما أريد إلى كلّ تلك التأثيرات غير القابلة للفهم بالنسبة للججمهور، والبسيطة والمفهومة بالنسبة لي. - لكنني ارتقيتُ إلى ما هو أعلى: فمن وجد كاردان والقديس توما الإكويني مرزّت إلى الأزمات العصبية لدى كاهنات البيشيا⁽²⁾؛ واكتشفت أسرار الإيبوت الإغريق⁽³⁾ والنييم

(1) ميسمر Mesmer وديلون Deslon ومكسويل Maxuel وبويسيفور Puységur ودولوز Deleuze : أسماء لأطباء من القرنين الثامن عشر والتاسع عشر، خاضوا في تجارب التنويم المغناطيسيّ.

(2) وسيطات الوحي في معبد دلفي لدى الإغريق.

(3) الواقفون على الأسرار (Eoptes).

العبرانيين⁽¹⁾؛ ثم تلقّنت بطريقة استعادة الغاز تروفونيوس⁽²⁾ وأسكليبيوس⁽³⁾، متعرّفاً دائماً في تلك العجائب التي يتحدّثون عنها على تركيز أو انبساط للروح ناجم عن حركة أو نظرة أو كلمة أو عزيمة أو أيّ عامل آخر مجهول. أعدتُ تبعاً كلّ معجزات أبولونيوس دو تيان⁽⁴⁾. ومع ذلك لم يكتمل حلمي العلمي؛ ظلّت الروح تفلت منّي دائماً؛ كنت أستشعرها، أسمعها، أوثر فيها؛ أخذتُ ملكاتها أو أثيرها؛ لكنّ بيني وبينها حجاب لحم لم يكن يمكنني إبعاده من دون أن تطير. كنت مثل صياد الطيور الذي يجلس طائراً تحت شبكة ولا يجرؤ على رفعها، خشية أن يرى فريسته المجنّحة تتلاشى في السماء.

«سافرتُ إلى الهند، آملاً في العثور على كلمة السرّ في بلد الحكمة القديمة. تعلّمت اللّغتين السنسكريتية والبراكريتية، والمصطلحات العلمية العادية؛ وهكذا تمكّنت من التحوار مع البانديت والبراهمة. واجتزت الغابات حيث يزخر النمر جاثياً على قوائمه؛ وحاذيت المستنقعات المقدّسة التي تحرشها ظهور التماسيح؛ عبّرت غابات عصيّة محصّنة بحبالها اللّيفيّة، جاعلاً سُحب الخفافيش والقروود تطير، مواجهاً الفيل في منعطف المسلك الذي مهّدته الحيوانات المتوحّشة لبلوغ كوخ أحد زهاد اليوغا المشهورين بالتواصل مع الموني⁽⁵⁾، وجلست أياًماً كاملة بالقرب منه، مقسماً معه جلد الغزاة، من أجل تدوين التعزيات

(1) النبيم: الأنبياء بالعبرية.

(2) تروفونيوس Throphonius : بطل إغريقي يُنسب إليه بناء معبد أبولون في دلفي.

(3) أشقْلِيبُوس أو أسكليبيوس، من اليونانية أسكليبيوس، هو إله الطب والشفاء لدى الإغريق.

(4) أبولونيوس التياني Apollonius de Thyane : فيلسوف ومدّعي معجزات فيثاغوريّ نال

شهرة واسعة حتّى صارت «معجزاته» تُقارن بمعجزات يسوع المسيح.

(5) شخص ورع يتأمل الحقائق الإلهية في العزلة، ويمارس إماتة الجسد من أجل ترويض

الحواسّ والاقتراب من جوهر براهما.

الغامضة التي يهمس بها الوجد على شفثيه السوداوين المتشققتين. وبتلك الطريقة حصلت على كلمات كليّة القدرة، وصيغ استحضرارية، ونبرات من كلمة الخلق.

«درستُ المنحوتات الرمزية في الغرف الداخلية للباغودات⁽¹⁾ التي لم تشاهدها أيّ عين دنيويّة، وقد تمكّنت من دخولها بفضل ثوب برهمنيّ؛ قرأت الكثير من الألباز المتعلّقة بنشأة الكون، والكثير من أساطير الحضارات الآفلة؛ اكتشفت معنى الرموز التي تحملها تلك الآلهة الهجينة ذات الشعر الكثّ مثل طبيعة الهند، في أيديها المتعدّدة؛ تأملتُ ملياً دائرة براهما، ولوتس فيشنو، والكوبرا ذات الحلقات لشيفا، الإله الأزرق. كان غانيزا⁽²⁾ يبدو مبتسماً لجهودي ويشجّع بحوثي، محرّكاً خرطومه الجسنيّ⁽³⁾ وغامزاً بعينه الصغيرتين المهذبّتين برموش طويلة. كانت كلّ تلك الوجوه الوحشية تقول لي بلغتها الحجرية: «لسنا سوى أشكال، والروح هي التي تحرك الكتلة».

«كان هناك كاهن في معبد تيرونامالاي، أطلّغته على الفكرة التي تشغلني، فدلّني على ناسك تائب بلغ أعلى مراتب السموّ كان يسكن في أحد كهوف جزيرة إيليفانتا⁽⁴⁾. وجدته متكئاً على جدار الكهف متدثراً بقطعة من نسيج الحلفاء، ركبته عند ذقنه، وأصابعه متشابكة عند ساقيه، وهو في حال ثبات مطلقة؛ عندما تتحرّك مقلّته لا تظهران إلّا البياض، وشفثاه تلجمان أسنانه العارية الجذور؛ وجلده الذي زاده الهزال الغريب دبغاً يلتحم بوجنتيه، وشعره الملقى إلى الوراء يتدلّى في خصلات متبيّسة

(1) الباغود معبد صيني أو ياباني متعدّد الطوابق.

(2) يوصف هذا الإله ذو رأس الفيل بأنه أحد أبناء شيفا.

(3) الجسنيّ: صفيق الجلد، صفة الثدييات كالفيل وسواه.

(4) جزيرة هندية تتوسط خليج بومباي معروفة بكهوفها المنقوشة.

مثل ألياف نباتات منبثقة من الصخور؛ وقد انقسمت لحيته إلى سيلين يبلغان الأرض تقريباً، بينما تتعقّف أظافره على شكل براثن نسر.

«جففته الشمس وسودته بطريقة تضيء على جلده الهندي، وهو أسمر بطبيعته، مظهر حجر البازلت؛ فكان في وضعيته تلك يشبه في شكله وفي لونه، خابية الأموات. للوهلة الأولى حسبه ميتاً. هزرت ذراعيه اللتين بدتا كما لو أنّهما متيّستان بسبب تصلّب تخشبيّ، وصرخت في أذنيه بأقوى ما استطعت كلمات طقس الأسرار التي يُفترض أن تكشفني له بوصفي مُسارّاً مطلعاً على السرّ؛ لم يرتعد، ظلّ جفناه ثابتين. وكنتُ أوشك على الابتعاد يائساً من الحصول على أيّ شيء، عندما سمعت فرقة فريدة؛ مرّت شرارة مزرقة أمام عينيّ بتلك السرعة الخاطفة التي لومضة الكهرباء، ترنّحت ثانية على شفّتي الناسك المنفرجتين، ثمّ اختفت.

«كان براهما-لوغوم (وهذا اسم الشخص القدّيس) يبدو مستيقظاً من سبات: إذ عاد بؤبؤاه إلى موضعيهما؛ ووجهه إلى نظرة بشرية وأجاب عن أسئلتي. «حسناً، ها قد تحققت رغباتك: لقد رأيت روحاً. توصلتُ إلى القدرة على فصل روحي عن جسدي عندما أشاء؛ تدخل إليه وتخرج منه مثل نحلة مضيئة، لا تراها إلاّ عيون المرّيين. لقد سكّْتُ كثيراً، وصلّيت كثيراً، وتأمّلت كثيراً، أمعنت في إماتة الجسد بقسوة، حتّى تمكّنت من فك الروابط الأرضية التي تشدّ وثاقها، وكاشفني فيشنو، الإله ذو التجسّدات العشرة، بكلمة السرّ التي تقود الروح في تقمصاتها عبر الأشكال المختلفة. - لو أنّني، بعد القيام بالحركات المخصّصة، نطقتُ بتلك الكلمة، فإنّ روحك سوف تطير كي تحرك الإنسان أو الحيوان الذي أعيّنه لها. أسلمك هذا السرّ الذي أملكه وحدي حتّى الآن في العالم. أنا مرتاح لمجيئك، لأنني تائق أيّما تويق إلى الدوبان في حضنٍ غير

المخلوق، مثل قطرة ماء في البحر». وبصوت واهن مثل آخر حشرات المحتضر، لكنّه واضح، همس لي الناسك، يبضع نبرات صوتية جعلت تلك الرعشة الصغيرة التي تحدّث عنها أيّوب تجوب ظهري⁽¹⁾.

- ماذا تعني يا دكتور؟ صاح أوكتاف؛ لا أجرؤ على سبر العمق المريع في أفكارك.

- أعني، أجاب السيّد بالتأازار شيربونو بهدوء، أنّني لم أنس صيغة صديقي براهما-لوغون السحرية، وأنّ الكونتيسة براسكوفي من شأنها أن تكون في غاية اللّطف لو اعترفت بروح أوكتاف دو سافيل في جسد أولاف لابنسكي».

5

بدأت شهرة الدكتور بالتأازار شيربونو طبيباً وصانع معجزات تنتشر في باريس؛ ذلك أنّ غرائبه المتصّعة أو الحقيقية جعلته يتصدّر المشهد. لكنّ، بعيداً عن سعيه، كما يُقال، لكسب زبائن، كان يجهد نفسه لصدّ المرضى بإغلاق بابهِ دونهم أو بإعطائهم وصفات غريبة وحميات مستحيلة. ولم يكن يقبل إلّا بعض الحالات اليائسة، محوّلاً الى زملائه، مع استخفاف متعجرف، كلّ الحالات المبتذلة المتعلّقة بالنزلات الصدرية والتهابات الأمعاء المعتادة وحمى التيفوئيد، بينما يحصل على حالات شفاء لا تصدّق في تلك الحالات القصوى المختارة. فكان يقف إلى جانب السرير، ويأتي حركات سحرية فوق كوب ماء، لتلوح أجساد متصلّبة وباردة، قريبة جداً من النعش، وبعد ابتلاعها بضع قطرات من ذلك الشراب وهي تحرك فكّيها المشتّجين بفعل الاحتضار، وهي تستعيد طراوة الحياة وألوان

(1) من العهد القديم: سفر أيّوب (4، 14-15).

الصحة وتستوي على مؤخرتها، مرسلّة حولها نظرات اعتادت منذ قليل على ظلمات القبر. لذلك أطلقوا عليه اسم طيب الموتى أو باعث الموتى. لكنّه لم يكن يوافق دائماً على المعالجة، وكثيراً ما يرفض مبالغ طائلة من قبل بعض الأغنياء المحتضرين. فمن أجل العزم على دخول في صراع مع التلف والفاء، كان لا بدّ له من التأثير بألم أمّ تتوسّل من أجل خلاص ابنها الوحيد، وبيأس عاشق يطلب حظوة حبيبته المعشوقة، أو أن يشعر بأنّ حياة الشخص المهذّب ضرورية للشعر والعلم وتقدّم الجنس البشريّ. وهكذا أنقذ رضيعاً كان الخناق يشدّ على حنجرته بأصابعه القاتلة، وأنقذ فتاة لذيذة مسلولة في آخر مرحلة، وشاعراً يعاني من الهذيان الرعاشيّ، ومخترعاً أصيب باحتقان دماغيّ كاد يدفن سرّ اختراعه تحت بضعة رفوش من تراب الردم. أمّا بخلاف ذلك، فقد كان يقول إنّه ينبغي عدم معاكسة الطبيعة، وإنّ بعض الميتات لها ما يبرّرها، وإلاّ فإنّنا نجازف، في حال منعها، بإرباك شيء ما في نظام الكون. وهكذا تدركون جيّداً أنّ السيّد بالتازار شيربونو كان أكثر أطباء العالم اكتنازاً بالمفارقات، وآته استورد من الهند انحرافاً كاملاً؛ غير أنّ شهرته كمغنطيسيّ فاقت مجده كطبيب؛ وكان قد قدّم، أمام عدد صغير من المصطفيّين بضع جلسات وُصفت بمعجزات قادرة على إرباك كلّ مفاهيم الممكن والمستحيل، وبكونها تجاوزت معجزات كاليوسترو⁽¹⁾.

كان الطبيب يقطن في الطبقة الأرضية من قصر قديم في شارع الروغار في شقّة من الشقق المتلاحقة، كما كانت تُجهّز قديماً، وكانت نوافذها العليا تنفتح على حديقة مغروسة بأشجار كبيرة ذات جذوع سوداء، وأوراق

(1) كاليوسترو Cagliostro (1743-1795) مغامر إيطالي وطبيب كان مؤمناً بالقوى الخفية ومعالجتها بالسّحر والتنجيم.

دقيقة خضراء. ورغم أنّ الفصل صيف كان هناك أجهزة تدفئة تنفث من فتحاتها النحاسية المحترقة كتلاً هوائية حارقة في القاعات الواسعة، مع المحافظة على الدرجة الحرارية 35 أو 40 ذلك أنّ السيّد بالتازار شيربونو، المتعود على مناخ الهند الحارق، كان يرتجف تحت شمسنا الشاحبة، مثل ذلك المسافر الذي عاد من منابع النيل الأزرق في أفريقيا الوسطى، وصار يرتجف برداً في القاهرة، وكان لا يخرج إلا في مركبة مغلقة، ملفوفاً بصقيع فروة ثعلب أزرق من سيبيريا، وقدماه على قراب صفيح مملوء بهاء ساخن.

لم يكن من أثاث آخر في تلك القاعات سوى أرائك خفيفة ذات نسيج قويّ مزخرف بأفيال خيالية وطيور أسطورية، وبعض الرفوف المفصّلة والملوّنة والمذهّبة بسداجة متوحّشة من قبل أهل سيلان، وأصص من اليابان ملأى بأزهار مستجلبة؛ وعلى الأرضية الخشبية تنتشر من أوّل الشقة إلى آخرها، واحدة من تلك السجّادات الجنائزية ذات التشجير الأسود والأبيض والتي ينسجها، من باب التوبة، سفاحو الشوغ⁽¹⁾ في سجونهم، ويبدو نسيجها مصنوعاً من قنب جبل الشنق الذي كانوا يستخدمونه؛ وهناك بعض الآلهة الهندية، من رخام أو من برونز، بعيون لوزية طويلة، وأنوف مطوّقة بخواتم، وشفاه غليظة مبتسمة، وقلائد لؤلؤ نازلة حتّى السرة، ورموز متفرّدة وغريبة، تربّع سيقانها فوق قواعد تماثيل صغيرة عند الزوايا؛ وعلى امتداد الجدران كانت تُعلّق منمنمات ألوان مائية، لعلّها من أعمال بعض الرّسّامين من كلكوتا أو لوكونو، تمثّل التقمّصات التسعة المنجزة من قبل فيشنو؛ في سمكة،

(1) الشوغ Thuggs: طائفة من قطاع الطرق كانوا يقتلون المسافرين في الهند خفياً، وقد قضى البريطانيون على الآلاف منهم، وأطلقوا عليهم هذا الاسم.

وسلحفاة، وخنزير، وأسد برأس إنسان، وقزم برهمي، وراما، وبطل يقاتل العملاق ذا الألف ذراع كارتاسوس سيريارغونن، وكريشنا، الطفل المعجزة الذي يرى فيه الحالمون مسيحاً هندياً؛ وبوذا، عابد الإله العظيم ماهادوي؛ وتُظهره، أخيراً، نائماً، وسط البحر اللبني، فوق الحنش ذي الرؤوس الخمسة المعقودة على شكل ظلّة، منتظراً الساعة التي سيَتخذ فيها، كتقمص أخير، شكل ذلك الحصان الأشهب المجتّح الذي سوف يترك حافره يسقط على الكون لتأتي نهاية العالم.

في القاعة الداخلية المسخّنة أكثر من القاعات الأخرى، كان يقبع السيّد بالتازار شيربونو، محاطاً بكتب سنسكريتية مخطوطة بمخرز على رقاقت خشب رهيقة مثقوبة وموصولة بشريط بحيث تلوح أقرب إلى مغلّق شبّاك أكثر منها إلى مجلّدات كما تعرفها المكتبات الأوروبية. ثمة آلة كهربائية، مع زجاجاتها المملوءة بأوراق ذهبية وإسطواناتها الزجاجية التي تُدار بمقبض تدوير، فترفع ظلّه المقلق والمعقد وسط الغرفة، قرب سطل مشمري⁽¹⁾ تغوص فيه حربة معدنية تشع منها عدّة قضبان حديدية. لم يكن السيّد شيربونو دجّالاً على الإطلاق، كما لم يكن ليبحث عن ترتيب مشهديّ بارع، ومع ذلك كان من الصعب دخول هذا المقرّ الغريب من دون الإحساس بنوع من الانطباع الذي ربّما كانت تتسبّب فيه قديماً مخابر الخيمياء.

كان الكونت أولاف لابنسكي قد سمع بالمعجزات التي صنعها الطبيب، واتّقد فضوله الذي كان قريباً من التصديق. فالأقوام السلافية تمتلك ميلاً طبيعياً إلى تصديق العجيب الذي لا يمكن للتربية المتقنة

(1) نسبة إلى فرانتس مسمير Franz Mesmer (1734-1815)، طبيب ألماني، مؤسس نظرية المغناطيسية الحيوانية التي أُطلق عليها اسم المسمرية. تجاربه بالسطل الذي يتحلّق حوله مرضاه جعلته مشهوراً في عصره.

تهذيبه دائماً، زد على ذلك أنّ شهوداً من الثقات ممن حضروا جلساته، يقولون عنها أشياء لا يمكن تصديقها من دون معاينتها، مهما كانت الثقة بالراوي. لذلك ذهب لزيارة مدّعي المعجزات.

عندما دخل الكونت لابنسكي شقّة الطبيب بالتازار شيربونو أحسّ كأنه محاط بشعلة غامضة؛ تدفق دمه كلّ نحو رأسه، وصفرت عروق صدغيه؛ وصار يشعر بالاختناق من شدّة حرارة الشقّة؛ بينما كانت المصابيح التي تحترق فيها خلاصات عطرية، وزهور جاوة الكبيرة وهي تؤرجح أكمامها الضخمة مثل مباخر، تُمله بفوحاتها المدوّخ وعطورها الخانقة. تقدّم بضع خطوات مترنحة نحو السيّد شيربونو الذي كان يتربّع على أريكته في واحدة من تلك الوضعيات الغريبة التي يتخذها الناسك أو السنياسي⁽¹⁾، والتي رسمها الأمير سولتيكوف⁽²⁾ على نحو جذّاب في كتابه عن رحلته إلى الهند. كان وهو يرسم زوايا مفاصله تحت طيّات ملابسه، أشبه ما يكون بعنكبوت بشريّ ملفوف وسط نسيجه في وضعية ثابتة أمام فريسته. ولدى ظهور الكونت، أشعّ بؤبؤاه الفيروزيّان ببريق فوسفوريّ وسط محجريهما المذهّبين بكدر من مرض الكبد، وسرعان ما انطفأ كما لو تمّت تغطيتها بودقة⁽³⁾ إرادية. مدّ الطبيب يده نحو أولاف، وقد أدرك ضيقه وتوصّل بحركتين أو ثلاث من يده المغناطيسيّة إلى إحاطته بجوّ ربيعيّ، باعثاً له فردوساً نديّاً في ذلك الجحيم المتقدّم.

«هل تشعر بتحسّن، الآن؟ لا شكّ أنّ رثيّك المتعودتين على نسمات البلطيق التي تأتي محافظّةً على برودة تدرجها على ثلوج القطب الخالدة،

(1) النائب والمتحرّر من رغبات الدنيا، في المذهب الهندوسي، سبق ذكره.

(2) الأمير أليكسي سولتيكوف Alexis Soltykoff : صاحب كتاب «رحلات إلى الهند»

(3) الودقة: نقطة في قرينة العين.

تلهث مثل منفاخي كور الحِداة في هذا الهواء الحارق، حيث أنني مع ذلك أرتجف، أنا الذي نضجتُ، وأعيدَ إنضاجي، واقتربتُ من حالة التكلّس في أفران الشمس».

أدى الكونت أولاف لابنسكي إشارة موضحاً بها أنه لم يعد يشكو من الحرارة العالية في الشقة.

«إذن، قال الطيب بنبرة تفتعل السداجة، قد تكون سمعت ما يُحكى عن مهاراتي في الشعوذة، وتريد الاطلاع على عيتة من قدراتي؛ أوه! أنا أقوى من كومو وكونت وبوسكو.⁽¹⁾»

- فضولي ليس بهذه الدرجة من الطيش، أجب الكونت، واحترامي يكون أكثر لأحد أمراء العلم.

- لست عالماً بالمعنى الذي يُعطى لهذه الكلمة؛ بالعكس، فأثناء دراستي لعدد من الأشياء التي يزدريها العلم، سيطرت على القوى الخفية غير المستعملة، وصررت أحدث نتائج تبدو رائعة، رغم أنها طبيعية. ومن كثرة مراقبتي للروح توصلت إلى مباغتها في بعض الأحيان، فباحث لي ببعض الأسرار التي استغللتها واستخدمتُ منها بعض الكلمات التي حفظتها. الروح هي كل شيء، المادّة لا توجد إلّا في الظاهر؛ ربّما لم يكن العالم سوى حلم الإله أو إشعاع الكلمة الإلهية في الأبعاد. أمحو كما أشاء خِرقة الجسد، أوقف أو أسرّع الحياة، أحوّل الحواس، أ حذف الحيز، أقضي على الألم من دون حاجة إلى البنج أو الأثير أو أيّ نوع آخر مخدّر. متسلحاً بالإرادة، هذه الكهرباء المعنوية، أحيي وأميت. لم يعد من وجود

(1) كومو Comus وكونت Comte وبوسكو Bosco: أسماء لمشعوذين فرنسيين اشتهروا في القرن التاسع عشر.

لما هو غير قابل للنفاد بالنسبة لعيني؛ نظرتي تخرق كل شيء؛ أرى أشعة الذهن بوضوح، وكما يتم عرض أخيلة الشمس على شاشة، أستطيع تمريرها عبر موشوري اللامرئي وإكراهها على الانعكاس على قماشة دماغي البيضاء. غير أن كل ذلك لا يُعد شيئاً ذا قيمة مقارنة بالمعجزات التي يحققها بعض زهاد اليوغا في الهند ممن بلغوا أعلى درجات الزهد. نحن، الأوروبيين، مفرطون في خفتنا وغفلتنا وتفاهتنا وتعلقنا بحسنا الطيني، حتى أننا عجزنا عن فتح نوافذ واسعة في ذلك الحبس تكون مشرعة على الأبدية واللامتناهي. مع ذلك توصلت إلى بعض النتائج التي لا تخلو من أهمية، وسوف تحكم بنفسك»، قال الطبيب بالتأزر شيربونو وهو يسحب عرى ستارة ثقيلة في قضيبها، تخفي ما يشبه المخدع المهيأ في آخر القاعة. في ضوء شعلة من روح الكحول كانت تنوس على منضدة برونزية ثلاثية القوائم، لمح الكونت أولاف لابنسكي مشهداً مربعاً جعله يرتعد رغم بسالته. كان هناك مائدة من رخام أسود عليها جسم شابٍ عارٍ حتى حزامه وهو يحافظ على جمود جثة؛ ومن جذعه المشوك بالسهم مثل سان سياستيان، لم تكن تسيل أية قطرة دم واحدة؛ حتى ليتمكن تصوّره صورة ملونة لشهيد، نسيّ تلوين حواف جروحه بكبريت الزئبق الأحمر.

«ربّما كان هذا الطبيب الغريب، قال أولاف محدثاً نفسه، من عابدي شيفا، ولعلّه تقرب من إلهه بهذه الضحية».

«أوه! إنه لا يتألم بتاتاً؛ اقرضه من دون خشية، لن تتحرك أيّ عضلة في وجهه»؛ وشرع الطبيب يسحب السهم من جسمه، كما تُسحب إبر من كبة غزل.

كانت بضع حركات سريعة باليدين كفيلة بإخراج المريض من شبكة

الدفق المغناطيسي التي كانت تحبسه، فاستيقظ بابتسامة انتشاء تملو شفثيه كما لو كان خارجاً من حلم سعيد. صرفه السيد بالتازار شيربونو بياياء منه، فانسحب من باب صغير محفور في الخشب الذي يغطي المخدع.

«كان في إمكاني بتر إحدى ساقيه أو ذراعيه دون أن ينتبه إلى ذلك، قال الطبيب وهو يغضن تجاعيده بمثابة ابتسامة؛ لم أفعل ذلك لأنني لم أتوصل إلى الخلق بعد، ولأنّ الإنسان، وهو أدنى من العظاية في هذا المجال، لا يمتلك نسغاً يكون من القوّة بحيث يصلح الأعضاء التي تُبتر منه. غير أنني وإن كنتُ لا أخلق، فأنا قادر على تجديد الشباب». ورفع حجاباً كان يغطي امرأة مسنة منومة مغناطيسياً فوق أريكة، ليس بعيداً عن منضدة الرخام الأسود؛ كانت قسامتها، وربّما كانت جميلة سابقاً، ذاوية، وكان عصف الزمن يُقرأ حول حدود ذراعيها الهزيلتين، وكتفّيهما وصدرها. سلط الطبيب نظرات بؤبؤيه الأزرقين عليها، لبضع دقائق، مع تركيز متواصل؛ توطدت الخطوط المتلفة، واسترجعت تكويرات الصدر نضارتها البكر، وملاً لحم أبيض مخمليّ ضمور الرقبة؛ تكور الخدان واكتسبا نعومة المخمل مثل الدراقن وقد امتلاً بعافية الشباب؛ فُتحت العينان برّاقتين في سائل ألق؛ وكشف قناع الشيخوخة الذي رُفع كما لو بفعل السّحر، عن الفتاة الجميلة التي اختفت منذ زمان.

«هل تعتقد أن ينبوع الشباب قد سكب من مياحه الإعجازيّة في موضع ما؟ قال الطبيب للكونت الذي أذهله هذا التحوّل. أمّا أنا فأصدّق ذلك، لأنّ الإنسان لا يخترع شيئاً، وكلّ حلم من أحلامه هو تتبؤ أو تذكّر. لكن، لنبعد قليلاً عن هذا الشكل المجبول بإرادتي، ولتعيّن هذه الفتاة التي تنام بهدوء في تلك الزاوية. استجوبها، فهي تعلم في هذا المجال أكثر من كاهنات دلفي والعرافات. يمكنك أن ترسلها إلى أحد قصورك في

بوهيميا⁽¹⁾، وتسألها عما يحتويه أكثر أدراجك سرّية، وسوف تخبرك، لأنّ روحها لا تستغرق أكثر من ثانية واحدة في الرحلة، وهو أمر غير مفاجئ كثيراً على أيّ حال، بما أنّ الكهرباء تجوب سبعين ألف ميل في مدّة الزمن نفسها، والكهرباء بالنسبة للفكر هي مثل عربة الجياد بالنسبة للقاطرة. مدّ يدك لها لتكون في صلة بها؛ لن تحتاج إلى صياغة سؤالك، سوف تقرؤه في ذهنك».

أجابت الفتاة عن السؤال الذهني للكونت، بصوت واهن وخالٍ من النبرات مثل صوت شبح:

«في علبة خشب الأرز توجد قطعة تراب مرشوشة برمل ناعم يظهر عليه أثر قدم صغيرة.

- هل تتأث بشكل صائب؟» قال الطيب بلا مبالاة وكأنّه متيقن من عصمة فتاته المرنمة.

غطّت حمرة قانية خدّي الكونت. فقد قام فعلاً برفع أثر قدم براسكوفي لابنسكا في ممشى منتزهه، خلال المرحلة الأولى من حبّهما، وظلّ يخفيه مثل بقايا القديسين داخل علبة مرصعة بالصّدْف والفضّة من أثمن المصنوعات، ويحتفظ بمفتاحها الميكروسكوبيّ معلقاً في رقبتة بسلسلة ذهبية من البندقية.

ولأنّ السيّد بالتازار شيربونو كان رجلاً حسن المعشر، ونظراً لإدراكه ارتباك الكونت، لم يلحّ أكثر وقادّه إلى مائدة عليها كوب ماء بصفاء الألباس.

(1) في 1803، كان شارل نوديه Charles Nodier قد كتب «حكاية ملك بوهيميا وقصوره السبعة» *Histoire du roi de Bohême et de ses sept châteaux*، وفي 1852 جمع نرفال Nerval بعضاً من نصوصه تحت عنوان «قصور بوهيميا، الصغيرة» *Petits châteaux de Bohême*. وسبق التعريف ببوهيميا.

«لا شك أنك سمعت بالمرآة السحرية التي أظهر فيها ميفيستوفيليس صورة هيلانة لفاوست؛ أما أنا فبدون امتلاك قائمة حصان في جوربي الحريري، وبلا ريشتي ديك على قبعتي، أستطيع إمتاعك بتلك المعجزة البريئة. انحن على هذا الكوب وفكّر بتركيز في الشخص الذي ترغب في حضوره؛ حياً كان أم ميتاً، بعيداً أم قريباً، وسوف يأتي ملتبساً نداءك، سواء من آخر العالم أم من أعماق التاريخ».

انحنى الكونت على الكوب الذي سرعان ما تكدر ماؤه تحت بصره واكتسب لويّنات لبيّنة، كما لو تمّ سكب قطرة من إحدى الخلاصات؛ تشكّلت دائرة متقرّحة من ألوان الموشور وتوجّث شفة الكوب مؤطرة اللوحة التي بدأت ترسم للتوّ تحت الغمامة المبيضة.

انقشع الضباب. - ظهرت امرأة شابة في قميص حّام من الدانتيل، ذات عينيّن بخضرة البحر، وشعر ذهبيّ مجعّد، تاركةً يديها الجميلتين الشارديتين تتوهان، مثل فراشتين بيضاوين، في ملامس البيانو العاجية، وارتسمت بتلك الطريقة وكذلك تحت مرآة أسفل الماء الذي عاد شفافاً، وكانت تلوح في غاية من الروعة التي يمكنها أن تجعل كلّ الرسّامين يموتون يأساً: كانت تلك هي براسكوفي لابنسكا، التي جاءت، من دون علمها، مستجيبةً لاستحضارها الشغوف من الكونت.

«والآن، لنمرّ إلى شيء آخر أكثر إثارة للفضول»، قال الطبيب وهو يمسك بيد الكونت ويضعها على أحد القضبان الحديدية في السطل المسمرّي. لم يكد أولاف يلمس المعدن المشحون بدرجة مغناطيسية خاطفة حتّى سقط مثل المصعوق.

احتضنه الطبيب، ورفع مثل ريشة، ووضع على أريكة، ثمّ دقّ جرساً وقال للخادم الذي ظهر على عتبة الباب:

«إذهب لجلب السيّد أوكتاف دو سافيل».

6

سُمع تدحرج عربة مقفلة من ذوات الدواليب الأربعة في الباحة الساكنة للإقامة، وسرعان ما تقدّم أوكتاف أمام الطبيب، ومكث مصعوقاً عندما أراه السيّد شيربونو الكونت أولاف لابنسكي ممدداً على أريكة وعليه مظاهر الموت. ذهب به الظنّ في البداية إلى حصول عملية اغتيال وظلّ بضع لحظات أحرص من الهلع؛ لكنّه، وبعد معاينة أكثر انتباهاً، أدرك أنّ عملية تنفّس تكاد لا تُدرك كانت تخفض صدر الرجل النائم وترفعه.

«هي ذي وسيلة تنكّرك جاهزة تماماً، قال الطبيب؛ وهي أصعب ارتداءً قليلاً من لباس تقنّع مستأجر من محلات بابن؛ لكنّ روميو، وهو يتسلّق شرفة فيرونا، لا يقلق من خطر دقّ عنقه؛ فهو يعرف أنّ جوليت تنتظره، هناك في الأعلى داخل الغرفة تحت جناح الظلام؛ والكونتيسة براسكوفي لابنسكا لا تقلّ قيمة عن ابنة آل كابوليه⁽¹⁾».

لم يُجب أوكتاف بكلمة واحدة وقد ارتبك لغرابة الوضع؛ ظلّ ينظر إلى الكونت الذي كان رأسه مرتدداً قليلاً إلى الوراء ويستند إلى وسادة، فيبدو شبيهاً بتماثيل أولئك الفرسان المضطّجين فوق قبورهم في الأديرة القوطية، وتحت رقابهم المتصلّبة وسادة من الرخام المنحوت. وكان ذلك الوجه الجميل والنبيل الذي سُنّسلب منه روحه، يجعله يحسّ رغماً عنه بقليل من تبكيت الضمير.

(1) من أكبر العائلات الإيطالية القديمة في فيرونا، وقد جعل شكسبير من جوليت، في مسرحيته «روميو وجوليت» *Romeo and Juliet*، ابنة رئيس العائلة.

فسرَ الطبيب أحلام اليقظة التي كان يستغرق فيها أوكتاف، بالتردد. مرّ على طية شفّيته طيف ابتسامة مبهمّة لا تخلو من ازدراء، وقال له: «إن كنت لم تتخذ قرارك فأنا يمكنني إيقاظ الكونت الذي سوف يعود كما جاء، وقد أذهلته قدراتي المغناطيسية؛ لكن عليك التفكير ملياً في الأمر، فمثل هذه الفرصة يمكن ألا تتكرّر أبداً. مع ذلك، مهما يكن الاهتمام الذي أبدية تجاه حبك، ومهما تكن رغبتني في إجراء تجربة لم تسبق محاولتها في أوروبا، لا ينبغي عليّ أن أخفي عنك حقيقة أن تبادل الروحين هذا، له مخاطره. دقّ على صدرك، واسأل قلبك. - هل تجازف بحياتك صراحةً للمراهنة على هذه الورقة الأخيرة؟ إنّ الحبّ قويّ مثل الموت، يقول الإنجيل.

- أنا مستعدّ، أجب أوكتاف بكلّ بساطة.

- هذا جيّد أيها الشابّ، صاح الطبيب وهو يفرك يديه السمرائين الجافتين بسرعة خارقة كما لو كان يرغب في إيقاد النار على طريقة البدائيين. هذا الشغف الذي لا يتقهقر أمام أيّ شيء يعجبني. لا وجود إلّا لشيئين في العالم: الشغف والإرادة. وإذا كنت غير سعيد فمن المؤكّد أنّ ذلك لن يكون بسببي. آه! يا شيخي براهما- لوغوم، سوف ترى من أعماق سماء إندرا⁽¹⁾ هناك حيث تحيط بك الأبصار⁽²⁾ بجوقاتهم المثيرة، إنّ كنت نسيّت الصيغة التي لا تقاوم عندما حشرجت بها في أذني وأنت تهجر هيكلك العظمي

(1) أكبر آلهة الفيدا، مالك القوة التي يُرمز اليها بالصاعقة، وبها يقضي على الشياطين. ملك الآلهة. بمطّطي فيلاً، ويعبده المحاربون.

(2) الأبصار، في الميثولوجيا المرتبطة بديانة الفيدا، حوريات سماويات ذوات جمال فاتق، يرمزن إلى لذّة الحواس والروح. عندما يبلغ الناسك مستويات عالية من السلطة والقوة يرسل إليه الإله إندرا بعضهنّ فيعجز عن مقاومتهم ويفقد بعض سلطاته.

المحتط. الكلمات والإيحاءات، احتفظتُ بكلّ شيء. - إلى العمل!
 إلى العمل! سنعدّ في قدرنا المعدنية طبخة عجيبة، مثل ساحرات
 «ماكبث»، لكن من دون شعوذة الشمال الدنيئة. اخضع إلى
 سلطتي. جيّد! العينان في العينين، اليدان في مواجهة اليدين. ها قد
 بدأ السّحر يعطي مفعوله. يتلاشى مفهوم الزمان والمكان، يمحى
 وعي الذات، ينخفض الجفنان؛ ترنخي العضلات التي لم تعدّ
 تستقبل الأوامر من الدماغ، الفكر يجمد، كلّ الروابط الهشة التي
 تشدّ الروح إلى الجسد تُفكّ. حتّى براهما نفسه، في البيضة الذهبية
 التي ظلّ يحلم فيها ألف عام، لم يكن أكثر انفصلاً عن الأشياء
 الخارجية؛ فلنشبعه بالدفق المغناطيسيّ، لنغطّنه في الأشعة».

كان الطيب وهو يدندن بتك الجمل المتقطّعة، لا ينقطع عن حركات
 التنويم لحظة واحدة: ومن يديه المبسوطتين كانت تنبجس دقات ضوئية
 تندفع ضاربةً جبين المريض أو قلبه، ليتشكّل حوله تدريجياً نوع من الجوّ
 المرثيّ، ذي الوميض الفوسفوريّ مثل هالة.

«ممتاز! قال السيّد بالتأازار شيريونو، مصفّقاً بنفسه على صنيعه. هوذا
 كما أريده. هيا، هيا، ما الذي ما زال يقاوم هناك؟ هتفّ بعد استراحة،
 وكأنّه كان يقرأ عبر جمجمة أو كتاف آخرَ جهد للشخصيّة التي تقترب من
 التلاشي. ما هذه الفكرة المتمرّدة التي بعد طرّدها من خندق المخّ المحصّن،
 تسعى إلى التخلّص من تأثيري بالتكّتب حول المونادا البدائية⁽¹⁾، حول
 النقطة المركزية للحياة؟ سوف أتمكّن من الإمساك بها وقهرها».

ومن أجل التغلّب على ذلك التمرد غير الإراديّ، أعاد الطيب شحن
 (1) يبدو أنّ فكرة الوحدة (المونادا) البدئية تعود إلى أوريجينيس Origenès (185-254) وهو
 من أوائل آباء الكنيسة المسيحية، الذي عبّر بها عن فكرة الإله. والمونادا عند الفيلسوف
 لايبنتس Leibniz هي «قوة بدائية»، بدونها لا يمكن تفسير العالم الواقعيّ.

بطارية عينيه المغناطيسية بقوة أكبر، وبلغ الفكرة المتمردة ما بين قاعدة المخ واندماج النخاع الشوكي، حيث الملجأ الأكثر خفاء، والخيمة الأكثر تلغيزاً للروح. وكان نصره مُبيناً.

عندئذٍ جهّز نفسه، باحتفال مهيب، للتجربة الخارقة التي سيحاول إجراؤها الآن؛ ارتدى، مثل المجوسي، ثوباً من نسيج الكتّان، غسل يديه في ماء معطر، وتناول مساحيق من عدّة عُلب رسم بها على خديه وعلى جبينه أوشاماً كهنوتية؛ فأحاط ذراعه بشريط البراهمة، وقرأ قصيدتين أو ثلاثاً من أشعار السلوكا المقدّسة⁽¹⁾، من دون إهمال أيّ طقس من الطقوس الدقيقة التي أوصى بها سانيازي كهوف إليفانتا.

وبعد الانتهاء من هذه الاحتفالات، شرّع فوهات التسخين، وسرعان ما امتلأت القاعة بجوّ ملتهب كان يمكنه جعل النمر يُغشى عليها في الغابات، والجواميس تتشقق قشورها الطينية على جلودها الحرشاء، وتنبثق مفرقة زهرة الصبار العريضة.

«لا ينبغي للشرارتين المتأبّتين من النار الإلهية، واللّتين ستوجدان عاريتين بعد قليل ومجرّدين لبضع ثوانٍ من غطائهما الفاني، أن تذبلا أو تنطفئا في هوائنا القارس»، قال الطبيب وهو يعاين مقياس الحرارة الذي كان يسجّل وقتها 120 درجة على سلّم فهرنهايت.

كان الطبيب بالتازار شيربونو يبدو في ثيابه البيضاء، بين هذين الجسدَيْن الهامدين، مثل مقدّم القرايين في إحدى تلك الديانات الدموية التي ترمي بجثث البشر على مذبح آهتها. وكان يذكرّ بكاهن فيتزليبيوتزيلي⁽²⁾، الإله

(1) أشعار السلوكا Slocas: مقاطع تتكوّن من بيتين.

(2) في القسم الأوّل من أشعار هاينريش هاينه، التي ترجمها إلى الفرنسية جيرار دو نرفال Gérard de Nerval وسان-رينيه تايلانديه Saint-René Taillandier تحت عنوان «قصائد وأساطير» Poèmes et légendes (1885)، أغنية من «الرومنثيرو» الإسبانيّ =

المكسيكيّ الوحشيّ الذي تحدّث عنه هاينريش هاينه في إحدى قصائده الغنائية، غير أنّ نوايا الطبيب كانت بالتأكيد أكثر سلميّة.

اقرب من الكونت أولاف لابنسكي الذي ما زال خامداً، ونطق بالنبرة الصوتية الحارقة التي سرعان ما ذهب ليعيدها على أوكتاف النائم بعمق. في هذه اللّحظة اكتسب وجه السيّد شيربونو، وهو غريب عادةً، مهابة متفردة؛ فقد كانت عظمة سلطته تزيد من نبل قساماته المشوّشة، ولو شاهده أحدهم وهو ينجز طقوسه المألّفة برصانة كهنوتية، لما تعرّف فيه على طبيب هوفماني⁽¹⁾ ينادي قلم الكاريكاتير متحدّياً إياه.

حدثت عندئذ أشياء في منتهى الغرابة: لاح أوكتاف دو سافيل والكونت أولاف لابنسكي مضطربين في آنٍ معاً كما لو كانا يعانيان من نوبة احتضار، تحلّل وجهاهما وطفث رغبة خفيفة على شفثيهما؛ نزع شحوب الموت لون جسديهما؛ وفي تلك الأثناء كان هناك وميضان ضئيلان مزرقان ونائسان، يتلألآن تائهين فوق رأسيهما.

وبإيافة خاطفة من الطبيب الذي بدا كأنه يرسم لهما طريقهما في الهواء، بدأت النقطتان الفوسفوريتان تتحرّكان، مخلفتين وراءهما أثر ضوء، لتبلغا إقامتيهما الجديدتين: فاحتلت روح أوكتاف جسد الكونت لابنسكي، وروح الكونت جسد أوكتاف؛ هكذا تمّت عملية التقمّص.

كان هناك احمرار خفيف في الوجنات يدلّ على أنّ الحياة قد دخلت للتوّ في كتلتَي الطين البشريّتين اللّتين مكثتا بلا روح لبضع ثوانٍ، وكان

= كان هاينه قد ترجمها إلى الألمانية، تستحضر غزو كورتيس Cortès للمكسيك. وفي القسم الثاني من الكتاب يتحدّث هاينه عن التضحية بالمعتقلين الإسبان وتقديمهم لإله الحرب فيتزيليپوتزيلي Vitziliputzili .

(1) يقصد أنّه كان رسّام كاريكاتير أيضاً. «هوفمانيّ» نسبة إلى الكاتب الفنطازيّ الألماني هوفمان (سبق ذكره).

يمكن لملاك الموت افتراسهما لولا قدرات الطبيب.

جعلت فرحة النصر حدقتي شيربونو الزرقاوين تتقدان، وكان يحدث نفسه وهو يخطو خطوات عريضة في الغرفة: «فليتفضل أعظم الأطباء من هؤلاء المتبجحين بتقويم الساعة البشرية عندما تتعطل، كيفما اتفق، بفعل ما فعلت. يا هيبوقراط ويا جالينوس، يا باراسيلس ويا فان هلمونت، يا بورهاف ويا ترونشان، وأنتما يا هانان ورازوري⁽¹⁾، إن أبسط ناسك هندي مرفص على سلّم معبد باغود، ليعرف في هذا المجال أكثر منكم ألف مرّة! ما أهمية الجثة ما دمنا نقود الروح!»

بعد إنهاء عبارته تلك نفذ الطبيب بالتازار شيربونو عدّة وثبات ابتهاج، ورقص مثل الجبال في شيراش-شيريم⁽²⁾ للملك سليمان؛ لا بل كاد يسقط فاطساً أنفه بعد أن تعرقلت رجله في طية ثوبه البرهمي، لكنّه كان حادثاً صغيراً أعاده إلى نفسه وردّ إليه رباطة جأشه.

«فلنوقظ نائمينا»، قال السيّد شيربونو بعد أن مسح خطوط المساحيق الملوّنة التي كان حرز بها وجهه وخلع ثوبه البرهمي، واقترب من جسد الكونت لابنسكي المسكون بروح أوكتاف، ليجري تمريرات اليد الضرورية لإخراجه من حال السرمنة، نافضاً في كلّ حركة أصابعه المحمّلة بالسائل الذي كان يزيله.

بعد بضع دقائق، جلس أوكتاف-لابنسكي (من الآن فصاعداً سوف ندعوه كذلك من أجل وضوح الحكاية) على مؤخرته، ومرّر يديه على عينيه وأرسل حوله نظرة ذاهلة لم يضمنها وعي الذات بعد. وعندما عاد إليه الإدراك الواضح للأشياء، كان أول شيء يلمحه هو شكله الموضوع (1) خليط من أسماء أطباء إغريق قدامى مشهورين وأطباء أوروبيين كانوا معروفين في فترة كتابة النصّ.

(2) نقل تقريبي بالعبرية لاسم «نشيد الإنشاد».

خارجَه على أريكة. كان يرى نفسه! كلاً لم يكن معكوساً في مرآة، بل في الواقع. أطلق صرخة، وتلك الصرخة لم تدوّ بنبرة صوته الشخصي وتسيبت له بنوع من الهلع؛ ذلك أنّ تبادل التروحين تمّ خلال التنويم المغناطيسي، ولم يحتفظ منه بشيء في ذاكرته فأحس بانزعاج فريد. بدت أفكاره التي تخدمها الآن أعضاء جديدة مثل عامل جُرد من أدواته المعتادة وأُعطيَ أخرى. كان العقل المغترب ينفق بجناحيه القلقين في قبة هذه الجمجمة المجهولة، ويتوه في تعرجات هذا المتخ الذي ما زالت فيه آثار أفكار غريبة.

«إذن، قال الطبيب بعد أن تمتّع بما فيه الكفاية بمفاجأة أوكتاف-لابنسكي، ما انطباعك عن مسكنك الجديد؟ هل تشعر روحك بإقامة حسنة في جسد هذا الفارس الفاتن، هتمان أو هوسبودار أو ماغنت⁽¹⁾، زوج أجهل امرأة في العالم؟ ألم تعد ترغب في الاستسلام للموت كما كنت تخطط خلال المرّة الأولى التي رأيتك فيها داخل شقتك الكثيبة في شارع سان لازار، الآن وقد شرّعت أمامك أبواب قصر لابنسكي، ولم تعد تخشى أن تضع براسكوفي يدها على فمك، كما في فيلا سالفياتي، عندما كنت تريد مناجاتها! أنت ترى جيّداً أنّ الشيخ بالتازار شيربونو، بوجهه الشبيه بقرد الماكاك، والذي يتوقّف عليه الأمر شخصياً لو أردت تغييره، ما يزال يمتلك وصفات جيّدة في جعبة دهائه.

- أيها الطبيب، أجب أوكتاف-لابنسكي، أنت تمتلك قوّة إله، أو على الأقل، قوّة شيطان.
- أوه! أوه! لا تخف، لا وجود لأيّ أعمال شيطانية في هذا الصنيع. حياتك ليست في خطر: لن أجعلك توفّع على ميثاق بلون أحمر

(1) أسماء رُتب قادة وأمراء في منطقة البلقان.

من حروف اسمك الأولى. لا شيء أبسط مما حدث قبل قليل.
الكلمة التي خلقت النور بوسعها تغيير موضع روح من الأرواح.
ولو كان البشر يريدون سماع الربّ عبر الزمن واللّاهية، فسوف
يكرّرون، حسب اعتقادي، فعل ذلك.

- بأيّ عرفان، وبأيّ وفاء يمكن تقدير هذه الخدمة التي لا تقدر
بشمن؟

- أنت لست مديناً لي بشيء؛ كان وضعك محلّ اهتمامي؛ وبالنسبة
لماكر هريم مثلي، لفحّته كلّ الشمس، وسفّعته كلّ الأحداث، يُعتبر
التأثر شيئاً نادراً. لقد كشفت لي عن الحبّ، وأنت تدرك جيداً أنّنا،
نحن الحالمين الخيميائيين قليلاً، والسحرة قليلاً، والفلاسفة قليلاً،
تبحث أغليبتنا الغالبة عن المطلق. لكنّ، عليك بالنهوض، تحرّك،
امش، وتأكد من ملاءمة جلدك الجديد من دون إزعاج.

استجاب أوكتاف-لابنسكي للطبيب وتجوّل في الغرفة؛ وها هو
الآن أقلّ ارتباكاً؛ فجسد الكونت رغم أنّه مسكون بروح أخرى، حافظ
على دوافع عاداته القديمة، والقاطن الجديد فيه ركن إلى تلك الذاكرة
الجسدية، إذ أنّه كان مهتماً باتّخاذ مسعى المالك المطرود ومسلكه وحركاته.
«لو لم أكن أنا شخصياً من أجرى عملية نقل روحيكما قبل قليل،
قال الطبيب بالتازار شيربونو ضاحكاً، لا اعتقدتُ بأنّه لم يحدث شيء
غير عاديّ هذا المساء، ولا اعتبرْتُ الكونت اللّيتوانيّ الحقيقيّ والشرعيّ،
أولاف لابنسكي الذي ما زالت أناه تنام هناك في الشرنقة التي تركتها أنت
بازدراء. لكنّ الساعة ستدقّ منتصف اللّيل قريباً؛ اذهب حتّى لا تعاقبك
براسكوفي أو تتهمك بأنك تُفضّل عليها اللّانسكيني أو البكارا⁽¹⁾. لا

(1) اللّانسكيني لعبة ورق قديمة، والبكارا لعبة ورق ما زالت شائعة.

ينبغي أن تبدأ حياتك الزوجية بالخصام، سيكون ذلك دليل شؤم. وفي هذه الأثناء سوف أنكب على إيقاظ مغلفك القديم مع كل الاحتياطات والمراعاة التي يستحقها».

استعجل أوكتاف لابنسكي الخروج مُقرّاً بوجاهة ملاحظات الطبيب. أسفل درج المدخل كانت خيول الكونت من النوع الكُميت⁽¹⁾ الرائعة تكدف في مكانها وهي تمضغ شكيمتها، وقد ملأت البلاط أمامها بالزبد. ولدى سماع خطوات الشاب أسرع قناص خيالة بزّي أخضر، من سلالة الهيدوك⁽²⁾ البائدة، نحو مرقاة العربة وأنزلها بقرقة عالية. توجه أوكتاف آلياً في البداية إلى عربة البروغهام المتواضعة، لكنّه استقر الآن في العربة المغلقة العالية والرائعة وقال للخادم القناص الذي نقل الأمر إلى الحوذني: «إلى القصر!». ولم يكد الباب يغلق، حتى انطلقت الأحصنة مقوّسة ظهورها بالركض، وتمسك الوارث الجدير لسلالة المنصور⁽³⁾ وأزولان⁽⁴⁾ بالشرائط الطويلة المزركشة بخفة لم تكن قامته الكبيرة لتسمح بافتراض امتلاكه لها.

بالنسبة لأحصنة بتلك السرعة لا تعتبر المسافة طويلة جداً من شارع روغار إلى ضاحية سان-هونوريه؛ وهكذا التهمت المكان في بضع دقائق، وصاح الحوذني بصوته الجهير: «الباب!».

(1) صفة الفرس الأسمر المحمّر.

(2) الهيدوك Heiduques : اسم كان يُطلق على الجند المجرّين، ولاحقاً على الخدم في زّي مجري.

(3) كُتب «المنزور»، وهو تحريف لاسم الحاجب المنصور أبي عامر محمد بن أبي عامر (938-1002) حاجب الخلافة والحاكم الفعلي للخلافة الأموية في الأندلس في عهد الخليفة هشام المؤيد بالله.

(4) واضح أنه اسم محرّف عن العربية لكننا لم نجد كلمة أزولان Azolan إلا في قصيدة حب لفولتير تحمل العنوان نفسه وتحدّث عن أزولان عاشق أمينة.

دفع البوّاب المزلّاجين الكبيرين ففسحا المجال لمرور العربة التي دارت نحو باحة كبيرة مهَيّأة بالرمل، ثم توقفت بدقّة ملحوظة تحت ظلّة الباب المخطّطة بالأبيض والورديّ.

كانت الباحة التي رأى أوكتاف-لابنسكي تفاصيلها بتلك السرعة في الرؤية التي تكتسبها الروح في بعض المناسبات المتفرّدة، واسعة تحيط بها مبانٍ متناظرة مضاءة بمصابيح برونزية مركّزة يقذف غازها ألسنته البيضاء داخل فوانيس كريستالية تشبه تلك التي كانت تزين في الماضي البوستور⁽¹⁾، برائحة تنتمي إلى القصور الكبيرة الحقيقيّة أكثر منها إلى القصور الريفية الصغيرة؛ وهناك أحواض لأشجار برتقال جديدة بساحة قصر فرساي، مغروسة بمسافات متعادلة على حافة الاسفلت الذي يؤطّر، مثل الحاشية، سجادة الرمل التي تحتلّ الوسط.

اضطرّ العاشق المسكين المتحوّل، وهو يمدّ رجله نحو العتبة، أن يتوقّف بضع ثوانٍ ويضع يده على قلبه لكتّم خفقانه. كان يمتلك جسد الكونت أولاف لابنسكي حقاً، لكنّه لم يكن يمتلك منه إلا المظهر المادّي؛ فكلّ المفاهيم التي كان يضمّها هذا المنخ هربت مع روح المالك الأوّل، وهذا البيت الذي كان من المفترض أنّه صار بيته حالياً بدا له مجهولاً، فهو يجهل ترتيباته الداخلية. لاح أمامه درج فاتّبعه كيفما اتّفق، وربّما ينسب خطاه إلى مجرد سهو.

كانت الدرجات الحجرية المصقولة بحجر الخفّان تلمع ببياضها وتُبرز اللون الأحمر الغنيّ لشريط البساط الوبريّ العريض الممسوك بقضبان نحاسية مذهّبة ترسم للقدم طريقها الناعم؛ وكانت أحواض ملاي بأجمل أنواع الزهور المجلوبة تعلقو كلّ درجة منه.

(1) البوستور: سفينة للاحتفالات الرسمية في مدينة البندقية قديماً.

هناك فانوس كبير مستن ومثقب وقد عُلق على حبل غليظ من الحرير الأحمر المزين بشُرّابات وعُقَد، يجعل رعشات ذهبية تسري على الجدران المكسوة بجصّ أبيض ومجلوّ مثل الرخام، ويرسل كتلة ضوء على تقليد بيد نحّات لإحدى أشهر منحوتات كانوفا، «إله الحب إيروس مقبلاً بسيهيه (الروح)».

كان قرص الدرج في الطابق الوحيد متقن التبليط بالفسيفساء، وعلى الحيطان جبال حريرية تتدلّى منها أربع لوحات لباريس بوردوني، وبونيفاتسيو، وبالمّا إل فيكيو، وباولو فيرونيزي⁽¹⁾، لينسجم الطراز المعماريّ الفاخر وبهاء الدّرج.

على هذا السطح يفتح باب عالٍ من نسيج الصّرج⁽²⁾ منقّر بمسامير مذهبة؛ دفعه أوكتاف-لابنسكي فوجد نفسه في قاعة انتظار واسعة حيث كان ينام بعض الخدم بأزيائهم الكاملة، وقد نهضوا لدى اقترابه كما لو كانوا مدفوعين بنوابض، واصطفوا على امتداد الجدران باستكانة العبيد الشرقيّين.

تابع سيره. كان هناك قاعة بيضاء وذهبيّة، تلي قاعة الانتظار، ولا يوجد فيها أحد. دقّ أوكتاف جرساً. ظهرت وصيفة.

«هل بوسع السيّدة استقبالي؟»

- سيّدتى الكونتيسة شرعت بخلع ثيابها، لكنّها ستظهر بعد قليل».

(1) باريس بوردوني Paris Bodrone، وبونيفاتسيو Bonifazio، وبالمّا إل فيكيو (بالمّا القديم أو الأكبر) Palma il Vecchio، وباولو فيرونيزي Paolo Veronese أربعة من كبار رسّامي عصر النهضة في إيطاليا، وينتمون إلى مدرسة البندقية.

(2) الصّرج: نسيج صوفي متين.

بقي الطبيب بالتأزر شيربونو وحيداً برفقة جسد أوكتاف دو سافيل المسكون بروح الكونت أولاف لابنسكي، وارتأى أنّ من واجبه إعادة هذا الشكل الهامد إلى الحياة الطبيعية. وبعد بضع حركات من يده، خرج أولاف-دو سافيل (وليُسمَخ لنا بجمع هذين الاسمين إشارةً إلى شخصيّة مزدوجة) مثل شبح من أقاصي النوم العميق، أو بالأحرى من التخشب الذي يصفده، حامداً متيّساً، في ركن الأريكة. نهض بحركة آليّة ما زالت العزيمة لا تقودها بعد، مترنحاً بفعل دوار لم يتلاشَ تماماً. كانت الأشياء تنوس حوله، وتجتدات فيشنو ترقص السّرْبندة⁽¹⁾ حول الجدران، ولاح له الطبيب شيربونو في شكل سناسي⁽²⁾ إيليفانتا ملوّحاً بذراعيه مثل طرفي جناحي طائر، ومحرّكاً بؤبؤيه الأزرقين في دائرتي تجاعيد سمراء تشبه دوائر النظارات الضخمة؛ كانت المشاهد الغريبة التي رآها قبل سقوطه في التلاشي المغناطيسيّ تفعل فعلها في عقله، فلا يعود إلى الواقع إلّا ببطء: كان يشبه نائماً استيقظ بغتةً من كابوس، وما زال يحسب ثيابه المبعثرة على الأثاث أشباحاً ذات أشكال بشرية غامضة، ويتخيّل الحلقات النحاسية للستائر المضاءة بانعكاس القنديل، عيوناً متوهجة لعملاق السيكلوب الأسطوريّ.

تبخّر هذا العرض الاستشباحيّ تدريجيّاً. عاد كلّ شيء إلى مظهره الطبيعيّ، ولم يعد السيّد شيربونو ناسكاً من الهند، بل مجرد طبيب كان يوجه إلى زبونه ابتسامة معتادة بطيبة قلب.

«هل يشعر السيّد الكونت بالرضا إزاء بعض التجارب التي تشرفّت

(1) السّرْبندة: رقصة قديمة من القرنين السابع عشر والثامن عشر.

(2) يعني النائب والمتحرّر من رغبات الدنيا، في المذهب الهندوسي.

بإجرائها أمامه؟ قال بنبرة تواضع متذلّة يمكن استشفاف درجة خفيفة من التهكم فيها؛ أتمنى بقليل من الجرأة أنّه لن يندم كثيراً على سهرته ويعود مقتنعاً بأنّ كلّ ما يُحكى عن المغناطيسيّة ليس خرافة وشعوذة، كما يزعم العلم الرسميّ».

أجاب أولاف-دو سافيل بإشارة من رأسه تعني الموافقة، وخرج من الشقّة يرافقه الطبيب شيربونو الذي كان يوجّه إليه تحيّات حارّة عند كلّ باب.

تقدّمت عربة البروغهام، مقطّعة على الدرجات وصعدت إليها روح زوج الكونتيسة لابنسكا بجسد أوكثاف دو سافيل من دون الانتباه جيّداً إلى أنّ الخادم ليس خادمه وأنّ العربة ليست عربته. سأل الحوذّي عن وجهة السيّد.

«إلى بيتي» أجاب أولاف-دو سافيل، مندهشاً بشكل غامض لعدم توّصله إلى معرفة صوت الحوذّي الذي اعتاد توجيه هذا السؤال بلكنة مجرّية واضحة. كانت عربة البروغهام التي يوجد فيها مفروشة بدمقس أزرق غامق؛ ومنجّدة بقماش ساتان أصفر ذهبيّ، واستغرب الكونت هذا الاختلاف مع تقبله كما يفعل المرء في الحلم حيث تظهر الأشياء المعتادة بمظاهر مختلفة تماماً لكنّ من دون أن تتعدّر معرفتها؛ وأحسّ أيضاً أنّه أقصر من المعتاد؛ يضاف إلى ذلك ما يُخيّل إليه من أنّه جاء مرتدياً ثيابه إلى الطبيب، ودون أن يتذكّر أنّه خلّعها أو استبدّلها، ألقى نفسه مرتدياً ستره صيفية خفيفة القماش لم يكن لها وجود في خزانة ملابسه؛ كان ذهنه في انزعاج غير معروفة بواعثه، وأفكاره التي كانت في غاية الصفاء صباحاً، تتّضح بصعوبة. وعندما نسب هذه الحال الفريدة إلى المشاهد الغريبة التي رآها في السهرة كفّ عن الاهتمام بها، فأسند رأسه إلى زاوية العربة

واسترسل في حلم يقظة حائر، في نعاس مبهم لم يكن سهاداً ولا نوماً.
استعداد وعيه مع التوقف المباغت للحصان وصوت الخوذتي صائحات:
«الباب!». أنزل الزجاج وأخرج رأسه فرأى على ضوء الفانوس شارعاً
مجهولاً، بيتاً ليس بيته.

«يا للشيطان، أين تأخذني أيها الحيوان؟ صاح. هل نحن في ضاحية
سان هونوريه، قصر لابنسكي؟

- عذراً، يا سيدي، لم أفهم»، تذمر الخوذتي وهو يدفع بحصانه نحو
الوجهة المذكورة.

خلال الرحلة، تساءل الكونت الذي تغير جسده عدّة تساؤلات لم
يستطع الإجابة عنها. كيف انطلقت عربته من دونه وقد أعطى الأمر
بانتظاره؟ كيف يوجد هو نفسه في عربة شخص آخر. افترض أنّ
حمي خفيفة كانت تربك وضوح إدراكه، أو ربّما عمد الطبيب صانع
المعجزات، من أجل البرهنة أكثر على مصداقيته، إلى جعله يستنشق
خلال نومه بعض المخدّرات المهلوسة التي سوف يزول مفعول أوامها
بعد ليلة من الراحة.

بلغت العربة قصر لابنسكي؛ نودي البوّاب فرفض فتح الباب، قائلاً
إنّ السيّد عاد منذ أكثر من ساعة والسيّدة انسحبت إلى جناحها.

«أمر طريف، أنت سكران أم مجنون؟ قال أولاف-دو سافيل دافعاً
العملاق الذي وقف ناشراً جسمه الضخم عند عتبة الباب المنفرج، مثل
تلك التماثيل البرونزية التي تمنع الفرسان التائهين من دخول القصور
المسحورة، في الحكايات العربية.

- أنت السكران أو المجنون، يا سيدي الصغير، ردّ البوّاب الذي
تحوّل لونه من القرمزي الطبيعيّ لديه، إلى أزرق الغضب.

- أيها البائس! زجر أولاف-دو سافيل، لو لم أكنُ أحترم نفسي...
- اخرس وإلا لحطمتك على ركبتَي ورميت بأشلائك على الرصيف،
ردّ العملاق فاتحاً يداً أعرض وأطول من اليد الجبسية العملاقة
المعروضة لدى بائع القفازات في شارع ريشليو؛ ينبغي ألا
تغضبني، يا سيدي الصغير، فقط لأنك احتسيت زجاجتين أو
ثلاثاً من الشمبانيا أكثر من اللزوم».

بلغ السخط بأولاف-دو سافيل حدّاً جعله يدفع البوّاب بعنف
حتّى دخل السقيفة. وهرع بعض الخدم، ممّن لم يناموا بعد، على ضجيج
المشاجرة.

«أنا أطردك، يا بهيمة، يا دابة، يا قاطع الطرق، يا فاسق! لن أترك
تمضي ليلتك في القصر؛ انجُ بروحك وإلا قتلتك كما يُقتل كلب مسعور.
لا تجبرني على سفك دم دنيء لخدم».

وانطلق الكونت مسلوب الجسد وعيناه محتقتان باللون الأحمر،
شفته مزبدتان، وقبضته مشدودتان، نحو البوّاب الضخم الذي جمع
يدي المعتدي في إحدى يديه، ضاغطاً عليها شبه مهشمتين بملزمة
أصابعه الغليظة والقصيرة، اللّحيمة والكثيرة العُقد، مثل أصابع جلاّد
من القرون الوسطى.

«هيا اهدأ، قال العملاق، وهو بسيطٌ نوعاً ما في الواقع، ولم يعد يخشى
خصمه فبدأ يرتجه بين الفينة والفينة ليوقفه عند حدّه. هل يوجد رشد في
التورّط بمثل هذا الوضع عندما يكون المرء في لباس رجل مجتمع، ثم يأتي
لاحقاً مثل مشوش يتسبّب في إقلاق راحة النائمين في المنازل المحترمة؟
لا بدّ من مراعاة فعل الخمر، ولا شك أنّ الذي أتملك بهذه الطريقة
شخص ذائع الصيت! لهذا لن أصرعك الآن وسوف أكتفي بوضعك في

الشارع بعناية، حيث يمكن للدورية أن تلتقطك إذا واصلت ضوضاءك.
لعلّ لحن كمنجة سوف ينعش روحك.

- أيتها السفلة، صاح أولاف-دو سافيل، منادياً الخدم، تتركون هذا

النذل السفيفه يشتم سيّدكم النبيل الكونت لابنسكي!»

مع ذكر هذا الاسم، أطلق مجموع الخدم في وقت واحد صرخة هزة قوية؛ وانطلقت ضحكة كبيرة، بل قهقهة عصبية رفعت كل تلك الصدور المزخرقة بشرائط الرّتب: «هذا السيّد الصغير يحسب نفسه الكونت لابنسكي! هاهاها! يالها من فكرة!».

بلّل عرق بارد صدغني أولاف-دو سافيل. اخترقت مخّه فكرة حادة مثل شفرة قاطعة، وأحسّ بنخاع عظامه يتجمّد. أيكون شمّازاً⁽¹⁾ قد وضع ركبته في صدره أم أنّه يعيش الحياة الحقيقية؟ أترى تلاشى عقله في محيط المغناطيسية الذي لا قرار له، أم أنّه سقط ضحية إحدى المكائد الشيطانية؟ لا أحد من خدمه المرتجفين بشدة في حضوره عادةً، والخاضعين، والمنبطحين أمامه، يعرفه الآن. هل حصل له تغيير في جسمه كما حدث مع ثيابه ومركبته؟

«حتى تتأكد بأنك لست الكونت لابنسكي، قال أوقح من في المجموعة، انظر إل هناك، هوذا شخصياً ينزل درج المدخل بعد أن جذبته ضجة هجوميك».

أدار أسير البوّاب عينيه نحو آخر الباحة، ورأى شاباً واقفاً تحت إفريز تسقيفة الباب، كان ذا قامة أنيقة ومشيقة، ووجه بيضوي، وعينين سوداوين، وأنف معقوف، وشاربين ناعمين، وهو لم يكن سواه، أو
(1) الشيطان المسؤول عن الكوابيس، في بعض المعتقدات القديمة على ما أورده كاتب القصص والحكايات الفنتازية شارل نوديه Charles Nodier (1780-1844) في حكايته الطويلة «شمّازاً أو شياطين الليل» *Smarra ou les demons de la nuit*.

شبهه بعد أن جبله الشيطان مع شبه يشبه الكذب.

أطلق البوّاب الّيتين اللّتين كان يمسك بهما أسيرتين. اصطفّ الخدم باحترام عند الجدار، خافضين أبصارهم، وأيديهم متدلّية في سكون مطلق، مثل ضبّاط قصر السلطان عند اقتراب الباديشاه؛ كانوا يقدمون لذلك الشبح واجب الاحترام الذي رفضوه أمام الكونت الحقيقيّ. أمّا زوج براسكوفي، رغم بسالته كسلافيّ، وهذا يعني الكثير، فقد أحسّ بهلع لا يوصف لدى اقتراب هذا المينيكم⁽¹⁾ أو الصنو الذي يبدو أفظع ممّا تكون عليه شخصيّته في المسرح، ليتدخّل في الحياة الفعلية ويجعل توأمه غير معروف.

طرات على ذاكرته أسطورة عائلية قديمة فزادت من روعه. ففي كلّ مرّة يجين أجلّ واحدٍ من عائلة لابنسكي، يبدأ إنذاره بظهور شبح يشبهه تماماً. وفي أمم الشمال تُعتبر رؤية الصنو الشبيه، حتّى في الحلم، نذير شؤم، لذا أصيب محارب القوقاز المقدام، لدى مرأى هذه الرؤيا الخارجة عن أناه، برعب تشاؤميّ لا يمكن تجاوزه؛ وها أنّ من كان من شأنه وضع يده في فوهة المدافع المستعدة للإطلاق، يتراجع أمام ذاته.

تقدّم أوكتاف-لابنسكي نحو شكله القديم، حيث كانت روح الكونت تتخبّط وتسخط وترتعش، وقال له بنبرة تهذيب متعالية وباردة: «سيدي، كفّ عن المخاطرة مع هؤلاء الخدم. إذا كنت ترغب في الحديث مع السيّد الكونت لابنسكي، فإنّه يكون حاضراً بين منتصف النهار والساعة الثانية ظهراً. أمّا السيّد الكونتيسة فهي تستقبل الأشخاص الذين تشرفوا بأن يُقدّموا لها، كلّ يوم خميس».

(1) مينيكم: واحد من توأمين، ثانيهما هو سوسيكليس، في مسرحية «المينيكمان» *Menaechmi* لألّينيّ توتوس بلاوتوس. وصار الاسم «مينيكم» يُستخدم للدلالة على الصنو أو الشبيه.

بعد نطق تلك الجملة بتقطع وبطء، مع تركيز على كل نبرة صوتية، انسحب الكونت المزيّف بخطى هادئة، وأوصدت الأبواب خلفه.
مُحَلُّ أولاف-دو سافيل إلى العربة مغشياً عليه. وعندما استعاد وعيه كان ينام على فراش ليس فراشه، في غرفة لا يذكر أنّه دخل إليها ذات مرّة؛ وبجانبه كان يقف خادم أجنبي يرفع له رأسه ويمكنه من استنشاق علبة أثير.

«هل يشعر سيدي بالتحسّن؟ سأل جانّ الكونت، وكان يظنّه سيّده.

- نعم، أجب أولاف-دو سافيل؛ لم يكن سوى وهن عابر.

- أيمكنني الانسحاب أم يتوجّب عليّ السّهر لمراقبتك، يا سيدي؟

- كلاً، اتركني وحدي؛ لكن، قبل انسحابك، أضئ الشمعدان الكبير قرب المرآة.

- ألا يخشى سيدي أن تمنعه الإضاءة القويّة من النوم؟
أبدأ؛ فأنا لا أشعر بالنعاس أصلاً.

- أنا لن أنام، وإذا احتاج سيدي إلى أيّ شيء فسوف أسرع إليه مع أوّل رنة للمجرس»، قال جان، وقد شعر داخليّاً بخطورة شحوب الكونت وقسماته المتحلّلة.

عندما انسحب جان بعد إشعال الشموع، أسرع الكونت نحو المرآة، وفي الكريستال العميق الصافي حيث ترتعش إيهاضات الأضواء، رأى رأساً فتياً، وديعاً وحزيناً، بشعر أسود كثيف، وحدقتين بزرقة داكنة، وخدّين شاحبين، ولحية ناعمة سمراء، كان رأساً ليس رأسه، وكان ينظر إليه من عمق المرآة بمظهر من فوجئ. في البداية أجهد نفسه كي يعتقد بأنّ شخصاً سيّء المزاج كان يؤطّر قناعه في الحافة المرصّعة بالنحاس والصدّف للمرأة الفينيسية ذات الحدود المائلة. مرّ يده وراءها؛ لم يلمس

إلا خشبات الدعامة؛ ولا يوجد أحد.

كانت يده اللتان جسهما أضمر وأطول وأكثر عروفاً؛ في البنصر ينفر محذباً خاتم ذهبي كبير مع فصّ من البارقين⁽¹⁾ نُقش عليه شعار، فرنك فرنسي قديم محاط بمعدن وفضة، مع دمغة تاج بارون. هذا الخاتم لم يكن بحوزة الكونت قط، فقد كان يضع خاتماً بشعار نسر رملي محلق، في منقاره زقة، وتظهر قائمته وبرائنه أيضاً؛ وكله مغمور بتاج لؤلؤ. فُتس جيوبه فوجد محفظة صغيرة تحتوي على بطاقات زيارة بهذا الاسم: «أوكتاف-دو سافيل».

يمكن التسليم بأن فهقهة الخدم في قصر لابنسكي، وظهور صنوه، والسحنة المجهولة التي حلّت محلّ انعكاسه في المرآة، كلّها أوهام دماغ مريض؛ لكنّ هذا اللباس المختلف، وهذا الخاتم الذي نزعته من إصبعه، يشكّلان براهين ماديّة، ملموسة، أدلّة لا يمكن دحضها. من المؤكّد أنّ عملية تحويل كاملة قد أُجريت عليه من دون درايته، هو ساحر، بالتأكيد، شيطان ربّما، سرق منه شكله، ونبالته، واسمه، شخصيته كلّها، ولم يترك له إلا روحه من دون وسائل تتجلّى عبرها.

عادت إلى ذاكرته حكايات بيار شليم الفنتازيّة وحكايات ليلة سان سيلفاستر؛ غير أنّ شخصيّتي حكايات لاموت-فوكيه وحكايات هوفمان، لم تفقدا سوى الظلّ بالنسبة للشخصيّة الأولى، والانعكاس بالنسبة للشخصيّة الثانية؛ وحتىّ إذا كان ذلك الحرمان الغريب من الانعكاس الذي يمتلكه الجميع، يؤدّي إلى الإيحاء بشكوك مقلقة، فإنّ أحداً لم ينكر عليهما أنّهما هما.

أما وضعه هو فقد كان أكثر تعاسة: إذ أنّه لا يستطيع المطالبة باستعادة

(1) حجر البرق.

لقب الكونت لابنسكي بهذا الشكل الذي يلقي نفسه مسجوناً فيه. فمن شأنه أن يبدو في عيون الآخرين محتالاً وقحاً، أو مجنوناً على الأقل. وحتى زوجته لن تعرفه وهو يتزوّجاً بهذا المظهر الكاذب. كيف عساه يبرهن على هويته؟ من المؤكّد أنّ هناك الكثير من الحالات الحميمة، والكثير من التفاصيل السريّة التي يجهلها أيّ شخص آخر، ويمكن تذكير براسكوفي بها، لتعيد التعرّف إلى روح زوجها تحت هذا المظهر التنكّري؛ لكنّ من الذي سيرضى بهذا الاقتناع المنعزل في حال الحصول عليه، مقابل إجماع بقية الناس؟ لقد كان حقّاً وواقعاً، فاقداً لأناه. وهناك همّ آخر: أكان تحوّله مقتصرأ على التغيرات الخارجية للقامة والملامح، أم أنّه يسكن جسداً شخصاً آخر؟ وفي هذه الحال، ماذا فعلوا بجسده؟ أيكون قد تمّ تدويبه في بئر كلسيّة أم صار ملكاً للصّ مقدام؟ والصنو الذي شوهد في قصر لابنسكي يمكنه أن يكون شبحاً، رؤيا، لكنّ يمكنه أيضاً أن يكون كائناً طبيعياً، حيّاً، مقيماً في ذلك الجلد الذي ربّما سرقه منه ذلك الطبيب ذو مظهر الناسك الهندوسي، بمهارة جهنميّة.

وطرأت فكرة بشعة لتعضّ قلبه بأنباها الأفعوية: «وذلك الكونت لابنسكي المختلق، المتحجّر في شكلي بيدي الشيطان، مصاص الدماء ذلك الذي يسكن الآن قصري، والذي يطيعه خدمي ضدي، ربّما يكون في هذه الساعة يضع قدمه المتشعّبة على عتبة تلك الغرفة التي لم أدخلها قطّ إلّا وقلبي متأثر مثل الليلة الأولى، وقد تكون براسكوفي تبتسم له بعذوبة وتحني رأسها الفاتن، مع حمرة الخجل الرّبانية، على تلك الكتف الممهورة بمخلب الشيطان، معتقدة أنّ تلك البرقة الكاذبة هي أنا، ذلك البريكولاك، ذلك الأمبوز⁽¹⁾، ذلك الابن الشنيع لليل والجحيم. لو أنّني

(1) البريكولاك Brucolaque : مصاص الدماء عند الإغريق، والأمبوز (سبق ذكره) =

أركض باتجاه القصر، لو أنني اشعل فيه النار لأصبح بين السنة اللهب، إلى براسكوفي: إنهم يمدعونك، ذاك ليس أولاف حبيك الذي تحتفظين به في قلبك! سترتكبين، ببراءة، جريمة شنيعة، سوف تظلّ روحي اليائسة تتذكّرهما عندما تتعب أيادي الأبدية من تقليب ساعاتها الرملية!«.

كانت أمواج ملتهبة تندفق في دماغ الكونت، فكان يطلق صرخاتٍ حنق مبهمة الألفاظ، ويعضّ قبضتيه، ويدور في الغرفة مثل حيوان متوحش. كان الجنون يوشك على إغراق الوعي الغامض الذي تبقى له من ذاته؛ أسرع إلى مرحاض أوكتاف، ملاً طشت ماء وغطس رأسه فيه، فخرج مدخناً من ذلك اللحم البارد.

عاد إليه رشده. قال في نفسه إن زمن الشعوذة وأعمال السحر قد ولى؛ وإنّ الموت وحده هو القادر على عتق الروح من الجسد؛ ولن يتمكنوا بهذه الطريقة، وفي قلب باريس، من اختطاف كونت بولندي مؤمن عليه بعدة ملايين عند روتشيلد، ومُصاهر لأكبر العائلات، وزوج محبوب من لدن امرأة مطابقة لذوق العصر، مقلد بوسام من الصنف الأول من أخوية سان-أندريه، وإنّ كلّ هذا الذي حدث قد لا يكون سوى مزحة مفرطة في سوء الذوق قام بها السيد بالتازار شيربونو الذي من شأنه أن يفسّر ما فعله بأبسط طريقة ممكنة مثل فزاعات روايات آن رادكليف⁽¹⁾.

هذه التعب، فارغى على فراش أوكتاف، ونام نوماً عميقاً، كثيفاً، شبيهاً بالموت، وكان نومه متواصلاً حتى مجيء جان الذي ظنّ سيده قد استيقظ فجلب له الرسائل والجرائد ليضعها على المائدة.

= من شخصيات مسرحية «فاوست» الثانية لغوته.

(1) آن رادكليف Ann Radcliffe (1764-1823) أديبة إنجليزية. تعدّ من رواد رواية الرعب القوطي، ويتجلى أسلوبها في استخدام القوى فوق الطبيعية.

فتح الكونت عينيه، وألقى نظرة مستقصية حوله؛ وجد غرفة نوم مريحة لكنها بسيطة، وسجادة مزخرفة بعيون، تقليداً لجلد الفهد، تغطي الأرضية الخشبية؛ وستائر منجّدة، وقد فتحها جان قليلاً للتوّ، تتدلّى على النوافذ وتغطي الأبواب؛ وكانت الجدران مغطاة بورق مخمليّ أخضر موحد اللون، مثل الملاءات. ثمة ساعة دقاقة مجبولة في كتلة رخام أسود، ذات ميناء من البلاتين، يعلوها تمثال صغير من الفضة المؤكسدة يمثل ديانا غابي⁽¹⁾، بعد أن قلّص حجمه باربديين⁽²⁾ انطلاقاً من الأصل، مع كويين من الفضة أيضاً بجانب الساعة التي كانت تزين المدفأة الرخامية البيضاء مع عروق مزرقّة؛ وكانت مرآة البندقية التي اكتشف فيها الكونت البارحة أنه لم يعد يمتلك وجهه المعتاد، مع لوحة لامرأة مستّة، من رسم فلاندران⁽³⁾، لعلّها صورة والده أوكتاف، هما كلّ ما يزيّن هذه الغرفة الحزينة والعايسة قليلاً؛ وهناك أريكة، وكروسيّ بذراعين على طريقة فولتير⁽⁴⁾ قرب المدفأة، ومائدة ذات أدراج مغطاة بأوراق وكتب، تشكّل أثنائاً مناسباً، لكنّه لا يُقارن ببذخ قصر لابنسكي.

«هل يستيقظ سيدي؟» قال جان بذلك الصوت المعتدل الذي تبناه

(1) تمثال امرأة بثوب فضفاض يُرجح أن تكون آرتيميس. عُثر على التمثال في حفريات مدينة غابي Gabii القريبة من روما، ويوجد الآن في متحف اللوفر.

(2) فردينان باربديين Ferdinand Barbedienne (1810-1892): صناعي فرنسي عُرف بمعمل لسبك البرونز الخاص بتقليد المنحوتات الفنية.

(3) هيبوليت فلاندران Hippolyte Flandrin : رسّام فرنسي (1809-1864)، كان تلميذاً لآنغر، وكان في القرن التاسع عشر يُعدّ من أكبر الرسّامين الديّنين.

(4) كروسي مريح جيّد التنجيد بظهر مرتفع ومائل قليلاً للخلف مع مسندين منجّدين لليدين. لا يعرف سبب نسبته لفولتير ويرجح البعض أنه يأتي من رسم لفولتير وهو يجلس على كروسيّ من هذا النوع.

خلال مرض أوكتاف، وهو يقدم للكونت القميص الملون وسروال
الفلانيل الطويل وغندورة الجزائر⁽¹⁾، وهي ثياب سيّده الصباحية. ومهما
كان نفور الكونت من ارتداء ثيابٍ أجنبيّ، فقد كان مضطراً لقبول ما
يقدمه له جان أفضل من البقاء عارياً، وهكذا وضع قدميه على جلد
الدبّ الأسود الناعم المستخدمِ حامياً للقدمين قرب السرير.

انتهى من الاغتسال سريعاً، وقال له جان الذي لا يبدو عليه أيّ
ارتياب حول هوية أوكتاف دو سافيل المزيف بعد أن ساعده على ارتداء
ثيابه: «في أيّ ساعة يودّ سيّدي تناول فطوره؟»

- في الساعة المعتادة»، أجاب الكونت، وقد قرّر القبول خارجياً
بتحوّله غير المفهوم، من أجل إنجاح الخطوات التي ينوي اتباعها
لاستعادة شخصيته.

انسحب جان، وفتح أولاف-دو سافيل الرسالتين اللتين جلبهما
الخادم مع الجرائد، أملاً أن يعثر فيهما على بعض المعلومات؛ كانت الأولى
تتضمّن عتابات ودية، وتشكو من انقطاع العلاقات الرفاقية الطيبة بلا
مبرر؛ وقد وقع الرسالة شخص مجهول بالنسبة إليه. أما الرسالة الثانية
فكانت من كاتب العدل الذي يتعامل معه أوكتاف، ويحثّه على القدوم
لاستلام قسط إيرادٍ حان أجله، أو على الأقلّ، أن يستثمر رؤوس أمواله
التي ظلت غير متّجة.

«آه إذن، حدّث الكونت نفسه، يبدو أنّ أوكتاف دو سافيل هذا الذي
أسكن جلده رغم أنفي موجود حقّاً؛ ليس كائناً خيالياً أبداً، أو شخصيّة
من تأليف آخيم فون أرنيش أو كليمنس برنتانو⁽²⁾؛ له شقة وأصدقاء

(1) كتبها: Gandoura.

(2) آخيم فون أرنيش Achim von Arnim (1781-1831) شاعر وروائي وكاتب مسرحي
رومنطقيّ ألماني. وكليمنس برنتانو Clemens Brentano (1777-1842) من كتاب =

وكاتب عدل وإيرادات للقبض، كل ما يشكّل الحال المدنيّة لجنّتلان. وفي تلك الأثناء يبدو لي، مع ذلك، أنني الكونت أولاف لابنسكي حقاً.

ألقي نظرة في المرآة فأقنعتة بأنّ هذا الرأي لن يشاركه فيه أحد؛ كان الانعكاس متماثلاً، في صفاء ألق النهار وتحت الوميض المتبسبب للشموع. في متابعته الزيارة السكنية، فتح دُرْجِي المائدة: وجد في أحدهما شهادات ملكية، وورقتين نقديتين بألف فرنك وخمسة لويسات⁽¹⁾، احتازهما بلا تردّد من أجل الحملة التي سيسرع فيها، ووجد في الدُرْج الثاني حافظة من الجلد الروسيّ مغلقة بقفل سرّي.

دخل جان معلناً عن زيارة السيّد ألفرد هومبير الذي اندفع إلى الغرفة بإلفة صديق قديم، من دون أن ينتظر الخادم حتّى يأتيه برد السيّد.

«صباح الخير أوكتاف، قال القادم الجديد، وهو شابّ وسيم ذو مظهر وديّ وصريح؛ ماذا تفعل، ماذا حلّ بك، أنت حيّ أم ميت؟ لم تعد تُرى في أيّ مكان؛ أراسلك ولا تجيب. كان ينبغي عليّ مقاطعتك، لكن الواقع أنني لا أتعامل بكبريائي في مجال المحبّة، وقد جئت لمصافحتك. يا للشيطان! لا يمكن للمرء أن يترك رفيقه في الدراسة يموت من الكآبة داخل هذه الشقّة الكثيبة مثل معتكف شارل كِنْت في دير يوسته⁽²⁾.

تحسب نفسك مريضاً، وأنت تعاني من الضجر في الحقيقة، هذا كلّ ما في الأمر؛ لكنني سوف أجبرك على تسليّة نفسك، وسأصطحبك بمطلق الحقّ إلى غداء مفرح حيث سيدفن غوستاف رامبو عزوبيته».

= الأدب الفنطازيّ الألمان.

(1) قطعة نقدية ذهبية فرنسية قديمة بقيمة 20 فرنكاً.

(2) دير يوجد في بلدة يوسته Yuste الأسبانية وقد اشتهر بكونه شكّل مقرّ إقامة الإمبراطور شارل كنت، أو شارل الخامس، من 1557 إلى موته سنة 1558، وقد اختاره بعد تخلّيه عن الحكم لصالح ابنه فيليبه الثاني.

كان يستعرض هذه الخطبة بنبرة بين الغضب والفكاهة وهو يهزّ يد الكونت بعد أن أمسك بها بقوة على الطريقة الإنجليزية.

«كلاً، أجاب زوج براسكوفي، متوغلاً في تقمّص دوره، أنا اليوم أكثر ألماً من العادة؛ لست في وضع جيّد؛ ومن شأني أن أشعركم بالحزن والإزعاج لدى حضوري.

- فعلاً، أنت شاحب جدّاً ويبدو عليك التعب؛ إلى مناسبة أخرى أفضل إذن! أنا سأسرع بالخروج لأنني تأخّرت عن دزينة محار أخضر وزجاجة نبيذ من نوع سوتيرن، قال ألفرد وهو يتوجّه نحو الباب؛ سوف يغضب رامبو لعدم رؤيتك».

هذه الزيارة زادت في حزن الكونت. جان يحسبه سيّده. وألفرد يحسبه صديقه. ينقصه برهان أخير. انفتح الباب؛ دخلت إلى الغرفة امرأة ذات عُصابة شعر مزركشة بخيوط فضّية، وكانت تشبه بطريقة بيّنة تلك الصورة المعلقة على الجدار، جلست على الأريكة، وقالت للكونت:

«كيف حالك يا عزيزي أوكتاف المسكين؟ أخبرني جان أنك عدت متأخراً أمس، وفي حالة ضعف مقلقة؛ راع صحّتك جيّداً، يا ابني العزيز، فأنت تعرف كم أحبّك، رغم حزني من هذه الكآبة غير المفهومة التي لم ترغب قطّ في مصارحتي بسرّها.

- لا تخشني شيئاً، يا أمّي، ليس في الأمر خطورة، أجاب أولاف - دو سافيل؛ أنا اليوم في وضع أفضل بكثير».

بعد اطمئنانها، وقفت وخرجت، لأنّها لم تشأ مضايقة ابنها، لمعرفة بكره للإزعاج الطويل في عزلته.

«ها أنذا أوكتاف دو سافيل بحقّ ونهايتياً، هتف الكونت بعد مغادرة العجوز؛ أمه عرفتنني ولم تتصوّر وجود روح أجنبيّة تحت جلدة ابنها.

ربّما بتّ محبوساً إلى الأبد في هذا الغلاف إذن؛ ما أغرب سجن الروح في جسد آخر! مع ذلك من الصعب على المرء التخلّي عن كونه أولاف لابنسكي، وخسارة شعار نسبه، وزوجته، وثروته، ورؤية نفسه مختزلاً في وجود بورجوازيّ هزيل. أه! سوف أمزّق جلدِ نِسوس⁽¹⁾ هذا الذي يلتصق بأناي، لكي أتمكّن من الخروج، ولن أسلمه إلى مالكة الأوّل إلّا إرباً. لو عدتُ إلى القصر؟ إذ أنني أفقد نشاطي في مبدل المريض هذا الذي أرتديه؛ هتّا، فلافتش، إذ ينبغي أن أتعرف قليلاً على حياة أوكتاف دو سافيل هذا الذي هو أنا حالياً». وحاول فتح الحافظة. استجاب النابض لللمسة مصادفة، وسحب الكونت من الجيوب الجلدية عدّة أوراق في البداية، وكانت مكتوبة بخطّ مرصوص وناعم، ثم أخرج مربع رَقّ قَضم؛ على مربع الرقّ كانت يدٌ غير ماهرة كثيراً، لكنّ وفية، قد رسمت، انطلاقاً من ذاكرة القلب والشبه الذي لا يبلغه الفنانون الكبار دائماً، صورة بالقلم، للكونتيسة براسكوفي لابنسكا، وكان يستحيل عدم التعرّف إليها من أوّل نظرة.

مكث الكونت مندهشاً من هذا الاكتشاف. وأعقب المفاجأة حركة غيرة ساخطة؛ كيف كانت صورة الكونتيسة توجد في الحافظة السريّة لذلك الشاب الغفل، من أين حصل عليها، من الذي رسمها، من الذي أعطهاها؟ هل تكون براسكوفي هذه، المعبودة إلى حدّ التقديس، قد سقطت من سماء حبّها في مكيدة مبتذلة؟ آية سخرية جهنميّة جسّدته، هو الزوج، في جسد عشيق هذه المرأة، وكان حتّى ذلك الوقت يعتبرها في غاية الطهر؟ وبعد أن كان الزوج؛ سيلعب دور المغازل العاشق! يا له

(1) حسب أوفيدوس، في «كتاب التحوّلات»، هو الستور أو القنطورس (كائن خرافي نصفه رجل ونصفه فرس) الذي حاول اختطاف ديانيرا زوجة هرقل، لكنّ هرقل ممكّن من قتله بسهم مسموم.

من تحوّل ساخر، إنّه قلبٌ للأدوار يبعث على الجنون، هو نفسه يمكنه أن يخطئ، وأن يكون كليتاندر وجورج دندان في آن!⁽¹⁾

كانت كلّ هذه الأفكار تظنّ بصخب في جمجمته؛ وكان يشعر بوشك فقدانه للصواب، ومن أجل استعادة بعض الهدوء بذل جهداً إرادياً قاسياً. ومن دون الاكتراث بجان الذي جاء يخبره بأنّ الغداء جاهز، تابع فتيش الحافظة الغريبة باضطراب عصبى.

كانت الأوراق تشكّل نوعاً من اليوميّات النفسية، تُترك وتُستعاد في تواريخ مختلفة؛ وهنا بعض الشذرات التي التهمها الكونت بفضول متلهّف:

«لن تُحبّني أبداً، أبداً، أبداً! قرأتُ في عينيها اللتين هما في منتهى الوداعة هذه الكلمة التي في منتهى القسوة، والتي لم يجد دانتى أفسى منها لتدوينها على الأبواب البرونزية في المدينة المحزنة: «تحلّوا عن كلّ رجاء». ماذا فعلتُ للرب حتّى ألعنَ حياتاً؟ غداً، بعد الغد، لا بل دائماً، سوف يكون الأمر هو نفسه! تستطيع الكواكب مشابكة مداراتها، وتستطيع النجوم في حال القران تشكيل عُقد، ولن يتغيّر شيء في مصري. بكلمة واحدة، بددتِ الحلم؛ بحركة واحدة حطمتُ جناح الوهم. لا شيء من التوفيقات الخرافية بين المستحيلات يمكنني من فرصة؛ حتّى الأرقام المرمية مليار مرّة في دولاب الحظ، لن تمكّني من ذلك، ما من رقم رابع بالنسبة لي!

«يا لتعاستي! أعرف أنّ الفردوس موحد دوني وأظنّ واقفاً على العتبة بكلّ غباء، ظهري مستند إلى الباب الذي يجب ألا يُفتح، وأبكي

(1) إشارة إلى مسرحية موليير Molière «جورج دندان أو الزوج الخائر» Goerge Dandin ou le mari confondu، حيث جورج دندان هو زوج أنجيليك Angélique وكليتاندر Clitandre هو «عشيقها».

في صمت، بلا نشيج، بلا جهود، كما لو كانت عيناى ينوعى ماء جار. لا أملك شجاعة النهوض والتوغّل في الصحراء الشاسعة أو في بابل الصاخبة لبني البشر.

«أحياناً، عندما أعجز عن النوم ليلاً، أفكر في براسكوفي؛ عندما أنام أحلم بها؛ آه! كم كانت جميلة خلال ذلك اليوم، في حديقة فيلاً سالفياتي، في فلورنسا! - ذلك الفستان الأبيض وتلك الأشرطة السوداء، كان ذلك فاتناً ومأتمتياً! الأبيض لها، والأسود لي! - كانت الأشرطة أحياناً تشكّل، عندما يجرّكها النسيم، صليباً على تلك الخلفية ذات البياض الناصع؛ كان هناك روح لامرئية ترتل في همس صلاة لموت قلبي.

«لو أنّ كارثة لا مثيل لها وضعت على جيبني تاج الأباطرة والخلفاء، لو أنّ عروق الأرض نزلت ذهاباً من أجلي، لو تركتني مناجم الماس في غولكوند وفي فيزابور أنقب في شوائبها المعدنية المتلاثلة، لو أنّ قيثارة بايرون رنّت بين أصابعي، لو أنّ أعظم روائع الفنّ القديم والحديث أعارتني جمالها، لو أنّني اكتشفت عالماً، أي نعم!، كلّ ذلك لن ينفعني كي أتقدّم أكثر في هذا المسعى!

«يا للقدر كيف يخطّط لنا! كنت راغباً في الذهاب إلى القسطنطينية، ولو فعلتُ لما التقيتُ بها. بقيت في فلورنسا فرأيتها وبّت مشرفاً على الموت.

«كان بوسعي قتل نفسي؛ غير أنّها تتنفس في هذا الهواء الذي نعيش فيه، وربّما كانت شفّتي المتلهفة تطمح - آه أيتها السعادة التي لا توصف! - إلى فوح بعيدٍ من ذلك النفس المعطر؛ وبعد ذلك قد يُخصّص لروحي المذنبه كوكبٌ للنفي، ولن أحظى بفرصةٍ كي تحبّني في حياة أخرى. - أنكون مفصولين هناك أيضاً، هي في الجنة، وأنا في الجحيم: يا لها من

«لماذا توجب عليّ أن أحبّ تحديداً تلك المرأة الوحيدة التي لا يمكنها أن تحبّني؟ كان هناك أخريات يُقال عنهنّ جميلات، وعازبات، يتسمن لي بأرقّ ابتساماتهنّ ويلُحنّ في انتظار بوح لا يأتي. أوه! ما أسعده، هو! آية حياة سموّ سابقة عاشها ليكافئه الربّ عليها بالهبة الرائعة لهذا الحبّ؟ ... كان من غير المجدي قراءة المزيد من تلك الشذرات. فالريبة التي أبداها الكونت بعد رسم البورتريه لبراسكوفي تلاشت منذ السطور الأولى من هذا البوح الحزين. أدرك أنّ الصورة العزيزة، إذ رُسمت ونقّحت ألف مرّة، قد خضعت للملامسات بعيدة عن «الموديل» بذلك الصبر المتفاني الذي يمتلكه العاشق التعس، وأنها مثل صورة العذراء في مصلىّ كنيسة صغيرة زاهدة، تركع أمامها العبادة المفتقدة للأمل.

«لكن، ماذا لو كان أوكتاف هذا قد عقد ميثاقاً مع الشيطان لسرقه جسدي ومفاجأة براسكوفي حبّاً بمظهري!»

غير أنّ استبعاد مثل هذه الفرضية، في القرن التاسع عشر، جعل الكونت يتخلّى عنها لاحقاً، رغم أنّها أقلقته بشكل غريب.

ابتسم هو نفسه لسرعة تصديقه، وتناول غداءه الذي أعدّه جان، بارداً، ثم ارتدى ثيابه وطلب عربة. بعد قرنّ الفرس إلى العربة، طلب توصيله إلى الطيب بالتازار شيربونو؛ فاجتاز تلك القاعات التي دخل إليها البارحة وكان اسمه ما يزال الكونت أولاف لابنسكي، والتي خرج منها ليحيّيه الجميع باسم أوكتاف دو سافيل. كان الطيب جالساً، كعادته، على أريكة الغرفة الداخلية، ماسكاً قدمه بيده، وكان يبدو مستغرقاً في تأمل عميق.

مع وقع خطوات الكونت، رفع الطيب رأسه.

«آه! هذا أنت، يا عزيزي أوكتاف؛ كنت سأزورك؛ لكن من العلامات الطيبة أن يكون المريض هو الذي يزور طبيبه.

- دائماً أوكتاف! قال الكونت، يبدو لي أن ذلك سوف يصيبني بالسعار!» ثم تقدّم أمام الطبيب شابكاً ذراعيه ونظر إليه شاخصاً بطريقة مرعبة:

«أنت تعرف جيّداً، يا سيّد بالتازار شيربونو، أنني لست أوكتاف، بل الكونت أولاف لابنسكي، بما أنك سرقت منّي جلدي البارحة، وهنا بالتحديد، بواسطة أعمالك السحرية المستجلبّة».

مع هذه الكلمات انطلق الطبيب في قهقهة عريضة، وانقلب على وسانده ووضع قبضتيه على خاصرته كي يتمالك تشنجات بهجته.

«عدّل يا دكتور من هذا الفرع العاصف الذي قد تندم عليه. أتكلّم جدّياً.

- يا للأسف، يا للأسف! هذا يدلّ على أنّ التخدير لمعالجة وسواسك المرضي بات يخلّ بمداركك العقلية. ينبغي تغيير الحمية، هذا كلّ ما في الأمر.

- لست أدري، يا طبيب الشيطان، ما الذي يمنعني من خنقك بيديّ»، صرخ الكونت متقدّماً نحو شيربونو.

ابتسم الطبيب من تهديد الكونت، ولامسه بعضاً معدنية صغيرة. فأحسّ أولاف-دو سافيل بارتجاج مفرع، وظنّ أنّ ذراعه قد بُترت.

«أوه! نمتلك وسائل السيطرة على المرضي عندما يجمحون، قال مسقطاً عليه تلك النظرة الباردة مثل حمام بارد والتي تروّض المجانين وتجعل الأسود تنبطح على بطونها. عدّ إلى بيتك، استحمّ، وسوف يهدأ روعك».

أصيب أولاف-دو سافيل بدوار من جرّاء الصدمة الكهربائية، وخرج من بيت الطبيب شيربونو أكثر حيرة واضطراباً من ذي قبل. طلب نقله إلى باسي عند الطبيب ب...، ليستشير.

«أنا، قال للطبيب الشهير، أصبتُ بهلوسة غريبة؛ فعندما أنظر في مرآة، لا يظهر لي وجهي بملامحه المعتادة؛ ولقد تغيّرت أشكال الأشياء المحيطة بي؛ لم أعد أتعرف على جدران غرفتي ولا على أثاثها؛ يبدو لي أنني شخص آخر ليس أنا.

- في أيّ مظهر ترى نفسك؟ سأله الطبيب؛ فالخداع يمكن أن يحصل من العينين أو من الدماغ.

- أرى نفسي بشعر أسود وعينين زرقاوين غامقتين ووجه شاحب توطّره لحية.

- لا يمكن حتى لبيانات جواز سفر أن تكون أدقّ ممّا وصفت: أنت لا تشكو من هلوسة ذهنية ولا من انحراف في البصر. فأنت، تظهر كما وصفت نفسك بالضبط.

- كلاً لي، في الحقيقة، شعر أشقر، وعينان سوداوان، وسحنة ملفوحة مع شارب محفوف على الطريقة المجرية.

- هنا، أجاب الطبيب، يبدأ تلف خفيف في المدارك العقلية.

- مع أنني لست مجنوناً إطلاقاً، يا دكتور.

- على الأرجح. فأنا هنا لا يأتيني بمفرده إلاّ العاقل. مثل هذا

الاضطراب يمكن أن يتسبّب فيه القليل من الإرهاق أو بعض

الإفراط في الدراسة أو الملذّات. أنت تخطئ؛ الرؤية حقيقية،

والفكرة وهمية؛ أيّ أنك أسمر يظنّ نفسه أشقر، بدل أن تكون

أشقر يرى نفسه أسمر.

- أنا متأكد مع ذلك بأنني الكونت أولاف لابنسكي، والجميع منذ أمس ينادونني أوكتاف دو سافيل.

- هذا بالضبط ما كنت أقوله، أجب الطيب، أنت السيد دو سافيل وتتخيل نفسك السيد الكونت لابنسكي، الذي أتذكر أنني رأيته، وهو أشقر فعلاً. هذا ما يفسّر تماماً كيفية عثورك على صورة أخرى في المرآة؛ فهذا الوجه الذي هو وجهك، لم يعد يجيب عن فكرتك الداخلية وصار يفاجئك. فركز في هذا الأمر: إنّ كلّ الناس يسمونك السيد دو سافيل، وبالتالي فهم لا يشاركونك اعتقادك. تعال لتقضي قرابة نصف شهر هنا: فمن شأن الحمامات، والراحة، والنزهات تحت الأشجار الكبيرة، أن تقضي على هذا التأثير المكدر».

طأطأ الكونت رأسه ووعد بالعودة. لم يعد يعرف مَنْ سيصدق. عاد إلى شقة سان لازار، ورأى بالمصادفة، على المائدة، بطاقة الدعوة الموجهة من الكونتيسة لابنسكا والتي سبق لأوكتاف أن أراها للسيد شيربونو.

«بهذا الطلسم، صاح، يمكنني رؤيتها غداً!»

9

عندما نقل الخدم الكونت لابنسكي الحقيقي المطرود من فردوسه الأرضي بفعل الملاك الحارس المزيف الواقف عند العتبة، إلى عربته، دخل أوكتاف المتحوّل والمتغيّر الهيئة إلى القاعة الصغيرة ذات اللونين الأبيض والذهبي في انتظار وقت فراغ الكونتيسة.

كان مستنداً إلى رخام المدفأة الأبيض وموقدها ممتلئ بالزهور، رأى نفسه متكرراً في عمق المرآة الموضوعة بتناظر على المنضدة ذات القوائم

المحرّزة والذهبيّة. ومهما كان قابلاً في سرّ تحوُّله، أو بتعبير أدقّ، استبداله، كان يشقّ عليه الاقتناع بأنّ تلك الصورة المختلفة تماماً عن صورته هي صنو مظهره الحقيقيّ، ولم يكن قادراً على إبعاد عينيه عن ذلك الشبح الغريب الذي صار هو ذاته، مع ذلك. كان ينظر إلى نفسه ويرى آخر. وبطريقة لا إرادية كان يزيد التأكيد إنّ لم يكن الكونت أولاف متكبّاً قربه على رخام المدفأة، مرسلًا انعكاسه في المرآة؛ لكنّه كان وحيداً حقّاً؛ إذنّ فالطبيب شيربونو قام بصنّيعه على مستوى الوعي.

بعد بضعة دقائق، لم يعد أوكتاف-لابنسكي يفكّر في التقمّص الرائع الذي جعل روحه تسكن جسد زوج براسكوفي؛ واتّخذت أفكاره وجهة أكثر تطابقاً مع وضعه. فهذا الحدث الذي لا يمكن تصديقه، قد حصل، خارج كلّ الاحتمالات، وما كان لأيّ رجاء، مهما كان توهمه، أن يجرؤ على الحلم به في أوج هذيانه! بعد قليل يكون في حضرة المخلوقة الجميلة المحبوبة، ولن ترفضه! فالمعادلة الوحيدة القادرة على التوفيق بين سعاداته والفضيلة الطاهرة لدى الكونتيسة تحقّقت أخيراً!

كانت روحه، وهو يدنو من هذه اللّحظة القصوى، تعاني من روع وقلق فظيعين: ذلك أنّ وجل الحبّ الحقيقيّ أوهنها كما لو أنّها لا تزال تسكن شكل أوكتاف دو سافيل المهين.

وضع دخول الوصيّة حدّاً لصخب هذه الأفكار المتصارعة. ولدى اقترابها لم يستطع السيطرة على رجفة عصبية، وتدقّق دمه كلّهُ إلى قلبه عندما قالت له:

«صار بإمكان السيّد الكونتيسة أن تستقبل سيّدي الآن».

تبع أوكتاف-لابنسكي الوصيّة، إذ أنّه لا يعرف سكّان القصر ولم يكن راغباً في كشف جهله بالتردّد في مسعاه.

أدخلته الوصيفة إلى غرفة واسعة بها فيه الكفاية، هي غرفة تبرج مزينة بكلّ منتجات البذخ الناعمة. كان هناك مجموعة خزائن من خشب ثمين، من نحت كنيشت ولاينهارت، وقد تمّ الفصل بين البابين بأعمدة حلزونية تلتف حولها في شكل لولبيّ عساليج رقيقة من اللّباب بأوراق على شكل قلب وأزهار على شكل أجراس، وقد تمّ نحتها بمهارة فنيّة عالية، فشكّلت الخزائن معماراً خشبيّاً، رواقاً من طرازٍ نزيقٍ تمّ بناؤه بأناقة نادرة وتنفيذ موفق. في تلك الخزائن كانت تُرصّ فساتين المخمل والنسيج المتموج والكشمير وأنواع الدثار بلا كمين والدنتيلا وعباءات فرو السمور والزيلين⁽¹⁾ والثعلب الأزرق، وكذلك القبعات ذات الأشكال المتنوعة، وكلّ معدّات تلك المرأة الجميلة.

في الجهة المقابلة يتكرّر الأنموذج نفسه مع الاختلاف في كون الألواح المؤطّرة والمزخرقة قد استبدلت بمرايا تدور حول محاور مثل ألواح السّواتر، بطريقة تسمح للواقف بالرؤية المواجهة والجانبية والخلفية، والحكم على جودة صدارٍ أو تسريحة شعر. عند الواجهة الثالثة تهيمن طاولة زينة طويلة من المرمر الجزعيّ، حيث توجد حنفيّتان فضيتان يسيل منهما الماء الساخن والماء البارد في قصعتين واسعتين من اليابان مرصّعتين بقطع دائرية من المعدن نفسه؛ وهناك قوارير كريستالية من بوهميا تتلألأ تحت ضوء الشموع مثل قطع الماس وياقوت أحمر، وتحتوي على الخلاصات والعطور.

كانت الجدران والسقف مكسوّة بقماش الساتان ذي اللّون المائيّ المخضرّ، مثلما يكون اللّون داخل علبة جواهر. وثمة سجّادة سميكة من

(1) نوع من سموريات سيبريا وهو حيوان مفترس، فاخر الفرو.

سميرنا⁽¹⁾، ذات ألوان متجانسة في نعومتها، تغطي الأرضية. في وسط الغرفة، وعلى قاعدة يغطيها المخمل الأخضر، كان يوجد صندوق كبير ذو شكل غريب، من فولاذ خراسان المحفور والمنقوش والمشجر برسوم من فنّ الزخرفة العربية مع تعقيدات تصير معها زينة بهو السفراء في قصر الحمراء في منتهى البساطة. فالفنّ الشرقي يبدو كأنه قدّم أروع آياته في هذا العمل الرائع الذي قد تكون أصابع حوريات بيريس⁽²⁾ شاركت فيه. في ذلك الصندوق كانت الكونتيسة براسكوفي لابنسكا تحتجى حليتها من الجواهر الجديرة بملكة، ولم تكن تتزيّن بها إلا نادراً، وقد رأت محقّقة، أنّها لا تستحقّ المواضع التي تغطيها. كانت أجهل من أن تحتاج للترف: ذلك ما كانت تخبرها به غريزتها الأثوية. لذلك لم تكن تخرجها لرؤية الأضواء إلا في المناسبات الاحتفالية عندما يتوجب على الوريث الباذخ لبيت لابنسكي العتيق الظهور بكلّ التألّق. لم يسبق للاماس أن ظلّ في عطالة كما يحدث له عندها.

قرب النافذة حيث تتدلّى الستائر الواسعة في طبّات بارزة، وأمام طاولة زينة على الطريقة الدوقية، مقابل مرآة يُدنيها نحوها ملاكان من نحت الأنسة فوفو⁽³⁾ مع تلك الأناقة في الطول والنحافة التي تميّز موهبتها، مضياءة بشمعدائين بستّ شموع، كانت تجلس الكونتيسة براسكوفي لابنسكا، ساطعة نضارةً وجمالاً. كانت ترتدي برنساءً من تونس ذا نعومة

(1) سميرنا (باليونانية: سميرني) مدينة إغريقية قديمة، على الساحل الغربي للأناضول على البحر الأبيض المتوسط. يعود تاريخ تأسيسها إلى القرن الحادي عشر قبل الميلاد. وتقع أطلالها ضمن مدينة إزمير التركية.

(2) بيريس Pélis : جنية خيرة في الأساطير الفارسية. كتب عنها الرومنطقيون الفرنسيون كثيراً.

(3) الأنسة فوفو هو الاسم الشائع لفيليس دو فوفو Félice de Fauveau (1801-1886)، نحّاتة فرنسية ومدافعة عن حقوق المرأة. تركت تأثيراً واسعاً في الكتاب الرومنطقيين.

مثالية، موشحاً بخطوط زرقاء وبيضاء، سميكة وشفافة بالتناوب، يغطيها مثل غيمة مرنة؛ كان النسيج الخفيف قد انزلق على قماش الساتان الذي يغطي الكتفين وكشف عن بداية مفاصل رقبة تبرز بياض الرقبة الثلجية للبعجة، والذي قد يبدو مادياً مقارنةً بها. في فجوة الطيات كانت تنثني دنتيلاً مئزر حَمَام من نسيج الباتسته⁽¹⁾، ثياب داخلية ليلية لا يشدها أي حزام؛ وكان شعر الكونتيسة محلولاً ومسترسلاً خلفها في أسمطة وفيرة مثل معطف إمبراطورة. من المؤكد أن الجداول الزخرفية الذهبية السائلة التي اعتصرتهم أفروديت فينوس من اللآلي، راکعة في صدفتها اللؤلؤية، عندما خرجت مثل زهرة، من بحار اللازورد الإيوني⁽²⁾، كانت أقل شقرة وكثافة وثقلاً! امزج عبر تيتسيانو وفضة باولو فيرونيزي مع البرنيق الذهبي لرامبرانت؛ اترك الشمس تمر عبر الياقوت الأصفر، ومع ذلك لن تحصل على اللون الرائع لذلك الشعر الباذخ الذي كان يبدو كأنه يبت الضوء بدل استقباله، وكان من شأنه أن يستحق، أفضل من شعر بيرينيس⁽³⁾، أن يتوهج كوكبة نجوم جديدة، بين الكواكب القديمة! كان هناك امرأتان تقسمانه وتلمعانه وتجمدانه وتوزعانه في خصلات مرصوفة بعناية حتى لا تدعكها ملامسة الوسادة.

خلال هذه العملية الدقيقة كانت الكونتيسة ترقص على أصابع قدمها بابوجاً مخملياً أبيض مطرزاً بخيوط مذهبة، وكان من الصغر إلى حد من شأنه إثارة غيرة خوانم الباديشاه وجواريه. وكانت في بعض الأحيان ترد فتكشف عن ذراعها البيضاء، طيات البرنس الحريرية، وتبعد بيدها بعض الشعرات الفالطة، بحركة ملؤها الأناقة والكياسة.

(1) قماش من القطن أو الكتان رقيق باسم صانعه.

(2) متعلق ببلاد إيونيا في آسيا الوسطى.

(3) كوكبة نجوم قليلة الإضاءة يعود اسمها إلى ملكة مصرية قديمة في الأسطورة.

كانت في وضعها اللامبالي تذكر بأشكال التزيين الإغريقية الرشيفة التي تزخرف الأصص القديمة والتي لم يستطع أي فنّان استعادة دواثرها النضرة العذبة، وجمالها الفتّي الخفيف؛ كانت أيضاً أكثر إغراء ألف مرّة ممّا كانت عليه في حديقة فيلا سالفياتي في فلورنسا؛ ولو لم يكن أوكتاف متيّماً بحبّها لصار كذلك الآن بلا ريب؛ لكن، ولحسن الحظّ، لا يمكن للمرء أن يضيف شيئاً للامتناهي.

أحسن أوكتاف-لابنسكي لدى رؤيتها كما لو أنّه شاهد أفضع مشهد، وبدأت ركبته تصطكان وتُفلتان تحته. نشف ريقه، وخنقه القلق مثل يد أحد الثوغ⁽¹⁾؛ وزوبعت شعلاتُ هب حمراء حول عينيه. كان ذلك الجمال يجمّده.

بذل جهداً من الشجاعة، قائلاً لنفسه إنّ هذا السلوك المذعور الأحمق يناسب عاشقاً مرفوضاً، ومن شأنه أن يكون في منتهى السخرية بالنسبة لزوج مهما كان مشبوب العاطفة تجاه زوجته، فتقدّم بعزم نحو الكونتيسة. «آه! هذا أنت، يا أولاف! لكم تأخرت في العودة هذه الليلة!» قالت الكونتيسة من دون أن تلتفت، إذ كان رأسها ممسوكاً بالخصلات الطويلة التي كانت تمسّطها المرأتان، ثمّ مدّت له، عبر طيات البرنس، واحدة من يديها الجميلتين.

أمسك أوكتاف-لابنسكي بتلك اليد الأنعم والأنضر من زهرة، سحبها إلى شفّتيه وطبع عليها قبلة طويلة، ملتعبة، كانت روحه كلّها تتركّز في ذلك الموضع الصغير.

لا نعرف أيّة رقة حساسة، أيّة غريزة مسكونة بحياء أخاذ، أيّ حدس لاعقلاني للقلب، أنذر الكونتيسة: لكنّ غيمة وردية غطت بغيته وجهها

(1) الثوغ: طائفة من قطع الطرق كانوا يخنقون المسافرين في الهند، سبق ذكرها.

ورقتها وذراعها فاصطبغت بذلك اللون الذي يتلون به الثلج البكر، فوق الجبال العالية، مع أول قبلة من الشمس. ارتعشت وسحبت يدها ببطء، بين غاضبة وخجلى؛ لقد أحسّت بشفتي أوكتاف مثل حديد مُحَمَّى. ومع ذلك سرعان ما تداركت نفسها وابتسمت من انطباعها الصبيانيّ.

«أنت لا تجيبي يا عزيزي أولاف؛ ألا تعلم بأنّي لم أرك منذ أكثر من عشر ساعات؛ أنت تهملني، قالت بنبرة لوم؛ ما كنت في السابق لتركني هكذا ليلة كاملة. فهل فكرت فيّ على الأقل؟

- دائماً، أجب أوكتاف-لابنسكي.

- أوه! كلا، ليس دائماً؛ أنا أشعر بذلك عندما تفكّر فيّ، حتّى من بعيد.

هذا المساء، على سبيل المثال، كنت وحيدة، جالسة أمام البيانو أعزف قطعة لفيير وأهدهد ضجري بالموسيقى؛ حلقتُ روحك بضع دقائق حولي في الدوامة الصوتية للنوتات؛ ثم طارت، لست أدري إلى أين، مع الدوزنة الأخيرة، ولم تعد. لا تكذب، أنا متيقّنة ممّا أقول».

لم تكن براسكوفي مخطئة فعلاً؛ كان ذلك عندما انحنى الكونت أولاف لابنسكي، عند الطيب بالتازار شيربونو، على كوب الماء السحريّ، مستحضراً صورة الحبيبة بتفكير في منتهى التركيز. ومنذ تلك اللحظات، بعد أن غرق الكونت في محيط النوم المغناطيسيّ الذي لا قرار له، لم تحالجه فكرة ولا إحساس ولا أيّ فعل إراديّ.

انسحبت المرأتان بعد إكمال الزينة الليلية للكونتيسة؛ كان أوكتاف-لابنسكي لا يزال واقفاً دائماً، ملاحقاً براسكوفي بنظرة ملتبهة. تدثّرت الكونتيسة بفرنسها مثلما تدثّر بوليميني⁽¹⁾ بقماشها الفضفاض، منزعجة

(1) إحدى ربّات الإلهام في الميثولوجيا الإغريقية.

ومحترقة من تلك النظرة. ولم يكن يظهر منها إلا رأسها فوق الطيات البيضاء والزرقاء؛ كانت قلقة، لكن فاتنة.

ومع أن أية فطنة بشرية ما كان لها أن تفهم عملية تحويل الروحين التي أجراها الدكتور شيربونو بواسطة خلطة براهما-لوغوم، لم تتعرف براسكوفي في عيني أوكتاف-لابنسكي على التعبير المعتاد في عيني أولاف، وكان تعبيراً متأثراً من حب طاهر، هادئ، خالد مثل حب الملائكة؛ وها هي ذي شهوة ذنوبية تلهب تلك النظرة التي باتت تربكها وتجلجها. لم تفهم ماذا حدث، لكن هناك أمر ما، حدث. اخترقت أفكارها عدّة فرضيات: هل صارت، بالنسبة لأولاف، مجرد امرأة مبتذلة، مشتتة بسبب جاهلها، مثل محظية؟ هل انقطع التوافق السامي بين روحيهما بسبب تنافر تجهله؟ هل يجب أولاف امرأة أخرى؟ هل دنست مفاصد باريس هذا القلب الطاهر؟ طرحت على نفسها هذه الأسئلة من دون التوصل إلى إجابات شافية، وقالت في سرّها إنها مجنونة؛ لكنّها ظلّت في أعماقها تشعر أنّها على حقّ.

تملكها رعب خفيّ كما لو كانت أمام خطر مجهول، لكنّه مدرك بفعل النظرة الأخرى التي تتحلّى بها الروح، والتي نخطئ دائماً عندما لا نطيعها. اتّجهت مضطربة وعصبية نحو باب غرفة نومها. تبعها الكونت المزيّف، وإحدى ذراعيه تطوّق خصرها، مثلما يرافق عطيل ديدمونة في كلّ خروج، في مسرحية شكسبير؛ غير أنّها، وما إن بلغت العتبة حتّى التفتت، توقّفت لحظة، بيضاء باردة مثل تمثال، وأرسلت نظرة مرتاعة نحو الشاب، ثمّ دخلت، وأغلقت الباب بقوة ودفعت المزلاج.

«نظرة أوكتاف!» صرخت وهي تسقط نصف مغشيّ عليها فوق أريكة لشخصين. وعندما استعادت وعيها قالت تحدّث نفسها: «لكنّ،

كيف حدث أن تلك النظرة التي لم أنسَ تعبيرها قطّ، تشع اللبلة في عيني أولاف؟ كيف رأيت شعلته الداكنة واليائسة تلمع من خلال حدقتي زوجي؟ هل مات أوكتاف؟ هل هي روحه التي لمعت لحظة أمامي وكأنتها تقول لي وداعاً قبل مغادرة هذه الأرض؟ أولاف! أولاف! إن كنتُ قد أخطأت، إن كنت قد استسلمت لرعب غير مبرّر، سوف تسامحني؛ لكنّ، لو أنني استقبلتك هذه اللبلة، لاعتقدتُ أنني أسلم نفسي لرجل آخر».

تأكدت الكونتيسة من أن المزلاج كان محكم الإغلاق، وأضاءت المصباح المعلق في السقف. تكوّرت في فراشها مثل طفلة مذعورة مع شعور غير محدد بالقلق، ولم تنم إلا مع طلوع الصباح؛ فقد عدّبتها أحلام متنافرة وغريبة في نومها المضطرب. كانت عينان ملتهبان -عينا أوكتاف- ترشقانها عبر الضباب وترسلان إليها نفاثات نارية، بينما كان وجه أسود مجعد لشخص يجلس مقرفصاً قرب سريرها، يتمتم بمقاطع لفظية من لغة مجهولة؛ وظهر الكونت أولاف أيضاً في ذلك الحلم الغامض، لكنّه كان يتخذ شكلاً غير شكله.

لن نحاول وصف خيبة أوكتاف عندما وجد نفسه أمام باب موصل دونه، وقد سمع صرير مزلاجه الداخلي. كان أمله الأعلى قد انهار. وماذا بعد؟ لقد لجأ إلى وسائل فظيعة، غريبة، وسلّم نفسه إلى ساحر، وربّما إلى شيطان، مجازفاً بحياته في هذه الدنيا وبروحه في الآخرة، من أجل استمالة امرأة تُقلت منه، مهما كان استسلامها له بلا دفاع بفضل أعمال السحر الهندية. كان قد رُفض كعاشق، وهوذا يُرفض كزوج؛ فظهارة براسكوفي التي لا تُقهر تمكّنت من إفشال الدسائس الأكثر جهنميّة. لقد لاحت له على عتبة غرفة النوم مثل ملاك سويدنبورغ⁽¹⁾

(1) إمانويل سويدنبورغ Emanuel Swedenborg (1688-1772): عالم وفيلسوف وصوفي =

الأبيض صاعقاً الروح الشرير.

لم يكن قادراً على المكوث في هذا الوضع السخيف طيلة الليل: بحث عن شقّة الكونت، وبعد سلسلة غرف رأى في إحداها سريراً ذا أعمدة أبنوسية، وستائر منجّدة، مع شعارات مطرّزة ما بين الزخارف والرسوم الشجرية. كان هناك شِكات أسلحة شرقية، ودروع وخُوذ فرسان، تحت شعاع مصباح، ترسل وميضاً غامضاً في العتمة؛ وجلد من بوهيميا مدموغ بالذهب يلتمع على الجدران. ويكتمل هذا الأثاث بثلاث أو أربع أرائك منقوشة، وخزانة مزخرفة بتماثيل شخوص، وهو أثاث ذو ذوق إقطاعي، كان سيبدو في محلّه في قصر ريفي صغير من طراز قوطي؛ ولم يكن ذلك متأتياً من باب التقليد العبيّ للذوق السائد، من قبل الكونت، بل كان يمثل ذكرى عزيزة. فتلك الغرفة كانت تقليداً دقيقاً للغرفة التي كان يسكنها برفقة أمّه، ورغم سخرية الآخرين من هذا الديكور الرديء فقد رفض الكونت تغيير طرازه.

ارتقى أوكتاف-لابنسكي على السرير، منهكاً من المتاعب والانفعالات، ونام لاعناً الطبيب بالتأازار شيرونو. ومن حسن الحظ أنّ النهار جلب له أفكاراً أكثر بشاشة؛ فوعد نفسه بالتزام سلوك أكثر اعتدالاً من ذلك اليوم فصاعداً، وغيض بصره، والتصرّف بطريقة الزوج؛ وبمساعدة خادم غرفة الكونت أنهى زيتته بطريقة جادة وتوجّه بخطوة هادئة إلى غرفة الطعام، حيث كانت السيّدة الكونتيسة في انتظاره لتناول الفطور.

= ورجل لاهوت سويدي. له تاريخ حافل كعالم ومخترع. دخل في طور روحي وهو في السادسة والخمسين من عمره، فأدعى رؤى وأحلاماً يحاور فيها الملائكة والأرواح.

نزل أوكتاف-لابنسكي متعقباً خطوات خادم الغرفة، إذ كان مجهل مكان غرفة الأكل في ذلك البيت الذي يبدو مع ذلك أنه سيده؛ كانت غرفة الأكل قاعة واسعة في الطبقة الأرضية وتفتح على الباحة، ومن طراز رفيع وبسيط، يجمع بين طراز القصر الريفي الصغير والدير؛ فهناك تليسات خشبية من خشب السنديان الأسمر ذي التدرجات اللونية النضرة والجميلة، منقسمة إلى ألواح مؤطرة وأقسام متناظرة، ترتفع حتى السقف، حيث توجد عوارض ناتئة ومنحوتة مشكّلة تجويفات سداسية الزوايا ملوّنة بالأزرق ومزينة بزخارف عربية ذهبية خفيفة؛ وعلى ألواح الخشب الطويلة كان فيليب روسو⁽¹⁾ قد رسم الفصول الأربعة التي لم يرمز إليها بوجوه أسطورية، بل برسوم من نوع الطبيعة الصامتة المتكوّنة من محاصيل كلّ فصل من فصول السنة؛ وهناك رسوم صيد لجادان⁽²⁾ تتدلّى مع رسوم الطبيعة الصامتة لفيليب روسو، وفوق كلّ لوحة يلمع، مثل قرص ترس، صحن واسع لبرنار باليسي أو ليونار دو ليموج، وخزف من اليابان أو ماجوليكا إيطاليا أو الفخار العربي، ملّمع ببرنيق مقزّح بكلّ ألوان الطيف الشمسيّ؛ مشاهد صيد أيائل، وقرون ثور الأرخص⁽³⁾ متقابلة مع الخزفيات، وعند طرفي القاعة توجد خزائن كبيرة

(1) فيليب روسو Philippe Rousseau (1816-1887) رسّام حيوانات وطبيعة صامتة، فرنسيّ.

(2) لويس غودفروا جادان Louis Godefroy Jadin (1805-1882) رسّام مشاهد صيد وبورتريهات كلاب.

(3) الأُرْخُص: نوع ضخم جدّاً من الماشية كان يعيش في معظم أوروبا والشرق الأوسط وشمال أفريقيا وآسيا الوسطى والهند، قبل انقراضه في الربع الأوّل من القرن السابع عشر. اشتق اسم الأُرْخُص في العربية من اسمه اللاتيني المأخوذ عن الألمانية «أوروخس»

للأطباق بارتفاع المذابح في الكنائس الإسبانية، تعلو بمعمارها المتقن والمحفور بالنقوش حتى لتنافس أجمل الأعمال عند كل من بيروغيته وكورنيخو دوكة وفيربروغن⁽¹⁾؛ وعلى رفوفها المزودة بسكّة، تلمع بلا ترتيب الفضّيات القديمة لعائلة لابنسكي، وأباريق ذات عُرى خرافية، ومالح من الطراز القديم، وأقداح كبيرة للشرب، وأكواب، وبعض الصواني المحاطة بالفنطازيّة الألمانية الغربية والجديرة بحجز مكان لها في كنز القبة الخضراء في دريسدن⁽²⁾. مقابل الفضيات القديمة تلمع المتوجات الرائعة لفنّ الصياغة العصرية، روائع فاغنز، ودوبنشال، ورودولفي، وفرومون-موريس؛ أباريق شاي من فضّة مذهّبة مع رسوم لفوشير وفيشث⁽³⁾، أطباق منقوشة، دلاء لمشروب الشمبانيا ذات عُرى تمثّل قضباناً من عناقيد العنب، مع رقصات ماجنة ضمن نُقيشات خفيفة البروز؛ مواقد تسخين أنيقة تشبه أنفية القدر⁽⁴⁾ في مدينة پومبي القديمة: من دون ذكر كريستال بوهيميا، وبلّوريات البندقية، والأطعم السكسونية القديمة وكذلك أطقم مدينة سيفر الفرنسية على الطريقة القديمة.

وكان هناك مقاعد من السنديان مزخرفة بجلد مدبوغ بلون أخضر مرتّبة على امتداد الجدران، وعلى المائدة ذات القوائم المنحوتة على هيئة

(1) ألونسو بيروغيته Alonso Berruguete (1490-1551) وكورنيخو دوكة Cornejo Duque (1677-1757) نحّاتان ورسامان إسبانيّان. هنديريك فرانس فيربروغن Hendrik Frans Verbruggen (1654-1724) نحّات فلانمكيّ.

(2) تأسّس متحف دريسدن في ألمانيا في القرن السادس عشر وتمّ توسيعه في القرن الثامن عشر. كانت جدرانها مطلّية باللّون الأخضر وهو اللّون الوطنيّ لمقاطعة سكسونيا.

(3) فيشت Vechte: صانع فرنسي شهير في عصره (1802-1855) كثيرٌ ما أشاد به هوغو بلزك وغوتيه، وكان النحّات جان-جاك فوشير Jean-Jacques Feuchère (1807-1852) يمدّه بالنماذج المنحوتة.

(4) ركيّزة ذات ثلاث قوائم، توضع عليها القدر أو الإناء؛ منضّب.

برائن نسر كان هناك إضاءة تأتي من السقف ثابتة وصافية ومغربة بفعل مرورها بزجاج أبيض أزيل لمعانه في زخرفة تجويف السقف المركزي الذي تُرك فارغاً. - وكان إكليل شفاف من فروع دالية عنب يؤطر ذلك اللوح اللبني بأوراقه الخضراء.

على المائدة، وبطريقة الخدمة الروسية، كانت قد وُضعت الفواكه محاطة بشريط من البنفسج، وكان الأكل ينتظر سكاكين المُواكِلين تحت أغطية أوانيه المعدنية الصقيلة واللامعة مثل قُبعات أمراء؛ فكان هناك سَمَاور⁽¹⁾ من موسكو يرسل نفث بخاره مصقراً؛ وخادمان يرتديان سروالين قصيرين وربطة عنق بيضاء يقفان ثابتين وصامتين خلف الأريكتين المتقابلتين، مثل تماثيل للخدمة المنزلية.

اندماج أوكتاف مع كل هذه التفاصيل بإلقاء نظرة سريعة حتى لا ينشغل لا إرداياً بجِدَّة الأدوات التي يُفترض أنه معتاد عليها. سُمع انسياب خفيف على البلاط وحفيف نسيج حريري من التفتة، جعلاه يلتفت. كانت الكونتيسة براسكوفي لابنسكا هي التي تقرب ثم تجلس قربه بعد أن وجَّهت إليه إشارة ودِّية صغيرة.

كانت ترتدي مئزراً حريرياً بمرتعات خضراء وبيضاء، مزينة بكشكش من القماش نفسه وقد فُصِّل على شكل أنياب ذئب؛ وكان شعرها المجمع في لمتين كثيفتين حول صدغيها، والملفوف عند منشأ الرقبة في جديلة ذهبية مزخرفة شبيهة بالزخرف الحلزوني في تاج العمود الإيوني، يشكّل عندها تسريحة تجمع بين البساطة والروعة، حتى إنَّ صانع تماثيل إغريقياً ما كان ليغيّر فيها شيئاً؛ وكان لون بشرتها يشبه الوردة اللحمية مع قليل من الشحوب بفعل انفعال البارحة والنوم الليلي المضطرب؛ كان

(1) غلاية روسية للشاي.

هناك هالة صدفية لا تكاد تلمح وتحيط بعينيها اللتين تكونان عادةً في غاية الطمأنينة والصفاء؛ وكانت تبدو متعبة وواهنة، غير أن جماها المثير للحنان بتلك الطريقة لم يزد إلا نفاذاً، كانت تكتسب شيئاً ما بشرياً؛ الإلهة تتحوّل إلى امرأة؛ الملاك، خافقاً بجناحيه، يكفّ عن التحويم.

هذه المرّة كان أوكتاف أكثر حذراً، فقد حجب شعلة عينيه وقنع نشوته الخرساء بتصنّع اللامبالاة.

مدّدت الكونتيسة قدمها الصغيرة المتعلة حقاً من جلد أسمر ذهبيّ، في الصوف الناعم للسجادة العشبية المفروشة تحت المائدة لمنع الاتصال البارد بفسيفساء الرخام الأبيض ورخام فيرونا الملون الذي يبلّط قاعة الأكل، وقامت بحركة خفيفة من كتفيها كما لو كانت ترتعش من قشعريرة أخيرة من الحمى، ثم حدّقت بعينيها الجميلتين بزرقتهما القطيية بشريكها في الطعام الذي كانت تحسبه زوجها، ذلك أنّ الليل محا الأحاسيس الداخلية والرعب والأشباح الليلية، لتقول له بصوت رخيم وناغم، ومفعم بدلال عفيف، جملة باللّغة البولندية!!! فقد كانت كثيراً ما تستخدم لغتها الأم المحبّبة مع الكونت في لحظات الملاطفة والحميمية، خصوصاً في حضور الخدم الفرنسيين الذين يجهلون هذه اللّغة.

كان الباريسيّ أوكتاف يعرف اللّاتينية والإيطالية والإسبانية وبعض المفردات الإنجليزية؛ لكنّه كان، على غرار الغاليتين-الروماتيين، يجهل اللّغات السلافية تماماً. فالحواجز الشائكة في الصوامت التي تدافع عن الصوتيات، في حروف اللّغة البولندية، كانت ستمنعه من الاقتراب منها حتّى ولو حاول ذلك. وفي فلورنسا تكلمت معه الكونتيسة دائماً بالفرنسية أو بالإيطالية، ولم تحظر بباله فكرة تعلّم اللّغة التي استطاع فيها

ميكيفيتش أن يضارع بايرون تقريباً⁽¹⁾. لا يمكن للمرء أن يفكر في كل شيء.

لدى سماع تلك الجملة حدثت في مخّ الكونت، المسكون بـ «أنا» أوكتاف، ظاهرة فريدة جداً من نوعها: فالأصوات الغريبة بالنسبة للباريسي، وفق طيات أذن سلافية، بلغت الموضع المعتاد حيث كانت روح أولاف تستقبلها لترجمها إلى أفكار، وحرّكت فيه ما يشبه ذاكرة جسدية؛ لاحت معانيها مرتبكة عند أوكتاف؛ تقدّمت كلمات مطمورة في التلايف المخّية، داخل أدراج سرّية في الذاكرة، تطنّ جاهزة للردّ؛ غير أنّ تلك الاستذكارات المبهمة، وقد عجزت عن الاتّصال بالعقل، سرعان ما تلاشت، وعاد كلّ شيء إلى إبهامه. كان ارتباك العاشق المسكين شنيعاً؛ لم يفكر في هذه التعقيدات عندما لبس جلد الكونت أولاف لابنسكي، وأدرك أنّ سرقة شكل شخص آخر تعرّض السارق إلى خيبات قاسية. أعادت براسكوفي الجملة ببطء وبصوت أعلى بعد أن استغربت ضمت أوكتاف واعتقدت أنّه كان شارّد الذهن في بعض أحلام اليقظة فلم يسمعها.

وحثّى مع سماعه رنين الكلمات بطريقة أفضل، لم يستطع الكونت المزيّف فهم معانيها أكثر؛ كان يبذل جهوداً يائسة لتخمين ما تعنيه؛ وإلى من لا يعلم، فإنّ لغات الشمال المصمّنة الأصوات لا تمتلك أية شفافية، فإذا كان الفرنسيّ يتمكّن من تخمين بعض ما تقوله امرأة إيطالية، فإنه، هو نفسه، سوف يكون مثل الأصمّ عندما يستمع إلى بولندية تتكلّم. وعلى الرغم منه غطّت خديّه حمرة خجل ساخنة؛ عضّ شفّتيه، ومن أجل تمالك نفسه قصّ القطعة الموضوعية في صحنّه بغضب شديد.

(1) آدم ميكيفيتش: شاعر رومنطقيّ بولنديّ، سبق التعريف به.

«في الحقيقة يبدو لي، يا سيدي العزيز، قالت الكونتيسة باللّغة الفرنسية هذه المرّة، أنك لا تسمعي، أو أنك لم تعد تفهمي...»

- فعلاً، تلعلم أو كتاف-لابنسكي، غير مدرك ما يقول... تلك اللّغة الفظيعة صعبة جداً!

صعبة! نعم، ربّما بالنسبة لأجانب، لكنّ بالنسبة لمن لثغ بها على ركبتي أمه هي تنجس من الشفتين مثل نفس الحياة، مثل دقّ الفكرة ذاته.

- نعم، بلا شكّ، لكنّ هناك لحظات يبدو لي أنني لم أعد أجيدها.

- ماذا عساک تحرّف، يا أولاف؟ ماذا! أتكون نسيته، لغة أجدادك،

لغة وطنك المقدّس، اللّغة التي تجعلك تميّز إخوتك بين سائر

البشر، وأضافت بصوت أخفض، اللّغة التي قلتَ لي بها أوّل مرّة

إنّك تحبّني!

- التعوّد على استخدام لسان آخر...، جازف أو كتاف-لابنسكي بالقول وقد استفد تبريراته.

- أولاف، ردّت الكونتيسة بنبرة لوم، أجد أنّ باريس قد أفسدتك؛

كنتُ على حقّ عنما رفضت المجيء إليها. من كان سيقول لي إنّ

الكونت لابنسكي النييل عندما يعود إلى أراضيه لن يتمكن من

الردّ على تهاني أقدانه؟»

اصطبغ وجه براسكوفي الفاتن بتعبير مومج؛ لأوّل مرّة يلقي الحزن

بظله على هذا الجبين البريء مثل جبين ملاك؛ كان هذا النسيان المتفرّد

يهينها حتّى عمق روحها، ويبدو لها قريباً من الخيانة.

مرّ ما تبقي من وقت الفطور بصمتٍ: كانت براسكوفي قد حردت

وقاطعت من كانت تحسبه الكونت. أمّا أو كتاف فكان في قمة العذاب،

إذ أنّه كان يخشى أسئلة أخرى سيضطرّ إلى تركها بلا أجوبة.

نهضت الكونتيسة والتحقت بجناحها في القصر.

ظلّ أوكتاف وحيداً يلعب بقبضة سكين كان يتمنى زرعه في قلبه، فهو الآن في وضع لا يُحسد عليه: لقد راهن على مفاجأة وهوذا يجد نفسه خائضاً في تعرّجات حياة لا يعرفها وهي بلا منفذ أمامه: عندما استولى على جسد الكونت أولاف لابنسكي كان ينبغي أيضاً سرقة مفاهيمه القبلية، اللغات التي كان يجيدها، ذكريات طفولته، وآلاف التفاصيل الحميمة التي تشكّل أنا الإنسان، الوشائج التي تربط وجوده بوجود الآخرين: ومن أجل ذلك لم يكن كلّ العلم الذي بحوزة الدكتور بالتازار شيربونو كافياً. يا له من وضع مغيظ! أن يكون داخل هذا الفردوس الذي لم يكن يكاد يجرؤ على النظر إلى عتبته من بعيد؛ أن يسكن تحت السقف نفسه الذي يؤوي براسكوفي، ويراها، ويكلّمها، ويقبل يدها الجميلة بشفتي زوجها، ولا يتمكن بالمقابل من خداع حياثها الخارق، ويفضح نفسه في كلّ لحظة بحماقة لا يجد لها تفسيراً! «كان مكتوباً هنالك في الأعلى أن براسكوفي لن تحبني أبداً! مع أنني قدّمت أكبر تضحية يمكن أن يتمرّغ فيها كبرياء الإنسان: لقد تخلّيت عن أناي ووافقت على استغلال ملامسات مقدّرة لغيري عبر جسد ليس جسدي!»

كان في تلك المرحلة من مناجاته عندما انحنى أمامه حوذي بكلّ علامات الاحترام العميق، سائلاً إياه عن الحصان الذي ينوي امتطائه اليوم...

ولما رأى الحوذي أن سيّده لا يجيب، غامر، وهو مرتاع من هذه الجسارة، هامساً:

«فولتور أم رستم؟ فهما لم يخرجوا منذ ثمانية أيام.

- رستم»، أجاب أوكتاف-لابنسكي، وكان يمكنه القول فولتور،

غير أن الاسم الأخير التصق بذهنه الشارد.

ارتدى ثياب الفروسيّة وقصد غابة بولونيا، راغباً في الاغتسال بهواء نقيّ من وضعه العصبيّ.

رستم حيوان رائع من السلالة النجدية الأصيلة، وكان يحمل على صدره، داخل كيس شرقيّ من المخمل المطرّز بالذهب، شهادات نبلة التي تعود إلى السنوات الأولى من التاريخ الهجريّ، وهو حصان لا يحتاج إلى إثارة. كان يبدو قادراً على فهم أفكار من يمتطيه، وما إن غادر الأرض المبلّطة حتّى انطلق مثل السهم من دون أن يُشعره أوكتاف بالمهاز. بعد ساعتين من الركض الغاضب عاد الفارس والفرس إلى القصر، أحدهما اكتسب هدوءاً، والآخر ينفث البخار من منخرين أحمرين.

دخل الكونت المفترض على الكونتيسة التي وجدها في قاعتها ترتدي فستاناً من التفتة البيضاء مع دوائر مرتّبة في طبقات حتّى خصرها، وعقدة وشاح في زاوية أذنها، فاليوم كان الخميس، وهو يوم المكوث في القصر واستقبال زوّارها.

«وإذن، قالت تخاطبه بابتسامة عذبة، إذ أنّ الحرد لا يمكنه إطالة الإقامة على شفيتها الجميلتين، هل استعدت ذاكرتك بالركض عبر مسالك الغابة؟

- يا إلهي، كلاً، يا عزيزتي، أجب أوكتاف-لابنسكي؛ لكنّ يجب أن أصارحك بشيء.

- ألسنتُ أعرف مسبقاً كلّ أفكارك؟ ألم نعد نتبادل الشفافية نفسها؟
- البارحة ذهبت إلى ذلك الطبيب الذي يُحكى عنه الكثير.
- نعم، الدكتور بالتازار شيربونو، الذي أقام مطوّلاً في الهند، واكتسب من البراهمة، كما يقال عنه، عدّة أسرار يفوق بعضها البعض روعة.

وكنت ترغب في مرافقتي لرؤيته؛ لكنني لست فضوليّة، لأنني
أعرف أنّك تحبني، ومعرفة ذلك تكفيني.

- لقد أجرى أمامي تجارب ومعجزات كانت من الغرابة حتّى أنّ
ذهني لا يزال مضطرباً. هذا الرجل العجيب الذي يمتلك قدرة
لا تقاوم ألقى بي في نوم مغناطيسيّ كان من العمق إلى درجة أنّني
لم أستطع بعد استيقاظي أنّ أسترجع مداركي نفسها: لقد نسيت
تذكر أشياء كثيرة؛ الماضي يطفو في ضباب غامض: وحده حتّي
لك ظلّ سليماً.

- لقد أخطأت، يا أولاف، بخضوعك لتأثير ذلك الطبيب. فالربّ
الذي خلق الروح له الحقّ في ملامستها؛ أما الإنسان، فإذا حاول
ذلك ارتكب فعلاً مارقاً، قالت الكونتيسة براسكوفي لابنسكا
بنبرة وقورة. - أمل ألا تعود إليه أبداً، وأنّ تعود إلى فهمي عندما
أقول لك شيئاً ودياً- باللّغة البولندية-، كما في السابق.

كان أوكتاف، خلال نزهته على ظهر الحصان، قد تحيّل هذا العذر
المتعلّق بالمغناطيسيّة كي يمّوه على الأخطاء التي صار يراكمها في حياته
الجديدة؛ غير أنّه لم يتخلّص من الصعوبات بعد. - جاء خادم ليفتح
الباب الصفاق، ويعلن عن قدوم ضيف.

«السيد أوكتاف دو سافيل».

لئن كان أوكتاف الحقيقيّ يتوقّع مثل هذا اللّقاء ذات يوم أو آخر،
إلاّ أنّه شحّب لونه لسماع هاتين الكلمتين البسيطتين، كما لو أنّ صور
يوم الحساب قد انفجر في أذنه. واحتاج إلى استجماع كلّ شجاعته وإقناع
نفسه بأنّ الموقف في صالحه حتّى لا ينهار؛ وبشكل غريزيّ غرز أصابعه
في ظهر أريكة مزدوجة، ونجح بذلك في المحافظة على وقوفه مع مظهر

حازم وهادي.

تقدّم الكونت أولاف، مرتدياً مظهر أوكتاف، نحو الكونتيسة لابنسكا وحيّاها بحرارة.

«السيد الكونت لابنسكي... السيد أوكتاف دو سافيل...». قالت الكونتيسة لابنسكي وهي تقدّم السيدين، أحدهما إلى الآخر.

تبادل الرجلان التحية ببرود وهما يتبادلان نظرات وحشية عبر قناع التهذيب الاجتماعي البارد الذي كثيراً ما يخفي انفعالات شنيعة جمّة.

«لقد حفظت لي ضغيئة منذ فلورنسا، يا سيد أوكتاف، قالت الكونتيسة بصوت ودي وحميم، وكنت أخشى مغادرة باريس دون أن أراك. كنت أكثر مواظبة في المجيء إلى فيلا سالفياي، وكنت آنذاك تُعدّ من بين الأوفياء لي.

- سيدي، أجب أوكتاف المزيف، بنبرة إكراه، لقد سافرت، وعانيت آلاماً، لا بل مرضت، وعند استلامي دعوتك الكريمة تساءلتُ عما إذا كنتُ سأنتهز الفرصة إذ لا ينبغي أن يكون المرء أنانياً ويعبث بالتسامح الذي يكرّم به شخص مضجر مثلي.

- قد تكون ضجراً؛ غير أنك لست مضجراً، ردّت الكونتيسة؛ كنت دائماً كئيباً، لكن، ألا يقول أحد شعرائكم حول الكآبة:

«بعد العطالة، هي أفضل داء»⁽¹⁾.

- هذه إشاعة يطلقها الناس السعداء كي يتخلّصوا من الإشفاق على الذين يعانون»، قال أولاف-دو سافيل.

ألقت الكونتيسة نظرة تملؤها عذوبة لا توصف على الكونت المحبوس

(1) من شعر ألفريد دو موسيه Alfred de Musset : «لن أحارب الكآبة أبداً/ بعد العطالة، هي أفضل داء».

في شكل أوكتاف، وكأنتها تطلب منه العفو عن الحبّ الذي أهتمته إيّاه لا إرادياً.

«أنت تحسّنيني أكثر طيشاً مما أنا عليه؛ كلّ ألم حقيقيّ يحظى بشفتي، وحتىّ إذا لم أتمكّن من تبديده أعرف كيف أرفأ به. تمثيْتُ دائماً أنّ أراك سعيداً، سيّدي العزيز أوكتاف؛ لكنّ، لم تراك اعتكفت بحزنك رافضاً بعنادٍ هذه الحياة التي تُقبل نحوك بأفراحها وفتنتها وواجباتها؟ لم رفضت الصداقة التي عرضتها عليك؟»

هذه الجمل بمنتهى بساطتها وصراحتها أثرت في المستمعين الاثنين بطريقة مختلفة. - فكان أوكتاف يستمع فيها إلى تأكيد الحكمة التي نطق بها في حديقة سالفياتي ذلك الفم الجميل الذي لم يدنسه الكذب قط؛ أمّا أولاف فقد استشف منها برهاناً إضافياً على الفضيلة الثابتة لهذه المرأة التي لا يمكنها الاستسلام إلّا بمكر شيطانيّ. لذلك تملكه غيظ مبالغت وهو يشاهد شبحه المتحرّك بروح أخرى مقيماً في بيته الشخصيّ، فارتمى على رقبة الكونت المزيّف.

«أيّها السارق، يا قاطع الطرّوق، يا فاسق، أعد لي جِلدي!»

على إثر هذا الفعل الخارق تعلّقت الكونتيسة بالجرس، فجاء الخدم وحملوا الكونت.

«مسكين أوكتاف لقد أصيب بالجنون!» قالت براسكوفي بينما كان أولاف يُحمّل وهو يتخبّط بلا جدوى.

«نعم، أجب أوكتاف الحقيقيّ، لقد أصيب بجنون الحبّ! أيّتها الكونتيسة، أنت مفرطة الجهال حقّاً!»

بعد مضيّ ساعتين على هذا المشهد، استلم الكونت المزيّف من الكونت الحقيقي رسالة مغلقة عليها ختم أوكتاف دو سافيل، فالمسلوب المسكين لم يكن يملك غيره تحت تصرّفه.

تسبّب فتح الرسالة المهورّة بشعاره بإحداث تأثير غريب على الغاصب المسمّى أولاف لابنسكي، غير أنّ كلّ شيء كان لا بدّ أن يكون فريد نوعه في هذا الموقف غير الاعتياديّ.

كانت الرسالة تحتوي على الأسطر التالية، وقد خطّتها يد مكرهة بخطّ يبدو مزيفاً، ذلك أنّ أولاف لم يتعود الكتابة بأصابع أوكتاف:

«قد تبدو هذه الرسالة مؤرّخة من البيّت-ميزون⁽¹⁾، لو قرأها أيّ شخص آخر غيرك، لكنك سوف تفهمني. إنّ التضافر بشكل غير قابل للتفسير، لعدّة ظروف محتومة، من النوع الذي ربّما لم يسبق له الحدوث قطّ منذ دوران الأرض حول الشمس، يجبرني على إتيان فعل لم يأت مثله إنسان. أنا أراسل نفسي، وأضع على العنوان اسماً هو اسمي، اسماً سرّقه منّي مع شخصي. ضحية آية دسائس مظلمة سقطت، وفي آية حلقة أوهام جهنميّة وضعت قدمي، أجهل ذلك. ربّما كنت أنت تعلم. هذا السرّ، إنّ لم تكن جباناً، سوف تطالبك به فوهة مسدّسي أو حدّ سيفي في ميدانٍ يجيب فيه كلّ إنسان، سواء أكان شريفاً أم سافلاً، عن الأسئلة التي تُطرح عليه؛ غداً، ينبغي أن يكفّ أحدنا عن رؤية نور السماء. هذا الكون الشاسع صار الآن أضيّق من أن يتسع لكلينا: سوف أقتل جسدي

(1) تعني التسمية الفرنسية Petites-Maisons حرفياً «البيوت الصغيرة»، لكنّها تشير إلى اسم مستشفى خُصّص سنة 1557 «للعجزة المساكين والأطفال المصابين بالسعفة الجلدية والنساء المصابات بأمراض مزمنة والحمقى والمصابين بالزهرّي»، وصار يُلمح به إشارة إلى ملجأ المجانين.

المسكون بروحك المحتالة أو تقتل جسدك حيث تستنكر روعي جنبها فيه. لا تحاول إظهاره للملأ مجنوناً، سوف تكون لي شجاعة التعقل، وأينما قابلتك سوف أشتكك بتهديب سيد نبيل، وبدم بارد لشخص دبلوماسي. شارباً السيد الكونت أولاف لابنسكي يمكنها ألا يُعجبا السيد أوكتاف دو سافيل، وفي كل يوم سوف يكون هناك تنغيصات أثناء الخروج من الأوبرا، لكنني أمل ألا يكون لجُملي، رغم غموضها، أي التباس بالنسبة لك، وأن يتوصل شاهداي إلى الاتفاق التام مع شاهديك حول ساعة المباراة ومكانها وشروطها».

هذه الرسالة أوقعت أوكتاف في حيرة كبيرة. فهو من جهة لا يستطيع رفض دعوة الكونت للمبارزة، ومن جهة أخرى ينفر من القتال مع نفسه؛ إذ أنه حافظ على بعض الحنو تجاه غلافه القديم. لكن فكرة إكراهه على هذه المبارزة ببعض الإهانات الصارخة جعله يقرّر قبول الدعوة، رغم أنه يستطيع، في نهاية المطاف، إلباس خصمه قميص المجانين الجبري، وتعطيل ذراعه، لكن لطفه يأبى هذه الوسيلة العنيفة. وحتى إذا كان قد ارتكب فعلاً مُداناً، جرّه إليه هوى لا مفرّ منه، وأخفى العاشق تحت قناع الزوج كي ينتصر على فضيلة فوق كل الإغراءات، فهو مع ذلك ليس رجلاً عديم الشرف والشجاعة؛ يُضاف إلى ذلك أنه لم يتخذ ذلك القرار النهائي إلا بعد ثلاث سنوات من العذاب، في اللحظة التي كانت حياته ستفقد منه بعد أن أنفها الحب. لم يكن يعرف الكونت؛ لم يكن صديقه؛ وهو ليس مديناً له بشيء، واستغلّ الوسيلة الخطرة التي قدّمها له الطبيب بالتأزر شيربونو.

أين سيبحث عن شاهدين؟ من بين أصدقاء الكونت بلا شك؛ غير أن أوكتاف، وقد سكن في القصر منذ يوم واحد، لم يتمكن بعد من

على المدفأة يتكوّر كوبان مجزّعان بلون أخضر فاتح وعروتين متشكّلتين من تنيّين ذهبيّين. أحدهما يحتوي على خواتم وإبر وأختام وبعض الحلّي البسيطة؛ والآخر يحتوي على بطاقات زيارة حيث توجد، تحت تيجان أدواق ومركزات وكونتات، وبالخطّ القوطيّ أو الدائريّ أو الإنجليزيّ، مجموعة كبيرة من الأسماء البولندية والروسية والمجرية والألمانية والإيطالية والإسبانية، نقشها نقّاشون مهرة، وتدلّ على الحياة الارتمحاليّة للكونت الذي يمتلك أصدقاء في كلّ البلدان.

تناول منها أوكتاف بطاقتين لا على التعيين: الكونت زمواشكي والمركيز سيولفيدا. أمر بتجهيز العربة وتمّ نقله إليها. فوجدهما كليهما. لم تظهر عليهما علامات المفاجأة من طلب الشخص الذي كانا يحسبانه الكونت أولاف لابنسكي. ولأنّهما متجرّدان من حساسية الشهود البرجوازيّين، لم يسألّا عن إمكانية تسوية القضية والتزمّا بالصمت الدالّ على الذوق السليم إزاء سبب المبارزة، بوصفهما من طبقة النبلاء.

ومن جانبه، كان الكونت الحقيقيّ، أو إنّ فضّلتم، كان أوكتاف المزيف ضحيّة ارتباك مماثل: فقد تذكّر ألفرد هومبير وكذلك غوستاف رامبو الذي سبق له أن رفض مشاركته في مأدبة الطعام، وطلب منها خدمته في هذه المواجهة. - أبدى الشابان بعض الدهول لتورّط صديقيهما في منازل، وهو الذي لم يغادر غرفته منذ حواليّ سنة، وهما يعرفان جيّداً مزاجه الأقرب إلى السّلّم منه إلى الصراع؛ لكنّه عندما أخبرهما بأنّ الأمر يتعلّق بمعركة حياة أو موت لسبب لا ينبغي إفساؤه، كفّأ عن الاعتراض وتوجّها إلى قصر لابنسكي.

وسرعان ما رُتبت الشروط. ألقيت قطعة ذهبيّة في الهواء لتقرير

نوعيّة السلاح، وكان الحصان قد أعلن بأنّ السيف والمسدّس يناسبانها بالتساوي. وتمّ الاتفاق على الذهاب إلى غابة بولونيا في الساعة السادسة صباحاً، عند شارع البوتو، قرب ذلك السقف القشّيّ المستند إلى أعمدة ريفية، وهو مكان خالٍ من الأشجار ويشكّل منبسطة الرميّ ميداناً ملائماً لهذا النوع من القتال.

عندما انتهى الاتفاق على كلّ شيء، كانت الساعة توشك على منتصف الليل، وتوجّه أوكتاف نحو باب جناح براسكوفي. كان المزلاج مدفوعاً كما البارحة، ورماء صوت الكونتيسة الهازئ بهذه السخرية عبر الباب: «عُدّ إليّ عندما تتعلّم اللّغة البولندية، أنا في منتهى التعصّب الوطنيّ فلا يمكنني استقبال غريب في غرفتي».

في الصباح، حضر الطبيب شيربونو، وكان أوكتاف قد أخطره بالأمر، حاملاً محفظة أدوات جراحة ورزمة ضمادات. - امتطوا العربية جميعاً. وكان السيّدان زمواشكي وسيولفيدا يتبعانهم في عربتيهما المقلّتين.

«هكذا إذن، يا عزيزي أوكتاف، قال الطبيب، أبهذه السرعة بدأت المغامرة تتحوّل إلى مأساة؟ كان عليّ ترك الكونت ينام في جسدك قرابة الثمانية أيام على أريكتي. وكنّت قد نجحت في تمديد حالات تنويم مغناطيسيّ إلى أكثر من هذا الحدّ. لكنّ عبثاً لجوؤنا إلى تعلّم الحكمة لدى البراهمة والبانديت والسنياشي في الهند، لا مفرّ من أن ننسى شيئاً ما، ولا يمكن أن تخلو أفضل المعادلات من نقائص. لكنّ كيف استقبلت الكونتيسة براسكوفي عاشقها المتيمّ بها منذ لقائهما في فلورنسا، وقد جاءها متنكراً بهذه الطريقة؟

- أعتقد، أجب أوكتاف، أنها عرفنتني رغم تحوّلي، أو ربّما كان هناك ملاك حارس همس في أذنها أن تحترس مني؛ ألفتها في طهارة ثلج القطب

وبرودته وصفائه. ولا شك أن روحها العذبة قد اكتشفت روحاً أجنبيّة في إهاب محبوب. سبق أن قلت لك إنك لن تستطيع إيجاد حلّ بالنسبة لي؛ وحالي الآن أسوأ مما كانت خلال زيارتك الأولى لي.

- من الذي بوسعه وضع حدّ لمملكات الروح، قال الطبيب بالتازار شيربونو متأملاً، لا سيّما إذا لم تشوّهها أية فكرة دنيويّة، ولم تدنّسها أيّ طينة إنسانيّة، وإذا حافظت على بقائها كما خرجت من بين يدي الخالق، في النور والتأمل والحبّ؟ نعم، أنت على حقّ، لقد عرفتك! وارتعش خفرها الملائكيّ تحت النظرة الشهوانية، فاستتر غريزياً بجناحيه الأبيضين. أنا أرثي لحالك يا أوكتاف المسكين! فمرضك لا شفاء منه حقاً. ولو كنّا في العصور الوسطى، لقلت لك: ادخل إلى أحد الأديرة.

- كثيراً ما فكّرت في ذلك»، أجاب أوكتاف.

لقد وصلوا. وكانت عربة أوكتاف المزيف واقفة في الموضع المحدّد. كانت الغابة، في تلك الساعة الصباحيّة المبكرة، تقدّم مظهراً أقرب إلى الرسم الحقيقيّ، وهو ما يقضي عليه ضوء النهار: كانت تلك فترة من الصيف لم تتوصّل الشمس فيها بعد إلى تعميم خضرة الأوراق؛ فكان هناك لُويّنات نديّة شفافة مغسولة بندى اللّيل، تنشع تدريجاً في الأجام، وينبعث منها عطرُ نباتات جديدة. والأشجار جميلة بشكل خاصّ، في هذا الموضع تحديداً، إمّا لأنّها صادفت تربة ملائمة أكثر أو لأنّها تواصل البقاء وحيدة انطلاقاً من غرس قديم، وجذوعها القويّة المغطّاة بطبقات من الطحالب أو المصقولة بقشرة لحاء فضيّة تنغرز في الأرض بجذور عُقدية، مرسلّة أغصانها ذات الزوايا العجيبة، ويمكنها أن تشكّل نماذج في دراسات الرسّامين والمزخرفين الذين يذهبون في بحوثهم إلى أقصى ما يمكن ليحصلوا على نتائج أقلّ قيمة. كان هناك بعض الطيور التي

يُسكّتها ضجيج النهار تزقزق مرحة تحت الخمائل؛ وهناك أرنب هارب اجتاز رمل المشى في ثلاث قفزات وأسرع للاختباء في العشب، مذعوراً من ضجّة العجلات.

هذه الأشعار حول الطبيعة المباعثة في لحظة عري، لا تهّم كثيراً الخصمين وشهودهما، كما تخمّنون.

تركت رؤية الكونت أولاف لابنسكي انطباعاً سيئاً لدى الدكتور شيربونو؛ لكنّه تمالك نفسه بسرعة.

تمّ قياس السيفين، وتعيين موضع كلّ مبارز، وبعد تخفيف الثياب تقدّما متأهّبين بسيفيهما.

صاح الشهود: «هيا!»

في كلّ مبارزة، ومهما تكن ضراوة الخصمين، توجد لحظة سكون احتفالية؛ فكلّ مبارز يدرس وضع خصمه في صمت ويضع خطته، متأملاً كيفية الهجوم واستعداداً للردّ؛ ثمّ يبدأ السيفان بتبادل البحث والتحرّش والتلامس، إنّ صحّ التعبير، من دون تباعد: يدوم ذلك بضع ثوانٍ تبدو دقائق، ساعات، بالنسبة لتلهّف الحاضرين.

هنا، كانت شروط المبارزة، مع أنّها عادية بالنسبة للمشاهدين، شديدة الغرابة بالنسبة للخصمين، حتّى إنّها ظلّاً في حالة تأهب فترة أطول من المعتاد. وفعلاً كان كلاهما يرى أمامه جسده الشخصي ويتوجّب عليه غرز الحديد في لحم كان لا يزال لحمه حتّى ليلة البارحة. - كانت المعركة تتعقّد بوجود نوع من الانتحار غير المتوقع، ومهما كانت بسالة الاثنین فقد كان أوكتاف والكونت يشعران برعب غريزيّ لوجودهما بسيف في اليد في مواجهة شبيحيهما واستعدادهما للانقضاض على نفسيهما.

كان الشهود الذين نفذ صبرهم يستعدّون للصراخ مرّة أخرى: «أيها

السيدان، عليكما البدء إذن!« عندما بدأ حدًا السلاحين يلتحمان.

تم توقي بعض الهجمات بخفة من الطرفين.

كان الكونت، بفضل خدمته العسكرية، رامياً ماهراً؛ وسبق له أن بقع أكثر من واقية صدر لدى أشهر الضباط؛ لكنّه وإن كان لا يزال يمتلك النظرية، فإنّه لم يكن أنثد يمتلك من أجل تنفيذها ذلك الساعد العصبي المعتاد على قطع أحزمة سروج مريدي شاميل⁽¹⁾؛ فاليد التي تمسك بسيفه كانت هي يد أوكتاف.

وبالعكس كان أوكتاف، في جسد الكونت، يجد نفسه في بأس غير معهود، ورغم قلة درايته، كان ينجح دائماً في إبعاد النصل الباحث عن بطنه.

وعبثاً أجهد أولاف نفسه كي يصيب خصمه مُحاطراً ببعض الضربات. كان أوكتاف، الأكثر هدوءاً وحزماً، يجبط كلّ الضربات الخادعة. بدأ الغضب يتملّك الكونت الذي صارت حركاته عصبيّة ومضطربة. فحتّى مع احتمال بقائه أوكتاف دو سافيل، كان يريد قتل هذا الجسم المحتال الذي يُمكنه خداع براسكوفي، وكانت هذه الفكرة ترمي به في حالات سُعار يتعدّر وصفها.

جازف بالتعرّض إلى الإصابة وحاول تسديد ضربة يُمنى يتوصّل بها، عبر جسده الشخصي، إلى روح الخصم وحياته؛ غير أنّ سيف أوكتاف التفّ حول سيفه بحركة في منتهى الخفة والخطف والقهر إلى درجة أنّ السيف الذي اقتلّع من قبضته انطلق في الهواء ليسقط على بعد بضعة خطوات.

صارت حياة أولاف متوقّفة على تقدير أوكتاف: يكفي أن ينقضّ

(1) بطل من القوقاز، سبق ذكره.

عليه ليمزقه من جهة إلى أخرى. تشتج وجه الكونت، ليس خوفاً من الموت، بل لتذكّره أنّه سيرتك زوجته إلى سارق الأجساد هذا الذي لم يعد أيّ شيء قادراً على نزع قناعه.

لم يستغلّ أوكتاف تفوّقه بل رمى سيفه وأشار على الشهود ألاّ يتدخلوا، وتقدّم نحو الكونت المصعوق وأمسك به من ذراعه ليقوده إلى عمق الغابة.

«ماذا تريد مني؟» قال الكونت. لمّ لم تقتلني وكنت قادراً على ذلك؟ لمّ لا نتابع المباراة بعد أن تركتني أستعيد سيفي إن كنت تأبى طعن رجل بلا سلاح؟ أنت تدرك جيداً أنّه لا ينبغي على الشمس أن تعكس ظلّينا الاثنین معاً، وأنّه يتوجّب على الأرض أن تبتلع أحدنا.

- أنصتْ إليّ بانتباه، أجب أوكتاف. إنّ سعادتك بين يديّ. يمكنني المحافظة دائماً على هذا الجسد الذي أسكنه اليوم والذي تعود ملكيته الشرعية إليك أنت: يسرّني الاعتراف بذلك حالياً لعدم وجود شهود قربنا، ولكون الطيور وحدها هي التي يمكنها سماعنا من دون الذهاب لإفشاء السرّ؛ لو عدنا إلى المباراة لقتلتك. فالكونت أولاف لابنسكي الذي أمثله بأقلّ سوء ممكن، هو أقوى في المسابقة من أوكتاف دو سافيل الذي تمتلك أنت الآن شكله، والذي سوف أضطرّ، ولو متأسّفاً، إلى قتله؛ وهذا الموت، وإن لم يكن واقعياً، بما أنّه سيُقي على روحي، من شأنه أن يُحزن أُمّي».

أدرك الكونت صدق هذه الملاحظات، وحافظ على صمت كان يشبه الموافقة.

«لن تتوصّل أبداً، إنّ اعترضتُ أنا على ذلك، إلى استعادة شخصيتك؛ تابع أوكتاف القول، وها أنتذا ترى إلى أين وصلت محاولتنا الاثنان.

وأني محاولات أخرى سوف تجعل منك شخصاً يعاني من هوس أحاديّ. ولن يصدّق أحد أية كلمة من مزاعمك، وعندما تدّعي أنك الكونت أولاف لابنسكي، سوف يضحك الجميع في وجهك، وهو ما بدأت تقتنع به. سوف يجسّونك، وتقضي ما تبقى من حياتك في الاحتجاج، حتّى تحت رشاش الدش، بأنك فعلاً زوج الكونتيسة الجميلة براسكوفي لابنسكا. وسوف تقول الأرواح المشفقة وهي تسمعك: «يا لهذا المسكين أوكتاف!» سوف تظلّ مهملاً مثل شخصيّة شابير عند بلزك، الذي ظلّ يحاول البرهنة للآخرين على أنه لم يمت⁽¹⁾.

كان ذلك من الدقّة المحسوبة كما في الرياضيات بحيث أنّ الكونت انهار وترك رأسه يسقط على صدره.

«وبما أنك حالياً أوكتاف دو سافيل، فلا شك أنك فتشت أدراجه وتصفّحت أوراقه؛ ولم تعد تجهل أنه منذ ثلاث سنوات يكنّ للكونتيسة براسكوفي لابنسكا حباً هائجاً، بلا أمل، وقد حاول اجتثائه من قلبه من دون طائل، لكنّه لن ينتهي إلّا مع انتهاء حياته، هذا إذا لم يرافقه إلى القبر. - نعم، أعرف ذلك، قال الكونت وهو يعصّ على شفّيته.

- إذن، ومن أجل الوصول إليها، استخدمتُ وسيلة فظيعة، مرعبة، لا يمكن إلّا لشغف هذيانيّ أن يجازف بها. جرّب الطبيب شيربونو من أجلي عملاً بزّ به كلّ صانعي المعجزات في كلّ البلدان وفي كلّ القرون. فبعد أن نؤمّ كلينا غير ما يُعطي روحينا بطريقة مغناطيسيّة. معجزة غير مجدية! سأعيد إليك جسدك: براسكوفي لا تحبّني! ففي شكل الزوج تعرّفت على روح العاشق؛ تجمّدت نظرتها عند عتبة غرفة الزوجيّة كما

(1) ظلّ الكولونيل شابير Le Colonel Chabert، بطل رواية لبلزك Balzac تحمل الاسم نفسه عنواناً، يعاني من إعلان خاطئ عن موته ويواجه صعوبة في دفع الآخرين إلى الاعتراف بهويته.

في حديقة فيلاً سالفياقي».

خالط نبرة أوكتاف كدر كان من الصدق إلى درجة أن الكونت أضفى تصديقاً على كلماته.

«أنا عاشق، أضف أوكتاف مبتسماً، ولست لصاً؛ وبها أن الثروة الوحيدة التي رغبت فيها على وجه هذه الأرض لا يمكنني امتلاكها، لا أرى سبباً في امتلاك سنداتك وقصورك وأراضيك وأموالك وخيولك وأسلحتك. - هيا، ناولني ذراعك، ولتظاهر بالصّلح، ولنشكر شاهدينا، ولنأخذ معنا الدكتور شيربونو، ولنعد إلى المختبر السحريّ الذي خرجنا منه متغيّريّ المظهر؛ سوف يتمكن البرهميّ العجوز من حلّ ما ربّط».

«سادي، قال أوكتاف، وهو لا يزال يمثل لبضع دقائق دور الكونت أولاف لابنسكي، لقد تبادلنا، خصمي وأنا، توضيحات سرّية تجعل متابعة المواجهة بلا جدوى. لا شيء يجلو الأفكار لدى الرجال الشرفاء مثل طعن النصال».

عاد السيدان زمواشكي وسيولفيدا إلى عربتيهما. وصعد ألفرد هومير وغوستاف رايمبو مركبتهما المغلقة. أما الكونت أولاف لابنسكي وأوكتاف دو سافيل والطبيب بالتازار فقد توجّهوا مباشرة إلى شارع الروغار.

12

خلال المسيرة بين غابة بولونيا وشارع الروغار، قال أوكتاف دو سافيل للدكتور شيربونو:

«أيها الدكتور العزيز، سأخضع علمك للتجربة مرّة أخرى: ينبغي إعادة روحينا إلى موطنهما الأصليّ. وهذا لن يصعب عليك تحقيقه؛ وأمل

ألا يحقد عليك السيد الكونت لابنسكي لأنك جعلته يبادل قصرًا بكوخ،
ويُسكن شخصيته اللامعة في شخصي البائس، لبضع ساعات. وليس من
شأنك الخوف من أي انتقام ما دمت تمتلك كل هذه القوة».

بعد أن أبدى الطبيب بالتازار شيربونو علامة موافقة قال: «ستكون
العملية أبسط بكثير هذه المرة منها في المرة السابقة؛ فالعروق الخفية التي
تشدّ بالروح إلى الجسد سبق لها أن قُطعت منذ وقت قريب عندكما ولم
تتمكّن من نيل وقت إضافي كي تلتحم من جديد، يضاف إلى ذلك أن
إرادتيكما لن تقفًا حاجزاً من ذلك النوع الذي تقيمه المقاومة الغريزية
لدى المنوم لمواجهة المنوم. ولعلّ السيد الكونت سوف يسمح عالماً
عجوزاً مثلي لعدم مقاومته الرغبة في إجراء تجربة لا نجد لها متطوعين
كثيرين، إذ أنّ هذه المحاولة لم تنفع بالأحرى إلا في التأكيد الرائع على
فضيلة تدفع بالرهاقة إلى درجة التنبؤ، وتتنصر حيث يسقط غيرها.
سوف تنظر، إن رغبت، إلى هذا التحوّل المؤقت، مثل حلم غريب، وربّما
كففت فيما بعد عن الغضب من تجربة هذا الإحساس الغريب الذي لم
يعرفه إلا قلة من البشر، إحساس الإقامة في جسدين. إنّ التقمص ليس
مذهباً جديداً؛ غير أنّ الأرواح، قبل هجرتها إلى وجود آخر، تشرب من
كأس النسيان، ولا يمكن لكلّ الناس أن يتذكروا، مثل فيثاغورس، أنّهم
حضرُوا حرب طروادة»⁽¹⁾.

- إنّ نعمة عودتي للإقامة في شخصيتي، أجباب الكونت بتهذيب،
تعادل نكدة نفيي عنها، أقول هذا دون نية سيئة تجاه السيد أوكتاف

(1) حسب ديوجين اللايرسي Diogenès Laertios، روى فيثاغورس لهيراكلي البونتيّة
Heraclea Pontica سلسلة تحولاته التي يقول إنه كان لا يزال يتذكّرها بفضل نعمة خاصّة
من هرمس. فخلال حرب طروادة تجسّد في شخصيّة أوفوربوس، وقد ممكّن مينيلاس من
إصابته بجرح.

دو سافيل الذي مازلته حتى الآن، والذي سأكف بعد قليل عن أن أكونه».

ابتسم أوكتاف بشفتي الكونت لابنسكي لسماح هذه الجملة التي لا تبلغ وجهتها إلا عبر غطاء غريب، وعمّ الصمت بين الأشخاص الثلاثة وقد صار الحوار بينهم صعباً بسبب وضعهم غير الطبيعيّ.

كان أوكتاف المسكين يفكر في أمه المتلاشي، ولا بدّ من الاعتراف بأن أفكاره لم تكن ذات ألوان وردية تحديداً.

فعلى غرار العشاق المرفوضين، كان لا يزال يتساءل لماذا لم يكن محبوباً، وكأنّ الحبّ يحتمل سؤال «لماذا!» إنّ السبب الوحيد الذي نستطيع الإجابة به هو «لأنّ...»، وهو جواب منطقيّ في ايجازه العنيد، تواجه به النساء كلّ الأسئلة المربكة. وفي تلك الأثناء كان قد اعترف بالهزيمة كما أحسّ بأنّ نابض الحياة، الذي شدّ عنده من جديد لوقت قصير بواسطة الطبيب شيربونو، قد تحطّم مجدداً وصار يدويّ في قلبه مثل نابض ساعة تُركت تسقط على الأرض. لم يكن أوكتاف راغباً في جعل أتمه تخزن بسبب انتحاره، وهو يبحث عن موضع ينطفيء فيه بصمتٍ من جزاء حزنه غير المعرّف علمياً إلا باسم المرض المقبول. لو كان رسّاماً، أو شاعراً، أو موسيقاراً، لبلورَ ألمه في روائع فنية، ولحلقت براسكوفي فوق إلهامه مثل ملاك مضيء، مرتديةً الأبيض، متوجّةً بالنجوم، شبيهةً ببياتريشي دانتي؛ لكننا قلنا ذلك في بداية هذه الحكاية، فأوكتاف، رغم تعلّمه وتميّزه، لم يكن من عقول النخبة التي تطبع في هذا العالم أثيرَ مرورها. كان يمتلك روحاً متسامية بغموض، ولا يعرف إلاّ الحبّ والموت.

دخلت العربة إلى باحة القصر القديم في شارع الروغار، وهي باحة ذات بلاط معشوشب فتحت فيه أقدام الزوّار درباً، وتغرقة جدران المباني

الرمادية العالية بالظلال الباردة مثل تلك التي تنزل من أقواس أروقة دير: كان الصمت والجمود يسهران عند العتبة مثل تماثيل لامرئيتين لحماية تأملات العالم.

نزل أوكتاف وألكونت، واجتاز الطيب السلم الصغير بخطوات أخف مما يُتوقع في عمره، من دون الاتكاء على الذراع التي مدها له خادم المقصورة مع ذلك التهذيب الذي يخصه خدم البيوت الكبيرة للأشخاص الضعيفين أو المستئين.

ما إن أُغلق الباب المزدوج خلف أولاف وأوكتاف حتى أحسّا بأنهما مطوّقان بذلك المناخ الحارّ الذي يذكر الطيب بمناخ الهند، وهو المكان الوحيد الذي يستطيع التنفّس فيه بارتياح، لكثته المكان الذي يكاد يخنق الناس الذين لم يتحمّصوا مثله ثلاثين عاماً تحت الشمس الاستوائية. كانت تجسيدات فيشنو لا تزال تكثّر في إطاراتها، أغرب في النهار منها تحت الإضاءة؛ وكان شيفا الإله الأزرق يتسم هائلاً فوق قاعدته، ودورغا⁽¹⁾ عاضّة شفتها الخشنة بأسنانها الخنزيرية، فتبدو محرّكة مسبحتها المتكوّنة من جماجم. كان المسكن يحافظ على ما يثيره من انطباعات غريبة وسحرية.

وجّه الطيب بالتازار شيربونو تابعيه الاثنين إلى الغرفة التي أُجريت فيها عملية الاستبدال الأولى؛ أمر بإدارة القرص البلوري في الآلة الكهربائية، وحرك قضبان الحديد في السطل المسمرّي، وفتح فوهات الحرارة بطريقة تسهّل رفع درجة الحرارة بسرعة، وقرأ سطرين أو ثلاثة من أوراق رقّ برديّ كانت من القدم إلى درجة أنّها كانت تبدو مثل لحاء قديم يوشك على التحوّل إلى غبار، وبعد مضيّ بضع دقائق، قال لأوكتاف

(1) الربة دورغا امرأة ذات عشر أذرعاً.

وللكونت:

«أيها السيدان، أنا رهن تصرّفكما؛ هل تريدان أن نبدأ؟»

أثناء انهماك الطيب في تلك التحضيرات كانت أفكار مقلقة تعبر رأس الكونت.

«بعد تنويمي، ماذا سيفعل بروحي هذا الساحر العجوز، ذو وجه قرد الماكاك الذي يمكن أن يكون الشيطان شخصياً؟ أيعيدها إلى جسدي أم يحملها معه إلى الجحيم؟ وهذا التبادل الذي يُفترض أنه سيعيد لي ما هو ملكي، ألا يكون مجرد فخ جديد، معادلة مكيفيلية من أجل أعمال سحرية أجهل مراميها؟ مع ذلك لا يمكن أن يزداد وضعي سوءاً. أوكتاف يمتلك جسدي، وكما عبّر جيداً في الصباح، وصارحني به وأنا بشكلي الحاليّ، قد يجسسونني بوصفي مجنوناً. ولو أنه أراد التخلص منّي نهائياً لما تطلّب منه ذلك سوى دفعة من حدّ سيفه؛ كنت منزوع السلاح، تحت رحمته؛ ولا دخل لعدالة البشر في هذا الوضع؛ فشرط المباراة كانت نظاميّة وتمّ كلّ شيء وفق المؤلف. هيّا! لنفكّر في براسكوفي، ولا مجال للزّوع الصبياني! فلنجرّب الوسيلة الوحيدة التي بقيت لي كي أستعيدها!»

وتناول مثل أوكتاف قضيب الحديد الذي قدّمه له الطيب بالتازار شيربونو.

وسرعان ما سقط الرجلان المصعوقان بالنواقل المعدنية المبالغ في شحنها بتيّار مغناطيسيّ، في حالة من التلاشي العميق الذي كان يمكن أن يلوح شبيهاً بالموت بالنسبة لأيّ شخص غير مطلع على الأمر: أدّى الطيب حركات التنويم باليد، وأكمل الطقوس، ونطق بالنبرات الصوتية كما في المرّة الأولى، وما لبثت أن ظهرت شرارتان صغيرتان فوق أوكتاف والكونت مع ارتعاشات ضوئية. أعاد الطيب روح الكونت

أولاف لابنسكي إلى مقرها الأول، بعد أن تبعث حركة المنوم بتحليق عجل.

وفي تلك الأثناء، كانت روح أوكتاف تتعد ببطء عن جسد أولاف، وعوض أن تلتحق بجسده، صارت تعلقو، وتعلو، وكأنها في غمرة الفرح بالتحرر، ولم يظهر عليها أنها تكترث للدخول في سجنها. أحسّ الطبيب بشفقة تجاه تلك الروح التي كانت تخفق بجناحيها، وتساءل عما إذا كان من قبيل فعل المعروف إرجاعها إلى وادي البؤس ذاك. خلال تلك الدقيقة من التردد، ظلّت الروح تعلقو أكثر. تذكّر السيد شيربونو دوره، وكزّر باللّهجة الأكثر حسماً تلك الكلمة التي لا تُقهر ذات المقطع الصوتيّ الواحد، وأجرى بيده حركة تنويم ساطعة العزيمة؛ كانت الشرارة الصغيرة المرتعشة قد بلغت موضعاً خارج دائرة الجاذبية، فاخرقت أعلى زجاجة في النافذة، واختفت.

كفّ الطبيب عن بذل جهود كان يدرك أنها غير مجدية وأيقظ الكونت الذي شاهد نفسه في مرآة بملامحه المعتادة، فأطلق صرخة فرح، وألقى نظرة على جسم أوكتاف الذي كان ما يزال بلا حراك وكأنه يريد أن يثبت لنفسه جيّداً أنه تخلّص نهائياً من ذلك الغلاف، وانطلق خارجاً، بعد مصافحة السيّد بالتازار شيربونو.

«آه! يا خرطوم غانيشا!»⁽¹⁾ هتف تلميذ براهما مدينة إليفانتا بعد ذهاب الكونت، هذه قضية مكربة؛ لقد فتحت باب القفص، خلّق الطائر، وهوذا الآن خارج دائرة هذا العالم، صار أبعد من أن يتمكن حتى السنياسي براهما-لوغوم ذاته من الإمساك به؛ وأمكث هنا متحملاً مسؤوليّة جثة.

(1) إله هندوسي في شكل فيل. يعرف أيضاً بأسماء أخرى مثل غاناباتي وفغنيشا. وهو ابن شيفا.

أستطيع تذويبها في حمام آكأل تكون طاقته من القوّة بحيث لا تبقى منها ذرّة واحدة ذات قيمة، أو تحويلها خلال بضع ساعات إلى مومياء فرعون تشبه تلك التي تضمّها الصناديق المخطّطة بالهيروغليفية؛ لكنّ، قد يشرعون في إجراء تحرّيات، ويفتّشون مسكني، ويفتحون صناديقي، ويُخضعونني إلى كلّ أنواع الاستجواب المضجرة..».

وهنا اخترقت ذهن الطيب فكرة ساطعة؛ تناول ريشة وخطّ بسرعة بضعة سطور على ورقة ووضعها في درج مائدته.

كانت الورقة تحتوي على هذه الكلمات:

«بما أنّني لا أهل لي ولا قريب، فلإني أوصي بكلّ ثروتي إلى السيّد أوكتاف دو سافيل، الذي أكنّ له مودّة خاصة، شرط التزامه بأن يهب منها مئة ألف فرنك إلى المستشفى البرهميّ في سيلان، من أجل الحيوانات المسنّة والمتعبّة أو المريضة، ودفع ألف ومئتي فرنك كإيراد مدى الحياة لخادمي الهنديّ وخادمي الإنجليزيّ، وتسليم مخطوطة قوانين مانو إلى مكتبة مازارين.»⁽¹⁾

هذه الوصيّة الموجهة من حيّ إلى ميت ليست من الأشياء الأقلّ غرابة من قبل هذا الكونت الوهميّ والحقيقيّ في آن؛ غير أنّ هذه الميزة الفريدة ستوضّح حالاً.

لمس الطيب جسم أوكتاف دو سافيل الذي لم تغادره حرارة الحياة بعد، ونظر في المرآة إلى وجهه المجعد والمذبوغ والخشن مثل الجلد المحبّب، نظرة كلّها ازدراء شديد، وأجرى عليه الحركة التي نقوم بها عندما نرمي بثوبنا القديم عندما يقدم لنا الخياط ثوباً آخرَ جديداً، وهمس

(1) ترجم لوازور-دولونشان Loiseleur-Delongchamps كتاب «شريعة مانو» *Les Lois de Manou* إلى الفرنسية سنة 1883 ويبدو أنّ المؤلف قد استفاد من هذا الكتاب حول المذهب البرهميّ.

بلغز السنياسي براهما-لوغوم.

وفي الحال تدرج جسد الطيب بالتازار شيربونو فوق السجادة كأنه مصعوق، ونهض جسد أوكتاف دو سافيل قوياً، نشيطاً وحيوياً.
لبث أوكتاف-شيربونو واقفاً بضع دقائق أمام تلك الجثة الهزيلة العظيمة الدكاء التي فقدت دعم روح قوية كانت تنعشها قبل قليل، فظهرت عليها حالاً علامات الشيخوخة الأكثر تقدماً، وسرعان ما اتخذت مظهر الجثة.

«وداعاً أيها الشلو البشريّ البائس، يا خرقة تافهة مثقوبة عند الكوع، ومفتقة من كلّ جانب، وقد جررته سبعين عاماً عبر أصقاع العالم الخمسة! لقد قدمت لي خدمة لا يستهان بها، ولا أعادرك دون بعض الأسف. العيش الطويل معاً يكسبنا تعوداً متبادلاً! لكن داخل هذا الغلاف الفتّي، الذي سوف يتوصّل علمي قريباً إلى جعله أكثر قوة، يمكنني الدراسة والعمل وقراءة المزيد من الكتاب الكبير، دون أن تغلقه الحياة في الفقرة الأهمّ قائلة: «كفى!»

بعد هذا التأين الموجه إليه شخصياً، خرج أوكتاف-شيربونو بخطوة هادئة قاصداً امتلاك وجوده الجديد.

كان الكونت أولاف لابنسكي قد عاد إلى قصره واستفسر فوراً عما إذا كانت الكونتيسة تستطيع استقباله.

وجدها جالسة على دكة معشوشبة، داخل المستنبت الزجاجي الذي كانت ألواح الكريستالية المرفوعة إلى النصف تسمح بمرور هواء فاتر ومضيء، وسط غابة بكر حقيقية من النباتات المجلوبة والاستوائية؛ كانت تطالع نوفاليس، أحد الكتاب الأكثر براعة، ورقة أثرية تمن أنتجهم المذهب الروحي الألماني؛ فالكونتيسة لم تكن تحب الكتب التي

ترسم الحياة بألوان حقيقية وقوية، وكانت الحياة تبدو لها فظة نوعاً ما، نظراً لكونها عاشت في عالم من الأناقة والحب والشعر.

رمت بكتابتها ورفعت عينها ببطء نحو الكونت. كانت لا تزال تخشى أن تلتقي في حدقتي زوجها السوداوين تلك النظرة الملتهبة العاصفة المحتملة بأفكار غريبة، تلك التي أربكتها بألم مضمّن، وكانت تبدو لها - في خشية جنونية، أو فكرة مخالفة للصواب - نظرة شخص آخر!

في عيني أولاف كانت تشع فرحة رائقة، ويشعل حب طاهر ونقي على نار ثابتة؛ والروح الغريبة التي غيرت تعابير ملامحه طارت إلى الأبد: تعرّفت براسكوفي فوراً على حبيبها أولاف، وشابت حمرة سريعة من اللذة خديها الشفافين. ومهما تكن جاهلةً للتحوّلات التي أجراها الطبيب شيربونو، فإنّ رهافة حسّها التي تشبه النبتة المستحية⁽¹⁾ تمكّنت من تخمين كلّ تلك التغييرات من دون أن تكون قد علمت بها.

«ما ذا كنتِ تطالعين هناك، عزيزتي براسكوفي؟ قال أولاف ملتقطاً من فوق العشب الكتاب المجلّد باللون الأزرق. آه! إنها حكاية هاينريش فون أوفتردنغن⁽²⁾، وهو المجلّد نفسه الذي أطلقت لجوادي العنان لأبحث لك عنه في مدينة موهيليف، ذات يوم عندما أهديت رغبة في الحصول عليه ونحن على مائدة الطعام. في منتصف الليل كان على منضدتك الصغيرة، بجانب فانوسك؛ لكنّ الحصان رالف ظلّ أيضاً منتفخ الرئة من تلك الرحلة!

- وقلتُ لك إنّني لن أعود إلى إظهار أيّ نزوة أمامك. إنك تشبه في طباعك ذلك السيّد الإسباني الذي كان يتوسّل إلى حبيبته ألا تنظر

(1) الحساسة أو المستحية: جنة من الفصيلة القرنية تُزرع للفرابة الكامنة في فرط حساسيتها.

(2) «هاينريش فون أوفتردنغن». *Heinrich von Ofterdingen*: عنوان رواية للشاعر الرومنطقيّ الألماني نوفاليس (1772-1801) نُشرت بعد موته.

إلى النجوم لأنه لا يستطيع تقديمها لها.

- لو نظرتِ إلى إحداهما، أجب الكونت، لحاولتُ الصعود إلى السماء والذهاب لطلبها من الإله».

كانت الكونتيسة، أثناء إصغائها لزوجها، تردّ خصلة فالتة من مشبك شعرها تلمع مثل شعلة في شعاع ذهبيّ. تلك الحركة أدتْ إلى انزلاق كمها وتعرية ذراعها الجميلة التي تلتفّ حول معصمها عظاية مرصّعة بالفيروز، كانت تضعها يوم الظهور في الكاتشيني، اليوم المشؤوم بالنسبة لأوكتاف.

«ما أشدّه من خوف، قال الكونت، ذلك الذي تسيّبت لك فيه سابقاً تلك العظاية الصغيرة المسكينة والتي قتلتها أنا بضربة من عصا الخيزران عندما نزلتِ إلى الحديقة لأول مرّة تلبيةً لطلباتي الملحة! أوصيتُ بصبيّها في قالب ذهبيّ وزخرفتها ببعض الأحجار الكريمة؛ لكن، حتى في تحوّلها إلى قطعة حلي ظلّت تبدو لك مفزعة، ولم تقرّري وضعها إلا بعد مرور وقت طويل.

- أوه! الآن تعودتُ عليها تماماً، وصرت أفضلها على كلّ جواهري، لأنّها تعيدني إلى ذكرى عزيزة.

- نعم، تابع الكونت؛ في ذلك اليوم اتفقنا على أن أرسل في طلبك من عمّتك، في الغد، رسمياً من أجل الزواج».

بعد أن استردّت الكونتيسة نظرة أولاف الحقيقيّ ونبرته، وقفت مطمئنة إلى تلك التفاصيل الحميمة، فابتسمت له وأمسكت بذراعه ورافقته في جولة داخل المستنبت الزجاجي، وكانت، لدى مرورها، تقتلع بيدها التي ظلّت متحرّرة بعض الزهور فتعصّ بتلاتها بشفتيها

النديتين، مثل فينوس التي رسمها سكيافوني⁽¹⁾ تأكل الورد.

«بما أنك تتمتع بذاكرة ممتازة اليوم، قالت وهي ترمي بالزهرة التي كانت تقطعها بأسنانها اللؤلؤية، لا بد أنك استعدت استخدام لغتك الأم... التي كفتت عن معرفتها البارحة.

«أوه! أجاب الكونت بالبولندية، هي اللغة التي سوف تتكلمها روحي في السماء لتقول لك «أحبك»، إن كانت الأرواح تحافظ على لغة بشرية في الجنة».

أثناء سيرها أحنت براسكوفي رأسها بلطف على كتف أولاف.
«يا قلبي العزيز، همست، ها أنتذا كما أحبك. لقد أخفتني بالأمس، وهربت منك كما لو من شخص أجنبي».

في الغد، بعد أن انتعش أوكتاف دو سافيل بروح الطبيب الهرم، استلم رسالة ذات حاشية باللون الأسود تلمس منه الحضور إلى قداس السيد بالتازار شيربونو وموكب جنازته.

تبع الطبيب، وهو في مظهره الجديد، جثمانه القديم في المقبرة، ورأى نفسه يُدفن، واستمع بمظهر رصين مصطنع إلى كلمات التأبين التي أُلقيت على قبره، وكان فيها رثاء للخسارة الفادحة التي تكبدها العلم؛ ثم عاد إلى شارع سان لازار وانتظر فتح الوصية التي كتبها لصالحه.

في ذلك اليوم نشرت صحف المساء، في صفحة الحوادث:

«السيد الدكتور بالتازار شيربونو، المعروف بإقامته الطويلة في الهند، وسعة معارفه في مجال الفقه اللغوي، وبمداواته الرائعة، وُجد ميتاً، بالأمس، في مكتب عمله. واستبعد الفحص الدقيق للجنة فكرة الجريمة

(1) أندريا سكيافوني Andrea Schiavone (حوالي 1510-1563): رسّام ونحات إيطالي من مدرسة البندقية، تميّز بألوانه الجريئة.

استبعاداً كاملاً. ويبدو أنّ السيّد شيربونو ناء تحت وطأة متاعب ذهنيّة مفرطة أو مات خلال إحدى التجارب الجريئة. ويُقال إنّ وصيّةً بخط اليد عُثِرَ عليها في مكتب الطبيب توصي بتوريث مخطوطات نفيسة جدّاً إلى مكتبة مازارين، وتسمّى وريثاً له فتىً ينتمي إلى عائلة مرموقة، هو السيّد أ. دو س.».«

جتاتورا⁽¹⁾

كانت «الليوبولد»، وهي سفينة بخارية رائعة من توسكانا تؤمن رحلة بين مرسيليا و نابولي، قد تجاوزت رأس بروتشيدا. وكان الركاب كلهم على جسرها، بعد شفائهم من دوار البحر برؤية اليابسة، وهي أكثر نجاعة من حلوى مالطا والوصفات الأخرى المستخدمة في مثل هذه الحال.

على سطح السفينة، وفي القسم المخصص لركاب الدرجة الأولى، كان هناك بعض الإنجليز المثابرين على تبادل الانعزال بعضهم عن بعض إلى أقصى حد ممكن ورسم دائرة فاصلة غير قابلة للاختراق؛ كانت وجوههم السوداء حليقة بعناية، وربطات أعناقهم لا تشوبها طية في غير محلها، وياقات قمصانهم البيضاء المتبسة تشبه زوايا ورق البريستول⁽²⁾؛ وقفازات جلدية من السويد جديدة تماماً تغطي أيديهم، بينما برنيق اللورد إليوت⁽³⁾ يلتصق على أحذيتهم الجديدة. كان يمكن القول إنهم يخرجون من إحدى مقصورات زينتهم: ما من إخلالات صغيرة في أزيائهم المضبوطة، وهي إخلالات معتادة أثناء السفر. كان يوجد بينهم لوردات، وأعضاء في مجلس العموم، وتجار المدينة، وخطاطون من ريجتس ستريت وصانعو

(1) نُشرت للمرة الأولى في صحيفة *Le Moniteur universel*، في الأعداد من 25 حزيران إلى 23 تموز 1856. و«الجتاتورا» اعتقاد شعبي سائد في كورسيكا وجنوب إيطاليا، خصوصاً في نابولي حيث تدور أحداث هذه القصة، وتعني المفردة «جتاتورا» العين الشتريرة.

(2) ورق مقوى صقيل منسوب إلى مدينة بريستول في إنجلترا.

(3) اللورد إليوت Lord Eliott : سياسي ودبلوماسي بريطاني (1798 - 1877).

سكاكين من شيفيلد كلهم لاثقون، كلهم صارمون، كلهم جامدون، كلهم ضجرون. ولم تكن النساء غائبات بدورهنّ، ذلك أنّ الإنجليزيّات لسن من الحضر المقيمين كما هو شأن نساء البلدان الأخرى، ويتنهزن أبسط تعلّة لمغادرة جزيرتهمّ. قرب سيّدات الطبقة العليا والنساء المتزوّجات، حيث الجمال في خريفه، مع بروز مرض الحمرة الوردية يخطّط بشرتهمّ، تتألّق تحت غلالات الشاش الأزرق أنسات في مقبل العمر ذوات سحنة مجبولة بالمراهم وأحمر الشفاه، وخصلات حلزونية لامعة من الشعر الأشقر، وأسنان طويلة بيضاء تذكرّ بالنهاج المحبّبة لدى هواة الدفاتر التذكارية، وتبرئ رسوم ما وراء بحر المانش من تهمة إضفاء الخداع التي كثيراً ما توجه إليها. كانت كلّ واحدة من الفتيات الفاتنات تترنّم، بأعذب لكنة بريطانية، بالجملة الإيطالية المأثورة: «شاهد نابولي ثمّ مُتْ»⁽¹⁾، وكنّ يعدن إلى دليل السفر أو يسجلن ملاحظات انطباعيّة على دفاترهنّ، من دون الانتباه إلى الغمزات الدونجوانية من بعض الباريسيين المزهدين بأنفسهم والذين كانوا يتسكّعون حولهنّ، بينما الأمّهات الساخطات يهمنن ضدّ الاستهتار الفرنسي.

كان هناك، عند حدّ القسم الأرستقراطيّ، ثلاثة أو أربعة شباب يتجولون. وانطلاقاً من قبعاتهم التي هي من قشّ أو من لبّدرماديّ، ومن ستراتهم المنجّمة بأزرار قرنيّة كبيرة، وسراويلهم الواسعة من النسيج المحبّك، كان من السهل التعرّف على فنّانين، وهو تعيين تؤكّده، على أية حال، شواربهم المحفوظة على طريقة فان ديك⁽²⁾، وشعرهم المجعّد على

(1) « *Vedi Napoli e poi mori* » .

(2) أنطوان فان ديك Antoine Van Dick (1599-1641) رسّام فلانكي، تأثر بباولو فيزونيبي وتيسيانو وروبنز، وأصبح في فترة قصيرة رسّاماً رائداً في البلاط الملكيّ في إنجلترا.

طريقة روبنز⁽¹⁾ أو المحلوق قصيراً على طريقة باولو فيرونيزي⁽²⁾؛ وكانوا يحاولون، لكنْ لهدف مختلف تماماً عن هدف المتغدرين، التقاط ملامح بعض الحسنات اللواتي يمنعهم حظهم الضئيل من الاقتراب منهنْ أكثر، وكان هذا الانشغال يلهيهم قليلاً عن المشهد الرائع المنتشر أمام عيونهم.

عند طرف الباخرة، كان ركّاب الدرجة الثالثة المساكين يتجمّعون مستندين إلى درابزين السفينة أو جالسين على رزمات من الحبال الملقوفة وهم يستكملون زادهم الذي حال دوار البحر دون إنجائه، من دون إلقاء نظرة على أجمل مشهد في العالم، ذلك أنّ الإحساس بالطبيعة هو امتياز للعقول المثقفة التي لا تمتصّها ضروريّات الحياة الماديّة بالكامل.

كان الطقس جميلاً؛ والأمواج الزرقاء تنتشر في طبّات كبيرة فلا تكاد تتمكّن من محو أثر المخر الذي تخلفه السفينة؛ وكان الدخان المتصاعد من أنبوب المدخنة يشكّل غيوم هذه السماء الصافية، ليتبدّد ببطء في نُدْف من القطن الخفيف، وفيما تؤرّجح الشمس ألوان قوس قزح، كانت سفرات الدواليب تكدّ هائجة في غبار ماسيّ لتثير زبد الماء بنشاط بهيج، كما لو أنّها كانت عارفة باقتراب المرفأ.

خط الهضاب الطويل، من بوزيليتو إلى فيزوف، يرسم الخليج المدهش الذي تستريح خلفه نابولي مثل حوريّة بحر تنتشف على الضفّة بعد استحمامها، بدأ يكشف عن تموجاته البنفسجية، ويرسم بخطوط

(1) بيار بول روبنز Pierre Paul Rubens (1577-1640) رسّام فلامنكي، تعتبر أعماله مثلاً صارخاً على المدرسة الباروكية في فنّ التصوير، وكانت تجمع بين أسلوب المدرسة الإيطالية وواقعية المدرسة الفلامنكية.

(2) باولو فيرونيزي Paolo Veronese (1528-1588) رسّام إيطالي يُعدّ أحد زعماء مدرسة البندقية. ظهرت معظم رسومه عند نهاية عصر النهضة الإيطالية.

أوضح على لازورد السماء الساطعة؛ وشرعت بعض النقاط البيضاء ضاربة في عمق اليابسة الأكثر دكنة، تشي بحضور البيوت المنتشرة عبر الحقول الريفية. وكانت أشرعة بعض زوارق الصيد العائدة إلى المرفأ تنساب فوق الزرقة الملساء مثل ريش بجعات يطيرها النسيم، وتُظهر النشاط البشري في عزلة البحر العظيمة.

بعد بضع دورات للدفة، لاح قصر سانت إيلمو ودير سان مارتن بشكل متميز فوق قمة الجبل الذي تتكئ عليه نابولي، فوق قباب الكنائس ومصاطب الفنادق وسطوح المنازل وواجهات القصور، وخضرة الحدائق التي لا تكاد تظهر عبر بخار مضيء. وسرعان ما بدا قصر الووفو⁽¹⁾ مرفصاً على صخوره البحرية المغسولة بالزبد، وكأنه يتقدم نحو السفينة البخارية، بينما يتمدد مكسر الأمواج مع منارته مثل ذراع تمد مشعلاً.

في أقصى طرف الشرم، غير جبل الفيزوف مع اقترابه أكثر، تلك اللوينات المزرقّة التي أضفاها عليه البعد، بدرجات لونية أكثر قوّة ورسوخاً؛ تحدّث منحدراته بمجاري سيول وتدقّ حمم خامدة، ومن قمته المتبورة والمجزّعة، مثل ثقوب مجمرة عطور، خرجت بوضوح نفثات صغيرة من دخان أبيض تترججه هبة ريح.

كنا نتميز بوضوح كياتاموني، وبيتزو فالكوني، ورسيف سانتا لوتشيا بفنادقه المحاذية، وألبالاتسو ريبالي⁽²⁾ مع صفوف شرفاته، وألبالاتسو نووفو⁽³⁾ المحصّن بأبراجه ذات المشريبات، وورشة السفن، وسفن كلّ الأمم خالطة صواريتها وأعمدتها مثل أشجار غابة تجرّدت من أوراقها،

(1) قصر البيضة.

(2) القصر الملكي.

(3) القصر الجديد.

عندما خرج راكب من مقصورته، ولم يكن قد ظهر طيلة الرحلة، ربّما بسبب الدوار الذي حجزه في موضعه، أو من باب الوحشية ورفض الاختلاط ببقية المسافرين، أو أنّ هذا المشهد، الجديد بالنسبة للأغلبية، صار معتاداً لديه منذ زمن طويل ولم يعد يثير اهتمامه.

كان شاباً بين السادسة والعشرين والثامنة والعشرين، أو على الأقلّ كان ذلك هو العمر الذي يمكن أن يُنسب إليه لأوّل وهلة، لأننا إذا ما نظرنا إليه بانتباه وجدناه إما أصغر وإما أكبر، وذلك من شدة ما كان مظهره الغريب يمزج بين النضارة والإرهاق. كان شعره ذو الشقرة الداكنة يميل إلى تلك الدرجة التي يدعوها الإنجليز «أوتيرن»⁽¹⁾، ويتوهج في الشمس بانعكاسات نحاسية معدنية، بينما يلوح في الظلّ أسوداً تقريباً؛ يقدّم مظهره قسماً جليّة جداً، بجبين يمكن للمتخصّص في فراسة الدماغ أن يُعجب ببروزه، وأنف معقوف بما يوحي بالنبالة، وشففتين مرسومتين جيّداً، وذقن تذكر استدارته القويّة برسوم الميداليات العتيقة؛ ومع ذلك فإنّ كلّ تلك الملامح، الجميلة في حدّ ذاتها، لم تكن لتشكّل تكاملاً مستحبّاً. كان ينقصها ذلك التناسق الخفيّ الذي يلطف الحدود الفاصلة ويصهر بعضها في البعض الآخر. تتحدّث الأسطورة عن رسّام إيطاليّ رغب في رسم كبير الملائكة المتمرد، فركب له قناعاً من مفاتن متنافرة، وتوصّل بذلك إلى نتيجة مرعبة أكثر بكثير ممّا لو لجأ إلى رسمه بقرنين وحاجبين مدبّيين مع تكشيرة على الفم. وكان وجه الغريب يُحدث انطباعاً من ذلك النوع. فعيناه تحديداً كانتا رائعتين؛ إذ كانت الرموش السوداء في طرفيهما تتناقض مع اللّون الرماديّ الباهت للحدقتين واللّون الكستنائيّ المحمّص للشعر. والسّمك الطفيف لعظام الأنف يجعل

(1) تبتت اللّغة الفرنسية الكلمة، وتعني الأصحر أو الأسمر المحمّر Auburn.

العينين تبدوان كأنهما متقاربتان أكثر مما تسمح به مقاييس مبادئ الرسم، أما بالنسبة لتعبيرهما فكان غير قابل للتحديد حقاً. فعندما لا تنظران إلى شيء محدد ترسم فيهما كآبة غامضة، وميل إلى الوهن، في بريق رطب؛ وعندما تحدّقان بشخص أو شيء يتقارب الحاجبان وينكمشان ويشكلان تجعيدة عموديّة على جلد الجبين: وتتحوّل الحدقتان من اللّون الرماديّ إلى اللّون الأخضر، وتتبعان بنقاط سوداء، وتتحرّزان بألياف صغيرة صفراء لتنبجس منهما النظرة حادّة، بل جارحة تقريباً؛ ثم يعود كلّ شيء إلى وداعته الأولى، وتتحوّل الشخصية ذات الهيئة الشيطانية إلى شابّ بين بقيّة البشر - يمكن أن يكون عضواً في نادي فرسان السباق، إن شئتم - يسافر لقضاء العطلة في نابولي، وقد بدا عليه الارتياح لوضع قدمه على حم بلاط أقلّ حركة من جسر سفينة الليوبارد.

كان لباسه أنيقاً من دون أن يستلفت الأنظار بجزئية منبّهة: سترّة طويلة زرقاء غامقة من نوع الريدنغوت، ربطة عنق سوداء منقطة لا يشوب عقدتها تكلف ولا إهمال في آن، صدرية بلون ربطة العنق نفسها، سروال رماديّ فاتح ينزل بالغاً جزمة ناعمة، كان ذلك ما يشكّل زينته؛ وكانت السلسلة التي تحمل ساعته من ذهب خالص، وهناك شريط من الحرير الصقيل تتدلّى منه نظارته الأنفية؛ أما يده المرتدية قفازاً مُحكماً فقد كانت تحرك عكازاً صغيراً ودقيقاً من عود كرمه ملئو ينتهي بزينة فضية. تقدّم بضع خطوات على الجسر، تاركاً نظارته تتوه من غير تحديد، نحو الشاطئ الذي بدأ يقترب، وبدأت تلوح فيه عربات مسرعة، وجمهور مزدحم، بينما تتوقف جماعات من العاطلين الذين يعتبرون وصول عربة أو باخرة فرجة مثيرة دائماً، وجديدة دائماً، رغم مشاهدتهم لها ألف مرّة. كانت مجموعة من الزوارق الصغيرة وزوارق الإنقاذ قد بدأت تغادر

المرفأ مهتية لاستقبال الليوبولد، وعلى منها طواقم نذل فنادق، وخدم مؤقتون، وحمالون وأوباش متنوعون معتادون على اعتبار الغريب فريسة؛ وكان كل زورق يبذل جهوداً أكثر في التجذيف ليصل الأوّل، فيما يتبادل النوتية، كعادتهم، شتائم، ووزعياً قادراً على بثّ الرعب في الناس غير المطلعين على عادات الطبقة النابوليتانية السفلى.

كان الشاب ذو الشعر الأصحر قد وضع نظارته الأنفية، من أجل إدراك تفاصيل المشاهد المرتمسة حوله؛ غير أنّ انتباهه شرد عن المشهد الفاتن للشرم وتركز على جوقة الزعيق المتصاعد من الأسطول الصغير المتكوّن من تلك الزوارق، ولعلّ الضجيج قد أزعجه، إذ انعقد حاجباه، وتجوّفت تجعيده جبينه، وتحوّل لون حدقتيه الرماديّ إلى اللون الأصفر. حلّت موجة غير متوقّعة من عرض البحر مسرعة على سطحه، ومزبدة، ومرّت تحت السفينة البخارية، فرفعتها ثمّ تركتها تنزل ثانية ببطء، لتتحطّم على الرصيف ناشرةً رذاذها العميم، مبلّلة المتتزيهين بهذا الضرر المباغت، ثمّ أدت بسبب ارتدادها العنيف إلى ارتطام المراكب في ما بينها بقوة جعلت ثلاثة عتالين أو أربعة يسقطون في الماء. لم يكن الحادث خطيراً، فهؤلاء الظرفاء قادرون على السباحة مثل الأسماك أو الآلهة البحرية، وما هي إلّا بضع ثوانٍ حتّى ظهرُوا من جديدٍ بشعور ملتصقة في أصداعهم، باصقين الماء المالح من أفواههم ومناخيرهم، مع ذهول مؤكّد من تلك الغطسة يمكن تشبيهه بذهول تيليماك، ابن عوليس، عندما عمدت مينيرفا، متنكّرة في وجه الحكيم منطور، إلى رميه من قمّة صخرة إلى البحر كي تبعده عن حبّ أوكاريس.

خلف المسافر غريب الأطوار، وعلى مسافة محترمة، كان يقف قرب كومة حقائب ساعٍ صغير أقرب ما يكون إلى شيخ في سنّ الخامسة عشرة،

فزم بكسوة رسمية، يشبه أولئك الأفزام الذين يتعهد صبر الصينتين بتربيتهم في جرة فخار لمنعهم من التضخم؛ كان وجهه المسطح، ولا يكاد يبرز منه الأنف، كأنه مضغوط منذ الطفولة، وكان في عينيه المصقولتين مع الجلد تلك العذوبة التي يجدها بعض علماء الطبيعيات في عيني الضفدع. ما من حذبة تقوس كتفيه أو تقبب صدره؛ ومع ذلك كان يوحى بفكرة أحذب مهما تمّ البحث عن حذبته بلا طائل. وكان إجمالاً ساعياً مناسباً جداً، ليتقدّم من دون تدريب إلى مضامير السبق في أسكوت أو في شانتتي⁽¹⁾؛ وما من فارس خيول إلا وسيقبله لسوء هيئته. لقد كان كريهاً، لكنّه كان فريداً من نوعه، مثل سيّده.

تمّ النزول من الباخرة؛ وبعد تبادل الشتائم بشكل هستيري، تقاسم الحمالون الأجانب والبضائع، وقصدوا مختلف الفنادق التي تعجّ بها نابولي.

توجّه المسافر ذو النظارة الأنفية وساعيه نحو فندق روما، يتبعهما جحفل كبير من الحمالين الأقوياء الذين كانوا يتظاهرون بنضح العرق واللّهات تحت ثقل صندوق من الكرتون يجوي قبعات أو تحت علبة خفيفة، أملين بسداجة في نيل بقشيش أكبر، بينما أربعة من زملائهم أو خمسة، يُظهرون عضلات بقوة عضلات هرقل المعروف في متحف الستودي⁽²⁾، يدفعون عربة يد يرتجّ فيها صندوقان من حجم متواضع وثقل معتدل.

عند الوصول إلى أبواب الفندق وانتهاء «البادروني دي كازا»⁽³⁾ من

(1) آسكوت Ascott في بريطانيا، وشانتتي Chantilly في فرنسا.

(2) «ستودي» Studii : الدراسات (سبقت الإشارة إليها). كان المتحف الوطني يحمل اسم

«قصر الدراسات» (جامعة)، ثمّ تحوّل إلى متحف سنة 1777.

(3) بالاطالية في الأصل وتعني صاحب الدار أو معلّم النزول.

تعيين الجناح الذي سيسكنه القادم الجديد، بدأ الحمّالون، رغم أنّهم قبضوا تقريباً ثلاثة أضعاف ثمن مشوارهم، يؤدّون إشارات جامحة وخطابات تحتلّط فيها صيغ التوسّل بصيغ التهديد بنسبة هي في منتهى الفكاهة؛ كانوا يتكلّمون في وقت واحد مع ذلاقة لسان مرعبة، مطالبين بزيادة في الأجرة، ويخلفون أغلظ الأيمان بأنّهم لم ينالوا ما يكفي ثمن أتعابهم. ظلّ بادي بمفرده في مواجهتهم، إذ أنّ سيّده كان قد صعد السُلّم من دون اكرات لهذا الضجيج، فكان يشبه قرداً محاصراً بسرب كلاب شرسة: حاول تهدئة زوبعة الضجيج بخطاب قصير في لغته الأمّ، أي بالإنجليزية. ولم تنجح الخطبة كثيراً. عندئذ لجأ إلى ضمّ قبضتيه وتقريب ساعديه في مستوى صدره، واتّخذ وضع الملاكمة الدقيق، ما أثار مرحاً صاحباً لدى الحمّالين، ويتسديدة يمني جديرة بأدامس، أو توم كريس، موجهة إلى المعدة، أرسل عملاق العصابة يتدحرج منقلباً على ظهره فوق بلاط حمّ (1) الأرضية.

هذا الفعل الباهر جعل الزمرة تهرب؛ نهض العملاق ببطء، مهشماً كلّه من سقطته؛ ومن دون التفكير في الانتقام من بادي، انسحب فاركاً يديه، مع تشنجات قويّة، وقد بدأ الأثر المزرّق يقزح جلده، مقتنعاً أنّ شيطاناً لا بدّ أن يكون مخفياً تحت سترة ذلك القرد الماكاك، الذي لا يمكنه في أحسن الأحوال إلّا أن يكون فارساً على ظهر كلب، وكان يعتقد أنّ في إمكانه قلبه بمجرد نفخة.

طلب الغريب حضور البادروني دي كازا، وسأله عمّا إذا كانت رسالة باسم السيّد بول دابرومون قد سلّمت إلى فندق روما؛ أجاب صاحب الفندق بأنّ رسالة تحمل هذا الاسم تنتظر فعلاً منذ أسبوع، في صندوق

(1) تنكّر الإشارة إلى الحمم البركانية وإلى طفح البركان تلميحاً إلى بركان فيزوف في نابولي.

المراسلات، وأسرع لإحضارها.

كانت الرسالة مغلّفة بظرف من ورق سُكّري سميك، مزرّق ومسلك، مهورّة بختم شمعيّ من البارقين⁽¹⁾، وكانت مكتوبة بذلك الخطّ ذي الحروف المائلة عند اكتمال الزوايا، الخطّ الرفيع والسريع الذي يشي بتريّة أرسقراطية عالية، لا تمتلكها، ربّما بنمط واحد مبالغ في تشابهه، إلّا فتيات العائلات الإنجليزيّة الراقية.

هوذا محتوى المغلّف الذي فتحه السيّد دابرومون بلهفة ربّما لم يكن الفضول سببها الوحيد:

«عزيزي السيّد بول، لقد وصلنا إلى نابولي منذ شهرين. وخلال الرحلة التي تمّت ضمن مراحل قصيرة، اشتكى عمّي بمرارة من شدّة الحرارة، والبعوض، والنيّذ، والزبدة، والأسرة؛ وصار يحلف بأنّ على المرء أن يكون مجنوناً حقّاً حتّى يغادر بيتاً ريفياً أنيقاً على بعد بضعة أميال من لندن، ويتجوّل في دروب مغبرة توجد فيها نزل كريمة، لا ترغب حتّى الكلاب الإنجليزيّة الشريفة تمضية ليلة فيها؛ لكنّه أثناء تدمره كان يتبعني، وكنت مستعدّة لمرافقته حتّى آخر العالم؛ لم يكن وضعه الصحيّ أسوأ، وأنا أيضاً تحسّنت حالي. أقمنا عند شاطئ البحر، في بيت مطلي بالكلس ومحشور داخل نوع من الغابة البكر المتكوّنة من أشجار برتقال وليمون وآس ودفلى ونباتات أخرى غريبة جداً بالنسبة لنا. نتمتّع بمشهد رائع من أعلى الشرفة، وفي كلّ مساء تجد فنجان شاي أو عصير ليمون بالثلج حسب اختيارك. عمّي الذي سحرته، ولست أدري كيف، سوف يكون مسروراً بمصافحتك. وهل من الضروريّ أن أضيف أنّ خادمك أيضاً لن تعارض ذلك، رغم أنّك قطعّت أصابعها بخاتمك، وأنت

(1) حجر البرق.

تودّعها عند مكسر رصيف فولكستون⁽¹⁾.
«أليسيا و».

2

بعد أن تناول بول دابرومون وجبة العشاء في غرفته، طلب إحضار عربة خيل. حوذيو عربات كثيرون يتوقفون دائماً حول الفنادق الكبيرة، ولا ينتظرون إلا نزوات المسافرين، وهكذا تمت تلبية رغبة بول فوراً. خيول الأجرة في نابولي هزيلة جداً إلى حدّ تظهر معه روئيته⁽²⁾ في منتهى السمّنة، رؤوسها خالية من اللحم، وضلعها بادية مثل حلقات براميل، وفقرات ظهورها الناتئة مسلوخة دائماً حتّى لتبدو كأنّها تتوسّل من باب المعروف سكّين الجزائر، ذلك أنّ تقديم القوت للحيوانات يعتبر عناية غير مجدّية في عرف اللامبالاة الذي يميّز جنوب أوروبا؛ حتّى عدّة الفرس تكون ممزّقة في أغلب الأوقات، وتُضاف إليها بعض الحبال، وعندما يستجمع الحوذويّ عنانه ويتمطّق بلسانه من أجل الانطلاق، يذهب الاعتقاد بالراكب إلى أنّ الخيول ستصاب بالدوار والعربة ستبتخر مثل عربة سندريلا لدى عودتها من الحفلة بسبب حلول موعد منتصف الليل، رغم وصية الساحرة.

لكن لا شيء يحصل من ذلك، فالخيول تتصلّب عند قوائمها، وبعد بضعة ترنّحات تشرع في عدو لا تتوقّف عنه: يعديها الحوذويّ باحتداه وتتمكّن فتيلة سوطه من قده آخر شرارة حياة مختبئة داخل تلك الهياكل العظمية. يكذّف الفرس، يحرّك رأسه، يتخذ مظهرأ يقظاً، تجحّظ عيناه،

(1) مدينة إنجليزية على ساحل بحر المانش.

(2) روئيته (أي الصهباء) Rocinante هي فرس دونكيخوته في رواية ثرباتيش الشهيرة.

ويتوسّع منخراه، ثم ينطلق بسرعة لا يمكن لأسرع خيول الخشب الإنجليزية مجاراتها. كيف تحصل هذه الظاهرة، وما القوّة التي تجعل حيوانات ميتة تركض بتلك السرعة الكبيرة؟ هذا ما لن نفسره. لا سيّما أنّ هذه المعجزة تحدث يومياً في نابولي ولا أحد يعتر عن شعوره بالمفاجأة منها.

كانت عربة السيّد دابرومون تطير مخترقةً الجمهور الكثيف، محاذية دكاكين باعة العصير ذات عناقيد اللّيمون، ومطابخ المقالي أو المعكرونة في الهواء الطلق، ومعروضات أصداف البحر، وأكداس البطيخ الأحمر المرتبة في الطريق العام مثل الكرات في باحات سلاح المدفعية. وكان الصعاليك المتمدّدون عند الجدران مرتدين معاطفهم القصيرة، لا يكادون يتنازلون بسحب أرجلهم لتفادي إصابتهم بمرور العربة؛ وفي بعض الأحيان كانت عربة نقل من نوع الكوريكولو مسرعة بعجلتها الكبيرتين القرمزيتين، محمّلة بحشد من الرهبان والمرضعات والحمالين والمتسكّعين، تمرّ محاذية العربة فتلامس محورها وسط غيمة من الغبار والضجيج. لقد تمّ حظر الكوريكولات حالياً، وصار يُمنع صناعة عربات جديدة منها؛ لكنّ يمكن إضافة صندوق جديد إلى عجلات قديمة، أو عجلات جديدة إلى صندوق قديم: وسيلة حاذقة تسمح لتلك المركبات العجيبة بالاستمرار أكثر مع إرضاء محبّي اللون المحليّ.

لم يكن مسافرنا يولي اهتماماً كبيراً لذلك المشهد المتحرّك والمثير والذي كان من شأنه أن يشغف سائحاً لم يجد في فندق روما رسالة باسمه، موقّعة باسم أليسيا. و.

كان ينظر بشروء إلى البحر الأزرق الصافي، حيث كانت تظهر، في ضوء لامع، ومتدرّجة في البعيد بلوينات حجر الجَمْشْت الكريم

والياقوت الأزرق، تلك الجزر الجميلة المنتشرة على شكل مروحة عند مدخل الخليج، كابري، إيسكيا، نيسيدا، بروتشيدا، والتي ترنّ أسماؤها المتناغمة مثل إيقاعات إغريقية، لكنّ روحه لم تكن هناك؛ كانت تطير ناحية سورانتي، نحو البيت الصغير الأبيض المخفي وراء الخضرة التي حكّت عنها رسالة أليسيا. في تلك اللحظة لم يكن يشوب وجه السيّد دابرومون ذلك التعبير الكريه بطريقة غير قابلة للوصف والذي يميّزه عندما لا يجمع فرح داخليّ حدوده المتنافرة في تناغم جديد: وجهه وسيم وجذاب حقاً، حتّى نستخدم كلمة عزيزة على قلوب الإيطاليين؛ كان قوس حاجبيه مرتخياً؛ وزاويتا فمه لا تنخفضان بازدراء، بينما بريق ناعم يضيء عينيه الهادئتين؛ وهكذا كان من الممكن لدى رؤيته آنذاك، التوصل إلى فهم دقيق، للمشاعر التي كانت تعنيها جمل تجمع الرقة والسخرية، مكتوبة على ورق سكرّي سميك. ذلك أنّ أصلته المدعومة بالكثير من التميّز لم تكن لتتفرّ آتسةً شابة، ربّما عمّ عجوز متسامح جدّاً، على الطريقة الإنجليزية.

نظراً للسرعة التي كان الحوذّي يدفع إليها حصانيه، كان من الممكن تجاوز كياجا ومارينيللا، وسارت العربية في الريف على تلك الطريق التي استبدلت اليوم بسكّة حديدية. كان غبار أسود، يشبه الفحم المسحوق، يضيف مظهراً بركائياً على كلّ هذا الشاطئ الذي تغطّيه سماء متألّفة ويلحسه بحر لازوردّي رائع؛ سخام فيزوف المغربل بالريح هو الذي يرشّ هذه الضفّة، ويجعل بيوت بورتيشي وتوري ديل غريكو تشبه مصانع برمنغهام. لم يهتم السيّد دابرومون البتّة بالتناقض بين أرض الأبنوس وسماء الياقوت الأزرق، فقد كان متلهفاً للوصول. فأجمل الدروب تصير طويلة عندما تكون المسّ أليسيا تنتظرك في نهايتها، وكنت

قد قلت لها وداعاً قبل ستة أشهر على مكسر أمواج فلكتون: هكذا تفقد سماء نابولي وبحرها سحرهما.

غادرت العربية الطريق، وسلكت درباً مختصراً، ثم توقفت أمام باب متكوّن من عمودَي آجرٍ مطلّين باللّون الأبيض، وفوقهما جرار من الطين الأحمر، تفتّح فيها أوراق الصبّار مثل شفرات من صفيح مدبّية كالخناجر. وكان هناك حاجز شبكيّ مدهون بالأخضر يستخدم للإغلاق. واستبدلت الجدران بسياج من الصبّار، تشكّل نباتاته أكواعاً معوّجة تشبك أظلافها الشوكية بطريقة يتعذّر فصلها.

فوق السياج تعرض ثلاث أو أربع شجرات تين ضخمة، ضمن كتل كثيفة، أوراقها العريضة ذات اللّون المعدنيّ مع عنفوان نباتيّ يميّز أفريقيا؛ وكانت صنوبرة كبيرة تؤرّجح مظلتها، فلا تكاد العين تتوصّل، عبر فرجات ذلك الإبراق الغزير، إلى تمييز واجهة البيت الملتمة في لوحات بيضاء خلف ذلك الستار الكثيف.

هرعت خادمة سمراء، ذات شعر أجعد وكثيف إلى درجة أنّ المشط قد يتكسر فيه، على ضجيج العربية، فتحت الحاجز الشبكيّ، وسبقت السيّد دابرومون في ممشى دفلي كانت أغصانها تداعب خدّه بأزهارها، واقتادته إلى الفيرندا⁽¹⁾ حيث كانت المسّ أليسيا وازد تحتسي الشاي برفقة عمّها.

كانت الأنسة أليسيا، بنزوة ملائمة جداً لفتاة ضجرت من كلّ الرفاهية والأناقة، وربّما من أجل معاكسة عمّها الذي تؤاخذة على ذوقه

(1) لم نجد دقّة في كلمة «شُرْفَة» بالعربية، التي تحيل على شرفة عالية ضمن طوابق، ولا في كلمة «مصطبة» التي تقترحها بعض القواميس، وهي ذات استخدام فضفاض في هذا السياق، لذا استخدمنا كلمة «فيرندا» وهي كلمة هندية من أصل برتغالي، وتشير، كما بات معتاداً، إلى شرفة أرضية أمام مدخل البيت أو في جهة أخرى منه.

البرجوازي أيضاً، قد فضّلت على المساكن المتحضّرة، هذه الفيلا التي سافر أصحابها وظلّت بلا سكّان طيلة أعوام. وجدت في هذه البستان المهجور، والعاثد تقريباً إلى حوض الطبيعة، شاعرية متوحّشة فتتّها؛ ففي مناخ نابولي الحيويّ نما كلّ شيء بسرعة مذهشة. انطلقت أشجار البرتقال والأس والرمان والليمون متنعمّة، ولم تعد الأغصان تخشى مقصّ التشذيب فصارت تتصافح من بداية الممرّ إلى آخره، أو تتسرب بمؤانسة إلى الغرف عبر بعض ألواح الزجاج المهشم. هناك لم تكن السيادة لكآبة البيت المهجور كما في بلدان الشمال، بل البهجة المجنونة والنزوة السعيدة لطبيعة الجنوب المتروكة في سبيل حالها؛ في غياب السيّد تنشرح النباتات المفرطة في حيويّتها بالمغلاة في الأوراق والأزهار والثمار والعطور؛ مستعيدة المكان الذي ينافسها فيه الإنسان.

عندما شاهد الكومودوري⁽¹⁾ - هكذا كانت أليسيا تنادي عمّها بلا تكلف - ذلك الدغل العصيّ عن النفاذ والذي لا يمكن التقدّم عبره إلا بمساعدة سيفٍ للقطع، كما في الغابات الأمريكية، صاح صيحات عالية وادّعى بأن ابنة أخيه مجنونة لا محالة. غير أنّ أليسيا وعدته جادّة بالعمل على فتح ممرّ من باب المدخل حتّى الصالون ومن الصالون حتّى مصطبة الفيرندا، يكون كافياً لمرور برميل مالفوازي⁽²⁾ - وهو التنازل الوحيد الذي تستطيع تقديمه للعمّ المؤمن بالمذهب الوضعيّ⁽³⁾ - استسلم

(1) رتبة عميد بحريّ. تعتبر عموماً أدنى من رتبة «الأميرال» في البحرية الملكية البريطانية والكندية والأسترالية. وقد استخدمها المؤلف بالإيطاليّة: Comodore، شأنها شأن مفردات عديدة في النصّ.

(2) خمر يونانية عذبة المذاق من شبه جزيرة مالفوازي.

(3) فلسفة أوغست كونت Auguste Comte (1798-1857)، التي تقصر عنايتها على الظواهر والوقائع اليقينية وتهمل التفكير التجريديّ في الأسباب المطلقة.

الكومودوري، لأنه لم يكن قادراً على مقاومة ابنة أخيه، وها هو في تلك اللحظة يشرب قبالتها على الفيرندا جرعات صغيرة من طاس كبير مدعياً أنها من الشاي، والحال أنها من شراب الروم.

هذه الفيرندا التي أغوت الأنسة الشابة بوجه خاص، كانت فعلاً في غاية الروعة، وتستحقّ وصفاً خاصاً، لأنّ بول دابرومون سوف يعود إليها مراراً، وينبغي رسم ديكور المشاهد التي نرويها.

يتمّ الصعود إلى تلك الفيرندا، وتُشرف جوانبها عمودياً على درب ضيقٍ ومتعرج، عبر درج ذي بلاط عريض ومنفرج تتنامى فيه أعشاب برية معمرة. وهناك أربعة أعمدة خشنة، متأتية من بعض الآثار القديمة وقد تمّ تعويض تيجانها الضائعة بمكعبات صخرية، تسند عريشة عصي متشابكة مسقوفة بكرمة عنب. وثمة حواجز تُنزل أغصان الكرمة البرية ونباتات الجدران في طبقات وأشرطة زخرفية. أسفل الجدران ينمو تين الهند⁽¹⁾، والصبر غير المثمر والقطلب⁽²⁾ في فوضى جذابة، وبعد غابة تهيمن فيها نخلة وثلاث صنوبرات إيطالية، يمتدّ البصر نحو تموجات أراضٍ مزروعة ببيوت بيضاء، ويتوقف عند الظلّ الضارب إلى البنفسجيّ لفيزوف، أو يضيع في رحابة البحر الزرقاء.

عندما لاح السيد بول دابرومون في أعلى الدرج، نهضت أليسيا، وأطلقت صرخة فرح صغيرة وتقدّمت بضع خطوات لملاقاته. أمسك بول بيدها على الطريقة الإنجليزية، غير أنّ الفتاة رفعت تلك اليد السجينة إلى مستوى شفّتي صديقها بحركة مفعمة باللطف الطفوليّ والعُنج البريء.

(1) المقصود الصبار وهو إلى اليوم يُسمّى الهندي في بلدان المغرب العربي.

(2) القطلب شجرة من فصيلة الخلنجيات ثمارها تشبه الفراولة أو الفريز.

حاول الكومودوري الوقوف على رجليه المصابتين بقليل من النقرس، وتمكّن من ذلك بعد بضع تكشيرات ألم متناقضة بشكل فكاھي مع مظهر التهليل المبتھج على وجهه الكبير؛ تقدّم بخطوة واثقة بما فيه الكفاية بالنسبة له من ثنائي الشائين الجميل، وشدّ يد بول بطريقة تكاد تسحق أصابعه، وهو ما يُعتبر أقصى تعبير عن المودّة البريطانية العتيقة.

تتنمي المسّ أليسيا إلى ذلك الصنف من الإنجليزيات السمراوات اللّواتي يحقّقن مثلاً أعلى تبدو شروطه متناقضة، أي: بشرة ذات بياض ناصع من شأنها أن تجعل الحليب والثلج والزنبق والجبس والشمع البكر، وكلّ ما يحتاجه الشعراء لإجراء تشبيھات بيضاء، أقول تجعلها تبدو صفراء؛ وشفتان بلون الكرز، وشعر بسواد اللّيل على جناحي غراب. وتأثير هذا التعارض لا يقاوم، وينشئ جمالاً فريداً من نوعه لا يمكن إيجاد ما يعادله عند امرأة أخرى. ربّما كانت بعض الشركسيات ممّن تربّين منذ طفولتهنّ في السراي، يقدّمن مثل هذه السحنة الخارقة، لكنّ، يتوجّب علينا الاختراز هنا من مبالغات الأشعار الشرقية وألوان لويس⁽¹⁾ المائيّة التي رسمت حريم القاهرة. كانت أليسيا بالتأكيد النموذج الأكثر اكتمالاً في هذا النوع من الجمال.

ذلك أنّ الشكل البيضويّ الممدّد لرأسها، وسحتتها ذات النضارة التي لا تقارن، وأنفها الدقيق، الرقيق، الشفيف، وعينيها بزرقتهما الداكنة المسجّفة برموش طويلة تختلج فوق خديها المتورّدين مثل فراشتين سوداوين عندما تسبل جفنيها، وشفتيها الملونتين بأرجوان فاقع، وشعرها المنهمر في التفافات لامعة مثل شرائط ساتان على جانبي خديها،

(1) جون فريدريك لويس John Frederick Lewis (1805-1876): رسّام استشرافيّ إنجليزي أقام في مصر عشر سنوات.

وجيدها الذي يشبه عنق تَمّ، تشهد كلّها لصالح تلك الوجوه الرائعة
لنساء ماكلايز⁽¹⁾ اللّائي بَدُون في المعرض العالميّ كأنهنّ تضليل فاتن.

كانت أليسيا ترندي فستاناً من حرير الدنتيل مع دوائر كشكشة مطرزة
بسعفات حمراء متناسقة بشكل رائع مع ضفائر المرجان ذات الحبيبات
التي تشكّل زينة رأسها، وعقدها وأساورها؛ وخمسة زخارف دائرية
لؤلؤية معلقة في فصّ مرجان مضلّع ترتجف في رَوم⁽²⁾ أذنيها الصغيرتين
المرسومتين برقة. وإذا استنكرتم هذه المبالغة في المرجان، تذكروا أنّنا في
نابولي، وأنّ البحارة يخرجون متعمّدين إلى البحر كي يقدّموا لكم هذه
الأغصان التي يضيف عليها الهواء لوناً أحمر.

ندين لكم، بعد وصف الأنسة أليسيا وازد، حتّى من باب إبراز
التناقض، على الأقلّ بوصف كاريكاتوريّ للكومودوري على طريقة
هوغارت⁽³⁾.

يتميّز الكومودوري، وهو يناهز الستين عاماً، بخاصيّة امتلاكه وجهاً
قرمزيّاً متقدماً على سويّة واحدة، في تناقض مع حاجبين أبيضين وعارضين
باللون نفسه، مشدّبة كلّها بطريقة مضلّعة، ما يجعله شبيهاً بعجوز من
الهنود الحمر وشّم نفسه بالطباشير. وأضافت لفحات الشمس ذات
العلاقة برحلة نابولي، بضع طبقات إلى ذلك اللون المضطرم، ويذكّر
الكومودوري رغماً عنه بقطعة من حلوى اللّوز كبيرة الحجم وملفوفة
بالقطن. كان يرتدي من قدميه إلى رأسه سترة وصدريّة وسروالاً
ولفافتيّ ساقين، من وبر فيغونة⁽⁴⁾ رماديّ يميل إلى لون الخمر، ولا شكّ

(1) دانيال ماكلايز Daniel Maclise (1806-1870): رسّام إيرلندي.

(2) شحمة الأذن.

(3) وليام هوغارت William Hogarth (1697-1764): رسّام ونحات إنجليزي ساخر.

(4) حيوان اللاما.

أنّ الخياط أكّد له، مُقسماً بشرفه، بأنّه اللّون الأكثر دُرْجة والأكثر طلباً، وربّما لم يكن يكذب في هذا المجال. فرغم تلك السحنة المحمّرة وذلك اللّباس المضحك لم يكن الكومودوري يمتلك البتّة مظهر عامّة الناس. فنظافته الصارمة، وزيّه الذي لا عيب فيه، وسلوكه المتكّلف، تدلّ كلّها على شخصيّة الجتلمان، رغم تحلّيه بأكثر من صلة خارجية مع إنجليز الفودفيل⁽¹⁾ كما يحاكيهم ساخراً هوفمان أو لوفاسور⁽²⁾. فطبعه هو حبّ ابنة أخيه واحتساء الكثير من البورتو وروم جامايكا من أجل المحافظة على الرطوبة الناجعة، حسب طريقة العريف تريم⁽³⁾.

«انظر كم أنا في صحّة جيّدة الآن وكم أنا جميلة! انظر إلى ألواني، لست مثل عمّي؛ هذا لن يحصل، وهو ما أتمناه. مع ذلك عندي لون وردّي هنا، وردّي حقيقيّ، قالت أليسيا وهي تمرّر على خدّها إصبعها الدقيقة التي تنتهي بظفر لامع مثل العقيق؛ لقد سمت أيضاً، ولم أعد أعاني من تلك الفجوات البائسة وراء الترقوة والتي كانت تزعجني عندما أشارك في الحفلات الراقصة. قل لي، هل من المجدي أن تكون الأنثى غنجة إلى حدّ حرمان نفسها من الخطيب مدّة ثلاثة أشهر، حتّى يجدها بعد الغياب غصّة بهيّة!»

وأثناء إلقائها لهذه المقطع التمثيليّ بنبرتها المبتهجة الواثبة والمعتادة، وقفت أليسيا أمام بول كما لو كانت ترغب في إثارة معاينته لها وتحديّها.

(1) المسرحية الهزلية الخفيفة (vaudeville).

(2) هوفمان سبقت الإشارة إليه، وبيار لوفاسور Pierre Levassor ممثّل مسرح فرنسيّ (1808-1870).

(3) تلميح إلى رواية للإنجليزي لورنس ستيرن Laurence Sterne (1713-1768): «حياة ترسترام شاندي الجتلمان وآواؤه» *The Life and Opinions of Tristram Shandy, Gentleman*.

«ألا ترى أنّها صارت قويّة الآن ورائعة مثل صبايا بروتشيدا اللّواتي يحملن جراراً إغريقية على رؤوسهنّ؟

- هذا مؤكّد، يا كومودوري، أجب بول؛ لم تصر الأنسة أليسيا أجمل، هذا مستحيل، لكنّها تُرى في صحّة أفضل ممّا كانت عندما أجبرتني، بدافع الغنج والدلال كما زعمت، على هذا الفراق الشاقّ».

وكانت نظرتة قد توقفت بثبات غريب على الفتاة الواقفة أمامه.

فجأة تلاشت تلك الألوان الوردية من خدي أليسيا التي كانت تتبجح باكتسابها، مثلما تغادر حمرة المساء حدود ثلج الجبل مع توغل الشمس في الأفق؛ وضعت يدها على قلبها مرتجفة؛ وتشتجّ فيها الجميل الشاحب. انتبه بول ووقف، وكذلك الكومودوري؛ عادت ألوان أليسيا إلى الظهور؛ كانت تبسم بقليل من الإجهاد.

«لقد وعدتكما بكوب من الشاي أو الشراب المثلج، ورغم كوني إنجليزية فأنا أنصحكما بالشراب المثلج. الثلج أفضل من الماء الساخن، في هذا البلد المجاور لأفريقيا، حيث تأتي الرياح الجنوبية الشرقية بشكل مباشر».

جلس الثلاثة حول المائدة الحجرية، تحت سقف الكرمة؛ كانت الشمس قد غطست في البحر، وأعقب النهار الأصفر نهاراً أزرق يسمّونه «ليلاً» في نابولي.

كان القمر يزرع قطعاً فضية على الفيرندا، من خلال فرجات الأوراق؛ والبحر يهمس مثل قبرة، بينما تُسمع في البعيد رعشات دفّ يرافق الترتيلاً⁽¹⁾...

كان لا بدّ من الافتراق؛ جاءت فيتشي، الخادمة المتوحّشة ذات الشعر

(1) رقصة شعبية إيطالية.

الأجدد، بفانوس كي تقود بول عبر مთاهة البستان. كانت، أثناء تقديم الشراب والماء المثلّجين، قد أُلقت على القادم الجديد نظرة تجمع بين الفضول والتخوّف. والأرجح أنّ النتيجة لم تكن في صالح بول، ذلك أنّ جبين فيتشي الذي كان مصفراً مثل سيجار، زاد اسمراراً، وأثناء مرافقتها للغريب كانت توجّه نحوه، من دون إثارة انتباهه، خنصرها والسبّابة، بينما التوت الإصبعان الأخريان تحت باطن الكفّ ليرافقا الإبهام كما لو كان ذلك من أجل تكوين علامة مُلغزة.

3

عاد صديق أليسيا إلى فندق روما عبر الدرب نفسه: كان جمال المساء لا يُضاهى؛ قمر صافٍ ولامع يسكب على الماء اللازورديّ الشفاف نثاراً طويلاً من شذرات الفضة فيزيد الهسيس الدائم الناجم عن هدير الموج في درجة سطوعه. وفي عرض البحر كانت مراكب الصيادين تحمل في مقدّمها فوانيس معدنية مملوءة بفتائل كتّان مشتعلة، فتخز البحر بنجوم حمراء وتترك وراءها خطوطٍ مخرٍ قرمزية اللون. تحوّل دخان فيزوف، الأبيض نهاراً، إلى عمود مضيء كان يرسل بدوره انعكاساته على الخليج. في تلك اللّحظة كان الشرم يقدّم ذلك المظهر الذي لا يُصدّق بالنسبة لعيون شمالية وقد عبّرت عنه تلك الألوان المائية الإيطالية المؤطرة بالأسود، عندما كانت جدّ منتشرة منذ بضعة أعوام، كما كانت أكثر صدقاً ممّا يُعتقد أنّه مبالغة فجّة.

كان هناك بعض الصعاليك المسرّنين الذين ما زالوا يهيمون على الشاطئ، متأثرين، من دون علم، بذلك المشهد السحريّ، ويلقون بعيونهم السوداء الواسعة في المدى الأزرق. وكان غيرهم من الجالسين

على حافة زورق جانح يغتوّن نغم «لوتشيا» أو الرومانس⁽¹⁾ الشعبية المنتشرة آنذاك: «أحبك كثيراً» بصوت يمكن أن يحسدهم عليه الكثيرون من المنشدين الصادحين مقابل مائة ألف فرنك. تتأخر نابولي في النوم، مثل سائر المدن الجنوبية؛ وفي تلك الأثناء تنطفئ أضواء النوافذ رويداً رويداً فيما تظلّ مكاتب اليانصيب وحدها مفتوحة مع شرائط زخرفتها الورقية الملوّنة، وأرقامها المفضّلة وإضاءتها المتلألئة، مستعدّة لاستلام أموال المراهنين ذوي النزوات التي تجعلهم يضعون بعض قطع الكزّلان أو الدوكات⁽²⁾ على رقم ميمون يمكنه أن يربح إثر عودتهم إلى بيوتهم.

دخل بول إلى فراشه، أنزل ستائر الناموسية الشاش، وسرعان ما استغرق في النوم. وكما يحدث للمسافرين بعد رحلة بحرية، بدا له فراشه، رغم ثباته، يهتزّ ويسير، كما لو أنّ فندق روما كان سفينة الليوبولد. هذا الانطباع جعله يحلم بأنّه لا يزال في عرض البحر ويرى، على الرصيف، أليسيا في منتهى الشحوب، بجانب عمّها القرمزيّ السحنة، وهي تشير إليه بيدها كي لا ينزل من الباخرة؛ وكان وجه الفتاة يعبر عن ألم عميق، ويبدو إثناؤها له عن النزول كأنه يستجيب إلى قدر قاهر.

هذا الحلم الذي يكتفّ صوراً حديثة العهد في حقيقة صارخة، أحزن النائم إلى درجة إيقاظه من النوم، فشعر بالسعادة لوجوده في غرفته حيث كان قنديل السهر يرتجف، بانعكاسات لبتيّة، مضيئاً مصباحاً صغيراً من الخزف يحاصره البعوض مرسلأ طنينه. ومن أجل عدم العودة إلى ذلك الحلم الشاقّ، قاوم بول النوم وبدأ يفكّر في بدايات علاقته مع الأنسة أليسيا، مستعيداً بالتدرّج كلّ تلك المشاهد الفاتنة في صيانيّتها والمميّزة

(1) الرومنس Romance : الأغنية العاطفية.

(2) نقد إيطالي قديم.

للحبّ الأوّل.

عاد إلى رؤية بيت القرميد الورديّ، المفروش بالنسرين وزهر العسل، والذي كانت تسكنه الأنسة أليسيا، في ريتشموند، مع عمّها، وهناك دخل كزائر، خلال رحلته الأولى إلى إنجلترا، بواسطة إحدى رسائل التوصية التي يقتصر مفعولها عادةً على دعوة للعشاء. تذكّر فستان موسلين الهند الأبيض، المزركش بشريط بسيط، وكانت أليسيا التي غادرت المدرسة الداخلية بالأمس، ترتديه في ذلك اليوم، وفرع ياسمين يلتفّ حول شلال شعرها مثل زهرة في تاج أوفيليا⁽¹⁾ وقد حملها تيار الماء، وتذكّر عينيها بزرقتهما المخملية، وفمها المنفرج قليلاً كاشفاً لمحااً عن أسنان لؤلؤية صغيرة، وعنقها الواهي الذي كان يتمدّد مثل عنق طائر حذر، واحمرار خديها المفاجئ عندما تلتقي نظرة الجتلمان الفرنسي الشاب بنظرتها.

تكرّرت في دماغه، كما في حمض آلة تصوير، صورة ردهة الاستقبال ذات الخشب الأسمر وبُسط القماش الأخضر، والمزينة بنقوش لمشاهد صيد ثعالب وسباق حواجز بألوان الزخرفة الإنجليزية الصارمة. كان البيانو يمدّ صفّ ملامسه الشبيهة بأسنان عجوز من الطبقة الرفيعة. والمدفأة المزخرفة بعسلوج من لبلاب إيرلندا تلمع بقبعتها المعدنية المصبوبة والمصقولة بالرصاص؛ وأرائك السنديان ذات القوائم الملتوية تفتح أذرعها المزركشة بالجلد المدبوغ، والسجادة تعرض زيتتها، والأنسة أليسيا تغني، مرتجفةً مثل ورقة، بلطف وبصوت هو الأكثر نشاراً في العالم، أغنية «أنا بولينا»⁽²⁾ العاطفية، «من دون رغبة في الإكراه»، وكان بول لا يقلّ تأثراً عنها، ويتابعها بغير انسجام، بينما كان الكومودوري

(1) شخصيّة في مأساة «هاملت» Hamlet لشكسبير، خصّها آرثور رامبو بقصيدة شهيرة.

(2) «أنا بولينا» Anna Bolena: أوبرا للمؤلف الموسيقي الإيطالي غايتانو دونيزيتي Gaetano

Donizetti (1797-1848)، ألّفها في العام 1831 وعُرضت في باريس في العام نفسه.

النائم بسبب هضم عسير واحمرار قرمزيّ أشدّ من المعتاد، يترك نسخة كبيرة من التاييمز مع ملحقتها تسقط على الأرض.

ثمّ تغتبر المشهد: بول وقد صار صديقاً أكثر حميمية، يدعوه الكومودوري لقضاء بضعة أيام في بيته الريفية الأنيق في لنكولنشاير... وهو قصر إقطاعي قديم ذو أبراج مستنّة ونوافذ قوطية، نصفه مغطى بشجرة لبلاب ضخمة، لكنّه مزوّد في الداخل بكلّ وسائل الرفاهة العصرية، ويرتفع في طرف مرج أخضر يحظى بنجيله بعناية السقي والقصّ حتّى بات سويّاً مثل المخمل؛ وهناك محرّملي أصفر يتكوّر حول الأرض المعشبة وتستخدمه الأنسة أليسيا كمضمار لترويض الخيل، حيث تمتطي أحد الخيول الإيرلندية القصيرة ذات العُرف الأشعث التي يهوى تصويرها السير إدوارد لاندسير⁽¹⁾، ويكسبها نظرة تكاد تكون إنسانية. وكان بول على ظهر حصان كُميّت، أسمر محمّر بلون الكرز، أعاره إيّاه الكومودوري، يرافقه المسّ واُزد في جولتها الدائرية، ذلك أنّ الطبيب الذي وجدها واهنة الصدر نصحتها بالتمارين.

في مرّة أخرى كان هناك قارب خفيف ينساب فوق المستنقع، محرّكاً زنايق الماء ومطيّراً طيور القاوند تحت أوراق الصفصاف الفضّية. كانت أليسيا هي التي تدفع القارب بالمجداف بينما يمسك بول بالدقّة؛ كم كانت جميلة تحت الهالة الذهبية التي كانت ترسمها حول رأسها قبتعتها القشّية وقد اخترقها شعاع من الشمس! كانت تنقلب إلى الخلف كي تسحب المجداف، بينما يضغط طرف جزمتها الرمادية الملمّعة على خشبة المقعد. لم يكن للأنسة واُزد تلك الأقدام الأندلسية القصيرة والمستديرة

(1) ليس في الحقيقة «إدوارد»، كما يسمّيه المؤلف، بل إدوين لاندسير Edwin Landseer (1802-1873)، الرّسام والنحات البريطاني، المعروف بتصويره للحوانات.

مثل المكاوة، كما تُستحبّ في إسبانيا، بل كان عرقوبها ربيعاً، كما كان أعلى القدم مقوّساً بشكل جيّد، ولم يكن لنعال جزمته، ولعلّها طويلة قليلاً، عرض إصبعين.

ظلّ الكومودوري مرتبطاً بالضفّة، ولم يكن ذلك لعظمته، بل لوزنه الذي كان من شأنه إغراق القارب الهشّ. كان ينتظر ابنة أخيه عند رصيف الميناء، ويضع على كتفيها معطفاً بعناية أمومية حتّى لا يصيبها البرد، وبعد ربط القارب إلى وتده، يعود الجميع لتناول العشاء في القصر. كان من الممتع رؤية أليسيا المعتادة على تناول الطعام بمقدار ضئيل يعادل ما يتناوله طائر، تتزع بأسنانها اللؤلؤية قطعة وردية من قديد يورك رقيقة مثل ورقة، وتقضم قطعة خبز صغيرة لا تترك منها بعض الفتات لأسماك الحوض الذهبية.

الأيام السعيدة تمرّ في منتهى السرعة! ظلّ بول يؤجّل رحيله من أسبوع إلى آخر، وبدأت كتل الخضرة الجميلة في الأرض المعشبة تكتسي لوينات زعفرانية. وكان هناك بخار أبيض ينبثق من المستنقع. ورغم ممشاط البستانيّ الذي لا يكملّ، كانت الأوراق الذابلة تنتثر على رمل المشى؛ ملايين اللآلئ الصغيرة المتجمّدة تلمع فوق الحشيش الأخضر للمرج، وفي المساء تُشاهد العقاقق تتقاذف متنازعةً عبر الذرى الخليقة للأشجار.

كانت أليسيا تشحب تحت نظرة بول القلقة ولا تحافظ من ألوانها إلّا على بقعتين متورّدين في أعلى الوجنتين. كثيراً ما تشعر بالبرد، ولا تتوصّل نار الفحم الأكثر اتّقاداً إلى تدفّتها. بدا الطيب مهموماً، ونصّت آخر وصفة لأليسيا على ضرورة تمضية الشتاء في بيزه والربيع في نابولي.

كان هناك شؤون عائلية استدعت عودة بول إلى فرنسا. وكان الكومودوري وأليسيا على أهبة السفر إلى إيطاليا، وحصل الفراق في

فولكستون. لم يتمّ النطق بأية كلمة، غير أنّ الأنسة وازد كانت تنظر إلى بول باعتباره خطيبها، وصافح الكومودوري يد الشاب بطريقة معبّرة: لا يمكن الضغط على الأصابع بهذه الطريقة القويّة إلا إذا كانت أصابع صهر.

أما بول الذي أرجأ العودة ستّة أشهر، وكانت تعادل ستّة قرون بالنسبة لتلفه، فقد سعدَ برؤية أليسيا متعافية من وهنها ومتألّقة بالصحة. واختفى ما تبقى من علامات الطفولة لدى الفتاة الشابة؛ وكان يفكر متشياً بأنّ الكومودوري لن يجد أيّ سبب للاعتراض عندما يتقدّم هو لطلب يدها.

هددهته هذه الصّور الجميلة فنام ولم يستيقظ إلا مع طلوع النهار. بدأت نابولي تعلن عن صخبها؛ باعة الماء المبرّد يصيحون على بضاعتهم؛ وباعة الشواء يمدّون للعابرين قطع اللحم المشكوكة في سفايد طويلة؛ وربّات البيوت الكسولات ينحنين على نوافذهنّ ويُدلّين سلال التموين المربوطة بخيوط ثمّ يرفعنّها مملوءة بالطماطم والأسماك ويقطع كبيرة من القرع. الكتاب العموميّون بثيابهم السوداء الرثة وبريشهم خلف آذانهم، يجلسون في حوانيتهم الصغيرة؛ مبدّلوا العملات ينضّدون على طاولاتهم الصغيرة أكداً من عملات الغراني والكرلان والدوكات؛ الحوذويّون يدفعون خيولهم الضامرة باحثين عن الخدمات الصباحيّة، وأبراج الأجراس في كلّ الكنائس تقرع بجذال الأنجيلوس⁽¹⁾.

اتكأ مسافرنا على الشرفة، مرتدياً مبدله؛ من النافذة تلوح سانتا لوتشيا، وقلعة البيضة، وامتداد شاسع للبحر حتّى فيزوف والشناخ الأزرق للجبل المتوغّل في البحر حيث تبيضّ بيوت كاستيلماري

(1) صلاة التبشير الملائكيّ.

الواسعة، وتبرز بيوت سورنتي من بعيد.

كانت السماء صافية؛ ولا تتقدّم فيها إلا غيمة خفيفة بيضاء فوق المدينة، تدفعها نسمة رخية. حدّق بها بول بتلك النظرة الغريبة التي لاحظناها سابقاً، وتقطّب حاجباه. انضمت أبخرة أخرى إلى الغيمة الوحيدة، وسرعان ما مدّت ستارة ثخينة من الغيوم طياتها السوداء فوق قلعة سان إيلمو. انهمرت قطرات كبيرة على البلاط الطفحيّ، وتحوّلت في دقائق قليلة إلى مطر من تلك الأمطار الطوفانية التي تملأ شوارع نابولي بالسيول وتجرّ معها الكلاب وحتى الحمير إلى البالوعات. تشتّت جموع الناس المباعثة باحثة عن مخابئ؛ واضطرت دكاكين البيع المنتشرة في الهواء الطلق إلى المغادرة السريعة فاقدةً بعض سلعها الغذائية، وركض المطر، متسيّداً ساحة المعركة، في دفعات بيضاء على رصيف سانتا لوتشيا المقفر.

كان الحمال العملاق الذي لكّمه بادي لكمة قويّة يتكئ على جدار تعلوه شرفة، فكان بروزها يحميه قليلاً، ولم يهرب مع الهاربين، بل كان ينظر بعين شديدة الانتباه إلى النافذة التي كان السيّد بول دابرومون قد استند إليها.

يتلخّص مونولوجه الداخليّ في هذه الجملة التي كرّرها شامئاً بطريقة ساخطة:

«كان قبطان اللّيوبولد سيحسن صنعاً لو أنّه ألقى بهذا الأجنبيّ إلى البحر»؛ ومرّر يده عبر فتحة قميصه الكتانيّ الفضفاض ليلمس صرّة التعاويذ المعلقة بخيطٍ في رقبتّه.

لم يلبث الطقس أن عاد إلى التحسّن، وتولّى شعاعٌ حيّ من الشمس في بضع دقائق تجفيف آخر دموع المُرنة، وعاد الناس إلى التجمُّهر البهيج على رصيف الميناء. لكنّ تيمبيريُو، الحمال، لم ينقطع عن اجترار فكرته بخصوص الشاب الفرنسيّ، ونقل بحذرٍ كلّ أغراضه بعيداً عن نوافذ الفندق؛ حتّى إنّ بعض معارفه من الحمالين عبّروا له عن اندهاشهم من استبداله محطّة رائعة بأخرى أقلّ قيمة.

«أعطيها لمن يرغب فيها، أجب وهو يهزّ رأسه بطريقة غامضة؛ يعرف المرء ما يعرف».

تناول بول فطوره في غرفته، فهو، إمّا بسبب الخجل أو خوف الأزدراء، لا يحبّ الاختلاط بالناس. ارتدى ثيابه، ومن أجل انتظار الساعة المناسبة لزيارة مسن وازد، زار متحف الستودي: أعجب، بلا مبالاة، بمجموعة الأصص الكامبانية⁽¹⁾، وقطع البرونز المنبوشة من حفريات پومبيّ، والخوذة البرونزية الإغريقية الصدئة التي ما زالت تحتفظ برأس الجنديّ الذي كان يعتمرها، وقطعة الطين المتبيسة محافظةً، مثل القالب، على أثر صدر رائع لامرأة شابّة فاجأها هيجان البركان في منزل ريفي لآريوس ديوميديّه⁽²⁾، وهرقل مجموعة فارنيزي بعضلاته الضخمة، وفيلّا الفلورا، والمينيرفا العتيقة، وبالْبوس الأوّل والثاني، وتمثال أريستيد الرائع، ولعلّها أجهل قطعة تركها لنا التاريخ القديم. غير أنّ العاشق ليس شخصاً معنياً بتقدير الآثار الفنية القديمة؛ فوجّه الحبيبة مها كان ملمحه أهمّ من كلّ

(1) كامبانيا Campania : أحد أقاليم جنوب إيطاليا، يطلّ على البحر المتوسط من ناحية الغرب، وعاصمته نابولي.

(2) انظر قصة آريا مارتشيليا في هذا الكتاب.

قطع الرخام الإغريقية أو الرومانية.

وبما أنه توصل إلى استنفاد ثلاث ساعات أو أربع في متحف الستودي كيفما كان، فقد انطلق في عربته وتوجه إلى البيت الريفي الذي تقيم فيه الآنسة وأزد. عمد الحوذني، بذكاء الأهواء المميز للطبائع الجنوبية، إلى دفع حصانیه الهزيلين بسرعة مفرطة، وسرعان ما توقفت العربة أمام الأعمدة التي تعلوها أصص النباتات الكثيفة التي سبق لنا وصفها. جاءت الخادمة نفسها لتفتح الحاجز المشبك قليلاً؛ وكان شعرها يلتف دائماً في خصلات متمردة؛ ولم تكن ترتدي، كما في المرة الأولى، إلا قميصاً من الكتان الخشن مطرزاً عند الكمين والرقبة بزخارف ملونة، وتنورة داخلية من القماش السميك مخططة بالعرض، مثل تلك التي ترتديها نساء بروتشيدا؛ وكانت ساقاها، وينبغي الاعتراف، من دون جوربين، فكانت تطأ التراب بقدمين عاريتين كان نحات سيءعجب بهما أيها إعجاب. كان هناك خيط أسود يحمل على صدرها رزمة من قطع حلي صغيرة ذات أشكال متفردة من عظم قرن أو من مرجان، وذلك ما ركز عليه بول نظره، مع ارتياح ظاهر للخادمة فيتشي.

كانت الآنسة أليسيا على الفيرندا، مكانها المفضل في البيت، على أرجوحة نوم هندية من القطن الأحمر والأبيض، مزينة بريش طيور، ومعلقة إلى عمودين من الأعمدة التي تسند سقف الكرمة. كانت الفتاة تتأرجح بلا مبالاة، مرتدية قميص حمام خفيفاً من الحرير الصيني الخام، فكانت تدعك زيتته ذات الثنيات الأنثوية بلا شفقة. وكانت قدماها اللتان يظهر طرفاهما عبر زردات الأرجوحة، تنتعلان خفيفين من ألياف نبات الألوة الشوكي، بينما تتشابك ذراعاها الجميلتان العاريتان فوق رأسها، على طريقة كليوباترا القديمة، إذ رغم أنّ شهر أيار كان لا يزال في

بدايته، كانت الحرارة مرتفعة جداً، وآلاف الزيزان تصرّ في جوقاتها تحت الأجمات المحاذية.

مرتدياً زيّ مزارع وجالساً على أريكة من الأسل، كان الكومودوري يهزّ حبل الأرجوحة بانتظام لتحريكها.

هناك شخص ثالث تكتمل به المجموعة: إنه الكونت ألتافيلّا، وهو شاب نابوليتاني أنيق، أدى حضوره إلى اكتساب جيين بول ذلك التشنج الذي يضفي على سحته تعبيراً يدلّ على شراسة شيطانية.

كان الكونت حقاً من صنف الرجال الذين لا يمكن رؤيتهم بارتياح قرب امرأة نحبّها. كان لقامته الطويلة نسب مثالية؛ بشعر أسود مثل السّبع، متكثّل في خصلات غزيرة، يرافق جبينه الصقيل والمنحوت جيّداً وتلمع في عينيه شرارة من شمس نابولي، وتبدو أسنانه الكبيرة والقوية، لكن الناصعة مثل اللؤلؤ، ذات بريق أسطع بسبب الحمرة القانية في شفثيه واللون الزيتوني لبشرته. والانتقاد الوحيد الذي يستطيع ذوق صارم أن يوجّهه إلى الكونت، هو أنّه مفرط في الجمال.

أما ثيابه فإنّ ألتافيلّا يطلبها من لندن، ولا يمكن لأكثر المتغندرين تشدداً إلّا تزكية ذوقه. لا يوجد شيء إيطالي في ما يرتديه إلّا أزرار قميصه ذات السعر العالي. وهنا يتّضح الذوق الطبيعي لابن الجنوب في مجال الحلي. ربّما لأنّه من الممكن أيضاً، وفي غير نابولي، ملاحظة التعلّق الرديء بحزمة عروق مرجان متشعب، أو بأيادٍ من حمم بركان فيزوف ذات أصابع مطوية أو تشهر خنجرأ، وكلاب مقعية على قوائمها، وقرون بيضاء وسوداء، وغير ذلك من الأشياء البسيطة المماثلة والتي تعلق بحلقة في سلسلة الساعة. غير أنّ جولة في شارع توليدو أو في البالاتسو ريبالي تكفي للبرهنة على أنّ الكونت لا يتّصف بأيّ غرابة في الأطوار عندما

يحمل على صدرته مثل سلاسل الحلي العجيبة تلك.

عندما وصل بول دابرومون، كان الكونت، بإلحاح من المسّ وازد، يغني إحدى أغاني الطرب النابوليتانية العذبة، والتي تكون بلا مؤلف معروف، وتكفي واحدة منها يلتقطها موسيقار لتحقيق ثروة أوبرالية. وللذين لم يستمعوا إليها، على ضفة شياجا أو على رصيف الميناء، من فم حمال، أو صياد، أو فتاة لقيطة، يمكن أن يكونوا فكرة عنها من خلال الأغاني العاطفية الفاتنة التي يؤديها غورديجاني⁽¹⁾. يحدث ذلك من آهة نسمة، من شعاع قمر، من عطر شجرة برتقال، ومن خفقة قلب.

كانت أليسيا، بصوتها الإنجليزي الجميل مع بعض النشاز، تصغي بانتباه إلى المقطع الذي كانت تريد أن تحفظه، وألقت، وهي تتابع ذلك، بإشارة ودية إلى بول الذي كان ينظر إليها بهيئة قليلة الود، وقد استاء لوجود ذلك الشاب الجميل.

تمزق حبل من الأرجوحة، وسقطت المسّ وازد أرضاً، من دون ضرر؛ أسرع نحوها ستُّ أيدٍ متزامنة. كانت الفتاة قد نهضت متوردة خجلاً، ذلك أنه من غير اللائق⁽²⁾ السقوط أمام رجال. ومع ذلك لم تتأثر بالسقوط طية واحدة في فستانها الطاهر.

«هذا رغم أنني جرّبتُ هذه الحبال بنفسي، قال الكومودوري، والآنسة وازد لا تزن أكثر من الطائر الطنان».

هزّ الكونت برأسه بطريقة غريبة: كان في قرارة نفسه يفسر انقطاع الحبل طبعاً بسبب آخر مختلف تماماً وليس بسبب الجاذبية؛ لكنه حافظ على الصمت بوصفه رجلاً حسن التربية، واكتفى بتحريك عنقود سلسلة

(1) لويجي غورديجاني Luigi Gordigiani (1860-1860) موسيقار إيطالي، لُقّب، بـ

«شوبرت إيطاليا».

(2) بالإنجليزية في النصّ الفرنسي: improper.

الحلي في صدرته.

ومثل كل الرجال الذين يصيرون عبوسين وقساء لدى وجودهم أمام منافس يخشونه، وبدل إظهار مزيد من اللطف والود، لم يتمكن بول دابرومون، رغم خبرته في مخالطة أناس المجتمع، من إخفاء مزاجه السيء؛ لم يعد يجيب إلا بكلمات من مقطع واحد، ثم تخلّى عن النقاش، وأثناء توجيهه نحو أكتافيلّا، كانت عيناه تتخذان تعبيرهما المخيف؛ فكانت اللّيفات الصفراء تتلوّى تحت الشفافية الرمادية لبؤبؤيه مثل ثعابين ماء في قاع نبع.

وكلّما نظر بول بهذه الطريقة، عمد الكونت، وبحركة آليّة ظاهرياً، إلى اقتلاع زهرة من حوض زهور قريب منه، ويلقي بها بطريقة تقطع تضوّع نظرة الغرام الساخطة.

«ماذا حلّ بك حتّى تخزّب حوض زهوري بهذه الطريقة؟ صاحت مسّ أليسيا وازد وقد انتبعت إلى المناورة الجارية. ما الذي فعلته لك زهوري حتّى تقطع رؤوسها؟

- أوه! لا شيء، يا مسّ؛ إنّها عادة لا إرادية، أجب أكتافيلّا، وهو يقصّ بظفره وردة رائعة ويلحقها بالأخريات.

- أنت تزعجني بشكل فظيع، قالت أليسيا؛ وتجرّح إحساسي في واحد من ميولي القويّة من دون أن تشعر. لم يسبق لي أن قطفّت زهرة مطلقاً. والباقة توحى لي بنوع من الرعب: إنّها زهور ميتة، جثث ورود، مثل رعي الحمام أو القضاب⁽¹⁾، ذات العطر الذي اعتبره يوحي بالقبر.

(1) رعي الحمام: نباتات برية وتزينية من فصيلة الساجيات؛ عطرية وعديدة الأنواع. والقضاب أو العناقية: زهرة من الفصيلة الدفلية.

- من أجل التكفير عن جرائم القتل التي ارتكبتها للتو، قال الكونت ألتافيلاً منحنياً، سوف أرسل لك مائة سلّة ملامى بزهور حية». نهض بول، وكان يلوي حافة قبعته، بهيئة المرغم، كما لو كان يوقّت لخروجه.

«ماذا! ستغادر الآن؟ قالت المسّ وازد.

- لديّ بعض الرسائل التي تتوجّب عليّ كتابتها، رسائل مهمّة.

- أوه! يا للكلمة الشنيعة التي نطقت بها للتو! قالت الفتاة مع مطّ شفيتها قليلاً؛ وهل توجد رسائل مهمّة إن لم تكن موجهة إليّ أنا؟

- عليك البقاء إذن، قال الكومودوري، لقد أعددتُ في رأسي خطة لسهرة، بشرط موافقة ابنة أخي: نذهب أولاً لشرب كأس ماء من نبع سانتا لوتشيا الذي له رائحة بيض فاسد لكنّه يفتح الشهية؛ ونأكل دزينة أو دزيتين من المحار، الأبيض والأحمر، في المسمكة، ونتعشى تحت دالية في إحدى الحانات النابوليتانية العريقة، ونحتسي بعض كؤوس الفاليرنو واللاكريما-كريستي، وننهي التسلية بزيارة إلى السيّد بولتشيّنلا. ومن شأن الكونت أن يفسّر لنا دقائق اللّهجة».

هذه الخطة بدت غير مقنعة كثيراً بالنسبة للسيّد دابرومون، وهكذا انسحب بعد أن سلّم ببرود.

مكث ألتافيلاً بضعة لحظات أخرى؛ ونظراً لكون مسّ وازد، الغاضبة من ذهاب بول، لم تشارك في فكرة الكومودوري، فقد استأذن وانصرف. بعد ساعتين استلمت الأنسة أليسيا عدداً مهولاً من أصص الزهور، ومن أندرها، وما فاجأها أكثر تمثّل في قرنين ضخمين لثور صقليّ، شفافين مثل اليشب، صقيليّن مثل العقيق، ويمكن تقدير طولها بثلاث أقدام، ويتهيان بحديّن أسودين مهدّدين. وتوجد قاعدة جميلة من البرونز

المذّهب تسمح بوضع القرنين، والحدّان إلى أعلى، فوق مدفأة أو منضدة مزخرقة أو إفريز.

لاحت فيتشي، التي ساعدت الحمالين في إفراغ الزهور والقرنين، مدرّكة أبعاد هذه الهدية الغربية.

وضعت بروز، على مائدة حجرية، الهالين الرائعين اللذين يمكن للمرء الاعتقاد بأنهما اقتلعا من جبهة الثور الإلهي الذي كان يحمل الفاتنة أوروبا، وقالت: «ها إنّنا الآن في حالة دفاع جيّدة.

- ماذا تعنين بقولك هذا، يا فيتشي؟ سألتها المِسْ وأزد.

- لا شيء... ما عدا كون السيّد الفرنسيّ يمتلك عينين غريبتين جدّاً».

5

مرّ وقت الأكل منذ وقت طويل، وكانت نيران الفحم التي تحوّل مطبخ فندق روما خلال النهار إلى فوهة فيزوف، تنطفئ في جمرها ببطء تحت محامد الصفيح. أعيدت الطناجر إلى مواضعها في مساميرها الخاصة بها، وبدأت تلمع مصطفة مثل دروع في مركب روماني قديم ذي ثلاثة صفوف من المقاذيف. كان مصباح نحاسيّ أصفر يشبه تلك التي يتمّ العثور عليها في حفريات پومبيّ ومعلّق بسلسلة ثلاثية إلى عارضة السقف الرئيسيّة، يضيء بفنائه الثلاث الغاطسة في الزيت كيفما اتّفق، مركز المطبخ الواسع فيما تبقى زواياه مغمورة بالظلام.

كانت الأشعة المضيفة النازلة من أعلى تُقولب، من خلال حركة أضواء وظلال جذابة جدّاً، مجموعة وجوه متميّزة تجتمع حول مائدة الخشب السميك، المجرّحة والمحزّزة بضربات ساطور، والتي تتوسط هذه القاعة الكبيرة التي صقل دخان الطبخ جدرانها الداكنة والبراقة العريزة

على قلوب رسّامي مدرسة كارافاجو⁽¹⁾. ولا شك أنّ السبانيوليتو⁽²⁾ أو سلفاتور روزا⁽³⁾، في تعلقهما القويّ بالواقع، لم يكن من شأنهما ازدراء النماذج المجتمعة هنا بحكم المصادفة، أو بدقّة أكثر، بحكم عادة مسائية. هناك أولاً الطاهي الأول فيرجيليو فالساكابا، وهو شخصيّة مهمّة جدّاً، يتميّز بقامة عملاقة وامتلاء باهر، وكان يمكنه أن يلوح أحد مؤاكلي الامبراطور فيتليوس، لو أنّه ارتدى، بدل سترة نسيج البازان القطنيّ، لباساً رومانياً فضفاضاً مطرّزاً بالأرجوان: تشكّل ملاحه البارزة بشكل مدهش ما يشبه نوعاً من الكاريكاتور الجادّ لبعض الشخوص في الأوسمة القديمة؛ حاجبان أسودان كثيفان، وبارزان بمقدار بوصتين، يتوّجان عينيه المفصّلتين مثل عيون أقنعة المسرح؛ أنف ضخّم يلقي بظلّه على فم واسع يبدو كأنّه مجهّز بثلاثة صفوف من الأسنان مثل شدة سمك القرش؛ غيب قويّ يشبه غيب ثور فارنيزي⁽⁴⁾ يوحد الذقن المدموغ بغمّازة يمكن للمرء حشر قبضته فيها، ورقبة ذات قوّة رياضية، تملؤها العروق والعضلات. خصلتان على الصدغين يمكن لكلّ واحدة منهما أن تزوّد

(1) كارافاجو Caravaggio (1571-1610): رسّام إيطالي، عمل على إضفاء جوّ دراميّ على مشاهد لوحاته الواقعية، من خلال لجوئه إلى استغلال حركة الضوء والظلال. كان له تأثير كبير على فنّانين جاؤوا بعده، وأطلق اسمه على مدرسة فنية شملت كامل أوروبا.

(2) خوسيه ده ريبيرا José de Ribera (1591-1652): رسّام ونحات إسباني هاجر إلى إيطاليا منذ صباه، وأصبح أحد أهمّ ممثلي مدرسة نابولي في الرّسم. لقّبه الطليان بالسبانيوليتو Lo Spagnoletto («الإسبانيّ الصغير») لقصر قامته.

(3) سلفاتور روزا Salvator Rosa (1615-1673): شاعر وممثل وموسيقار ونحات ورسّام إيطالي.

(4) الغيب أو الغيب لحم يتدلّى تحت الحنك. وثور فارنيزي اسم يطلق على مجموعة منحوتات تضمّ ثوراً قويّاً، وجدت في حمامات كراكالا Caracalla في روما سنة 1546. أمّا الاسم فارنيزي Farnese فهو اسم البكاردينال الذي يقف وراء الحفريات التي قيم بها في المكان لدى الشروع ببناء قصره فيه.

شخصاً بلحية معقولة، تؤطران ذلك الوجه الواسع الملفوح بألوان عنيفة: شعر أسود متموج ولامع تخالطه بعض الشعرات الفضية، يتلوى فوق جمجمته في خصلات صغيرة وقصيرة، عنقه المثنية بثلاث كتل عرضانية تفيض عن ياقة سترته؛ عند شحمتي أذنيه المرفوعتين بالتواءات العظمية للفقين القادرين على سحق عجل في يوم واحد، تلمع حلقات فضية كبيرة في حجم قرص القمر؛ هكذا كان كبير الطهاة فيرجيليو فالساكابا، الذي تجعله فوطته المشمرة عند الخصر وسكينه المغروزة في غمد من خشب، أقرب إلى مقدم أضاح منه إلى طبّاح.

بعده يظهر تيمبيريو الحمّال، الذي يظلّ في حالة هزال نسبيّ بسبب رياضته المهتية وتقشفه في الأكل الذي لا يتمثل إلا في حفنة معكرونة شبه نيثة مرشوشة بالكاتشو كالفالو⁽¹⁾ وقطعة بطّيح أحمر وكأس ماء بالثلج. ولو تغذى جيداً لبلغ بالتأكيد بدانة فالساكابا، لا سيما أنّ بنته الجسدية تبدو منذورة لتحمل وزن هائل من اللحم. لا يمتلك من الثياب إلا سروالاً قصيراً، وصدريّة طويلة من القماش الأسمر، ومعطفاً خشناً مرمياً على كتفيه.

يتكئ سكاتسيغا، حوذتيّ عربية الأجرة التي يستخدمها السيد بول دابرومون، على الطاولة، وهو بدوره يظهر هيئة مدهشة؛ فقسامته غير المتناسقة واللطيفة تتأتى من حيلة ساذجة؛ ابتسامته متكلفة تائهة على شفتين ساخرتين، ومن خلال دماثة سلوكه يمكن استنتاج أنّه يعايش الناس اللّائقين دائماً؛ وثيابه المتباعدة من سوق الألبسة المستعملة تحاكي بدلة خدم موحدة لا ينسى التفاخر بها، وفي رأيه أنّها تضع مسافة إجتماعية

(1) الكاتشو كالفالو cacio-cavallo : نوع من الأجبان ممدودة التخثر تصنع من حليب الأغنام أو البقر. يتم إنتاجها في جميع أنحاء جنوب إيطاليا، وخاصة في جبال الأبينيني. تكون على شكل دمة أو إجابة مع قشرة صلبة صالحة للأكل.

كبيرة بينه والمتوحش تيمبيريو؛ كل حواراته مرصعة بكلمات إنجليزية وفرنسية لا تتطابق دائماً مع ما يريد قوله، غير أنها تُفلح مع ذلك في إثارة إعجاب بنات المطبخ ومساعدتي الطباخ، المسحورين بعلومه الواسعة.

إلى الوراة قليلاً تقف خادمتان شابتان تذكر ملاحظتهن، ربّما مع نبالة أقل، بذلك الطراز المعروف كثيراً في قطع نقد سيراكوزا: جبين منخفض، أنف مندمج في الجبين بلا مرونة، شفتان غليظتان قليلاً، ذقن متضخمة وقوية؛ شرائط شعر ذات لون أسود مزرّق تتصل ببعضها البعض خلف رؤوسهنّ في كعكة ثقيلة تخترقها إبر منتهية برؤوس مرجانية؛ فلائد من ثلاثة صفوف، ومن المادّة نفسها تطوّق أعناقهنّ الشبيهة بأعناق تماثيل كاريتايد⁽¹⁾، لأنّ عضلاتها ازدادت قوّة نتيجة حمل الأثقال على رؤوسهنّ. ولا شكّ أنّ متأنّقين من طراز الداندي من شأنهم احتقار أولئك الفتيات المسكينات اللواتي يحافظن على دم السلالات العريقة في اليونان الكبرى⁽²⁾، بعيداً عن الامتزاج؛ بينما لو تمكّن أيّ فتان من رؤيتهنّ لأخرج دفتر تخطيطاته وبرى قلمه.

هل سبقت لك زيارة بهو الماريشال سولت ورؤية لوحة موريو التي تمثل ملائكة منهمكين في الطبخ؟⁽³⁾ إذا كنت قد رأيتها فهذا يعفينا هنا من رسم رؤوس مساعدتي الطباخ الثلاثة أو الأربعة، بشعرهم الأجد

(1) الكارياتيد Cariatide: عمود يُجعل ممثلاً، يصوّر في أغلب الأحيان امرأة تبدو كأنّها تحمل على رأسها ذلك الجانب من المبنى الذي يعلوها.

(2) اليونان الكبرى: اسم أطلق على المناطق الساحلية في جنوب إيطاليا في خليج تارانتو بعد أن استوطنها الإغريق على نطاق واسع.

(3) اللوحة تعرف باسم «مطبخ الملائكة»، وهي للرّسام الإسباني موريو Murillo (1618-1682).

(1682). وتصور جدل راهب، عُذّ قديساً فيما بعد، لعله فرانثيسكو ديرّاكيو Francisco Dirraquiu، وهو يتأمل ذاهلاً الملائكة يهيتون الطعام. وقد اقتناها متحف اللوفر سنة

المموج، والذين يكملون المجموعة.

كان الاجتماع المريب يخوض في مسألة خطيرة. إنها تتعلق بالسيد بول دابرومون، المسافر الفرنسي الذي وصل على متن السفينة البخارية في رحلتها الأخيرة: والمطبخ ينكب الآن على محاكمة الجناح الذي شغله الضيف.

كانت الكلمة لتيميريو الجمال، وكان يتوقف بعد النطق بكل جملة، مثل ممثل رائع الصيت، حتى يترك لسامعيه وقتاً كافياً لفهم كل مراميها، ويبيدي موافقته أو يعلن اعتراضاته.

«تابعوا جيداً تحليلي، قال الخطيب؛ اللّيوبولد سفينة بخارية توسكانية شريفة، وما من اعتراض عليها، باستثناء إفراطها في نقل هراطقة إنجليز...

- الهراطقة الإنجليز يدفعون جيداً، قاطعه سكاتسيغا الذي بات أكثر تسامحاً بفضل البقشيش.

- ربّما! ذلك أقلّ ما يفعله المرطوقيّ عندما يستخدم مسيحيّاً، إنّه يكافئه بسخاء حتى ينقص من خزيه.

- لا أشعر بأيّ خزي في نقل أجنبيّ داخل مركبتي؛ أنا لا أمارس مثلك مهنة دابة تُركب، يا تيميريو.

- ألسْتُ معمداً مثلك؟ ردّ الجمال مقطباً حاجبيه ومغلقاً قبضتيه.

- دغ تيميريو يتكلّم، صاح الجميع بصوت واحد، خشيةً منهم من أن يتحوّل هذه المبحث المهمّ إلى خصومة.

- أنتم توافقونني الرأي، تابع الخطيب الذي استعاد هدوءه، أن الطقس كان رائعاً عندما دخلت اللّيوبولد إلى الميناء؟

- نوافك على ذلك، يا تيميريو، قال كبير الطبّاخين مع مهابة

متسامحة.

- كان البحر صقيلاً مثل مرآة، تابع الحمال، ومع ذلك هزّت موجة هائلة زورق جنارو بقوة حتى إنه وقع في الماء مع اثنين أو ثلاثة من أصدقائه. هل هذا طبيعي؟ مع العلم أنّ جنارو ثابت القدم في البحر، ومن شأنه تأدية رقصة الترنيتيلا من دون ميزان فوق عارضة الصاري.

- لعلّه احتسى قنينة من الأسبرينو زيادة عن حاجته، اعترض سكاتسيغا، عقلائيّ المجلس.

- ولا حتى كأس عصير ليمون، تابع تيمبيريو؛ لكن، كان يوجد على متن السفينة البخارية سيّد ينظر إليه بطريقة معيّنة، أنتم تفهموني! - أوه! تماماً، أجابت المجموعة في جوقة واحدة مع مدّ جماعيّ مدهش للسبّابة والخنصر.

- وذلك السيد، قال تيمبيريو، لم يكن سوى السيّد دابرومون.

- ذاك الذي يسكن في الرقم ٣، سأل كبير الطهاة، والذي أرسلُ إليه عشاءه في طبق؟

- بالضبط، أجابت أصغر الخادמות وأجملهنّ؛ لم تسبق لي رؤية مسافر أوحش منه ولا أقبح ولا أحقر؛ لم يوجّه لي نظرة واحدة ولا حتى كلمة، مع أنني أستحقّ الثناء، كما يقول لي كلّ السادة.

- أنتِ تستحقّين أكثر من ذلك، يا جميلتي جُلسومينا، قال تيمبيريو متلطفّاً؛ لكنّ عليك أن تشعرني بالسعادة لأنّ ذلك الأجنبيّ لم يلاحظ وجودك.

- أنتِ تبالغ في التطيّر، اعترض المتشكّك سكاتسيغا الذي جعلته

علاقاته بالأجانب فولتيراً⁽¹⁾ نوعاً ما.

- من فرط ما تحالط الهراطقة سوف ينتهي بك الحال حتى إلى الكفّ
عن الإيمان بالقدّيس جنّايو⁽²⁾.

- إذا كان جنّارو قد سقط في البحر، فذلك لا يبرّر، تابع سكاتسيغا
مدافعاً عن علاقاته، أنّ يكون للسيد دابرومون ذلك التأثير الذي
تنسبه إليه.

- تحتاج إلى براهين أخرى؟: هذا الصباح رأيت في النافذة، عيناه
تحدّقان في غيمة لم تكن أكبر من ريشة فالتة من مخدّة مفتّقة،
وسرعان ما تجمّعت أبخرة سوداء، وهطلت أمطار كانت من القوّة
التي تمكّن الكلاب من الشرب واقفة».

لم يقتنع سكاتسيغا وظلّ يهزّ برأسه متشكّكاً.

«زد على ذلك أنّ ساعيه ليس أفضل من سيّده، تابع تيمبيريو، ولا بدّ
أن يكون ذلك القرد المتعلّ حذاء ذا علاقة بالشيطان حتى يتمكّن
من طرحي أرضاً، أنا الذي كنتُ قادراً على قتله بمجرد نقرة من
الإصبع الوسطى.

- أنا أوافق تيمبيريو، قال رئيس المطبخ بنبرة مهيبية؛ الأجنبيّ يأكل
قليلاً؛ لقد أعاد الكوسة المحشوّة والدجاج المقلّي والمعكرونه
بالطماطم مع أيّ أعددها بيدي أنا! هناك سرّ ما غريب يخفي وراء
هذا الزهد في الأكل. لماذا يحرم رجل غنيّ نفسه من وجبات لذیذة
ولا يتناول إلّا حساء بالبيض وقطعة لحم بارد؟

- شعره أصهب، قالت جلسومينا وهي تمرّز أصابعها في غابة شعرها

(1) نسبة إلى الفرنسي فولتير وفلسفته العقلانية التي يسخر فيها من المتطّيرين.

(2) القدّيس جنّايو Santo Gennaio، الذي يعتبره أهل نابولي شفيعهم.

السوداء.

- وعيناه جاحظتان قليلاً، تابعت الخادمة الأخرى بيينا.
- وقربيتان جداً من الأنف، قال تيمبيريو مسانداً.
- والجعدة التي تتكوّن ما بين حاجبيه تتجوّف مثل حدوة حصان، قال فرجيليو المدهش مُكملاً التحقيق؛ إذن فهو...
- لا تنطق بالكلمة، لا جدوى من ذلك، صاحت الجوقة ما عدا سكاتسيغا، الذي ظلّ غير مصدّق؛ سوف نبقى على حذر.
- لولا إزعاج الشرطة، قال تيمبيريو، لتركْتُ صندوقاً يزن ثلاثمائة ليبرة يسقط صدفة على رأس ذلك الأجنبيّ المشؤوم!
- سكاتسيغا مقدام لقدرته على توصيله، قالت جلسومينا.
- أنا أجلس على مقعدي، وهو لا يرى سوى ظهري، ولا تستطيع عيناه تشكيل الزاوية المطلوبة. زدْ على ذلك أنّ أمره لا يهمني.
- أنت لا تتحلّى بديانة، يا سكاتسيغا، قال بالفوريو، الطباخ العملاق صاحب بنية هرقل الجسدية؛ سوف تكون نهايتك سيئة».
- وأثناء البحث في شأنه بطريقة النيمة في مطبخ فندق روما، كان بول الذي أفسد مزاجه حضور الكونت أكتافيلّا في بيت الأنسة وازد، قد ذهب للنزهة عند البالاتسو ريبالي. وفي أكثر من مرّة تجوّفت تجعيدة جبينه، واتّخذت عيناه نظرتها الثابتة. ذهب به الظنّ إلى أنّه رأى أليسيا تمرّ في عربة خيل برفقة الكونت والكومودوري، فأسرع نحو البوابة واضعاً نظارته الأنفية ليتأكد من أنّه ليس مخطئاً: كلاً، لم تكن أليسيا، بل امرأة تشبهها قليلاً. غير أنّ فرسيّ العربة ارتعبا من حركة بول المباغثة وجفّلاً.
- تناول بول قطعة مرطبات مثلجة في مقهى أوروبا عند ساحة القصر: تفحصه بعض الأشخاص بانتباه، وغثروا أمكتهم مؤدين إشارة فريدة

من نوعها.

دخل إلى مسرح بولتشيبيلا، حيث كان يُقدّم عرض مضحك. ارتبك الممثل أثناء ارتجاله الهزلي وأرتج عليه؛ لكنّه استعاد دوره بعد ذلك؛ غير أن أنفه الكرتوني الأسود انفصل إثر قفشة هزلية، ولم يتمكّن من إعادته، وبإشارة سريعة أراد منها الاعتذار، فسّر سبب الحادثة المزعجة بنظرة بول المحدّقة فيه والتي كانت تجرّده من كلّ قدراته.

انسحب النظارة المجاورون لبول واحداً تلو الآخر. وقف السيّد دابرومون للخروج غيرٍ مدركٍ مدى التأثير الغريب الذي كان يتسبّب فيه، وفي الممرّ كان يسمع همسات تنطق بهذه الكلمة الغريبة والخالية من المعنى بالنسبة له: «جتّاتوري! جتّاتوري!».

6

غداة إرسال القرنين، قام الكونت ألتافيلّا بزيارة للآنسة وازد. كانت الشابة الإنجليزية تحتسي الشاي برفقة عمّها، تماماً كما لو أنّها كانت في رامسغيت في بيت آجرّ أصفر، وليس في نابولي في فيرندا مطليّة بالجير ومحاطة بالصّبّاريات. فمن العلامات المميّزة للسكسون المثابرة في عاداتهم، مهما تكن متناقضة والبيئة الجديدة. كان الكومودوري يتهلّل فرحاً: فبواسطة قطعٍ ثلجية مصنوعة كيميائياً بألة، إذ لا يتمّ الاكتفاء بثلوج الجبال التي ترتفع وراء كستلاماري، توصل إلى المحافظة على زبدته في حالة متصلّبة، وكان يضع طبقة منها بارتياح واضح على قطعة خبز مقطّعة بطريقة السندويتش.

بعد تلك الكلمات الفضاضة التي تسبق أيّ حوار وتشبه الدوزنة التي يختبر بها عازف البيانو لوحته قبل بدء العزف، خاطبت أليسيا،

وكانت تخرج للتو من بيت الراحة، الكونت النابوليتاني الشاب بغتة:
«ماذا تعني هدية القرون الغربية تلك التي أرفقتها بزهورك؟ خادمتي
فيتشي قالت لي إنها واقية من «الفاتشينو»؛ هذا كل ما استطعت انتزاعه
منها.

- فيتشي محقة، أجب الكونت أكتافيلاً منحنياً.
- لكن ما هو «الفاتشينو»؟ تابعت الأنسة الشابة؛ لا أعرف شيئاً عن
تطيركم... الأفريقي؛ وقد يكون لذلك علاقة ببعض المعتقدات
الشعبية.
- «الفاتشينو» هو التأثير المؤذي الذي يُحدثه الشخص الموهوب، أو
بالأحرى المبتلى بالعين الشريرة.
- أظاهر بفهمك، خشية إعطائك فكرة سيئة عن ذكائي إن أنا اعترفت
بأنني لا أفهم معنى كلماتك، قالت المسن أليسيا وازد؛ أنت تفسر لي
المجهول بالمجهول: العين الشريرة لا تفسر لي معنى «الفاتشينو»
إلا بشكل سيئ؛ وأنا مثل شخصية المسرحية الكوميديّة، أعرف
اللغة اللاتينية، لكن عليك أن تتصرّف كما لو كنت لا أعرفها⁽¹⁾.
- سأوضح ما أعنيه بكلّ دقة ممكنة، أجب أكتافيلاً؛ فقط لا تذهبي،
ضمن ازدرائك البريطاني، إلى اعتباري شخصاً متوحشاً والتساؤل
عما إذا كانت ثيابي تُخفي وشماً بالأحمر والأزرق. أنا إنسان
متحصّر؛ تربيت في باريس؛ أتكلّم الإنجليزية والفرنسية؛ قرأت

(1) في «البرجوازيّ النبيل» *Le Bourgeois gentilhomme* (الفصل الثاني، المشهد الرابع)
يسأل أستاذ الفلسفة تلميذه السيّد جوردان عما إذا كان يجيد اللاتينية، فيجيبه السيّد
جوردان: «نعم، لكن، تصرّف كما لو كنت لا أجيدها وفسّر لي ماذا تعني». و«البرجوازي
النبيل» باليه كوميدى يزاوج بين الشعر والنثر، من تأليف موليير، قدّمته فرقة للمرة الأولى
في 14 أكتوبر 1670 أمام بلاط لويس الرابع عشر في قصر شامبور Chambord.

فولتير؛ أو من بالآلات البخارية، وسكك الحديد، والمجلسين مثل ستانдал⁽¹⁾؛ آكل المعكرونة بالشوكة؛ في الصباح أضع قفازاً سويدياً، وبعد الظهر قفازاً ملوناً، وفي المساء قفازاً مجدولاً من القش».

انتبه الكومودوري، الذي كان يدهن قطعة الخبز الثانية بالزبدة، إلى هذه البداية الغريبة، ومكث والسكين في يده، يحدّق في آتافيلًا ببؤبؤيه اللذين هما بزرقه القطب ويشكل لونها تناقضاً عجيباً مع سحنته الحمراء بلون الأجر.

«هذه كفاءات مطمئنة، قالت الأنسة وازد مبتسمة؛ وبعدها سأكون استفزازية حقاً إن أنا اتهمتكم بالبربرية. لكنّ ما تريد قوله لي هو إذن في منتهى الفظاعة أو منافاة العقل إلى درجة أنك تلجأ إلى كلّ هذه الموارد لبلوغ لب الموضوع؟

- نعم في منتهى الفظاعة، ومنافاة العقل، وربّما في غاية السخف أيضاً، وهذا أسوأ، تابع الكونت؛ لو كنت في لندن أو باريس، فلربّما سخرت منه مثلك، لكنّ هنا، في نابولي...
- أي أنك سوف تحافظ على جدّيتك؛ أليس هذا ما تريد قوله؟
- بالضبط.

- لنصل إلى «الفاتشينو»، قالت الأنسة وازد، وقد تأثرت برصانة آتافيلًا رغماً عنها.

- هذا الاعتقاد يعود إلى العصور القديمة. وهناك إشارة إليه في التوراة. ويتحدّث عنه فرجيل بنبرة اقتناع؛ والتعويذات البرونزية التي عُثِر

(1) أي «مجلس اللوردات» و«مجلس العموم»، وقد عُرف الكاتب الفرنسي ستانдал بتفضيله للنظام البرلماني على الطريقة الإنجليزية.

عليها في يومٍي، وهر كولانوم وستايا، وكذلك العلامات الواقية المرسومة على جدران أنقاض المنازل، تُبين كم كان ذلك التطير موجوداً منذ القدم (شدّد ألتافيلاً على كلمة «التطير» بنية خبيثة). والشرق بكامله ما زال يذهب إلى الاعتقاد به. فهناك أيدٍ حمراء أو خضراء تُطبع على جوانب البيوت الموريسكية لطرد التأثير السيئ. ويمكن رؤية يد منحوتة على درفة باب الشريعة⁽¹⁾ بقصر الحمراء؛ وهذا ما يؤكّد أنّ هذا الحكم المسبق وإن لم يكن مبنياً على استدلال، فهو قديم جداً على الأقل. وعندما يتقاسم ملايين البشر طيلة آلاف الأعوام رأياً فمن المرجّح أن يكون ذلك الرأي، المتقبّل بشكل طاع، مستنداً إلى وقائع يقينية، وإلى متابعة طويلة من المُعانيات التي يبرّرها الحدث... يصعب عليّ الاعتقاد، مهما تكن فكرتي عن نفسي إيجابية، أنّ كلّ أولئك الأشخاص، ومن بينهم بالتأكيد شخصيات عظيمة متنوّرة وعالمة، قد أخطؤوا بفضاظة في أمرٍ أكونُ أنا الوحيد الذي يراه بطريقة جليّة...

- برهنتك يسهل دحضها، قاطعته الأنسة أليسيا وازد: ألم يكن مذهب تعدّد الآلهة دين هزيود وهوميروس وأرسطو وأفلاطون وحتى سقراط، الذي ضحّى بديك إلى أسكليبيوس⁽²⁾، وغيرهم من الشخصيات الكثيرة المتمتعة بعقريّات لا يمكن الاختلاف بصدها؟

- صحيحٌ ذلك، لكنّ لم يعد يوجد اليوم مَنْ يضحّي بثيران لجويتر.
- من الأفضل تحويلها إلى وجبة مشاوي، قال الكومودوري حاسماً

(1) باب الشريعة هو الباب الرئيسي في قصر الحمراء في غرناطة.

(2) إشارة إلى كلمات سقراط الأخيرة، كما نقلها أفلاطون عنه («محاورة الفيديون»).

حُكمه، وهو الذي لظالما صدمته عادة حرق الأفخاذ الطرية على الفحم كما ذكر هو ميروس.

- لم يعد هناك تقديم حمام لفينوس، ولا طواويس ليونون⁽¹⁾، ولا تيوس لباخوس؛ المسيحية غيرت تلك الأحلام المعبولة من الرخام الأبيض الذي ملأت به اليونان الألب؛ الحقيقة أنهت الخطأ، وما زال الكثير من الناس يخشون تأثيرات «الفاتشينو»، أو إذا أردنا تسميته الشعبية «الجئاتورا».

- أتفهم قلق أفراد الشعب الجاهل من هذه التأثيرات، قالت الأنسة وازد؛ لكنني أستغرب أن يشاركهم رجل من محبتك ومن ثقافتك في مثل هذا الاعتقاد.

- أكثر من واحد من ذوي العقول المفكرة، أجاب الكونت، يعلق قرناً في نافذته، ويسمّر ضحية⁽²⁾ فوق بابه، ولا يمشي إلا مغطى بتعاويد؛ أنا رجل صريح، وأعترف بلا خجل أنني عندما أصادف جئاتوري⁽³⁾، أنتقل إلى الجانب الآخر من الشارع بطيبة خاطر، وإذا لم أستطع تفادي نظره أسعى إلى التعزيم عليه بالحركة المكترسة لذلك. ولا أتصنع سلوكاً آخر يختلف عن سلوك حمال مثلاً، وهكذا أجدني في حال جيدة.

حصلت لي أحداث عديدة مزعجة علّمتني إلا أستخفّ بهذه الاحتياطات.

كانت المس أليسيا وازد تنتمي إلى المذهب البروتستانتي، تربت في

(1) يونون (بالفرنسية Junon وباللاتينية Juno) أخت جوبيتر، كبير الآلهة وزوجته، في الأساطير الرومانية، وتعاذل هيرا لدى الإغريق.

(2) إشارة إلى قرون الأيائل مع عظمة الجبين التي تعلق عادة للزينة.

(3) الجئاتورا، سبق ذكرها، هي العين الشريرة، والجئاتوري هو صاحبها.

كف حرية عالية وروح فلسفية، لا تسلّم بأيّ شيء إلا بعد الفحص، وينفر العقل السليم عندها من كلّ ما لا يمكن تفسيره رياضياً. لذلك فاجأها خطاب الكونت. أرادت في البداية أن ترى فيه مجرد طرفة ذهنية؛ غير أنّ نبرة آلتافياً الهادئة والواقفة جعلتها تغيّر رأيها دون أن تتوصّل إلى الاقتناع بأيّ طريقة كانت.

«أوافقك الرأي، قالت، أنّ هذا الحكم المسبق موجود، وأنّه منتشر كثيراً، وأنتك صادق في خشيتك من العين الشريرة، ولست بصد التلاعب بسداجة أجنبية مسكينة؛ لكن، أعطني بعض البراهين الفيزيائية المحسوسة حول فكرة التطير، ذلك أنّني متشككة جداً، وإنّ اهتمامي بالافتقار الكامل للروح الشاعرية: ولا أتأثر كثيراً بالفنطازي، والملغز، والسحري، وكلّ ما هو غير قابل للتفسير.

- ليس بوسعك، يا مس أليسيا، تابع الكونت، إنكار قوّة العين البشرية؛ إنّ نور السماء يتحد فيها مع انعكاسات الروح؛ الحدقة هي عدسة تكثّف أشعة الحياة، والكهرباء الذهنيّة تنبجس من هذه الفتحة الضيقة: ألا تخترق نظرة امرأة أشدّ القلوب قسوة؟ ألا تشحن نظرة بطل جيشاً بكامله؟ ألا تروّض نظرة الطبيب الشخص المجنون مثل حمام ماء بارد؟ ألا تجعل نظرة الأم الأسود تتفهقر؟

- أنت تدافع عن قضيتك بفصاحة، أجابت الأنسة وازد وهي تهزّ برأسها؛ اعذرنى إنّ كانت لا تزال تراودني بعض الشكوك.

- والظاهر الذي ينزل من شجرته التي يستطيع الطيران منها، مختلجاً رغباً، مُطلقاً صيحات مؤلمة، كي يلقي بنفسه في فم الثعبان الذي فتته، هل يستجيب إلى حكم مسبق؟ هل استمع في الأعشاش إلى

ثرنارات ذوات ريش يروين له حكايات جتاتورا؟ ألم تحدث عدّة تأثيرات لأسباب هي أبعد ما تكون عن أن تدركها أعضاؤنا؟ ونتونة حمى المستنقعات، والطاعون والكوليرا، هل هي قابلة للرؤية؟ ما من عين تستطيع رؤية التيار الكهربائي في قضيب واقى الصواعق، ومع ذلك يتم تحويل وجهة الصاعقة! ما المحال في افتراض خروج شعاع ملائم أو ضارّ من هذا القرص الأسود أو الأزرق أو الرماديّ؟ لم لا يكون هذا الدفق مباركاً أو مشؤوماً وفق طريقة البثّ والزاوية التي يتلقاه منها المتقبل؟

- يبدو لي، قال الكومودوري، أنّ نظرية الكونت توحى لي ببعض الظلال؛ أنا شخصياً لم أستطع التحديق في عينين ذهبيتين لضفدع من دون الشعور بحرارة لا تطاق في معدتي، كما لو أنّني تناولت بعض المقيّات؛ ومع ذلك فالزاحف المسكين محقّ أكثر منّي عندما يخشى أن أسحقه بدعسة كعب.

- آه! يا عمّي! إذا اصطفت مع السيّد آتافيلا، قالت الآنسة وازد، فسأهزم لا محالة. لست قادرة على المقاومة. ومهما تكن لي من اعتراضات كثيرة على هذه الكهرباء البصرية التي لم يتحدث عنها أيّ عالم فيزياء، أرغب في التسليم بوجودها مؤقتاً، لكنّ ما النجاعة التي يتحلّى بها القرنان اللذان أنعمتّ بهما عليّ في درء التأثيرات المشؤومة؟

- مثلما يجتذب واقى الصواعق الصاعقة بواسطة حدّه، أجباب آتافيلا، فإنّ الطرف الحادّ للقرن عندما تحدّق به عين الجتاتوري يحوّل وجهة التيار الشرير ويجرّده من كهربائه الخطيرة. ويُسدي الإصبعان الممدّدان إلى الأمام، وتمايم المرجان، تلك الخدمة نفسها.

- كل ما تحكيه لي هنا يدخل في باب الجنون حقاً، يا سيدي الكونت، تابعت الأنسة وازد تقول؛ وإليك ما أعتقد أنني توصلت إلى فهمه من كل ذلك: أنا، حسب رأيك، تحت تأثير جتاتوري خطير جداً؛ وأنت أرسلت لي بالقرنين كوسيلة دفاعية؟

- أخشى ذلك، يا من أليسيا، أجب الكونت بنبرة اقتناع عميق.
- فليتجزأ واحد من أولئك الظرفاء ذوي العين المريبة على فتنة ابنة أخي! فأنا، رغم تجاوزي الستين، لم أنس دروسي في الملاكمة».

«يكفي إصبعان، يا ميلورد، قال ألتافيلاً وهو يمسك بيد الكومودوري ليدلّه على الوضعية المطلوبة للإصبعين. في الغالب الأعم تكون الجتاتورا لا إرادية؛ وهي تُمارس من دون علم الذين يمتلكون هذه الهبة المشؤومة، ويحدث كثيراً أن أصحابها الذين يدركون سلطتهم الضارة يحزنون من تأثيراتها أكثر من غيرهم؛ ينبغي إذن تحاشيهم لا الإساءة إليهم. زد على ذلك أنه بالإمكان تحييد تأثيرها، أو على الأقل تخفيفه، بالقرون وبالإصبعين الممدودتين، وعروق المرجان المتشعبة.

- في الحقيقة، هذا أمر في منتهى الغرابة، قال الكومودوري متأثراً برباطة جأش ألتافيلاً رغماً عنه.

- لا أعرف أنني مهووسة كثيراً بالجتاتورات؛ أنا لا أعادر هذه الفيرندا إلا نادراً، عندما أذهب مساء لنزهة في العربة ناحية البالاتسوريالي مع عمي، ولم ألاحظ شيئاً يؤكد ما افترضته، قالت الشابة وقد استيقظ فضولها رغم أن شكوكها ظلّت هي نفسها. إلى من تتّجه شكوكك؟

- ليست شكوكاً، يا من وازد؛ يقيني كامل، أجب الكونت النابوليتاني الشاب.

- أرجوك، اكشف لنا اسم هذا الكائن المشؤوم!« قالت الأنسة وازد مع نبرة سخرية خفيفة.
حافظ ألتافيلاً على صمته.

«من الجيد معرفة من يتوجب علينا مبادلته التحدي»، أضاف الكومودوري.

لاح الكونت النابوليتاني الشاب مستغرقاً في التأمل؛ ثم نهض، وتوقف أمام عمّ الأنسة وازد، وجه إليه تحية احترام وقال له:
«يا ميلورد وازد، أنا أطلب منك يد ابنة أخيك».

مع هذه الجملة غير المنتظرة، تورّد لون أليسيا، وانتقل الكومودوري من اللون الأحمر إلى القرمزي.

مؤكد أنّ الكونت ألتافيلاً كان قادراً على طلب يد المس وازد، فهو ينتمي إلى إحدى أقدم وأنبل العائلات النابوليتانية؛ وكان جميلاً، فتيماً، غنياً، يحظى جيداً برضا الملك، حسن التربية، ذا أناقة لا غبار عليها؛ وعليه فإنّ طلبه في حدّ ذاته ليس فيه ما يصدم. لكنّه جاء بطريقة في منتهى المباغته، والغرابة؛ ولم تكن ناتجة كثيراً عن الحوار المطروح، وهو ما يبرّر تماماً ذهول العمّ وابنة أخيه. أمّا ألتافيلاً فلم تظهر عليه المفاجأة ولا الإحباط من ذلك، وظلّ ينتظر الإجابة بثبات.

«عزيزي الكونت، قال الكومودوري أخيراً وقد تدارك ارتباكه قليلاً، إنّ عرضك يذهلني بمقدار ما يشرفني. في الحقيقة، لا أعرف بماذا أجيبك؛ لم أستشر ابنة أخي بعد. كنّا نتحدّث عن «الفاتشينو» و«الجتاتورا» والقرون والتعاويد والأيدي المبسوطة أو المقبوضة، وكلّ أنواع الأشياء التي لا علاقة لها بالزواج، وإذا بك تطلب منّي يد أليسيا! هذا يفتقر إلى الترابط تماماً، وأتمنّى ألاّ تلومني إن لم تكن بحوزتي أفكار

واضحة حول هذا الموضوع. أكيد أن هذا الاقتران سيكون ملائماً جداً، لكنني أعتقد أن ابنة أخي لها نوايا أخرى. صحيح أن ذئب بحارٍ عجوزاً مثلي لا يقرأ كثيراً وبطريقة جيدة ما يجول في قلب الفتيات الشابات..» .
 عندما رأت أليسيا عمّها يتشوّش، انتهزت فرصة توقّفه بعد جملته الأخيرة كي تضع حدّاً لمشهد صار مزعجاً، وقالت للنابوليتاني:
 «أيها الكونت، عندما يتقدّم رجل لطيف بطلب يد فتاة شريفة بطريقة صادقة، لا يكون هناك مجال أمامها للشعور بالمهانة، لكن من حقّها الدهول من الشكل الغريب الذي يُعطى لهذا الطلب. كنتُ بصدد مساءً لتك عن اسم الجتاتوري المزعوم الذي يمكن لتأثيره، حسب رأيك، أن يلحق بي ضرراً، وإذا بك تتوجّه إلى عمّي بغتة بعرض لست أفهم بواعثه.

- هذا يعود إلى كون الرجل النبيل، أجباب ألتافياً، لا ينقلب إلى واهٍ بطيبة خاطر، والزوج وحده هو الذي يستطيع الدفاع عن زوجته. لكن في إمكانك أخذ بضعة أيّام للتفكير. وحتى ذلك الوقت سوف يكفيك القرنان المعروضان بطريقة مرثية، كما أتمنى، لدرء أيّ حدث مكدر».

إثر ذلك القول، نهض الكونت وخرج بعد أن ألقى تحية حارة. كانت فيتشي الخادمة المتوحّشة ذات الشعر الأجدع، عندما جاءت لأخذ إبريق الشاي والكؤوس، قد استمعت وهي ترتقي درج الفيرندا ببطء، إلى نهاية الحوار. كانت تكنّ لبول دابرومون كلّ النفور الذي يمكن أن تضمّره فلاحه من منطقة الأبروتسو⁽¹⁾، لم تكذب تدجّن بعد عامين أو ثلاثة في الخدمة المنزلية، إزاء شخص أجنبيّ يُعتقّد بصلته بالجتاتورا.

(1) أحد أقاليم إيطاليا وتبعد حدوده الغربية عن شرقيّ روما مسافة 80 كم.

زد على ذلك أنها تجد الكونت ألتافيلاً رائعاً، ولا تتصوّر أن تفضّل عليه
الآنسة أليسيا شاباً نحيلاً وشاحباً ما كان ليعجبها هي، فيتشي، حتّى لو
لم يمتلك «الفاتشينو». وبما أنّها لم تُعجب برقة أسلوب الكونت، ورغبةً
منها في إبعاد سيّدها التي تحبّ عن تأثير ضارّ، فقد مالت فيتشي على أذن
الآنسة وازد وقالت لها:

«الاسم الذي يخفيه عنك الكونت ألتافيلاً، أعرفه، أنا.

- أمنعك من ذكره لي، يا فيتشي، إنّ كنتِ متمسّكة بعطفي، أجابت
أليسيا. حقّاً، كلّ هذه المعتقدات الباطلة مخزية، وسوف أواجهها
كفتاة مسيحيّة لا تخشى إلاّ الربّ».

7

«جتاتوري! جتاتوري! هذه الكلمات كانت موجّهة إليّ حقّاً، قال
بول دابرومون وهو يعود إلى الفندق؛ أجهل ما تعنيه، لكن لا بدّ أنّها
تتضمّن معنى إهانة أو سخرية. ما المتفرد أو الشاذّ أو الهازئ في شخصي،
حتّى يثير الانتباه بهذه الطريقة غير الملائمة؟ يبدو لي، مهما كان المرء أعجز
من أن يحكم على نفسه بنفسه، أنّي لست جميلاً ولا بشعاً، لا طويلاً ولا
قصيراً، لا ضعيفاً ولا سميناً، ويمكنني المرور بين الناس دون أن يتفطن
لي أحد. حتّى ثيابي ليست غريبة؛ أنا لا أعتمر عمامة مضاءة بالشموع
مثل السيّد جوردان في حفلة «السيّد النبيل»⁽¹⁾؛ ولا أرتدي سترة مزخرفة
بشمس ذهبية على الظهر؛ ولا يتقدّمني زنجيٌّ ناقراً دفوفه؛ وفوق ذلك
فإنّ ذاتيّتي، المجهولة تماماً في نابولي، تتوارى في ثياب موحّدة، هي قناع
الحضارة الحديثة، فصرتُ أشبه في كلّ شيء أولئك المتغدرين الذين

(1) «البرجوازي النبيل» لمولير، باليه كوميدى سبق ذكره.

يتجولون في شارع طليطلة أو ساحة القصر، باستثناء صغير هو استغنائي
عن ربطة العنق، وعن الدبوس، والقميص المطرز، والصدريّة، وسلاسل
الذهب، وعن المبالغة في تجميد الشعر.

ربّما لم أكن مجعّد الشعر في خصلات صغيرة بشكل كافٍ! غداً سوف
أقصد حلاق الفندق كي يعالج شعري بالمكواة. مع ذلك فإنّ الناس
معتادون هنا على رؤية أجنب، وبعض الاختلاف الخفيّ في الزيّ أو
المظهر لا يكفي لتبرير تلك الكلمة الغريبة والحركة الشاذة اللتين يثيرهما
حضورني. ولقد لاحظت أيضاً تعبيراً عن النفور والذعر في عيون الناس
الذين كانوا يتعدون عن طريقي. ماذا عساني أكون قد فعلت لأولئك
الناس الذين ألتقيهم لأول مرّة؟ المسافر، وهو ظلّ يمرّ لكيلا يعود أبداً،
لا يثير إلاّ اللامبالاة أينما حلّ، إلاّ إذا كان قادماً من منطقة بعيدة ويمثّل
عيّنة من سلالة بشريّة مجهولة: غير أنّ البواخر تقذف، كلّ أسبوع، على
رصيف الميناء، آلاف السيّاح الذين لا أختلف عنهم في شيء. ومن ينشغل
بأهمّ بهم غير الحمّالين وأصحاب الفنادق وخدم المكان؟ لم أقتل أخي،
إذ ليس لي أخ، ولا يمكنني أن أكون موسوماً من الربّ بعلامة قابيل،
ورغم ذلك يرتبك الناس ويتعدون لمرآي: في باريس، في لندن، في فيينا،
وفي كلّ المدن التي سكنت فيها، لا أذكر البتة أنني تسبّبت في تأثير مماثل؛
لاحظوا أحياناً أنني متكبر، مستخفّ، ومتوحش؛ قيل لي إنني أنظّهر
بالتكشيرة الإنجليزيّة، وإنني أقلّد اللورد بايرون⁽¹⁾، لكنني قوبلت في كلّ
مكان بجدارة الجنتلمان، وحتىّ علاقاتي، رغم ندرتها، كانت تضمن لي
التقدير. لا يمكن لرحلة عبور دامت ثلاثة أيّام من مرسيليا إلى نابولي أن

(1) جورج غوردون بايرون أو اللورد بايرون Lord Byron (1788-1824)، شاعر بريطاني من
رؤاد الشعر الرومانطيقي.

تكون قد غيرتني إلى حدّ تحوّلي إلى كائن مقيت أو هُزأة، أنا الذي لفتُّ انتباه أكثر من امرأة، وتمكّنتُ من ملامسة قلب المسّ أليسيا وازد، تلك الفتاة العذبة، المخلوقة السماوية، إحدى ملائكة توماس مورا»⁽¹⁾.

هذه التأملات، العقلانية بالتأكيد، هدأت بول دابرومون قليلاً، واقتنع بأنّه أضفى على الحركات الإيمائية المبالغ فيها لدى نابوليتانيين، وهم أكثر شعوب العالم إيماءاً وتأشيراً، معنىً ليس لها.

كان الوقت متأخراً. وكلّ المسافرين ما عدا بول، عادوا إلى غرفهم الخاصّة؛ وكانت جلسومينا، وهي إحدى الخادמות اللآثمي وصفناهنّ خلال اجتماع النميمة في المطبخ برئاسة فيرجيليو فالساكابا، تنتظر عودة بول كي تضع رتاج الباب. ولقد ترجّحتُ نانيلاً، الفتاة الأخرى، وكان دورها في الحراسة، زميلتها الأكثر بسالة أن تحلّ محلّها، لأنها لا تريد الالتقاء بالأجنبيّ المشكوك في أنّه جتاتوربي؛ لذلك كانت جلسومينا مدجّجة بالأسلحة: رزمة كبيرة من التعاويذ تتنفس على صدرها، وخمسة قرون صغيرة من عروق المرجان ترتعد في زخرف قرطيها؛ وكانت يدها المضمومة مسبقاً تمدّ السبابة والخنصر بتصويب دقيق يمكنه بالتأكيد اكتساب استحسان الخوري المبجل أندريا دي جوريو مؤلّف كتاب «إيماءات القدامى المعثور عليها في الحركات النابوليتانية»⁽²⁾.

قدّمتُ جلسومينا المقدامة، وهي تخفي يدها خلف إحدى طيات تنورتها، مشعل الإضاءة إلى السيّد دابرومون، ووجهت إليه نظرة حادّة،

(1) توماس مور Thomas Moore، سبقت الإشارة إليه وإلى كتابه «حبّ الملائكة» الذي أترّ في الكثير من الشعراء الفرنسيين.

(2) أندريا دي جوريو Andrea de Jorio (1769-1851): مؤلّف «دليل إلى يومي» Guida di Pompei، وكتب أيضاً سنة 1832 هذا الكتاب الذي يشرّ إليه غوتيه، وعنوانه الأصليّ: *La mimica degli antichi investigata nel gestire napoletano*

ثابتة، استفزازية تقريباً، ذات تعبير كان من الفريدة إلى حدّ إلقاء الشاب إلى خفض عينيه: وهي وضعية بدت مُرضية جداً لتلك الفتاة الجميلة. ومن خلال رؤيتها ثابتة ومستقيمة، رافعة المشعل بحركة تماثل، ووجهها مرتسم بخطّ من الإضاءة، وعيناها محدّقتان متوهّجتان، كان يمكن القول إنّها نيميزيس⁽¹⁾ القديمة ساعية إلى إفحام مذب.

عندما صعد المسافر الدرج وتلاشى وقع خطاه في الصمت، رفعت جلسومينا رأسها بهيئة المنتصرة، وقالت: «لقد نجحتُ بطريقة رائعة في إعادة إدخال نظرته إلى بؤبؤيه، هذا السيد الشنيع، فليُفحمه القديس جتايو؛ لن يصيبني مكروه، أنا متأكّدة من ذلك».

نام بول بطريقة سيّئة وكان نومه مضطرباً؛ تعذّب بكلّ أنواع الأحلام الغريبة المتعلّقة بالأفكار التي شغلته بالأمس: كان يرى نفسه محاطاً بوجوه مكشّرة ومشوّهة تعبّر عن الكراهية والغضب والخوف؛ ثمّ تلاشت تلك الوجوه؛ لاحت أصابع طويلة، نحيلة، عظيمة، ذات سلاميات كثيرة العُقد، تخرج من الظلّ محمّرة بضوء جحيميّ، تهدّده بإيحاءات غامضة؛ وتتعلّف أظافر تلك الأصابع لتصير مخالب نمر، ويراثن نسر، تقترب من وجهه أكثر، وتبدو كأنّها تريد اقتلاع بؤبؤيه. وبجهد خارق تمكّن من إبعاد تلك الأيدي المرفرفة بأجنحة خفافيش؛ وأعقت الأيدي المعقوفة أعضاء أبقار وجواميس وأيائل، مهاجم مبيضة تحرّكها حياة ميتة، كانت تهاجمه بقرونها وتجبره على إلقاء نفسه في البحر، حيث تمزّق جسده في غابة مرجان حادّ الفروع أو متشعبها. أعادته موجة إلى الشاطئ مسحوقاً مهشماً يشارف على الموت؛ ومثل دونجوان اللورد بايرون، كان يلمح عبر غيبوبته وجهاً فاتناً ينحني عليه؛ لم تكن هايدي،

(1) إلهة الانتقام عند الإغريق.

بل أليسيا، الأجل من الكائن الخيالي الذي ابتدعه الشاعر. كانت الفتاة تبذل جهوداً بلا طائل من أجل جزّ الجسم على الرمل، فيما البحر يريد استرجاعه، وتطلب المساعدة من فيتشي، الخادمة المتوحّشة، التي كانت ترفض الطلب مطلقاً ضحكة شرسة: كانت ذراعاً أليسيا تفتران ويعود بول إلى السقوط في الهاوية.

هذه المشاهد الخارقة، المرعبة في تشابكها، والمبهمة في شناعتها، وغيرها مما هو أفظع ولا يمكن إدراكه، وكلّها تذكّر بتلك الأشباح ذات الأشكال المشوّهة المرسومة في الظلّ الكثيف للوحات الحفر المائي عند غويا، عدّبت النائم حتى خيوط الفجر الأولى؛ ويبدو أنّ روحه التي تحرّرت بهلاك الجسد، حاولت سبر ما لم يفهمه العقل المستيقظ، ولجأت إلى تحويل تلك الأحاسيس الداخلية إلى صور، في محض الحلم.

نهض بول محطّماً، قلقاً، كأنّه يقتفي أثر مصيبة كانت تخفيها تلك الكوابيس التي كان يخشى سبر أغازها؛ كان يلفّ ويدور حول السرّ المشؤوم، يغمض عينيه حتى لا يرى ويصمّ أذنيه حتى لا يسمع. لم يسبق له أن كان حزيناً بهذه الدرجة؛ بدأ يشك حتى بأليسيا؛ عادت إلى ذاكرته هيئة الغطرسة السعيدة للكونت النابوليتاني، والمسايرة التي كانت الفتاة تنصت بها إليه، ملامح الكومودوري المؤيدة، كان كلّ ذلك يعود إليه في الذاكرة مضخّماً بعدّة تفاصيل أليمة، ويغرق قلبه في المرارة ويزيد في كاتبته.

للضوء ميزة تبديد الانزعاج الذي تسببه الرؤى الليلية. ذلك أنّ شمارّا⁽¹⁾ المستاء يهرب خافقاً جناحيه الغشائية، عندما يطلق النهار نباله الذهبية في الغرفة عبر فجوات الستائر. كانت الشمس تشرق بألق بهيج،

(1) شمارّا (سبق ذكره) اسم لروح شرّير كان القدامى يعتقدون أنه مسؤول عن الكوابيس.

والسما صافية، وعلى زرقة البحر تتلأأ ملايين ذريرات التبر: رويداً رويداً استعداد بول هدوءه، نسي أحلامه المزعجة والانطباعات الغربية ليلة البارحة، وحتى إن كان يفكر فيها فقد كان ذلك من أجل اتهام نفسه بالشطط.

ذهب للتجوّل في حيّ كياجا للتمتّع بمشاهد النزق النابوليتاني: الباعة ينادون على بضاعتهم بأناشيد غربية باللّهجة الشعبية التي لا يفهمها لأنّه لا يتقن إلا الإيطالية، مع حركات غير مرتّبة وهيجان في السلوك لا يوجد في الشمال؛ لكنّه كان كلّما توقّف قرب دكانٍ أسرع البائع إلى اتّخاذ مظهر متخوّف، وبدأ يهمس بلعنات خفيّة، ويمدّ إصبعين كما لو أنّه يريد طعنه بالخنصر والسبابة؛ أما النساء الثرثارات، وهنّ أكثر جرأة، فينهلن عليه بالشتائم ويُرينه قبضاتهنّ المتوعّدة.

8

اعتقد السيّد دابرومون، لدى سماعه شتائم رعاك كيايا الموجهة إليه، أنّه كان موضوعاً لتلك القفشات الهزليّة الفظّة التي يتحف بها باعة السمك كلّ الناس المحترمين الذين يجتازون السوق؛ غير أنّ هناك نفوراً قوياً جداً وهلعاً حقيقياً كانا يرتسمان في كلّ العيون، حتى إنّّه تخلّى عن هذا التفسير؛ وتمّ النطق مرّة أخرى بكلمة «جتاتوري» التي سبق أن طرقت أذنيه في مسرح سان كارلينو، لكنّ مع تعابير متوعّدة هذه المرّة؛ ابتعد إذن بخطوات بطيئة، ممتعاً عن التحديق بنظره في أيّ شيء، ما دام هو السبب في كلّ تلك البلبلة. وعندما حاذى بول البيوت من أجل تفادي انتباه العموم، بلغ بسطة بائع كتب قديمة؛ توقّف عندها، حرّك بعض الكتب وفتحها، متحكماً في وقفته: كان يدير ظهره للعابرين، ووجهه المحجوب

أغلبه بأوراق الكتاب يتحاشى تقديم أية فرصة للشتم. لقد فكّر لحظة في مهاجمة ذلك الوغد بعكازه؛ غير أنّ الرعب الغامض المتطير الذي بدأ يتملكه منعه من ذلك. ويتذكّر كيف أنّه ضرب حوذياً وقحاً ذات مرّة بقضيب خيزران خفيف، فأصابه في صدغه وقتله فوراً، في جريمة غير متعمّدة لم يتأسّ منها حتى اليوم. بعد أن تناول عدّة كتب وأرجعها إلى خاناتها، عثر على دراسة حول الجتاتورا للسنيور نيكولو فاليتا. لمع هذا العنوان في عينيه بحروف نارية، وبدا له أنّ الكتاب وُضع هناك بيد القدر. رمى لبائع الكتب، الذي كان ينظر إليه بهيئة ماکرة وهو يهزّ قرنين أسودين أو ثلاثة قرون في سلسلة ساعته، بالقطع النقدية الستّ أو الثماني من فئة الكرلان، سعر الكتاب، وأسرع إلى الفندق مغلقاً غرفته من أجل البدء بقراءة ستوضّح له الشكوك وتحّددها وقد غدت هاجسه منذ قدمه إلى نابولي.

كان كتاب السنيور فاليتا منتشرأ جداً في نابولي مثل انتشار كتب «أسرار ألبير العظيم» أو «أتيلّا» أو «مفتاح الأحلام» في باريس. يصف فاليتا الجتاتوري، ويحدّد علامات التعرّف عليه، ووسائل تفاديه؛ ويقسم الجتاتورات إلى عدّة طبقات، حسب درجة أضرارهم، ويطرح كلّ التساؤلات المرتبطة بهذه المادّة الخطيرة.

لو عثر دابرومون على هذا الكتاب في باريس لتصفّحه بلامبالاة مثل أيّ روزنامة محشوة بحكايات سخيّة، ولاستهزأ بجديّة المؤلّف في معالجة هذه الترهات؛ لكنّه وهو في حالته المعنويّة تلك، خارج بيئته الطبيعيّة، واستعداده للتصديق بدافع من عدّة إشكالات صغيرة، قرأ الكتاب بذعر خفيّ، مثل جاهل يتهجّى في كتاب طلاسّم موضوعاً عن استحضار الأرواح والصيغ السريّة. ومع أنّه لم يسع إلى التوغّل في

أسرار هذا الجحيم فقد بدأت تتكشف له؛ لم يعد قادراً على منع نفسه من الاطلاع عليها، وصار يمتلك وعياً بقوته المشؤومة؛ إنه جتاتوري! وينبغي أن يقرّ بذلك إزاء نفسه: كان يمتلك كلّ العلامات التي وصفها فاليتا.

يحدث أحياناً أن يفتح إنسان ما، يعتقد أنه يتمتع حتى الآن بصحة جيّدة، كتاباً طبيّاً بالمصادفة أو للتسلية، وعند قراءة وصف الأعراض لمرض من الأمراض، يشعر أنه مصاب به؛ فيتملكه وعي مشؤوم ويحسّ لدى كلّ عرضٍ مذكور باختلاجة ألم في عضو غامض من أعضائه، ربّما كان أحد الأعصاب المخفيّة التي يجهلها، ويشحب لونه لإدراكه أنّ موته صار وشيكاً وكان يظنّه في منتهى البعد. - لقد أحسّ بول بنتيجة مماثلة.

وقف أمام مرآة وحملق في نفسه بحدّة مرعبة: هذا التكامل المتباين والمتكوّن من مفاتن لا تجتمع مع بعضها عادةً، يجعله يشبه كبير الملائكة المخلوع، ويشعّ بشؤم في عمق المرآة الأسود؛ كانت لُيُفات بؤبؤيه تتلوى مثل أفاعٍ متشجّجة؛ حاجباه يرتجان مثل القوس الذي غادره سهم الموت للتوّ؛ التّجعيدة البيضاء في جبينه تذكّر بندبة صاعقة، وفي شعره الأحمر الزاهي يلوح لهب جهنميّ؛ ويزيد الشحوب الرخاميّ للجلد في إبراز كلّ ملمح في هذا المظهر المرعب حقّاً.

خاف بول من نفسه: بدا له دفق عينيه، منعكساً في المرآة، كأنه يرتدّ عليه نبالاً مسمومة: عليكم أن تتخيلوا ميدوزا⁽¹⁾ تنظر إلى رأسها الفظيع والفتان في انعكاس وحشيّ لمرآة.

قد يعترض عليّ معترض بالقول إنّ من الصعب التصديق بأنّ شاباً

(1) هي في الميثولوجيا الإغريقيّة إحدى شقيقات ثلاث من الغيلان لها شعر من الأفاعي، ونظرتها تحوّل من يصرها إلى حجر.

من خيرة المجتمع، متشرب بالعلم الحديث، عايش شكوك الحضارة، قد اقتنع بحكم شعبيّ مسبق، وتصور نفسه موهوباً من الأقدار بخصلة شريرة غريبة. لكننا نجيب بأنّ هناك جاذبية مغناطيسيّة لا يمكن مقاومتها في التفكير العموميّ، تتغلغل فينا رغماً عنّا، ولا يمكن لإرادة فردية أن تقاومها بطريقة فعّالة دائماً: يمكن لأحدهم أن يصل إلى نابولي ساخراً من الجتاتورا، وينتهي به الأمر إلى تقلّد كلّ وسائل الوقاية المقرّنة والهروب مرتعباً من كلّ فرد ذي عين مريبة. كان بول دابرومون يوجد في وضع أخطر من ذلك: فهو نفسه الذي يمتلك «الفاتشينو»، وكلّ الناس يتحاشونه، أو يؤدّون في حضوره تلك الإشارات الوقائية التي أوصى بها السينيور فاليتا. ومهما ثار عقله ضدّ هذا الرأي فهو لا يستطيع منع نفسه من الاعتراف بأنّه يمتلك كلّ العلامات الواشية بالجتاتوري. يحافظ العقل البشريّ دائماً، حتّى الأكثر استنارة، على ركن داكن، فيه تعمي أو هام الميقاتيّة الكريهة، وفيه تتشبّث خفافيش التطير. حتّى الحياة العاديّة هي من الامتلاء بالمشاكل التي لا نجد حلولاً إلى درجة أنّ المستحيل يتحوّل فيها إلى احتمال ممكن الحدوث. يمكننا تصديق كلّ شيء أو إنكاره: من وجهة نظر معيّنة، يوجد الحلم كما يوجد الواقع.

أحسّ بول أنّه مخترق بحزن هائل. -إنّه مسخ!- ورغم تحلّيه بالغرائر الأكثر وداعةً وبالطبع الأكثر رفقاءً، فإنّه يحمل الشؤم معه؛ ونظرته المشحونة بالسّم لا إرادياً تؤذي كلّ الذين يتوقف عندهم، وإنّ كان ذلك بيّنة حسنة. إنّه يتمتّع بالامتياز الشنيع المتمثّل في جمعه وتركيزه وتقطيره للأبخرة المرضية والتموجات الكهربائيّة الخطيرة والتأثيرات المشؤومة المنتشرة في الجوّ، لكي ينفثها حوله. هناك عدّة ظروف في حياته، وكانت حتّى اليوم تبدو له غامضة وقد نسبها بشكل مبهم إلى المصادفات، تتّضح

الآن تحت ضوء أدكن: لقد تذكر كل أنواع المغامرات المزعجة والممغزة، والمصائب غير القابلة للتفسير، والكوارث التي حلتّ بلا أسباب، وهوذا يكتشف سرّها الآن؛ هناك تطابقات غريبة تتوطّد في ذهنه وتؤكد ما كان يحصل ضمن الرأي الكئيب الذي كوّنه عن نفسه.

عاد يستعرض حياته سنة تلو أخرى: تذكر أمّه التي ماتت وهي تلده؛ نهاية أترابه الشقيّة في المدرسة وأقربهم الذي قُتل بعد سقوطه من شجرة كان بول ينظر إليه أثناء تسلّقه لها؛ تلك النزّهة في زورق والتي انطلق فيها مع صديقين فرحين، وعاد وحده بعد جهود مضنية لاقتلاع جسديّ الطفلين المسكينين اللذين غرقا بسبب انقلاب الزورق؛ مبارزة السلاح عندما انكسر سيف التدريب قرب موضع زرّ الأمان وتحوّل إلى سيف قاطع، فأصاب خصمه بجرح خطير، وكان شاباً يحبّه بول كثيراً؛ لا شك أنّ كلّ ذلك يمكن تفسيره عقلياً، وهذا ما فعله بول حتّى ذلك الوقت؛ وفي تلك الأثناء صار ما كان يُعتبر طارئاً وعرضياً في تلك الأحداث يبدو له خاضعاً لسبب آخر منذ اطلاعه على كتاب فالتا: يتحمّل كلّ من التأثير المشؤوم، و«الفاتشينو»، والجاتاتورا، نصيباً من تلك الكوارث. ومثل هذه الديمومة للمصائب حول الشخص نفسه لا يمكن أن تكون طبيعية.

عادت إلى ذاكرته حادثة أخرى أحدث عهداً، بكلّ تفاصيلها الفظيعة، ولم تكن مساهمتها هيّنة في تأكيد اعتقاده المحزن.

في لندن، كان كثيراً ما يرتاد مسرح الملكة حيث أعجبه بشكل خاصّ راقصة إنجليزية شابة. ومن دون أن يتولّع بها أكثر من تولّع المرء بوجه لطيف في لوحة أو منحوتة، كان يتبعها بنظراته بين رفيقاتها في فرقة الباليه، عبر زوبعة حركات الرقص؛ تعلقّ بذلك الوجه العذب والحزين، وذلك الشحوب الهشّ الذي لا يجمّر أبداً بفعل حركات الرقص، وذلك

الشعر ذي الشقرة الحريرية الملمّعة، والمتوّج حسب الدور، بالنجوم أو بالزهور، وتلك النظرة البعيدة التائهة في الفضاء، والكتفين بطهارتهما البكر وهما تنتفضان تحت المنظار الصغير، والساقين اللّتين كانتا ترفعان بشيء من الأسف غيماتهما التي هي من شاشٍ، وتلمعان تحت الحرير مثل رخام تماشل قديم؛ وكان كلّما شاهدها تقترب من مقدّمة أضواء المسرح يجيئها بإشارات صغيرة خفية، أو يتناول منظاره الصغير لرؤيتها بطريقة أوضح.

ذات مساء وقد انطلقت الراقصة مأخوذة في طيران دائريّ لرقصة فالس، اقتربت كثيراً من خطّ الأضواء المتلاثلة التي تفصل في المسرح بين العالمين المثاليّ والواقعيّ؛ كانت ثيابها الهوائية الخفيفة تحفق مثل جناحي يمامة مستعدّين للتخليق. كان هناك قنديل غاز أخرج شعلته الزرقاء والبيضاء وبلغ القماش الطائر. وفي لحظة أحاطت شعلة اللّهب بالفتاة التي رقصت مثل وهج مستنقعيّ وسط وميض أحمر، ثمّ ارتمت باتجاه الكواليس، مضطربة، مرتعبة، تفترسها ثيابها المحترقة وهي حيّة. تأثّر بول تأثراً بالغاً بتلك الكارثة التي تحدّثت عنها كلّ الصحف الرائجة آنذاك، حيث تمّ ذكر اسم الضحية لمن يهفو إلى معرفته. غير أنّ حزنه لم يكن يخالطه شعور بالذنب. إذ أنّه لم يكن لينسب لنفسه أيّ علاقة بالحادث الذي أسفّ له أكثر من غيره.

وهوذا يقتنع بأنّ عناده في متابعة تلك المخلوقة الفاتنة بنظرته لم يكن بعيداً عن موتها. اعتبر نفسه بمثابة قاتلها؛ لقد استفطع نفسه وصار يتمنّى لو لم يولد أصلاً.

وأعقب هذا الوهن ردّ فعل عنيف؛ بدأ يضحك ضحكة عصبية، رمى بكتاب فاليئا للشيطان وصاح: «حقاً أنا أتحوّل إلى غيبيّ أو مجنون! لا بدّ

أَنْ شمس نابولي قد أصابت دماغِي. ما عسى يقول أصدقائي في النادي لو علموا أنني قد طرحت جدتيّاً على وعيي هذا السؤال الجميل - أي إن كنتُ جتاتوري أم لا!

دقّ بادي الباب متروياً. فتح له بول، فقَدّم له السّاعي، على جلد قبعته اللّامع، لأنّه متمسك بالشكليات في تقديم خدماته، متأسفاً لعدم امتلاكه طبقاً فضيّاً، رسالة من طرف المسّ أليسيا.

فضّ السيّد دابرومون ختم الرسالة وقرأ ما يلي:

«هل تقاطعني يا بول؟ لم تأتِ مساء البارحة؛ وذاب كوبك من شراب الليمون المثلج حزيناً على المائدة. مكثت حتّى الساعة التاسعة أنصت إلى آية نامة محاولةً تمييز عجلات عربتك عبر الصرير العنيد للزيزان ودقّ دفوف الجلاجل؛ وكان لا بدّ من فقدان كلّ أمل، فتخاصمت مع الكومودوري. تمتّع بإدراك عدالة النساء! بولتشيانيا بأنفها الأسود، والدون ليموني والدونا بانكراتسيا يتمتّعون بجمال أخاذ بالنسبة إليك، إذن؟ لقد عرفت من مُخبري أنّك أمضيت السهرة في سان كارلينو. ولم تكتب شيئاً من تلك الرسائل المهمّة المزعومة، لم تكتب ولورسالة واحدة. لم لا تعترف بكلّ صراحة وطيبة بأنك غرتَ من الكونت ألتافيلّا؟ كنت أحسبك أشدّ كبرياء، وهذا التواضع من طرفك يؤثّر فيّ. لا تخش شيئاً، السيّد ألتافيلّا مفرط الوسامة، وأنا لا أميل إلى أمثال إله الجهال أبوّلو متزيتاً بقلادات وحلي. كان عليّ أن أضمر لك كرهاً عميقاً وأقول لك إنني لم أنتبه إلى غيابك؛ لكنّ الحقيقة أنني وجدت وقت الغياب قد طال، وكنت في مزاج سيّئ جدّاً، وعصبيّة جدّاً، وأتني كنتُ على وشك ضرب فيتشي التي كانت تضحك مثل مجنونة، ولا أعلم لماذا، مثلاً.

«أ. و.»

هذه الرسالة الفكهة والساخرة أعادت أفكار بول إلى مشاعر الحياة الواقعية تماماً. ارتدى ثيابه وأمر بتحريك العربية، وسرعان ما فرقع سكاتسيغا الفولتيري بسوطه فوق آذان دابتيه، مرتاباً، فانطلقتا عدواً على بلاط الحمام، مع اختراق حشود الناس التي كانت ما زالت كبيرة عند رصيف سانتا لوتشيا.

«سكاتسيغا، ما بك غاضباً؟ ستسبب في مصيبة ما!» صاح السيد دابرومون. التفت الحوذني بحيوية لكي يجيب، فأصابته نظرة بول الزائغة في الوجه مباشرة. كان هناك حجر لم يتمكن من رؤيته قد رفع عجلة أمامية، فسقط من مقعده بفعل شدة الاصطدام، لكن من دون التخلي عن الإمساك بالأعنة. وبسرعةٍ فرد قفز إلى مكانه، وعلى جبينه ورم بحجم بيضة دجاجة.

«فلتحلّ بي لعنة الشيطان إن أنا التفت مرة ثانية عندما تكلمني! همهم بين أسنانه. تيميريو وفالساكابا وجلسومينا كانوا محقين، إنه جتاتوري! غداً سوف أشتري قرنين. إن لم ينفعاً فلن يضراً».

كانت هذه الحادثة الصغيرة غير سارة بالنسبة لبول؛ وأعادته إلى الحلقة السحرية التي كان يريد الخروج منها: في كل يوم يكون حجر تحت عجلة عربية، ويمكن لحوذني أخرق أن يسقط من مقعده - لا شيء أبسط من ذلك ولا أكثر ابتداءً. غير أن النتيجة سبقت السبب عن قرب شديد، وسقوط سكاتسيغا جاء مترافقاً جداً مع النظرة التي حدجده هو بها، إلى درجة أن تخوفاته عادت إليه:

«أرغب حقاً في مغادرة هذه البلاد الشاذة منذ الغد، قال محدثاً نفسه، هنا أشعر بمخّي يرتج في جمجمتي مثل حبة بندق جافة في قشرتها. لكنني لو أسررت بمخاوفي إلى الأنسة وازد لضحكك منها، والحال أن طقس

نابولي ملائم لصحتها. صحتها! لكنّها كانت في صحّة جيّدة قبل تعرّفها عليّ! لم يسبق قطّ لعشّ الإوز المتأرجح فوق سطح الماء، والذي يُدعى انجلترا، أن أتى بفتاة أشدّ بياضاً وتورّداً منها! الحياة تلمع في عينيها مملوءة نوراً، تفتتح على خديها الغضّين المخمليّين؛ دم نفيس وصابٍ يجري داخل عروقها الزرقاء تحت بشرتها الشفافة. وتستشّف من خلال جمالها قوّة لطيفة! كم شُحِبَ لونها ونُحِلَّتْ وتغيّرت بفعل نظرتي! كم صارت يداها الناعمتان رقيقتين! كم تحيِّط بعينيها الحيويّتين ظلالاً خفيفة ليتنة! كأنّها كان الهزال يضع أصابعه العظميّة على كتفيها. في غيابي استرجعت ألوانها الحيّة بسرعة؛ صار النَفْس يتحرّك حرّاً في صدرها الذي كان الطيب يسائله متخوفاً. سوف تتمكّن من عمر مديد إن تخلصت من تأثيري المشؤوم. ألسْتُ أنا من يقتلها؟ ألم تحسّ، في ذلك المساء عندما كنت هناك، بألم كان من الحدّة إلى حدّ فقدان خديها لونها، كما يحدث عندما ينفخ الموت نفسه البارد؟ ألا أمارس عليها الجتاتورا من دون قصد؟ لكن ربّما كان ما يحصل طبيعياً تماماً! كثيرات هنّ الفتيات الإنجليزيات اللّائمي يملكن استعداداً للأمراض الصدرية».

شغلت هذه الأفكار بول دابرومون طيلة الطريق. وعندما ظهر في الفيرندا، مكان الاستراحة المعتاد لدى الأنسة وازد والسيد الكومودوري، كان القرنان الطويلان لثور جزيرة صقلية، هديّة الكونت ألتافيلّا، يتقوّسان بهلائيها اللّذين لهما مرأى حجر الشب، في الأماكن المرئية أكثر. وعندما أدرك الكومودوري أنّ بول قد لاحظ ذلك لم يتورّد لونه بل ازرقّ: وكانت تلك طريقته في الخجل، لأنّه أقلّ نعومة من ابنة أخيه، وكان قد استمع إلى ما أسرّت إليه به فيتشي...

أمرت أليسيا فيتشي، بحركة ازدراء، أن تحمل القرنين، وثبّتت في بول

عينها الجميلتين الممتلئتين حباً وشجاعة وإيماناً.
«تركى القرنين في موضعهما، قال بول إلى فيتشي؛ إنهما جميلان جداً».

9

بدا أن ملاحظة بول حول القرنين اللذين قدّمهما الكونت ألتافيلّا قد أرضت الكومودوري؛ وابتسمت فيتشي كاشفة عن أسنانها التي كانت أنيابها المنفرجة والحادة تلمع ببياض مفترس؛ ولاحت أليسيا، بحركة سريعة من جفنها، كأنها تطرح على صديقها سؤالاً ظلّ بلا إجابة. ساد صمت مزعج.

كثيراً ما تكون الدقائق الأولى لأية زيارة حتى وإن كانت ودية أو عائلية، منتظرة ومتكررة مع مرور الأيام، دقائق ارتباك عادة. خلال الغياب، وإن لم يدم إلا بضعة ساعات، تكون حول كل واحد منهم جوّاً لا مرثي يصطدم به أي اندفاع. وهذا يشبه مرآة شفافة تماماً تعكس المشهد ولا يخترقها طيران ذبابة. لا يوجد شيء ظاهرياً، ومع ذلك يشعر الحضور بالعائق.

هناك أيضاً فكرة مسبقة مخفية كما يتطلّب الوضع، كانت في الأوان ذاته تشغل الشخصيات الثلاث في هذه المجموعة التي كانت سابقاً أكثر ارتياحاً فيما بينها. كان الكومودوري يدير إبهاميه بحركة آلية؛ ودابرومون ينظر بإصرار إلى النقطتين السوداوين المصقولتين في القرنين اللذين منع فيتشي من نقلهما، فكان يشبه عالم طبيعيات يريد تصنيف نوع مجهول من خلال عينة منه؛ أما أليسيا فكانت تمرّر إصبعها في وريدة الحزام الواسع الذي يزترّ مئزر الحزام، وهو من قماش الموسلين، متظاهرة بشد عقده. كانت الأنسة وازد هي الأولى في إذابة الجليد، بتلك الحرّية البشوش

التي تميّز الفتيات الإنجليزيات، واللواتي يصبحن مع ذلك في منتهى التواضع والمحافظة بعد الزواج.

«حقاً يا بول أنت لم تعد كثير اللطف منذ فترة. فهل تكون كياستك نبتة دفيئة باردة لا تتمكن من التفتح إلا في انجلترا، وتمنعها حرارة هذا الجوّ العالية من النمو؟ كم كنت نبيهاً مُبادراً، ومفعماً بالعناية دائماً، في قصرنا الريفّي في لنكولنشاير! كنت تقرب منّي قلبك على فمك، ويدك على صدرك، وشعرك جيّد الصقل والتلميع، مستعداً لوضع ركبتك على الأرض أمام معبودة روحك، تماماً كما يتمّ رسم العشاق على أغلفة الروايات.

- ما زلت أحبّك دائماً، يا أليسيا، أجاب دابرومون بصوت عميق، لكنّ من دون رفع عينيه عن القرنين المعلقين على أحد الأعمدة القديمة التي تسند سقف الدالية.

- أنت تقول ذلك بنبرة في منتهى الكآبة، وهو ما يتطلّب المزيد من العُنج لتصديقه، تابعت المسّ وازد؛ أتصوّر أنّ ماكان يعجبك فيّ هو لوني الشاحب، شفائتي، حضوريّ الشاعرّي وخفّة رشاقتي؛ كانت حالي الصحيّة تضيء عليّ نوعاً من الجاذبية الرومنطيقيّة التي فقدتها.

- أليسيا! لم تكوني قطّ أجمل منك الآن!

- كلمات، كلمات، كلمات، كما يقول شكسبير⁽¹⁾. أنا من الجمال إلى درجة أنّك لا تتفضّل بالنظر إليّ».

وبالفعل، فإنّ عينيّ السيّد دابرومون لم تتوجّها نحو الفتاة ولو مرّة واحدة.

(1) مسرحية «هاملت».

«هيا، قالت بتنهيدة كبيرة مبالغ فيها بطريقة هزلية، أرى أنني صرت فلاحاً سمينة وقوية، ذات نضارة فائقة، وألوان لا بأس بها، وحمراء الوجه، لا تتمتع بأيّ تميز، وغير قادرة على المشول في إحدى حفلات الماكس الراقصة⁽¹⁾، أو في كتابٍ يعرض أنماط الجمال، تفصلني عن قصيدة إعجاب ورقة حريرية».

- منسّ وازد، أنت تجدين متعة في ثلب نفسك، قال بول مسدلاً جفنيه.
- من الأفضل لك أن تعترف لي بصراحة أنني بشعة. إنها غلطتك أيضاً يا كومودوري؛ فأجنحة الفراريج، وضلوع الخرفان، وفتائل الثيران، والأكواب الصغيرة من نبيذ جزر الكناري، والتزّه على ظهر حصان، والسباحة في البحر، والتمارين الرياضية، أكسبتني هذه العافية البرجوازية المشؤومة التي تبدد الأوهام الشعرية عند السيد دابرومون.

- أنت تعذّبين السيد دابرومون وتسخرين منّي، قال الكومودوري المستجوب من قبل أليسيا؛ غير أنّ فتائل لحم الثور هي بالتأكيد مغذية، ونبيذ جزر الكناري لم يضرّ بأحد.

- يا له من إخفاق، يا عزيزي بول المسكين! تركت حورية ماء، وجنية غابات، أو هواء، لتجد ما يسميه الأطباء والأهل شابة حسنة البنية! لكن، استمع إليّ، بما أنّك لم تعد قادراً على النظر إليّ، وترتجف رعباً. أنا الآن أزن سبع أوقيات زيادة منذ رحيلنا من إنجلترا.

- بل ثماني أوقيات! قاطعها الكومودوري مزهوّاً، وهو الذي وضع على عاتقه معالجة أليسيا كما يمكن للأكثر حناناً أن تفعل.

(1) البريطاني وليام ألك Mack William : توفي سنة 1781، يُعتبر مؤسس قاعات الاحتفالات والأعياد، واشتهر ناديه الحامل اسمه (Almack's Club) بحفلاته الراقصة التي كانت تجتذب أعداداً غفيرة من المشاركين.

- هل هي ثنائي أوقيات بالضبط؟ يا للعمّ الفظيع، أنت إذن تريد تثبيط السيد دابرومون إلى الأبد؟» قالت أليسيا متظاهراً بإحباط ساخر. وبينما كانت الفتاة تستفزّه بغنجها ودلالها، وما كانت ستسمح لنفسها بذلك إزاء خطيئها بلا دوافع وجيهة، ظلّ السيد دابرومون، وقد بات ضحيّة فكرته المتسلّطة، غير راغب في الإساءة إلى الأنسة وازد بنظرته المشؤومة، يثبّت عينيه في القرنين الطلسميّين، أو يتركهما تشردان بلا تحديد عبر المدى الأزرق الشاسع المرثي من أعلى الفيرندا.

كان يتساءل عمّا إذا كان من واجبه التخلّي عن أليسيا، وإن أدّى ذلك إلى اعتباره رجلاً عديم الثقة والشرف، والرحيل لقضاء بقية حياته في إحدى الجزر غير المسكونة، حيث يمكن هناك على الأقلّ أن تحمّد الجتاتورا عنده لانتفاء وجود نظرة بشرية تمتصّها.

«أفهم، قالت أليسيا متابعَةً مزحتها، ما يجعلك بهذه القتامة والجديّة؛ لقد تمّ تحديد تاريخ زواجنا بعد شهر؛ وأنت تتراجع أمام فكرة أن تصير زوجاً لرفيئة مسكينة صارت تفتقر إلى أيّ أناقة. أنت في حلّ من وعدك لي: بإمكانك الزواج من صديقتي المسّ سارة تمبلتون التي تأكل المخلّلات وتشرب الخلّ لتصير نحيفة!».

هذا تصوّر جعلها تضحك بتلك الضحكة الفضّية الواضحة التي نتحلّى بها في عهد الشباب. حتّى أنّ الكومودوري وبول انخرط معها في ضحكاتها.

وعندما انطفأ آخر سهم نارّي من ابتهاجها العصبّي، اقتربت من دابرومون، أمسكت به من يده، وقادته إلى البيانو الموضوع في زاوية الفيرندا، وقالت له وهي تفتح دفتر موسيقى على المقرّأ:

«يا صديقي، أنت اليوم لا تتكلّم و«ما لا يستحقّ القول يمكن

إنشاده». إذن فأنت ستشارك في هذا اللحن الثنائي الذي لا تُعتبر
المصاحبة فيه صعبة: يكاد الأمر يقتصر على تساوق أنغام مؤتلفة».

جلس بول على المنضدة الخفيضة، ووقفت المس أليسيا قربها، بطريقة
تيسر لها متابعة الإنشاد من توليفة القطعة الموسيقية. أمال الكومودوري
رأسه، ومدد ساقه واتخذ وضعية غبطة مسبقة، ذلك أنّ له مزاعم ولع
بالفنّ ويؤكد أنّه يحبذ الموسيقى؛ لكنّه منذ الإيقاع السادس نام نوم أهل
العدل، وهو نوم يعاند، رغم تهكم ابنة أخيه، في تسميته جذلاً، مع أنّه
يحدث له أحياناً أن يشخر، وهو عارضٌ ضعيف الدلالة على الجذل.

كان اللحن الثنائي نغماً حيويّاً خفيفاً وفق ذوق تشيهاروزا⁽¹⁾، مع
كلمات ميتاستاسيو⁽²⁾، ولا يمكننا وصفه أفضل إلاّ بمقارنته بفراشة تجتاز
عدّة مرّات شعاع شمس.

للموسيقى القدرة على طرد الأرواح الشريرة: بعد بضع جل، لم يعد
بول يفكر في الأصابع المتوعّدة، والقرون السحرية، والتعاويذ المرجانية؛
ولقد نسي الكتاب الفظيع للسنيور فالتيا وكلّ أحلام اليقظة المتعلّقة
بالجئاتورا. كانت روحه تصعد مبتهجة، مع صوت أليسيا، إلى هواء نقّي
ووضيء.

سكنت الزيزان كما لو كانت تريد الإصغاء، وكان نسيم البحر الذي
بدأ بالتحرك يحمل معه النوات مع بتلات الزهور التي سقطت من
الأصص على حافة الفيرندا.

«عمي ينام مثل أهل الكهف في مغارتهم. لو لم يكن معتاداً على هذا

(1) دومينيكو تشيهاروزا Domenico Cimarosa (1749-1801): ملحن أوبرا إيطالي من
المدرسة النابوليتانية.

(2) بيتر تراباسي Pietro Trapassi، المعروف أكثر باسمه المستعار ميتاستاسيو Pietro
Metastasio (1698-1782): شاعر وكاتب أوبرالي، إيطالي.

الأمر، لقلنا إنه سيء إلى تعلّقنا بالعزف الجميل، قالت أليسيا وهي تغلق الدفتر. هل ترغب يا بول، بينما هو ينام، في مرافقتي إلى جولة في الحديقة؟ لم أطلّعك على جنتي بعد».

وتناولت من مسمار مدقوق في أحد الأعمدة قُبعة فلورنسية كبيرة من القشّ كانت معلقة بشريط.

تنادي أليسيا في موضوع البستنة بمبادئ في غاية الغرابة؛ فهي لا تريد أن يتمّ قطف الزهور أو تشذيب الأغصان؛ وما أثار إعجابها في هذا المسكن، كما أسلفنا القول، هو حالة الحديقة المهملة بشكل متوحّش.

شقّ الشابتان درباً وسط الأجمات التي كانت تلتّم مجدداً بعد مرورهما. كانت أليسيا تسير في المقدّمة وتضحك من رؤية بول مطوّقاً خلفها بأغصان الدفلى التي تحرّكها. ولم تكذّ تتقدّم قرابة عشرين خطوة حتّى امتدّت يد غصن خضراء، كما لو كانت تريد ممارسة مكرّ نباتي، وأمسكت بقُبعة القشّ واحتفظت بها مع رفعها إلى الأعلى أكثر، إلى درجة أنّ بول لم يتمكن من استعادتها.

ومن حسن الحظّ أنّ الإبراق كان كثيفاً، وكانت الشمس لا تكاد ترسل بضعة دنانير ذهبية على الرمل من خلال فجوات الأغصان.

«هذه خلوتي المفضّلة»، قالت أليسيا، وهي تدلّ بول على كتلة صخرية ذات تصدّعات جذابة يغطّيها دغل صغير من أشجار البرتقال والأترج والمصطكا والأس.

جلست على تجوّف محفور بشكل مقعد، وأشارت إلى بول أن يجثو على ركبتيه على الطحالب الكثيفة الجافّة التي كانت تغطّي أسفل الصخرة.

«ضع يديك في يديّ وانظر إليّ جيّداً. بعد شهر سأصير زوجتك. لم تتحاشى عيناك عينيّ؟»

وبالفعل كان بول يبعد بصره عنها، بعد أن عاد إلى هواجس الجتاتورا. «هل تخشى أن تقرأ فيها فكرة عكسيّة أو مذنبه؟ أنت تعرف أنّ روعي ملكك منذ اليوم الذي جلبت فيه إلى عتي رسالة التوصية في ردهة ريشموند. أنا من سلالة الإنجليزيات الرقيقات والرومنسيات والأبيات، تمنّ بصطفين حبيباً في دقيقة واحدة ويدوم الحب طيلة العمر- وربّما أكثر من العمر- ومن يعرف كيف يحبّ يعرف كيف يموت. غطّس نظراتك في نظراتي، أريد ذلك؛ لا تحاول خفض جفنيك، لا تشحّ بوجهك، وإلا فإنني سوف أفكر بأنّ سيّداً نبيلاً يتوجّب عليه ألا يخشى إلاّ الربّ، يستسلم لمعتقدات تطير ذنيته. ثبتّ عليّ تلك العين التي تظنّها في منتهى الفظاعة وهي في منتهى العذوبة بالنسبة لي، ذلك أنّني أرى فيها حبّك، واحكمم إن كنت تراني لا أزال جميلة بما فيه الكفاية لكي ترافقني، بعد الزواج، في نزهة عبر الهايدبارك داخل عربة مكشوفة».

كان بول في حالة من الوله يحدّق في أليسيا بنظرة طويلة مفعمة شغفاً وحماسة. فجأة شحبت الفتاة؛ اخترق قلبها ألم محضّ مثل رأس سهم: بدا أنّ عصباً ما كان يتقطّع في صدرها، وأدنت منديلها من شفيتها بقوة. بقعت قطرة حمراء قماش المنديل الذي طوّته أليسيا بحركة سريعة.

«أوه! شكراً يا بول؛ لقد أسعدتني كثيراً، إذ أنّني كنتُ أعتقد أنّك لا تحبّني!»

10

لم تكن حركة أليسيا لإخفاء منديلها من السرعة بحيث تمنع السيّد دابرومون من لمحها؛ غطّى شحوب فطيع ملامح بول، إذ دمغته للتوّ حجة لا يمكن دحضها حول قوّته المشؤومة، واخرقت مخّه أشدّ الأفكار

نحساً، بل خالجه فكرة الانتحار أيضاً. أفليس من واجبه أن يتحرر باعتباره كائناً مؤذياً والقضاء بذلك على السبب غير الإراديّ في تلك المصائب الكثيرة؟ كان بوسعه تحمّل أصعب المحن التي تحلّ به وتحشّم أثقال الحياة بشجاعة؛ لكن، أن يتسبّب في موت أعزّ من يحبّ في العالم، أليس أمراً في منتهى الفظاعة؟

سيطرت الفتاة المقدامة على الشعور بالألم، الناجم عن نظرة بول، وهو ما يتطابق بشكل غريب مع ما ادّعه الكونت ألتافيلّا. لو كان الأمر يتعلّق بروح أخرى أقلّ صرامة لصدّمت بهذه النتيجة التي إن لم تكن خارقة، فهي على الأقلّ صعبة التفسير. لكنّ روح أليسيا، وسبق لنا قول ذلك، هي روح متديّنة وليست تطيُّريّة. وكان إيمانها الذي لا يتزعزع، بما ينبغي الإيمان به يستبعد كلّ حكايات التأثيرات الملعونة استبعاده لحكايات مرضعة أطفال، ويسخر من الأحكام الشعبيّة المسبقة مهما كان عمق تجذّرها. وفوق ذلك، حتّى لو سلّمت بحقيقة الجتاتورا، واعترفت بوجود علاماتها الواضحة لدى بول، فإنّ قلبها الحنون والمتكبر ما كان ليتردّد ثانية واحدة. لم يرتكب بول أيّ فعل يدفع صنيعه الى المراجعة، وكان من شأن الأنسة وازد أن تفضّل السقوط ميتة تحت تأثير تلك النظرة، المزعوم شؤمها، على أن تتراجع عن حبّ مقبول من طرفها مع موافقة عمّها وسيكلّله الزواج قريباً. تشبه المسّ أليسيا وازد نوعاً ما بطلات شكسبير: طاهرات الجرأة، بتوليّات القرار، ولا يكون حبّهنّ أقلّ طهارة ووفاء لمجرّد كونهنّ يجيبن على الفور؛ تكفي دقيقة واحدة لتكون الصلة أبدية. لقد ضغطت يدها على يد بول، وما من رجل آخر في العالم سيمكنه ضغطها بين يديه. كانت تنظر إلى حياتها باعتبارها مرتبطة، ومجرّد التفكير في زواج آخر يفقدها صوابها.

لذا أظهرت بهجة حقيقية، أو لنقل إنّ تمثيلها كان من الصدق إلى حدّ انطلائه على أشدّ المراقبين تدقيقاً. ثم رفعت بول الذي كان لا يزال جاثياً عند قدميها، وجعلته يتنزّه عبر الممرّات المعرّقة بالزهور والنباتات في حديقته غير المشدّبة، حتّى بلوغ مكان كان نموّ النباتات فيه يتيح، بعد إزاحتها، رؤية البحر مثل حلم أزرق لانهائي. بدّد ذلك الصفاء المشرق أفكار بول السوداء: كانت أليسيا تستند إلى ذراعه بعفوية واثقة، كما لو أنّها قد صارت زوجته. بتلك الملامسة الطاهرة والصامتة، وقد تكون غير ذات دلالة بالنسبة لغيرها، لكنّها حاسمة بالنسبة إليها، كانت تسلّم نفسها إليه بصراحة أكثر، مطمئنة إياه إزاء رعبه، ودافعةً به إلى فهم مدى استخفافها بالمخاطر التي يجذّرونها منها. ورغم توصّلها إلى فرض الصمت على فيتشي في البداية، ثم على عمّها لاحقاً، ورغم أنّ الكونت ألتافيلّا لم يسمّ أحداً، مع التوصية بتوقّي تأثير ستيّ، فقد فهمت بسرعة أنّ الأمر يتعلّق ببول دابرومون؛ فتلميحات حُطّب نابوليتاني الجميل الغامضة لا يمكنها أن تكون موجهة إلّا للشابّ الفرنسيّ. ولقد لاحظت أيضاً أنّ بول، بعد استسلامه للحكم المسبق المنتشر كثيراً في نابولي، والذي يجعل من كلّ إنسان ذي مظهر متفرّد قليلاً، جتاتوري، صار يعتقد أنّه مصاب بـ «الفاتشينو»، لضعف روحيّ يفوق التصوّر، كما صار يشيح بعينيه المفعمتين بالحبّ عنها، خوفاً من إلحاق الضرر بها من خلال نظرة؛ ومن أجل مقاومة بداية هذه الفكرة المتسلّطة تسبّبت بالمشهد الذي وصفناه للتوّ، والذي كانت نتيجته بعكس النوايا، إذ أدّى إلى تثبيت بول في هوسه الأحاديّ المشؤوم أكثر من السابق.

عاد العاشقان إلى الفيرندا حيث كان الكومودوري لا يزال تحت تأثير الموسيقى، نائماً بطرب فوق أريكة الخيزران. استأذن بول للمغادرة،

ولجات الأنسة أليسيا إلى تقليد إشارة الوداع النابوليتانية، فأرسلت إليه على أطراف أصابعها قبلة غير مرتبة قائلة بصوت مفعم بملاطفات عذبة: «إلى الغد، يا بول، أليس كذلك؟».

كانت أليسيا في هذه اللحظة تتحلّى بجمال مشرق، مُنذر، وخارق تقريباً، أدهش عمّها الذي استيقظ مذعوراً عند خروج بول. كان بياض عينيها يتحوّل إلى لُوينات فضية مسمرة تجعل البؤبؤين يشعان، مثل نجمين، بلون أسود مضيء؛ وكان جفناها يتلونان عند الوجنتين بلون وردّي مثاليّ، ذي نضارة واحتدام سماويين، لا يمكن لأي رسّام امتلاكه في ملوانه أبداً؛ وكان صدغها يكشفان في شفافية العقيق عن شبكة من العروق الرقيقة الزرقاء، فيما تبدو بشرتها كلّها مخترقة بالأشعة: حتّى ليتمكن القول إنّ روحها تلوح على جلدها.

«كم أنت جميلة اليوم يا أليسيا! قال الكومودوري.

- أنت تدلّني يا عمي؛ وإذا لم أكن الطفلة الصغيرة الأكثر كبرياء في الممالك الثلاث، فليس ذلك خطأ منك. ومن حسن الحظّ أنّي لا أوّمن بالمجاملات، حتّى التزيهة منها.

- جميلة، خطيرة الجمال، تابع الكومودوري محدثاً نفسه، إنّها تذكّرني بقسمات أمّها، قسمة قسمة، نانسي المسكينة التي ماتت في سنّ التاسعة عشرة. مثل هؤلاء النساء الملائكيّات لا يمكنهنّ البقاء في الأرض: يبدو أنّ هناك نفساً يرفعهنّ وأجنحة غير مرتبة تخفق على أكتافهنّ؛ مفرطات في البياض، في التورّد، في النقاء، وفي الكمال؛ ينقص تلك الأجساد الأثيريّة دم الحياة الغليظ الأحمر. والربّ الذي يعيرهنّ إلى العالم بضعة أيّام يسرع إلى استعادتهنّ. ذلك البهاء الأقصى يحزني مثل الوداع.

- إذن، يا عمّي، بما أنني جميلة، تابعت المسّ وازد التي رأيت جبين الكومودوري يتجهّم، فقد حان وقت زواجي: سوف ثلاثيني بدلة العروس والتاج تماماً.

- تتزوجين! هل أنت مستعجلة إلى هذا الحدّ لمغادرة عمّك الهندي الأحمر⁽¹⁾، يا أليسيا؟

- وحتى مع الزواج لن أتخلّى عنك؛ ألم يتمّ الاتفاق مع السيّد دابرومون على بقائنا معاً؟ أنت تعرف جيداً أنني لا أستطيع العيش من دونك.

- السيّد دابرومون! السيّد دابرومون!... ما زالت حفلة الزواج بعيدة.

- ألم نعهده، أنت... وأنا؟ والسيّد جوشوا وازد لم ينكث بوعوده قطّ.
- نعم لقد وعدته، ولا رجوع عن ذلك، أجب الكومودوري بارتباك واضح.

- والأجل الذي ثبتّه ألم ينقضّ موعده... منذ بضعة أيام؟ قالت أليسيا، وقد تورّد خذاها الخجولان أكثر، لأنّ هذه المحادثة، الضرورية حيث وصلت الأمور، كانت تثير حساسيتها المفرطة.

- آه! لقد حسبت الأشهر إذن، يا صغيرتي؛ ثقي إذن بهذه المظاهر البالغة التكتّم!

- أنا أحبّ السيّد دابرومون، أجابت الفتاة برصانة.
- هنا يكمن العائق، قال السير جوشوا وازد، وقد تشرّب أفكار فيتشي وألتافيلّا، ولم يعد يهتمّ كثيراً بأن يكون له صهر جتاتوري. فلنُحِبّي واحداً آخر!

(1) يشبه نفسه بالهنديّ الأحمر لأنّ بشرته كانت، كما تقدّم قوله، حمراء، قرمزية.

- لا أملك قلبين، قالت أليسيا؛ لن يكون لي سوى حبّ واحد، حتّى ولو تطلّب ذلك موتي مثل أمي، في التاسعة عشرة.
- الموت! لا تنطقي بمثل هذه الكلمات الشنيعة، أترجّاك، صاح الكومودوري.

- هل لديك اعتراض ما على السيّد دابرومون؟

- ما من اعتراض، بالتأكيد.

- هل أخلّ بالشرف بأية طريقة كانت؟ هل ظهر ذات مرّة جباناً، دينياً، كاذباً أو غادراً؟ هل سبق له أن شتم امرأة أو تقهقر أمام رجل؟ هل تدنّس شرفه العائلي بعار سرّي؟ هل تضطرّ فتاة، ممسكة بذراعه للظهور أمام الناس، إلى الخجل أو خفض العينين؟
- السيّد بول دابرومون جتلمان حقيقيّ، لا سبب يدعو إلى مؤاخذته بأيّ شيء يمسّ رزاقته.

- صدّقني، يا عمّي، لو كان واحد من تلك الأسباب موجوداً لتخلّيت عن السيّد دابرومون فوراً، ولدفنت نفسي في إحدى الخلوات المتعدّرة بلوغها؛ لكنّ، ما من سبب آخر، هل تسمعي، ما من سبب آخر سيجبرني على النكوث بوعدى المقدّس»، قالت الأنسة أليسيا وازد بنبرة صارمة وناعمة.

كان الكومودوري يبرم إبهاميه، وهي حركة معتادة لديه عندما يعجز عن الردّ، فتسغفه كمتنفّس.

«لم تُبدي الآن كلّ هذا البرود إزاء بول؟ تابعت الأنسة وازد. في السابق كنت متعلّقة به كثيراً، ولم تكن قادراً على الاستغناء عنه في بيتنا في لنكولنشاير، وكنت تقول، وأنت تصافح يده حتّى لتكاد تسحق أصابعه، بأنّه فتى شريف، وتستطيع بطيبة خاطر أن تعهد إليه بسعادة فتاة.

- نعم هذا مؤكد، كنت أحبه، بول الطيّب، قال الكومودوري الذي
تأثر بهذه الذكريات المستدعاة بحذقٍ؛ غير أنّ ما كان غامضاً في
ضباب انجلترا أصبح واضحاً تحت شمس نابولي...

- ماذا تقصد؟ قالت أليسيا بصوت مرتجف وقد غادرتها ألوانها
الحيوية فجأة، وصارت بيضاء مثل تمثال مرمي فوق قبر.
- إنّ بول هذا جتاتورري.

- ماذا! أنت! عمتي؛ أنت السير جوشوا واُرد، الجتلمان، المسيحي
المؤمن، أحد رعايا صاحب الجلالة البريطانيّ، الضابط السابق في
البحرية الإنجليزية، الكائن المستنير والمتحضر، المستشار في كلّ
الأمر؛ أنت المتحلّي بالمعرفة والحكمة، قارئ التوراة والإنجيل
كلّ مساء، ألا تحشى اتهام بول بالجتاتوررا! أوه! لم أكن أتوقع هذا
منك!

- عزيزتي أليسيا، أجاب الكومودوري، ربّما كنتُ كلّ ما ذكرت سابقاً
عندما لا يكون الأمر متعلقاً بك، لكن عندما يتهدّدك خطرٌ ما،
ولو كان خيالياً، فأنا أتحوّل إلى متطير أكثر من فلاح أبروتسي، أو
صعلوك من المرفأ، أو مقشر أصداف بحرية في حيّ كياجا، وأكثر
من خادمة من تيرا دي لافورو، أو حتّى من كونت نابوليتاني.
يستطيع بول التحديق بوجهي كما يشاء بعينه اللّتين يتقاطع
شعاعهما البصريّان، وسوف أمكث هادئاً كما لو كنت أمام حدّ
سيف أو أنبوب مسدّس. لن يتمكّن «الفاثسينو» من جلدي
المذبوغ، الملوّح والمحمّر بكلّ شمس الكون. لسْتُ ميقاناً إلاّ
في نظرك، يا ابنة أخي العزيزة، وأعترف بأنني أشعر بعرق بارد
يجوب صدغيّ عندما تحطّ نظرة ذلك الشابّ البائس عليك. ليس

له نوايا سيئة، أعرف ذلك، وهو يحبك أكثر من حياته؛ لكن يبدو لي أن قسامتك تتبدل تحت ذلك التأثير، وألوانك تتلاشى، وتلوحين ساعةً إلى إخفاء ألم حادّ؛ عندئذ تتملّكني رغبات حانقة في فَوْءٍ عينيّ عزيزك بول دابرومون ذاك، بحدّ أحد القرنين اللذين جلبهما الكفافيلًا.

- يا لعمّي العزيز المسكين، قالت أليسيا متأثرةً بغضبة الكومودوري الحماسيّة؛ وجودنا إنّما هو بين يدي الربّ: فلا أمير يموت في فراشه، ولا دُوريّ سطح ينفق على قرميدته، إنّ لم تأزف ساعته المسجّلة في الأعلى؛ لا دخل للفاتشينو في ذلك، ومن الكفر الاعتقاد بأنّ نظرة منحرفة بهذه الدرجة أو تلك يمكنها ترك تأثير ما. تعال نتأكّد، يا «عمّيمي»، تابعت مستخدمةً الكلمة الوديّة المألوفة التي تستخدمها شخصيّة المجنون في مسرحية «الملك لير»⁽¹⁾؛ إنّك لم تكن تتكلّم جدياً قبل قليل؛ حنوّك عليّ يربك حُكمك الذي كان دائماً عادلاً. أليس صحيحاً أنّك لن تجرؤ على القول إلى السيّد بول دابرومون بأنك تراجع عن تسليمه يد ابنة أخيك، التي وضعتها أنت في يده، وأنك لم تعد ترغب فيه صهراً، بالتعلّة الجميلة المتمثّلة في كونه... جتّاتوري!

- بحقّ يشوع، قدّيسي الشفيح الذي أوقف الشمس⁽²⁾، صاح الكومودوري، لن أهضمه ذلك السيّد الجميل بول. لا يهمني إنّ كنتُ سخيّفاً، أو عبثياً، أو حتّى مخادعاً، عندما يتعلّق الأمر

(1) ترد Nuncle على لسان مهرج الملك لير في مسرحيّة شكسبير المعروفة.

(2) يَشُوعُ بُنْ نُونٍ (عند المسيحيّين) أو يَوْشَعُ بُنْ نُونٍ (عند المسلمين) ويَهُوشوع حسب التوراة. في إحدى المعارك نظر إلى الشمس ودعا ربه بالآ تغيب حتّى يتمكّن من مواصلة القتال.

بصحتك، وربّما بحياتك! كان التزامي مع رجل وليس مع رجل
ذي عين خبيثة. لقد وعدت؛ وها أنذا أنكث بوعدتي، هذا كلّ ما
في الأمر؛ وإذا لم يكن راضياً فسوف أتولّى إعادته إلى رشده».
وقام الكومودوري المغتاز بحركات من ينهار، دون انتباه إلى النقرس
الذي كان يعضّ على أصابع قدميه.
«أيها السير جوشوا وا زد، لن تفعل ذلك»، قالت أليسيا بهدوء وعزّة
نفس.

انهار الكومودوري مجهداً على أريكته الخيزران ولزم الصمت.
«إذن يا عمي، حتّى لو كانت تلك التهمة المقيتة والغبيّة حقيقيّة، هل
يتطلّب ذلك استبعاد السيّد دابرومون، واتهامه بجريمة شؤم؟ ألم تعترف
بأنّ الأذى الذي يمكنه إلحاقه ليس ناتجاً عن إرادته، وأنّه لم يسبق لك
التعرّف على روح مثل روحه محبّة وكرماً ونبلاً؟
- لا أحد يتزوج مصاصي دماء مهما كانت نواياهم حسنة، أجاب
الكومودوري.

- لكنّ كلّ ذلك وهم، هوس، تطير؛ والحقيقيّ فيه، من سوء الحظّ، أنّ
بول قد أصيب بتلك الحماقات، وصدّقها؛ صار مرتاعاً، مهلوساً؛
مقتنعاً بقوّته المشؤومة، صار يخشى ذاته، وكلّ حادثة صغيرة لم يكن
ينتبه إليها في السابق، و صار اليوم يتصوّر أنّه المتسبّب فيها، باتت
تؤكّد له هذه القناعة. ألا يعود إليّ، أنا زوجته أمام الربّ، وأمام
الناس قريباً - وبمباركة منك يا عمّي العزيز - واجب تهدئة تلك
المخيّلة المهتاجة، وطرّد الأشباح الوهمية، وتسكين القلق الوحشيّ
شقيق الهوس، من خلال طمأننتي الظاهرة والحقيقيّة، وإنقاذ تلك
الروح الجميلة المضطربة، بواسطة السعادة، وذلك العقل الجذاب

الذي يتهدده الجنون؟

- أنت محقة دائماً، مسّ وازد، قال الكومودوري؛ وأنا، الذي تسميتني حكيماً، لست إلا مجنوناً هراماً. أظنّ أنّ تلك الخادمة فيتشي ساحرة؛ لقد تمكّنت من تشويش أفكارني بحكاياتها تلك. أمّا بالنسبة للكونت ألتافيلّا، وقرنيه وكرائييه الغامضه فتبدولي حالياً سخيفة بما فيه الكفاية. الأرجح أنّها كانت مناورة متخيّلة تهدف إلى إبعاد بول من أجل أن تكوني زوجته هو.

- قد يكون الكونت ألتافيلّا حسن النية، قالت مسّ وازد مبتسمة؛ قبل قليل كنت تشاطره الرأي حول الجتاتورا.

- لا تستغليّ قوّة موقفك، يا مسّ أليسيا؛ وليكن في علمك أنّني لم أعد بعدُ بشكل كامل من غلطتي وقد أسقط فيها من جديد. أفضل حلّ هو مغادرة نابولي في أوّل رحلة للسفينة البخارية، والعودة براحة بال إلى إنجلترا. وعندما يكفّ بول عن رؤية قرون الثيران والأياثل، والأصابع الممدودة إلى الأمام، والتعاويد المرجانية وكلّ تلك الأدوات الجهنميّة، سوف تهدأ مخيلته، وأنا شخصياً سوف أنسى تلك الترمّات التي كادت تودي بي إلى نكث وعدي وارتكاب فعل غير جدير برجل شريف. سوف تتزوجين بول، بما أنّنا اتّفقنا على ذلك. عليك أن تتركي لي قاعة الاستقبال وغرفة الطبقة الأرضيّة في منزل ريشموند، والبرج الصغير المثمن الزوايا في لنكولنشاير، وسوف نعيش سعداء معاً. وإذا تطلّبت صحتك هواء أسخن، فسوف نستأجر بيتاً ريفياً ناحية تُوْرز أو ربّما كان، هناك حيث يمتلك اللورد بروغهام مزرعة جميلة، وحيث لا أحد يعرف تلك التظيّرّات اللّعينة للجتاتورا، شكراً للرب. ما رأيك في

خطتي يا أليسيا؟

- أنت لست في حاجة إلى موافقتي، ألسْتُ ابنة أخيك الأكثر طاعة؟

- نعم، عندما أفعل ما تريدينه أنت، أيتها المقنعة الصغيرة، قال

الكومودوري مبتسماً قبل قيامه للالتحاق بغرفته.

مكثت أليسيا بضع دقائق إضافية في الفيرندا؛ لكن، سواء أكان المشهد

السابق قد أدى بها إلى بعض الاحتياج المحموم أم أن بول قد يكون مارس

فعلاً على الفتاة ذلك التأثير الذي كان الكومودوري يخشاه، فقد خَلَفَ

النسيم الفاتر لدى مروره على كتفيها المغطّاتين بِشاش بسيط، شعوراً

بالتجمّد، وفي الليل أَحسّت بانزعاج فترجّت فيتشي أن تُفرد على رجلها

الباردين البيضاوين مثل الرخام واحداً من تلك الأغطية الملوّنة التي

تُصنع في البندقية.

في تلك الأثناء كانت الجباحب تتلألاً في العشب، والزيزان تنشد،

والقمر الكبير الأصفر يرتفع في السماء وراء شريط ضبابٍ ساخن.

11

غداً ذلك المشهد، لم تكذ أليسيا التي أمضت ليلة غير مريحة، تلامس

بشفتيها الشراب الذي تقدّمه لها فيتشي كلّ صباح، ووضعته بوهن على

المنضدة الصغيرة قرب سريرها. لم تكن تشعر بأي ألم محدّد بل بالانكسار؛

كانت تعاني من مشكلة هي مشكلة عيش أكثر مما هي مشكلة مرض،

وهذا ما كان يجعلها تشعر بالارتباك إذا فكّرت في وصف أعراض حالتها

تلك إلى الطبيب. طلبت من فيتشي إحضار مرآة، ذلك أنّ الفتاة عادةً ما

تقلق من التبدّلات التي يتسبّب فيها الألم لجملها أكثر من اهتمامها بالألم في

حدّ ذاته. كان لونها مفرطاً في بياضه؛ ثمّة فقط بقعتان صغيرتان تشبهان

ورقتين من وردة البنغال ساقطتين في كوب حليب، تسبحان في شحوبها. وكانت عيناها تلمعان بزرقة نادرة، متقدّتين بأخر نيران الحتمى؛ غير أنّ لون الكرز في شفيتها كان أقلّ حيويّة، ومن أجل استعادة لونها عضتها بأسنانها الصغيرة اللؤلؤية.

نهضت، تدثّرت بمبذل من الكشمير الأبيض، ولقت وشاحاً من الشاش حول رأسها، إذ رغم الحرارة التي كانت تدفع باليزان إلى الصرير، كانت لا تزال تشعر بالبرد؛ وذهبت إلى الفيرندا في الساعة المعتادة، حتّى لا تسترعي انتباه الكومودوري المستنقّر دائماً. لامست الفطور بطرفي شفيتها، رغم أنّها لم تكن تشعر بالجوع، لكن، لن يتردّد السير جوشوا وازد في عزو أيّ علامة توعّك في صحتها إلى تأثير بول، وذلك ما كانت أليسيا تريد تفاديه قبل أيّ شيء آخر.

ثم، وبتعلّة أنّ ضوء النهار الساطع يرهقها، انسحبت إلى غرفتها، دون أن تنسى تذكير الكومودوري عدّة مرّات، وهو المرتاب في مثل هذه الحالات، بأنّها في حالة صحّية ممتازة.

«ممتازة... أشكّ في ذلك، قال الكومودوري محدثاً نفسه، بعد أن انسحبت ابنة أخيه. كانت لها لويّات صدفية قرب العينين، وأخرى قانية في أعلى الوجنتين، تماماً مثل أمها المسكينة التي كانت تدّعي بدورها أنّها في صحّة أفضل ممّا كانت عليه. ما العمل؟ حرمانها من بول قد يعني قتلها بطريقة أخرى؛ فلنترك الطبيعة تتصرّف. أليسيا في أوج الشباب! نعم، لكنّ العجوز موب⁽¹⁾ لا تحقد إلّا على الأكثر شباباً والأكثر جمالاً؛ إنّها تغار مثل امرأة. ماذا لو استقدمتُ طبيياً؟ لكنّ ماذا يستطيع الطبّ أمام ملاك!

(1) واضح أنّه يقصد المنية، ولكن لم يجد الشراح ما يشير إلى الموت في المفردة Mob (وكذلك Mab) التي تشير في الإنجليزية القديمة إلى مومس.

مع أن كل الأعراض السيئة كانت قد اختفت... آه! إذا كنت أنت، يا بول الرجيم، منْ يعني هذه الزهرة الربانية بأنفاسه، فسوف أخنقك بيدي هاتين. لم تكن نانسي خاضعة لنظرة جتاتوري، ومع ذلك ماتت. وماذا إذا ماتت أليسيا! كلاً هذا غير ممكن. لم أفعل شيئاً للرب حتى يخصني بهذا الألم الفظيع. عندما يحصل ذلك، يكون قد مرّ وقت طويل على نومي تحت لحدي مع نقش يقول: «منذوراً لذكرى السير جوشوا وازد»، في مسقط رأسي. إنها هي التي سوف تأتي لتبكي وتصلّي على الحجر الرمادي من أجل الكومودوري العجوز... لست أدري ما أصابني، لكنني أشعر بالكآبة والمزاج المائمّي هذا الصباح!»

ومن أجل تبديد هذه الأفكار السوداء أضاف عميد البحرية المتقاعد قليلاً من روم جامايكا إلى الشاي البارد في فنجانه، وطلب الهوكا⁽¹⁾، وهي تسليته البريئة التي لا يسمح بها لنفسه إلا في غياب أليسيا، لأنّ هشاشتها قد تتأثر حتى بذلك الدخان الخفيف الممزوج بالطور.

كان قد غلّى الماء المعطر المخصص لهذا الوعاء وأبعد من أمامه بضع غيات مزرقّة عندما لاحت فيتشي معلنة عن قدوم الكونت ألتافيلّا.

«سيدي جوشوا، قال الكونت بعد التحيّات والمجاملات المتبادلة، هل فكّرت في الطلب الذي تقدّمت به إليك سابقاً؟

- لقد فكّرت في ذلك، تابع الكومودوري، لكنك تعرف أنّ السيّد بول دابرومون قد حصل على كلمتي.

- نعم، ولكنّ هناك حالات يمكن فيها سحب الكلمة؛ مثلاً عندما لا يكون الرجل الذي أعطيناه كلمتنا، لسبب أو لآخر، كما ظنّناه في البداية.

(1) النارجيلة.

- أيها الكونت، تكلم بوضوح أكثر.
- أكره الهجوم على مناسف؛ لكن، حسب المحادثة التي تبادلناها معاً، ينبغي أن تكون مدركاً مقصدي. إذا استبعدت السيد بول دابرومون، هل تقبل بي صهراً لك؟
- أنا، بالتأكيد؛ لكن ليس من المؤكد أن ترضى الأنسة وازد على هذا الاستبدال. هي عنيمة في تعلقها بالسيد بول هذا، وأنا مساهم قليلاً في هذا الخطأ، لأنني أنا نفسي كنت أساهم في تقريب ذلك الشاب قبل كل هذه الخرافات الحمقاء. عذراً، أيها الكونت على هذه النعوت، لكنني مقلوب حقاً.
- هل ترغب في موت ابنة أخيك؟ قال أكتافيلاً بنبرة متأثرة وصارمة.
- يا للهول! ابنة أخي تموت! صاح الكومودوري واثباً من أريكته ورامياً بخرطوم الشيثة الجلدي.
- كانت أي ملامسة لهذا الوتر عند السير جوشوا وازد، تجعله يرتج أكثر.

- «هل يعني هذا أن ابنة أخي مريضة بشكل خطير؟»
- لا تُدعزْ بهذه السرعة، يا ميلورد؛ يمكن للأنسة أليسيا أن تعيش، وحتى إلى عمر طويل.
- حبذا! لقد أفلقتني.
- لكن بشرط، تابع الكونت أكتافيلاً: أن تكف عن رؤية السيد بول دابرومون.
- آه! هي ذي الجئاتورا تعود إلى السطح! من سوء الحظ أن المس وازد لا تؤمن بها.
- أنصتْ إليّ، قال الكونت أكتافيلاً باتزان. عندما التقيت لأول مرة

بالأنسة أليسيا في حفل أمير سيراكوزا، وشعرت إزاءها بشغف يجمع بين الاحترام والاشتعال، كان أول ما شدني إليها عافيتها المشرقة وفرحة الوجود وزهرة الحياة المفتحة في كامل شخصيتها. كان جماها يغدو بسبب ذلك مشعاً، سابحاً في النعيم. كان ذلك التألق يجعلها تتلألأ مثل نجم؛ فاستطاعت إخماد الإنجليزيات والروسيات والإيطاليات، ولم أعد أرى سواها. فهي تضيف إلى التميز الإنجليزي ذلك الحسن الخالص القوي لدى الآلهة القديمة؛ وأتمس منك عذراً لهذا الوصف الأسطوري من شخص تعود سلالته إلى جالية إغريقية.

- صحيح أنها كانت رائعة! حتى أنّ المس إديونا أوهرتي، والليدي إيلينور ليبي، والسيدة جين سترانغفورد، والأميرة فيرا فيدوروفنا بارياتينسكي، كذّن يُصنّب بداء اليرقان من شدّة الغيظ، قال الكومودوري مبتهجاً.

- والآن، ألا تلاحظ أنّ جماها قد مال إلى شيء من الذبول، وأنّ ملاحظتها تنحلّ في هشاشة مرصّية، وعروق يديها تبدو أكثر زرقة ممّا ينبغي، وصار لصوتها رنات آلة هارمونيك ذات ارتجاجات مقلقة وجاذبية مؤلمة؟ إنّ العنصر الأرضي يمحّي ويترك الهيمنة للعنصر الملائكيّ. صارت المس أليسيا ذات كمال أثريّ، ومهما ظننت أنّني مادّي النزعة، فأنا لا أرضى بهذا لفتيات هذا الكوكب».

كان ما يقوله الكونت يتوافق جيّداً وهموم السير جوشوا السريّة، حتىّ إنّ ظلّ بضع دقائق صامتاً وكأنّه تائه في أحلام يقظة عميقة.

«كلّ هذا صحيح؛ رغم أنّني أسعى أحياناً إلى خداع نفسي، لا يمكنني معارضة ما قلت.

- لم أتم كلامي، قال الكونت؛ هل كان هناك ما يبعث على القلق في
صحة الأنسة أليسيا قبل وصول السيد دابرومون إلى إنجلترا؟
- أبداً: كانت الطفلة الأنضر والأكثر مرحاً في الممالك الثلاث.
- حضور السيد دابرومون يتصادف، كما تعلم، مع المراحل المرضية
التي تعكّر الصحة الثمينة للأنسة وازد. لا أطلب منك، أنت رجل
الشمال، تصديقاً ضميتاً لمعتقد، لحكم مسبق، لتطير، إن شئت،
من بلدانا الجنوبية، لكنّ عليك الاعتراف بأنّ هذه الوقائع غريبة
وتستحقّ أن توليها انتباهك كلّه...
- ألا يمكن أن تكون أليسيا مريضة... بشكل طبيعي؟ قال
الكونت دورلي، متزعزعاً من حجج ألتافيللا المضللة، مع نوع
من الحياء الإنجليزي الذي ظلّ يمنعه من تبني المعتقد الشعبي
النابوليتاني.
- من وازد ليست مريضة؛ إنها تتكبد نوعاً من التسميم من خلال
النظر، وحتى إذا لم يكن السيد دابرومون جتاتورلي، فهو على
الأقلّ مشؤوم.
- وماذا باستطاعتي أن أفعل؟ هي تحبّ بول، وتمزأ من الجتاتورا،
وتزعم أنه ليس من المعقول تقديم مثل هذا السبب لرجل شريف
من أجل رفضه.
- ليس من حقّي الاهتمام بابنة أخيك: فأنا لست أخاها، ولا قريبها،
ولا خطيبها؛ غير أنّي، إذا حصلت على موافقتك، ربّما بذلت
جهداً لتخليصها من ذلك التأثير المنحوس. أوه! لا تخش شيئاً؛ لن
أقترف عملاً شاذاً؛ ومهما كنت شاباً فأنا أعرف أنه لا ينبغي إحداث
ضجة حول سمعة فتاة؛ اسمح لي فقط بالتكتم على خطّتي. لتكنّ

لك ثقة كافية في استقامتي حتى تصدق بأنّ خطي تلك لا تتضمن شيئاً ياباه الشرف الرفيع.

- إذن فأنت تحبّ ابنة أخي كثيراً؟ قال الكومودوري.

- نعم، بما أنّي أحبّها بلا أمل؛ لكن هل تسمح لي بالمرور إلى الفعل؟

- أنت رجل فطّيع، أيها الكونت أكتافيلّا؛ نعم! ابذل ما في وسعك

لإنفاذ أليسيا بطريقتك، ولن أجدها طريقة سيّئة، بل سوف أجدها

مناسبة جداً».

وقف الكونت، وألقى التحيّة، وعاد إلى عربته، ثمّ طلب من الحوذي

أنّ ينقله إلى فندق روما.

كان بول يستند بكوعيه على المائدة، ورأسه بين يديه، يستغرق في

تأمّلات شديدة الأسى؛ لقد رأى القطرتين الحمراءين، أو الثلاث، على

منديل أليسيا، وبما أنّه لم يستطع التخلّص من فكرته المتسلّطة فقد كان

يلوم نفسه على حبّه القاتل، ويوبّخها على قبول تفاني تلك الفتاة الجميلة

المصمّمة على الموت من أجله، ويتساءل بأيّ تضحية تفوق قدرة البشر

يمكنه مكافأة ذلك الإنكار الخارق للذات.

قطع بادي، الساعي القزم، ذلك التأمّل جالباً معه بطاقة الكونت

أكتافيلّا.

«الكونت أكتافيلّا! ماذا يريد مني؟ قال بول مفاجأً بقوة. أدخّله».

عندما لاح النابوليتاني عند عتبة الباب، كان السيّد دابرومون قد موّه

دهشته بقناع اللامبالاة الباردة الذي يستخدمه رجال المجتمع لإخفاء

مشاعرهم.

وبتهذيب بارد أشار إلى أريكة للكونت، وجلس هو شخصياً، وظلّ

ينتظر صامتاً وعيناه مثبتتان على الزائر.

«سيدي، بادر الكونت بالقول وهو يحرك تعاويذ سلسلة ساعته، ما جئت لأقوله لك هو في منتهى الغرابة وعدم اللياقة وقلة الملاءمة، بحيث يكون من حقك إلقائي من النافذة. وقز عليّ هذا العنف، لأنني جاهز لإنصافك بطريقة ودية.

- أنا منصت إليك، يا سيدي، مع التحفظ على ما ستقدمه لي لاحقاً، إن كان كلامك لا يناسبني، أجب بول من دون أن ترفّ عضلة واحدة في وجهه.

«أنت جتاتوري!»

إثر سماع هاتين الكلمتين، عمّ شحوب مخضّر فجأة وجه السيد دابرومون، وأحاطت بعينه هالة حمراء؛ اقترب حاجباه، وانبتق من بؤبؤيه ما يشبه البريق الفوسفوري؛ نهض قليلاً، ممزقاً يديه المتشججتين مسنّدي الأكاجو في الأريكة. كان الأمر من الفظاعة حتى أنّ أكتافياً، رغم شجاعته الفائقة، أمسك بواحد من فروع المرجان الصغيرة المتشعبة والمعلقة في سلسلة ساعته، ووجه غريزياً رؤوسها المسنّنة نحو محدّته.

ويجهد من العزيمة أقصى، عاد السيد دابرومون إلى الجلوس، وقال: «أنت على حقّ، يا سيدي؛ هذه هي المكافأة التي تستوجبها مثل تلك الشتيمة؛ غير أنني سأصبر أكثر في انتظار تدارك آخر للخطأ.

- صدّق، تابع الكونت، أنني لم أوجه مثل هذه الإهانة التي لا يمكن غسلها إلا بالدم، إلى أيّ رجل نبيل، من دون دوافع خطيرة. أنا أحبّ الأنسة أليسيا وازد.

- وماذا يهمني؟

هذا يهّمك قليلاً جدّاً، بالفعل، لأنك محبوب؛ أمّا أنا، الدون فيليب أكتافياً، فأمنعك من رؤية المس أليسيا وازد.

- لا أتقبل أوامر منك.

أعرف ذلك، أجب الكونت النابوليتاني؛ لذلك لم أكن أتوقع أن تطيعني.

- وأيّ دافع يجعلك تفعل ذلك، إذن؟ قال بول.

- لي قناعة بأن «الفاتشينو» الذي تتحلّى به، مع الأسف، يؤثر بطريقة مشؤومة في الأنسة أليسيا وازد. هذه فكرة عبثية، حكم مسبق جدير بالعصور الوسطى يمكنه أن يبدو لك سخيفاً جداً؛ ولن أناقش ذلك معك. عينك تقعان على المسّ وازد وترسلان لها رغباً عنك تلك النظرة المشؤومة التي سوف تقتلها. وما من وسيلة أخرى لديّ لمنع هذه النتيجة الحزينة إلّا من خلال استفزازك بخصومة لا موجب لها. لو كنتُ في القرن السادس عشر، لجعلتك تُقتل على يدي واحد من فلاحيّ في الجبل؛ لكنّ تلك التقاليد لم تعد واردة اليوم. ولقد فكّرت عميقاً في مطالبتك بالعودة إلى فرنسا؛ لكنّه أمر في منتهى السذاجة: كنتُستهزأ من هذا المنافس الذي قال لك أن ترحل وتتركه وحيداً قرب خطيبتك بذريعة الجتاتورا».

وبينما كان الكونت أكتافيلّا يتكلّم، كان بول دابرومون يشعر أنّه مخترق برعب خفيّ؛ فهوذا إذن، هو المسيحيّ، ضحيّة قوى الجحيم، والشيطان الرجيم ينظر عبر بؤبؤيه! فيزرع الكوارث، وحبّه يتسبّب بالموت! وللمحظة زوبع عقله في دماغه، وخبط الجنون بجناحيه الجدران الجانيّة في مجتمه.

«أيها الكونت، بشر فك، هل تفكّر في ما تقول؟ صاح دابرومون بعد بضع دقائق من حلم يقظة، احترمه النابوليتاني.

- أفكّر في ذلك، بشر في.

- أوه! إذن فالأمر صحيح! قال بول بصوت خفيض: أنا قاتل إذن، شيطان، مصاص دماء! أقتل تلك المخلوقة السماوية، وأعدّب ذلك العجوز!» وكان على وشك وعد الكونت بعدم الرجوع إلى رؤية أليسيا؛ غير أن الحياء البشري والغيرة اللذين استيقظا في قلبه، أوقفا كلماته على شفثيه.

«أيها الكونت، أضاف بول، لن أخفي عنك شيئاً إن قلت لك أنني سأذهب حالاً لرؤية الأنسة وازد.

- لن أمسك بخناقك لمنعك من ذلك؛ لقد قرّرت عليّ قبل قليل وسائل العنف، وأنا أعترف بجميلك؛ لكنّ تسرّني رؤيتك غداً، في الساعة السادسة، عند آثار پومبي، في قاعة الحمامات المعدنية، على سبيل المثال؛ سوف يكون المكان مناسباً جداً. أيّ نوع من السلاح تفضّل؟ فقد أهنت: أنفضّل السيف أم السيف المعقوف أم المسدّس؟

- سوف نتبارز بالسكاكين وعيوننا معصوبة، يفصل بيننا منديل يمسك كلانا بأحد طرفيه. ينبغي توفير التساوي في الحظ: أنا جتاتوري؛ يكفي أن أنظر إليك حتى أقتلك، سيدي الكونت!» ثم أطلق بول دابرومون قهقهة ذات صرير حادّ، ودفع باباً واختفى.

12

استقرّت أليسيا في قاعة منخفضة من المنزل، كانت جدرانها مزينة بمشاهد رسوم جدارية، تعوض ورق الجدران في إيطاليا. ويتكوّن أثاثها من حصائر قصب تغطّي الأرضية. ومائدة ألقيت عليها قطعة سجاد تركي تنتشر عليها أشعار كولريديج وشلي وتينيسوس ولونغفلو، ومراة

ذات إطار من الطراز العتيق وبعض كراسي القصب؛ كما توجد ستائر من الأسل الصيني مزركشة بمعايد وصخور وصفصاف وكراسي وتنانين، متطابقة عند الفتحات ومرفوعة إلى النصف، تغربل ضوءاً ناعماً؛ ويظهر غصن شجرة برتقال، محملة بزهور تُسقطها الثمار عندما تنعقد، متسللاً بشكل مألوف إلى الغرفة وممتداً مثل شريط زخرفة فوق رأس أليسيا، نافضاً عليها ثلج المعطر.

كانت الفتاة، ولا تزال، متألمة قليلاً، ممتددة على أريكة ضيقة قرب النافذة؛ ترفعها حتى النصف ثلاث أو أربع وسادات مغربية؛ أما غطاء البندقية فكان يغطي رجليها باحتشام؛ وبذلك الترتيب كان يمكنها استقبال بول من دون خرق قوانين الحياء الإنجليزي.

كان الكتاب الذي بدأت أليسيا بقراءته قد انزلت أرضاً من يدها الساهية؛ وكانت حدقتها تسبحان بشرود تحت أهدابها الطويلة وتبدو كأنهما تنظران إلى ما وراء هذا العالم؛ كانت تعاني من ذلك الضنى شبه الشهباني الذي يعقب نوبات الحمى، ولا انشغال لها إلا بمضغ زهور شجرة البرتقال التي كانت تجمعها من فوق غطائها ويعجبها مذاقها المر. ألا توجد فينوس ماضغة ورود في لوحات سكيافوني؟ أي رسم لطيف مشابه للوحة رسّام البندقية القديم يمكن لرسّام حديث إنجازته بتقديم أليسيا معضضة أزهار شجرة برتقال!

كانت تفكر في السيد دابرومون وتتساءل عما إذا كانت ستتمكن من العيش بما يكفي كي تصير زوجته؛ ليس لأنها صدقت تأثير الجئاتورا، بل لأنها صارت تشعر بأنها مجتاحة رغماً عنها باستشعارات جنائزية: ففي الليلة ذاتها شاهدت حلماً لم تتلاش آثاره حتى استيقاظها.

في ذلك الحلم كانت نائمة لكنها مستيقظة وتوجه عينيها نحو باب

غرفتها، مستشعرة أنّ أحداً ما سيظهر. - بعد دقيقتين أو ثلاث من الانتظار القلقِ رأت شكلاً رشيقياً أبيض يرتسم على الخلفيّة الداكنة لإطار الباب، لاح الشكل في البداية شفافاً وتاركاً ما يشبه ضباباً خفيفاً يدع مجالاً لرؤية الأشياء عبره، ثمّ زاد متانةً لدى اقترابه من السرير.

كان الظلّ يرتدي فستاناً من الموسلين تتجرجر أذياله على الأرض؛ وكانت خصلات لولبية من شعره الأسود المحلول تبكي على امتداد وجهه الشاحب المعلّم ببيعتين وردّيتين صغيرتين على الوجنتين؛ وكانت بشرة الرقبة والصدر على درجة من البياض تجعلها تمتزج بالفستان، فلا يصير من السهل الجزم أين تنتهي البشرة وأين يبدأ القماش؛ وهناك سلسلة ذهبيّة من صنع البنديّة لا تكاد تُرى، تطوّق العنق الرقيق بخط ذهبيّ ضيق؛ يدها النحيقة والمعرّقة بالأزرق تمسك بزهرة - وردة شاي⁽¹⁾ - تنفصل بتلاتها وتنهمر على الأرض مثل الدموع.

لا تعرف أليسيا أمها التي ماتت بعد ولادتها بعام؛ لكنّها كثيراً ما كانت تقف متأمّلة أمام منمنمة ذات ألوان شبه منحلّة تُظهر درجة لون أصفر عاجي، شاحبة مثل ذكريات الموتى، وتبعث على تصوّر أنّها صورة شبح أكثر منها صورة امرأة حيّة، وفهمت أنّ تلك المرأة التي كانت تدخل إلى الغرفة بتلك الطريقة هي نانسي وازد، أمها. الفستان الأبيض، والسلسلة، والزهرة في اليد، والشعر الأسود، والخدّان المورّدان، لا ينقص شيء. إنّها فعلاً تلك المنمنمة العاجية، مكبرة الحجم، مظهره كمثل صورة فوتوغرافيّة، ومتحرّكة بكلّ حقيقة الحلم.

دفع حنوّ مزوج بالرعب صدر أليسيا إلى الخفقان. كانت ترغب في مدّ ذراعيها للشبح، غير أنّ ذراعيها الثقيلتين مثل الرخام لم يكن بوسعها

(1) وردة مهجّنة بنكهة زهر الشاي.

الانفصال عن الطبقة التي تستندان إليها. حاولت الكلام لكنّ لسانها لم يتمكن إلا من التلجج بنبرات مبهمة.

بعد أن وضعت نانسي وردة الشاي على المنضدة، جثت قرب الفراش ووضعت رأسها على صدر أليسيا، مصغيةً إلى تنفس الرئتين، محصيةً خفقات القلب؛ وكان حدّ الشبح البارد يبعث في الفتاة، الفرعة من ذلك الفحص الصامت، أثر قطعة ثلج.

نهض الخيال، ألقى نظرة أليمة على الفتاة وبعد عدّ أوراق الورد التي انفصلت منها بضع بتلات أخرى، وقال: «لم تبقى إلا واحدة».

ثمّ تدخّل النوم بِشاشِه الأسود بين الشبح والفتاة النائمة، واختلط كلّ شيء في الظلام.

هل تلك روح أمّها جاءت تُنذرها وتطلبها؟ ماذا تعني تلك الجملة الغامضة التي هوت من فم الشبح: «لم تبقى إلا واحدة؟» هل تكون تلك الوردة الشاحبة المتساقطة البتلات رمزاً لحياتها؟ ظلّ ذلك الحلم الغريب مع رعبه اللطيف وجاذبيته المخيفة، وذلك الشبح الجذّاب المتدثّر بالموسلين محصياً بتلات الزهور، يشغل خيال الفتاة، فيما غيمة كآبة تطفو فوق جيبيها الجميل، واستشعارات عديدة تلامسها بأجنحتها السوداء.

وغصن شجرة البرتقال، هذا الذي ينفض عليها أزهاره، أليس له معنى مأمّي أيضاً؟ هكذا إذن، لن تتلأأ النجوم البكر الصغيرة تحت وشاح العروس؟ سحبت أليسيا من بين شفيتها الزهرة التي كانت تععضها حزينة مستغرقة في التفكير؛ كانت الزهرة الصفراء قد ذبلت تماماً...

كان موعد زيارة السيّد دابرومون يقترب. كابرت الأنسة وازد في بذل جهد أكبر، أعادت البشاشة إلى وجهها، ولّقت بإصبعها خصلات

شعرها، وعدّلت طيّات وشاح الشاش المنكمشة، واستعادت كتابها في يدها لإظهار بعض رباطة الجأش.

دخل بول، واستقبلته الأنسة وازد مبتهجة، إذ كانت لا ترغب في رؤيته مستنقراً لو أنه رآها نائمة، ولن يكفّ عن اعتبار نفسه سبب مرضها. وكانت المشاحنة التي خاضها مع الكونت ألتافياً قد أضفت على بول مظهراً زائغاً وشرساً جعل فيتشي تؤدّي إشارة التعزيم، غير أنّ ابتسامة أليسيا الحانية سرعان ما بدّدت الغيمة.

«أتمنى ألا تكوني مريضة مرضاً خطيراً، قال مخاطباً الأنسة وازد وهو يجلس إلى جانبها.

أوه! لا شيء، بعض التعب فقط: هبت ريح السيروكو بالأمس، وهذه الريح القادمة من أفريقيا تتعبني: لكنك سوف تتأكد كيف أستعيد صحتي بشكل جيّد في قصرنا الصغير في لنكولنشاير! وبما أنني قويّة الآن فسنارس التجذيف بالدور في المستنقع!».

ولدى نطقها بتلك الكلمات لم تتمكن من إخفاء سعلة تشنجية صغيرة إخفاءً كاملاً.

امتقع لون السيّد دابرومون وأبعد عنها عينيه.

خيّم الصمت بضع دقائق في الغرفة.

«بول، أنا لم أهبك شيئاً البتّة، تابعت أليسيا وهي تنزع عن إصبعها الذي ازداد هزلاً خائماً ذهبياً بسيطاً؛ خذ هذا الخاتم ذكرى منّي؛ ربّما يمكنك وضعه لأنّ يدك تشبه يد امرأة؛ الوداع! أشعر أنّي مرهقة وأرغب في النوم؛ عدّ إلى رؤيتي غداً»

انسحب بول شديد الحزن؛ كلّ جهود أليسيا لإخفاء ألمها باءت بالفشل؛ كان يجب الأنسة وازد بشغف، وهوذا يقتلها! وهذا الخاتم الذي

ناولته إياه قبل قليل، أليس خاتم خطبة للحياة الأخرى؟
 ظلّ هائماً على الشاطئ شبه مجنون، حالماً بالهروب، باللجوء إلى أحد
 الأديرة وانتظار الموت هناك جالساً على نعشه، دون أن يخلع ثياب الرهينة.
 أحسّ بالخشّة والجبن لأنّه لم يضحّ بحبه واستغلّ شجاعة أليسيا: فهي لا
 تجهل شيئاً، وتعرف أنّه مجرد جتاتوري، كما أكّد ذلك الكونت ألتافيلّا،
 ونظراً لتحليلها بحنان ملائكيّ فهي لم تسع إلى صدّه!

«نعم، حدّث نفسه، ذلك النابوليتاني، ذلك الكونت الجميل الذي
 تستهين به، هو عاشق حقّاً. شغفه يُخزي شغفي: من أجل إنقاذ أليسيا،
 لم يخشّ مهاجمتي، واستفزازي، أنا الجتاتوري، أي كما في أفكاره، الكائن
 الذي يعادل الشيطان خطراً. كان يحركّ تعاويذه وهو يكلمني، ويخفض
 نظره أمام نظرتي، وهو المبارز الشهير الذي استطاع طرح ثلاثة رجال
 أرضاً!»

إثر عودته إلى فندق روما، كتب بول ثلاث رسائل، وترك وصية يقول
 فيها إنّه يترك كلّ ما يملك إلى الأنسة أليسيا وازد، باستثناء هبة بالوصيّة
 تذهب إلى بادي، وتتخذ الإجراءات الضرورية لرجل عاشق سيخوض
 مبارزة قاتلة في الغد.

فتح صناديق بليساندر⁽¹⁾ يجتبيّ فيها أسلحته داخل خانات مزركشة
 بنسيج صوفيّ أخضر متين، جرّك السيوف والمسدّسات وسكاكين
 الصيد، ووجد أخيراً خنجرين كورسيكيّين مصلّعين متشابهين تماماً، كان
 قد اشتراهما ليهبهما إلى بعض الأصدقاء.

كانا شفرتين من الفولاذ الصرف، سميكتين قرب المقبض، وقاطعتين
 من الجهتين بأتجاه الحدّ، مرصّعتين بخطوط متموجة، ومخيفتين على نحوٍ

(1) خشب فاخر بنفسجيّ اللون.

غامض، ومركبّتين بعناية. واختار بول أيضاً ثلاثة مناديل ووضع كلّ شيء في رزمة.

ثمّ نته سكاتسيغا إلى تهيئة نفسه منذ الصباح الباكر من أجل نزهة ريفية.

«أوه! قال، مرتيماً بكلّ ثيابه على السرير، فلتحسّم هذه المواجهة قدري بمشيئة الرب! إذا حظيتُ بأن أُقتل، فإنّ أليسيا سوف تعيش!»

13

لا تستيقظ يومئذٍ، المدينة الميتة، في الصباح مثل المدن الحيّة. ومع أنّها ألقت إلى النصف بملاءة الرماد التي تغطّيها منذ العديد من القرون، وحتى بعد رحيل اللّيل، تبقى نائمة على فراشها الجنائزيّ.

والسيّاح القادمون من كلّ الأمم والذين يزورونها خلال النهار، ما زالوا متمدّدين على أسرّتهم حتى تلك الساعة، مرهقين تماماً من أتعاب رحلاتهم، وعندما يبرز الفجر فوق خرائب المدينة- المومياء، لا يتمكّن من إضاءة وجه بشريّ واحد. وحدها العظايا، وهي تختلج بأذنانها، تزحف عبر الجدران، تسرع فوق الفسيفساء المتخلخلة، من دون اكتراث لعبارة «كافيه كانيم»⁽¹⁾ المنقوشة على عتبات البيوت المقفرة، وتحتفي مبتهجةً بأولى أشعة الشمس. هؤلاء هم السكّان الذين أعقبوا السكّان القدامى، ويبدو أنّ يومئذٍ لم تُنبش إلا من أجلهم.

يا له من مشهد غريب أنّ ترى تحت بريق الصباح اللازورديّ والوردّيّ هذه الجثّة لمدينة تمّ القبض عليها في أوج ملذّاتها وأشغالها

(1) وضعها باللاتينية cave çanem، وتعني: «احترس من الكلب». وهي من الكتابات التي وُجدت فعلاً في آثار يومئذٍ.

وحضارتها، ولم تخضع إلى الانحلال البطيء للآثار العادية؛ يذهب الاعتقاد بالمرء لا إرادياً إلى أنّ مالكي تلك البيوت التي تمت المحافظة عليها مع أصغر تفاصيلها سيخرجون من مساكنهم بأثوابهم الإغريقية أو الرومانية؛ والمركبات، التي تُشاهد أثلامها على البلاط، ستعود إلى جزيها؛ والشاربون سيدخلون إلى حوانيت المشروبات الساخنة حيث لا تزال علامات الأكواب مطبوعة على رخام المشرب. يسير الزائر كأنه في حلم وسط الماضي؛ يقرأ حروفاً حمراء، عند زوايا الشوارع، لافتة العرض لفرجة اليوم! غير أنّ ذلك اليوم مرّ منذ أكثر من سبعة عشر قرناً. في صفاء بداية الفجر تبدو الراقصات المرسومات على الجدران كأنهنّ يحركن جلاجلهنّ؛ ويرفعن بطرف أقدامهنّ البيض، كما لو كان ذلك وسط رغبة وردية، أطراف أثوابهنّ الفضفاضة، معتقدات، على الأرجح، أنّ الشمعدانات تُضاء من أجل الحفلات الماجنة في الغرف ثلاثية الأسرة؛ الفينوسات والساتيرات⁽¹⁾ والوجوه البطولية أو الفظة، تحاول، وقد فاجأها شعاع، أنّ تعوّض السكّان المفقودين وتجعل للمدينة الميتة سكّاناً مرسومين. الظلال الملونة ترتعش على امتداد الجدران، ويمكن للذهن الاستسلام مدة دقائق لوهم يتعلّق بمشاهدة عرض مسرحي قديم. لكن، في ذلك اليوم، وبصورة دُعرت منها العظايا، ارتبكت سكينه يومّي الصباحية بوصول زائر غريب: توقّفت عربة عند مدخل طريق المقابر؛ خرج منها بول وتوجّه مشياً نحو مكان الموعد.

كان مبكراً في الوصول، ومع أنّه كان مغرماً بأشياء أخرى غير علم الآثار، لم يمنع نفسه وهو يمشي من ملاحظة مئات التفاصيل التي ما

(1) بـ «الفينوسات» يقصد تماثيل فينوس، و«الساتير» Satyre (من اليونانية Sáturos واللاتينية Satyrus) كائن خرافي نصفه الأعلى بشر والأسفل ماعز، ويرمز للشبق والشهوات.

كان ليلاحظها لو كان في وضع معتاد. فالحواس التي تكفّ الروح عن مراقبتها، والتي تباشر العمل عندئذ بذاتها، يكون لها أحياناً وضوح متفرّد. هناك محكومون بالإعدام يميّزون، وهم في طريقهم إلى تنفيذ الحكم، زهرة صغيرة بين شقوق البلاط، أو رقماً على زرّ بدلة عسكرية، أو خطأ إملائيّاً في لافتة أو شعار. وغير ذلك من المواقف البسيطة التي تكتسي بالنسبة إليهم أهمية كبيرة. مرّ السيّد دابرومون أمام فيلاً ديوميديه، وقبر ماميا، والمباني المأتمية نصف الدائرية، وباب المدينة القديم، والبيوت والدكاكين المنتشرة على جانبي طريق القناصل، من دون إلقاء نظرة تقريباً على كلّ ذلك، مع أنّ صوراً ملوّنة وحيّة لتلك الآثار كانت تصل إلى دماغه بوضوح كامل؛ كان يشاهد كلّ شيء، الأعمدة المضلّعة المطلية حتّى نصف ارتفاعها بمعجون مرمريّ أحمر أو أصفر، والرسوم المنمنمة، والكتابات المنقوشة على الأسوار، بل إنّ هناك أيضاً إعلان تأجير بعنوان أحمر ترسخ عميقاً في ذاكرته حتّى صارت شفتاه تكرّران كلماته اللاتينية آلياً من دون ربطه بأيّ معنى محدّد.

هل كانت فكرة المعركة هي التي تستغرق بول إلى هذه الدرجة؟ إطلاقاً، فهو لم يكن يفكّر فيها أصلاً؛ كان فكره في مكان آخر: في ردهة ريشموند. كان يقدم للكومودوري رسالة التوصية، والآنسة وازد تنظر بمواربة؛ كانت ترتدي فستاناً أبيض، وأزهار ياسمين تتلألأ في شعرها. كم كانت فتية، جميلة وحيوية... آنذاك!

توجد الحّمّات القديمة في آخر طريق القناصل، قرب شارع الحظ؛ لم يجد السيّد دابرومون صعوبة في العثور عليها. دخل إلى القاعة المقبّبة التي يحيط بها صفّ من الكوى مكوّنة من أطالس⁽¹⁾ طين مشويّ،

(1) أطلس هو أحد الجبابرة في الأساطير الإغريقية ويعرف برفعه قبة السماء.

تسند عارضة مزخرفة بتماثيل أطفال وأغصان مُورقة. اختفت الكسوة الرخامية والفسيفساء والركائز البرونزية الثلاثية القوائم. لم يبقَ من الرونق القديم إلا أطالس الطين والجدران العارية مثل جدران القبور؛ وكان ضوء مغبّش يأتي من شبّاك صغير مستدير يقسّم زرقة السماء إلى أقراص، يتسلّل مرتعشاً على البلاط المهشّم.

هناك كانت نساء يوميّ يأتين، بعد الاستحمام، لتجفيف أجسادهنّ الجميلة المبلّلة، وإحكام زينتتهنّ، ثم ارتداء أثوابهنّ والتبسّم لأنفسهنّ أمام النحاس الصقيل للمرايا. ثمّة مشهد مختلف تماماً سيحدث، وينبغي على الدم أن يسيل أرضاً، هناك حيث كانت، قديماً، تسيل العطور.

بعد لحظات، ظهر الكونت ألتافيلّا: كان يحمل بيده صندوق مسدّسات، وسيّفين تحت ذراعه، ذلك أنّه لم يكن قادراً على التصديق بأنّ الشروط التي اقترحها السيّد بول دابرومون كانت جدّية؛ لم يرَ فيها سوى ضحكة شيطانية، سخرية جهنّمية.

«ما الحاجة إلى المسدّسين وهذين السيّفين، أيها الكونت؟ قال بول لدى رؤيته ذلك العدد من الأسلحة؛ ألم نتفق على طريقة أخرى للقتال؟ - أجل، ولكنني فكّرتُ بأنك قد تغيّر رأيك؛ لم يسبق أن حدث قتال بتلك الطريقة.

- حتّى لو كانت مهارتنا متساوية، فإنّ وضعي يوقّر لي الكثير من الفوائد مقارنةً بك، أجب بول بابتسامة لاذعة؛ ولا أريد استغلالها. جلبتُ خنجرين؛ يمكنك فحصهما؛ إنّهما متشابهان تماماً؛ وهنا منديلان لتعصيب عينينا. انظر إنّها سميكان، ونظرتي لا يمكنها اختراق قماشهما».

أوما الكونت ألتافيلّا بالموافقة.

«ليس لدينا شهود، قال بول، ولا ينبغي لأحدنا الخروج حياً من هذا القبر. فليكتب كلانا بطاقة يشهد فيها باستقامة النزال؛ وسوف يقوم المنتصر بوضعها على صدر القتيل.

- احتياط جيداً! أجاب النابوليتاني مبتسماً وهو يخطّ بعض الأسطر على ورقة من دفتر بول الذي نفذ بدوره الإجراء نفسه. بعد إتمام ذلك، تحفّف الخصمان من ثيابهما، وعصبا عينيها، وتسلّحا بخنجريهما، وأمسك كلاهما بطرف المنديل، بمثابة همزة وصل مرعبة تتوسّط حقدّيهما.

- هل أنت مستعدّ؟ قال السيّد دابرومون للكونت أكتافيلّا.

- نعم، أجاب النابوليتاني بصوت في منتهى الهدوء.

كان الدون فيليب أكتافيلّا يتحلّى ببسالة مجرّبة، ولا يخشى شيئاً في العالم سوى الجتاتورا، وهذه المعركة العمياء التي كان من شأنها جعل أيّ شخص آخر يرتجف خوفاً، لم تتسبّب له بأيّ اضطراب؛ وهو بذلك يراهن على حياته بطريقة الوجه أو القفا، ولم يعد متضايقاً من رؤية العين الوحشيّة لخصمه تنفث عليه نظرتها الصفراء.

شهرّ المقاتلان خنجريهما، وبين عتمتين كثيفتين تمدّد المنديل الذي يصل بينهما بشدّة. وبحركة غريزية تراجع بول والكونت بجذعّيهما إلى الخلف، وهو الرّد الوحيد الممكن في هذه المبارزة الغربية؛ وكانت ذراعاهما تسقطان من دون التمكن من إصابة أيّ شيء آخر غير الفراغ.

هذا الصراع المعتم، حيث يستشعر كلاهما الموت من دون رؤيته يُقبل، كان ذا طابع مفزع. وكان الخصمان الشرسان الصامتان يتراجعان، يستديران، يقفزان، يصطدمان أحياناً، يخطّان الهدف أو يتجاوزانه؛ ولا يُسمع إلّا وقع الرّفس من قدميهما والأنفاس اللاهثة من صدريهما.

في إحدى المرات أحسّ ألتافيلاً برأس خنجره يلتقي شيئاً ما؛ فتوقف معتقداً أنه قتل خصمه، وانتظر سقطة الجسم: لم يكن أصاب إلا الجدار! «اللّعنة! اعتقدتُ تماماً أنني مزقتك من جهة إلى أخرى، قال مستعيداً وضعية التهيؤ.

- لا تتكلم، قال بول، صوتك يدلني عليك». واستعيد القتال.

فجأة أحسّ الخصمان أنّها انفصلا أحدهما عن الآخر. كانت طعنة من خنجر بول قد مزقت المنديل.

«هدنة! صاح النابوليتاني؛ لم نعد متّصلين، لقد تمزّق المنديل.

- لا يهتم! لواصل»، قال بول.

خيم صمت كثيب. ذلك أنّ استقامة العدوين جعلتهما يرفضان استغلال التوجيهات التي يقدمها تبادلها الكلام. خطأ كلاهما بضع خطوات للتمويه، وعادا إلى البحث المترصد في العتمة.

حرّكت قدم السيد دابرومون حجراً صغيراً؛ ذلك الاصطدام الخفيف دلّ النابوليتاني، وكان يحرّك خنجره كيفما اتفق، على الاتجاه الذي ينبغي عليه الذهاب نحوه. استجمع ألتافيلاً نفسه نازلاً على ركبته لاكتساب اندفاع أقوى، ووثب وثبة نمر ملتقياً بخنجر السيد دابرومون.

لمس بول طرف خنجره وأحس به مبللاً... رنّت خطوات غير منتظمة بثقل على البلاط؛ سُمِعَتْ تنهيدة مخنوقة وسقط جسم على الأرض دفعة واحدة.

تملّك الرعب بول فأسقط العصابة التي كانت تغطّي عينيه، ورأى الكونت ألتافيلاً شاحباً، بلا حراك، متمدداً على ظهره وقميصه مبقّع عند موضع القلب بلطخة حمراء كبيرة.

تسخين المياه، وهنالك قاعة الحرارة المعتدلة». كانت هذه التفاصيل المقدّمة بلهجة نابوليتانية محلّية مختلطة ببضع كلمات إنجليزية تبدو غير مثيرة كثيراً لاهتمام الرّوّار الذين بدؤوا أصلاً باستدارة للانسحاب عندما تقهقرت المسّ إيثلونينا، وهي بكر الفتيات، شابة ذات شعر أشقر مصفرّ وبشرة منمّشة ببقع صهباء، خطوتين إلى الوراء بهيئة مصدومة ومدعورة، وصاحت: «رجل!

- لعلّه أحد عمال التنقيب وجد المكان مناسباً لأخذ قيلولة؛ يوجد تحت هذه القبة ظلّ وبرودة: لا نخشي شيئاً، يا آنسة، قال الدليل دافعاً بقدمه ذلك الجسم المتمدّد على الأرض: هيتا! استيقظ أيها الكسول، ودع سياداتهم يمرّون».

لم يتحرّك النائم المزعوم.

«هذا ليس رجلاً نائماً، بل هو ميت»، قال أحد الفتيان، وقد مكّته قامته القصيرة من تمييز أفضل لمظهر الجثة في الظلّ.

انحنى الدليل على الجثة ونهض بغتة، مشوّش الملامح.

«رجل مقتول! صاح.

- أوه! إنّه لأمر مزعج حقّاً أن نجد أنفسنا أمام مثل هذه الأشياء؛ ابتعدوا كلّكم، إيثلونينا، كيتي، بيس، قالت السيّدة بريسبريج، رؤية هذا المشهد السيّئ لا تناسب شبّاناً جيّدي التربية. أفلا توجد شرطة في هذا البلد! كان على ضابط المباحث رفع الجثة.

- بطاقة! قال ابن العمّ باختصار، وكان متيبّساً، طويلاً، ومتضايقاً من شخصيته مثل صاحب قصر دو ميديايك في «سجن إدنبرة»⁽¹⁾.

(1) تحت هذا العنوان (*La Prison d'Édimbourg*) تُرجمت إلى الفرنسية رواية «في قلب سجن ميلوثيان» لوالتر سكوت *Walter Scott, The heart of Midlothian*، والشخصية التي يشير إليها غوتيه تلعب دوراً ثانوياً في بداية الرواية وتمثّل مراهقاً أخرق وغيباً.

- فعلاً، قال الدليل وهو يتناول البطاقة الموضوعه على صدر أكتافيلًا،
ورقة تتضمن بعض السطور المخطوطة.

- اقرأ، قال المتحدرون من الجزيرة في جوقه واحده وقد ازداد
فضولهم.

«لا حاجة إلى البحث أو إزعاج أحد بسبب موتي. إذا تم العثور على
هذه البطاقة فوق جرحي فهذا يعني أنني سقطت في مبارزة شريفة.
«التوقيع: فيليب، كونت دي أكتافيلًا».

«كان رجلاً مستقيماً؛ يا للأسف! تنهدت السيدة بريسبريج، التي
أثارها صفة الكونت لدى الميت.

- وشابًا وسيماً، همست إيثلوينا، الأنسة المنمشة الوجه.

- لن تشتكي أكثر، قالت بيس لكيتي، من انعدام ما هو غير متوقع في
الرحلات: صحيح أننا لم نوقف من قبل قطاع الطرق عبر الطريق
من تيراتشينا إلى فوندي؛ لكن العثور على سيّد شابّ مطعون
بضربة خنجر في آثار بومبي، يمثل مغامرة حقيقية. لعلّ في الأمر
منافسة غرامية؛ حصلنا على الأقلّ على شيء رائع ورومنطقيّ
لنحكيه إلى صديقاتنا. سوف أرسم المشهد في ألبومي، وتضيفين
إلى الرسوم مقاطع شعرية غريبة على طريقة الشاعر بايرون.

- هذا أمر سويّ، قال الدليل، الطعنة حسنة التسديد، من الأسفل إلى
الأعلى، وفق الأصول؛ لا خلاف».

هكذا كان تأبين الكونت أكتافيلًا.

ذهب بعض العمال الذين أخطروهم الدليل للبحث عن رجال العدل،
وتمّ نقل جثة أكتافيلًا المسكين إلى قصره، قرب ساليرنو.

أما السيّد دابرومون، فقد عاد إلى عربته وعيناه مفتوحتان مثل مسرّم

لكّنه لا يرى شيئاً. كان يشبه تمثالاً يمشي. ومهما أحسّ لدى مرآى الجثّة بذلك الرعب الورع الذي يوحى به الموت، فإنّه لم يشعر بأنّه متهم، ولم يخالط يأسه شعور بالذنب. لقد تمّ استفزازه بطريقة لم تترك للرفض مكاناً، ولم يوافق على تلك المباراة إلاّ بأمل التخلّص فيها من حياته التي باتت كريمة. ولأنّه موهوب بنظرة مشؤومة فقد اختار معركة عمياء حتّى تعود المسؤولية للأقدار وحدها. ليست يده ذاتها هي التي طعنت؛ بل عدوّه هو الذي انقضّ على الخنجر! رثى لحال الكونت آتافيلاً كما لو كان غريباً عن موته. «إنّ خنجري هو الذي قتله، ظلّ يقول لنفسه، كان يمكنني مشاهدته في حفل راقص فيحدث أنّ تسقط ثريّاً من السقف وتُهمّس رأسه. أنا بريء براءة الصاعقة، والانهار الثلجيّ، وشجرة السمّ، براءة كلّ القوى التخريبيّة اللاواعية. لم يسبق لإرادتي أن تتعامل والشرّ، قلبي مفعم بالحبّ والحنان، لكنني أعرف أنّي ضارّ. الرعد لا يعرف أنّه يقتل؛ وأنا، الإنسان، المخلوق العاقل، أليس أمامي واجب صارم ينبغي القيام به إزاء ذاتي؟ يتوجّب عليّ استدعاء نفسي أمام محكمة ذاتي ومساءلتها. هل يمكنني البقاء على هذه الأرض حيث لا أتسبّب إلاّ في المصائب؟ هل يلعنني الربّ إنّ أنا قتلت نفسي حبّاً في الآخرين؟ مسألة فظيعة وعميقة لا أستطيع حلّها؛ يبدو لي، في الوضعية التي أنا عليها، أنّ الموت الإراديّ خطأ مغتفر. وماذا لو كنت على خطأ؟ سوف أُخرم في عالم الخلود من رؤية أليسيا، وحتّى ذلك الوقت يمكنني رؤيتها هنا من دون إلحاق الضرر بها، لأنّ عيون الروح ليس لها «فاتشينو». إنّها فرصة لا أريد المجازفة بها».

جالت فكرة مباغته بدماع الجتاتوري البائس وقطعت مناجاته لنفسه. استرخت ملامحه؛ وأزال الهدوء الثابت الذي يعقب القرارات الكبرى

تجاويد جبهته الشاحبة: لقد اتخذ قراراً أخيراً:

«فلتحلّ اللّعة عليكما، يا عينيّ، بما أنكما قاتلتان؛ لكن، قبل إغماضكما إلى الأبد، تشبّعاً بالنور، تأمّلا الشمس، السماء الزرقاء، البحر الشاسع، سلاسل الجبال المزرقّة، الأشجار المخضّرة، الآفاق البعيدة، أعمدة القصور، كوخ الصيّاد، جزر الخلجان البعيدة، الشراع الأبيض يلامس لبحر الهاوية، جبل فيزوف مع قنزعه الدخانية؛ أنظرا، لتذكّرا ذلك، إلى كلّ هذه المشاهد التي لن ترياها إلى الأبد؛ ادّرسا كلّ شكل وكلّ لون، تمّتعا بحفلة أخيرة. حتّى اليوم، سواء أكتما مشؤومتين أم لا، يمكنكما التوقّف عند كلّ شيء؛ انتشياً بمشهد الخلق الرائع! هيا، انظرا، تجوّلا. سينزل الستار بينكما وبين ديكور الكون!».

كانت العربة في هذه اللّحظة تماذي الشاطي؛ الشرم الساطع يتلألأ، والسماء تبدو كأنها منقوشة في قطعة واحدة من الياقوت الأزرق؛ إشراق الجمال يغطّي كلّ شيء.

أمر بول سكاتسيغا بالتوقّف؛ نزل من العربة، وجلس على صخرة ونظر مطوّلاً، مطوّلاً، مطوّلاً، كما لو كان يرغب في الاستثثار باللانهاية. كانت عيناه تستغرقان في فضاء النور، تنقلبان كما في حالة نشوة، تتضمّخان بالبريق، وتببّلان بالشمس! اللّيل الذي يوشك على القدوم لن يعقبه، بالنسبة إليه، فجر آخر.

اقتلع السيّد دابرومون نفسه من ذلك التأمّل الصامت، وصعد إلى العربة وقصد بيت الأنسة أليسيا وازد.

كانت كما بالأمس، متمدّدة على أريكتها الضيّقة، في القاعة الأرضيّة التي سبق لنا وصفها. جلس بول قبالتها، وفي هذه المرّة لم يحافظ على عينيه منخفضتين باتجاه الأرض، كما كان يفعل منذ وعيه بالجتّاتورا التي تملكته.

جمال أليسيا المتكامل يزداد روحانية مع الألم: لقد اختفت المرأة تقريباً لتترك المجال للملاك: كانت بشرتها شفافة، أثرية، مضيئة؛ حتى يمكن من خلالها رؤية روحها مثل بريق على مصباح مرمر. كانت لعينها لانهائية السماء وتلاؤ النجم؛ وكانت الحياة لا تكاد توقع بختمها الأحمر على أرجوان شفيتها.

أضواء ابتسامة إلهية فيها، مثل شعاع من الشمس يضيء وردة، عندما رأت نظرات خطيها تغطيها بملامسة طويلة. خالت أن بول قد طرد أخيراً أفكاره المشؤومة حول الجئاتورا وعاد إليها سعيداً واثقاً كما في الأيام الأولى، ومدت إلى السيد دابرومون يدها الصغيرة الشاحبة والرقيقة، فاحتفظ بها.

«ألم أعد أخيفك إذن؟ قالت بسخرية عذبة لبول الذي ظلّ يطيل تثبيت عينيه عليها.

- أوه! اتركيني أنظر إليك، أجاب السيد دابرومون بنبرة صوت فريدة وهو يركع قرب الأريكة؛ دعيني أنتشي بهذا الجمال الذي لا يمكن وصفه!« وظلّ يتأمل بلهفة شعر أليسيا اللامع الأسود، وجبينها الجميل النقي مثل رخام إغريقي، وعينها بزرقتها الداكنة مثل لازورد ليلة رائقة، وأنفها ذا القلب الناعم جداً، وفمها المفتر عن لآلئ أظهرتها ابتسامه جزئية واهنة، وجيدها الذي يشبه عنق إوزة متموجاً ومرناً، وبدا كأنه يريد تسجيل كل ملمح، كل جزئية، كل إنقان مثل رسام يرغب في رسم بورتره من الذاكرة. كان يتشبع بالمظهر المعبود، ويخزن مؤونة من الذكريات، محدداً الجوانب، متذكراً التكوّرات.

تحت تلك النظرة المتقدة كانت أليسيا، مفتونة ومسحورة، تكابد

إحساساً مؤلماً بشكل مثير، قاتلاً بشكل لذيذ؛ كانت حياتها تسمو وتتلاشى؛ تجمّر وتشحب، تصير باردة ثم محرقة. كانت تكفي دقيقة واحدة لتكون الروح قد غادرتها.

وضعت يدها على عيني بول، لكنّ نظرات الشابّ كانت تخرق مثل شعلة من اللهب أصابع أليسيا الشفافة والهزيلة. «الآن بوسع عيني الانطفاء، سوف أراها دائماً في قلبي» قال بول وهو ينهض.

في المساء، بعد الذهاب لتأمل غروب الشمس، وهو آخر غروب يُتاح له تأمله، طلب السيد دابرومون، لدى عودته إلى فندق روما، موقداً وبعض الفحم.

«هل يرغب في الاختناق؟ قال فيرجيليو فالساكابا محدثاً نفسه وهو يجلب إلى بادي ما طلب بأمر من سيده؛ هذا أفضل ما يمكنه فعله ذلك الجتاتوري اللعين!»

فتح خطيب أليسيا النافذة، بعكس تحمين فالساكابا، وأشعل الفحم، وغرز فيه شفرة خنجر وانتظر احمرار الحديد.

وسرعان ما تحوّلت الشفرة الرقيقة، في الجمر المتقد، إلى اللون الأحمر المبيضّ؛ وكما لو كان بول يريد الترخيص لنفسه بإجازة للانصراف من ذاته، اتكأ بكوعيه على المدفأة قبالة مرآة كبيرة ينعكس فيها نور شمعدان ذي عدّة شموع؛ نظر إلى ذلك النوع من الأشباح الذي كان هو شخصياً، ذلك الغلاف لأفكاره الذي لن يعود إلى رؤيته، بفضول كئيب: «وداعاً، يا شبحاً شاحباً مشؤوماً، يختلط فيه الجمال بالرعب، يا صلصالاً ممهوراً عند الجبين بختم النحاس، يا قناعاً متشججاً لروح عذبة ورقيقة! ستختفي إلى الأبد بالنسبة لي: خيلاً، أرمي بك إلى الظلمات الأبدية، وقريباً سوف

أكون قد نسيتك مثل حلم ذات ليلة عاصفة. عبثاً تقول، أيها الجسد البائس، إلى عزيمتي التي لا تلين: «هوبير، هوبير، عيناى التعيستان! لن تثير شفقتها بتاتاً. هيا بنا، إلى العمل، ضحيةً وجلاداً!» وابتعدَ عن المدفأة كي يجلس على حافة سريره.

نفخ مؤججاً فحم الموقد الموضوع على منضدة صغيرة ذات قائمة واحدة، قريبة منه، وأمسك بمقبض الخنجر الذي كان نصله يرسل شرارات بيضاء مفرقة.

في هذه اللحظة القصوى، ومهما كان قراره، أحسّ السيد دابرومون بما يشبه الخور: سال عرق بارد على صدغيه؛ لكنّه سرعان ما سيطر على ذلك التردد الجسديّ الصرف وأدنى الحديد الحارق من عينيه.

ألم حادّ، معذب، لا يطاق، كاد يقتلع منه صرخة؛ بدا له أنّ نفتين من رصاص ذائب كانتا تنفذان عبر الحدقتين حتى عمق الجمجمة؛ تخلى عن الخنجر الذي تدرج أرضاً وترك بقعة داكنة على الأرضية الخشبية.

عتمة كثيفة كالحة، تبدو معها أكثر الليالي غلماً نهاراً رائقاً، غطته بحجابها الأسود؛ التفت نحو المدفأة حيث لا بدّ أنّ الشموع ما زالت تشتعل؛ لم يرَ إلاّ ظلمات كثيفة، يتعدّد اختراقها، لا تترأى فيها حتى تلك البهرة المشوشة التي يظللّ المبصرون يرونها مغمضي الجفون عندما يكونون قبالة مصدر للضوء. لقد تمّ تقديم الأضحية!

«الآن، أيّتها المخلوقة النبيلة الفاتنة، قال بول، يمكنني أن أصير زوجك دون أن أكون قاتلاً. لن تذبلي ببسالة تحت نظرتي المشؤومة: سوف تستعيدين صحتك الجميلة؛ وا أسفاه لن ألمحك مجدداً، غير أنّ صورتك السماوية سوف تظلّ تشعّ ببريق خالد في ذكرياتي؛ سوف أراك بعين الروح، وأسمع صوتك أرخم من أعذب موسيقى؛ سوف أستم

الهواء الذي تنقله حركاتك، وأسمع رعشة فستانك الحريرية، والوقع الخفي لحذائك؛ سوف أمتصّ العطر الخفيف الذي يفوح منك ويحيط بك. سوف تتركين يدك بين يديّ أحياناً كي تعلني عن حضورك؛ سوف تتكرّمين بإرشاد ضريرك المسكين عندما تتردّد قدمه على دربه المعتم؛ سوف تُسمعينه ما كتب الشعراء وتصفين له اللّوحات والتماثيل. بكلمتك سوف تعيدنين إليه الكون المتلاشي؛ سوف تكونين فكرته الوحيدة، حلمه الوحيد؛ وروحه المحرومة من تسليّة الأشياء وإبهار النور سوف تطير نحوك بجناح لا يكلّ!

«لا أتأسّف على شيء، ما دمتِ نجوتِ. ماذا خسرتُ، حقاً؟ مشهد الفصول والأيام الرتيب، رؤية الزخارف المتفاوتة الروعة حيث تدور أفعال الكوميديا البشرية الحزينة. الأرض، السماء، المياه، الجبال، الأشجار، الأزهار: مظاهر كاذبة، تكرار مضجر، أشكال هي ذاتها دائماً! عندما نمتلك الحبّ نمتلك الشمس الحقيقية، الضياء الذي لا ينطفئ!» هكذا كان يتكلّم بول دابرومون المسكين، في مناجاته الذاتية، محمواً بحماسة غنائية يختلط فيها الهذيان بالألم أحياناً. رويداً رويداً سكنت آلامه؛ واستغرق في ذلك النوم الأسود، شقيق الموت والمؤاسي مثله.

عندما تسرّب ضوء النهار إلى الغرفة، لم يوقظه. بعد الآن يصير لمنتصف النهار ومنتصف الليل اللون ذاته بالنسبة إليه؛ غير أنّ الأجراس وهي تقزع الأنجيلوس، صلاة التبشير الملائكيّ، في موجاتٍ بهيجة، كانت تطنّ بغموض مخترقّة نومه، ثمّ صارت واضحة أكثر، واجتذبتة من النعاس.

رفع جفنيه، وقبل أن تتوصّل روحه النائمة إلى التذكّر، تملكه إحساس

فظيح. كانت عيناه تفتحان على الفراغ، على السواد، على العدم، كما لو أنه
دُفن حياً وأوقظ من سباته داخل نعش؛ لكنّه سرعان ما تدارك نفسه. ألن
يكون الوضع كذلك دوماً؟ ألم يعد يتوجب عليه الانتقال، كل صباح،
من ظلمات النوم إلى ظلمات اليقظة؟
بحث عشوائياً عن جبل الجرس.
هرع بادي.

ونظراً لذهوله من رؤية سيّده ينهض مع الحركات المترددة التي تميز
الأعمى:

«تهوّرت في النوم والنافذة مفتوحة، قال له بول، كي يضع حدّاً لأيّ
توضيح، وأظنّ أنّي التقطت كُمنة⁽¹⁾، لكنّها سوف تشفى؛ أوصلني إلى
أريكتي وضع قربي كوباً من الماء البارد».

لم يبدي بادي أيّ ملاحظة نظراً لتميّزه بالكتمان الإنجليزي، لذلك طبّق
أوامر سيّده وانسحب.

بعد أن ظلّ بول بمفرده غطّس منديله في الماء البارد، ووضعته على
عينيه كي يخفّف من الاتقاد الذي تسبّب به الكميّ.

لترك السيّد دابرومون في جموده المؤلم ولنهتمّ قليلاً بالشخصيات
الأخرى في أحكايتنا.

انتشر خبر موت الكونت ألتافيلّا الغريب بسرعة في نابولي وصار
موضوع تخمينات كثيرة متفاوتة في الشطط. كانت مهارة ألتافيلّا في
المبارزة معلومة لدى الجميع؛ وكان ألتافيلّا معروفاً بكونه واحداً من
أفضل المبارزين ضمن تلك المدرسة النابوليتانية المخيفة على أرض
الميدان؛ كان قد تمكّن من قتل ثلاثة رجال، وإصابة خمسة أو ستة بجروح

(1) عمى جزئي أو كليّ.

خطيرة. وانتشرت شهرته في هذا المجال حتى إنه لم يعد يُبارز. صار البارزون الأكثر ثقة بأنفسهم يلقون عليه التحية بتهذيب، ويتفادونه حتى وإن لحقتهم إهانة منه. ولو كان واحد من أولئك المتبجحين هو الذي قتل ألتافيلاً لما أخفى شرف حصوله على ذلك النصر. بقيت فرضية الاغتيال، وقد دحضتها البطاقة التي عُثِرَ عليها فوق صدر الميت. تم في البداية التشكيك بالخطأ؛ غير أن التأكيد على خطأ الكونت جاء من أشخاص كانوا قد استلموا منه أكثر من مئة رسالة. وظلت مسألة العينين المعصوبتين، إذ أن الجثة ظلت تحمل منديلاً معقوداً حول الرقبة، غير قابلة للتفسير. وبالإضافة إلى الخنجر المغروز في صدر الكونت، تم العثور على خنجر آخر قد يكون أفلت من يده التي خارت: لكن، إذا كانت المعركة قد جرت بالسكاكين، فبِمَ يُفسَّر وجود سيفين ومسدسين تم التعرف عليها بوصفها من ممتلكات الكونت، وقد أعلن حوذيّ عربته أنه أوصل سيده إلى پومبي، مع أمر بالعودة إن لم يظهر مجدداً بعد مرور ساعة؟ كان أمراً محيّراً.

وسرعان ما بلغت ضجة هذا الموت أذني فيتشي التي أخبرت السير جوشوا وازد. عاد إلى ذاكرة الكومودوري فوراً ذلك الحوار الغريب الذي جمعه مع ألتافيلاً حول وضع أليسيا، واستشفّ بطريقة مشوشة حدوث صراع غامض، معركة فظيعة يائسة تورط فيها السيد دابرومون بطريقة إرادية أو غير إرادية. أما فيتشي فلم تتردد في نسبة موت الكونت إلى الجتاتوري الشنيع، وكان حقدما عليه قد أكسبها رؤية أخرى أوضح. وفي أثناء ذلك قام السيد دابرومون بزيارته للآنسة وازد في الساعة المعتادة، ولم يكن في رباطة جأشه ما يشي بانفعالات متأتية من مأساة فظيعة، كان يبدو بالأخرى أهدأ مما في السابق.

أخفيّ موضوع ذلك الموت عن الأنسة وازد التي تفاقمت حالتها، دون أن يتمكن الطبيب الإنجليزي الذي استدعاه السير جوشوا من تشخيص مرض محدّد لديها: كان مرضها يشبه نوعاً من تلاشي الحياة، من اختناق الروح خافقة بجناحيها من أجل بدء الطيران، من اختناق طائر بسبب آفة رئوية، أكثر منه مرضاً حقيقياً يمكن علاجه بالوسائل المعتادة. كان يمكن القول إنّها ملاك محجوز في الأرض يعاني من حنينه إلى الفضاء. كان جمال أليسيا من العذوبة والرهاقة والشفافية والأثرية إلى حدّ عدم تحمّله متابعة تنفس الهواء البشري الفظّ. يمكننا تحيّلها محوّمه في النور الذهبيّ للفردوس، بينما وسادة الدنتيلا الصغيرة التي كانت تسند رأسها تشعّ مثل هالة. كانت وهي على فراشها تشبه تلك العذراء اللطيفة التي رسمها شوريل⁽¹⁾، أثنى جوهرة في تاج الفنّ القوطيّ.

لم يأتِ السيّد دابرومون في ذلك اليوم: فمن أجل إخفاء تضحّيته لم يشأ الظهور بجفنين محمّرين، مترثاً لإرجاع عما المباغت إلى سبب آخر مختلف تماماً.

وفي الغد، وقد تلاشى شعوره بالألم، صعد إلى عربته التي يسوسها ساعيه بادي.

توقّفت العربة كالمعتاد عند باب الحاجز الشبكيّ. دفعه الأعمى الطوعيّ، وسلّك المشى المعهود سابراً الرمل بقدميه. لم تهرع فيتشي وفق العادة لدى سماع الجرس الذي يتحرّك بناقض الباب؛ لم تصل أيّ ضجّة من مئآت الضجّات الصغيرة المفرحة التي تكون مثل التنفّس للمنزل

(1) يان فان شوويل Jan Van Schoorel (1495-1562): رسّام هولنديّ يدعى أحياناً «سيّد موت مريم»، أي أفضل من يرسم موتها، وهو اللقب الذي كان يُطلق أكثر على الرسّام الهولنديّ يوس فان كليف Joos Van Cleve (1484-1540).

الحيّ، إلى أذنيّ بول المرهفتين. كان صمت كئيب، عميق، مفزع، يخيم على المسكن، حتّى ليتمكن تصوّره مهجوراً. وهذا الصمت الذي كان من شأنه أن يبدو مشؤوماً حتّى بالنسبة لشخص مبصر، صار مفاجئاً أكثر في الظلمات التي كانت تغطّي الأعمى الجديد.

كانت الأغصان التي لم يعد يميّزها تبدو كأنها تريد الإمساك به مثل أذرة متوسّلة ومنعه من التقدّم أكثر. كان الغار يسدّ الممشى؛ وشجيرات الورد تتمسك بشيابه، والنباتات المعترشة تشبّث بساقيه، والحديقة تقول له بلغتها الخرساء: «أيتها البائس! ماذا جئت تفعل هنا؟ لا تقاوم الحواجز التي أعرقلك بها، ارحل من هنا!» لكنّ بول لم يكن يصغي؛ كان في عذاب استشعاراته الفظيعة، يتدحرج بين الأوراق، يدفع الأجمات الخضراء، ويكسر الأغصان ويتقدّم دائماً باتجاه البيت.

بلغ أخيراً نهاية الممرّ ممزّقاً مرضوضاً. صفعته هبة هواء طلق، وتابع طريقه ويده ممدّتان إلى الأمام. التقى بالجدار ووجد الباب تلمّساً.

دخل؛ ما من صوت وديّ رحب بقدمه. ولأنه لم يسمع أيّ صوت يمكن أن يقوده فقد ظلّ متردّداً بضع دقائق عند العتبة. رائحة سائل أثيريّ، تبخّر عطور، رائحة شمع يذوب، كلّ أنواع العطور المبهمة في غرف الموتى تشبّث بحاسة شمّ الأعمى المختلج هلعاً؛ راودت ذهنه فكرة فظيعة، ودخل إلى الغرفة.

بعد بضع خطوات، اصطدم بشيء ما سقط محدثاً ضجة كبيرة؛ انحنى وتعرّف لمسأ على الشمعدان المعدنيّ الذي يشبه مشاعل الكنيسة ويحمل شمعة طويلة.

تابع طريقه مضطرباً عبر العتمة. خيّل إليه أنه سمع صوتاً يهمس

بصلوات؛ تقدّم خطوة أخرى، والتقت يدها بطرف سرير؛ انحنى،
ولامست أصابعه المرتجفة في البداية جسداً جامداً ومستقيماً تحت رداء
زقيق، ثم تاجاً من الورد ووجهاً صافياً وبارداً مثل الرخام.
كانت تلك أليسيا ممدّدة على فراش موتها.

«ماتت! صاح بول بحشجة مخنوقة، ماتت! وأنا الذي قتلتها!»

كان الكومودوري، المتجمّد من الهول، قد رأى ذلك الشبح ذا العينين
المطفأتين يدخل مترنحاً، تائهاً كيفما اتفق ومرتطماً بفراش الموت الذي
تنام عليه ابنة أخيه: كان قد فهم كل شيء. دفعت عظمة هذه التضحية
غير المجدية بدمعتين من عيني العجوز المحمرّتين، وهو الذي كان يظنّ
أنه بات عاجزاً عن المزيد من البكاء.

هرع بول إلى الركوع قرب الفراش وغطّى يد أليسيا المتجمّدة بقبلاته؛
كان النشيج يهزّ جسمه برجات تشنجية. أدى تألمه إلى إثارة الشفقة حتّى
لدى فيتشي الشرسة التي كانت تقف صامته وكثيية عند الحائط، معتنيةً
بالرّقاد الأخير لسيدتها.

بعد إنهاء وداعاته الخرساء وقف السيّد دابرومون وتوجّه نحو الباب،
متصلباً بلا أدنى مرونة، مثل رجل آليّ تحرّكه نوابض؛ وكان لعينه
المفتوحتين الثابتين بحدقتيهما الفاترتين تعبير خارق: كانتا تبدو كأنهما
تريان رغم عماهما. اجتاز الحديقة بخطوات ثقيلة تشبه خطى أطياف من
الرخام، وخرج إلى الحقول سائراً أمامه خابطاً الحجارة بقدميه، متعثراً
أحياناً، مصيخاً السمع كأنها لالتقاط صوت في البعيد، وظلّ يتقدّم إلى
الأمام دائماً.

كان صوت البحر العارم يدويّ بتميّز متزايد؛ وكانت الأمواج تحت
دفع ريح إعصارية، تتكسر على الشاطئ بنحيب هائل، تعبيراً عن آلام

مجهولة، وتنفخ، تحت طيات الزبد، صدورها اليائسة؛ ملايين الدموع الحزى تسيل على الصخور، والنوارس القلقة تطلق صيحات نائحة. وصل بول إلى حافة صخرة مشرفة على البحر. كان من شأن فرقة الأمواج، والمطر المملح الذي يقتلعه هبوب الرياح من الموج ويرمي به إلى وجهه أن ينتهأ إلى الخطر المُحدق؛ لم يكثر ذلك؛ تشجّت شفتاه الشاحبتان بابتسامة غريبة، وتابع مشيته الكثيرة، رغم شعوره بالفراغ تحت قدمه المعلقة.

هوى؛ أمسكت به موجة عملاقة، برمته لحظات بتموجاتها الحلزونية ثم ابتلعتة.

عندئذ انفجرت العاصفة بعنف: هجمت الأمواج على الشاطئ في صفوف مترابطة، مثل محارين في طور الانقضاض، مرسلّة على ارتفاع خمسين قدماً بخاراً من الزبد؛ تصدّعت الغيوم السوداء مثل جدران جهنميّة، كاشفةً عبر شقوقها عن السعير المضطرم للبروق؛ أضاء المدى بريقٌ فوسفوريّ مبهر؛ احمرت قمة فيزوف، وحلّت قنزعة من البخار الداكن، كانت تحوشها الرياح، متموجة عند جبين البركان. ارتطمت الزوارق الراسية بضجيج مفرج، وتأوّتت الحبال المشدودة بألم. وسرعان ما هطل المطر مصفّراً برشاته مثل سهام. بدا كلّ ذلك كما لو أنّ السديم يريد استعادة الطبيعة وعزك عناصرها من جديد.

لم يُعثر على جثة السيّد بول دابرومون البتّة، بعد كلّ حملات البحث التي أمر بها الكومودوري.

كان النعش من خشب الأبنوس مزوّداً بقفل ومقابض فضيّة، ملبّساً بالساتان المنجد، وكان في نهاية المطاف يشبه النعش الذي أوصلت

بتفاصيله المنس كلابسا هارلو⁽¹⁾ بلطف مفعم بالشجى «إلى السيد
التجار»، وشحن بحراً على متن يخن بعناية الكومودوري، ثم وضع في
مدفن العائلة في بيت لنكولنشاير. كان يضم جثمان أليسا وازد الأرضي،
أليسا الجميلة حتى الموت.

أما بالنسبة للكومودوري، فقد حدث تغير بارز في شخصيته. اختفت
بدانته المجيدة. وكف عن سكب بعض الروم في كوب الشاي، وصار لا
يأكل إلا بأطراف أسنانه، ولا يكاد يتجاوز النطق بكلمتين في اليوم، ولم
يعد من وجود لذلك التباين بين صدغيه الأبيضين ووجهه القرمزي. لقد
أمسى الكومودوري شاحباً!

(1) «كلاريسا هارلو أو حكاية سيده شابة» *Clarissa Harlowe, or the History of a Young Lady*، رواية لصموئيل ريتشاردسون (1761-1689)،
نشرت سنة 1748.

نبذة عن المؤلف:

ولد تيوفيل غوتيه Théophile Gautier في تارب Tarbes في جنوب فرنسا عام 1811 ونشأ بباريس وتوفي في ضاحيتها نويي-سور-سين Neuilly-sur-Seine في عام 1872. كان شاعراً وروائياً وقاصاً وكاتباً مسرحياً وناقداً للفنون التشكيلية. تعلم باكراً الرسم، وتوطدت علاقته بكبير رسامي فرنسا يومذاك، أوجين دولاكروا، الذي شرع يوجه فيه. بيد أن شغف الكتابة كان هو الأقوى عنده، فراح من خلالها يساهم مساهمة فعالة في الحركة الرومنطيقية. وينشر قصائد وقصصاً وروايات ومتابعات نقدية للرسم والنحت بخاصة. من أهم مجموعاته الشعرية «ملهاة الموت»، و«مزججات وأحجار منقوشة»، ومن أشهر رواياته «الآنسة موبان»، و«رواية المومياء». على إن إضافة غوتيه الكبرى للأدب تتمثل في قصصه الفنطازية التي يقدم هذا الكتاب ترجمة لأجملها وأكثرها ذيوعا.

نبذة عن المترجم:

شاعر وروائي ومترجم من تونس. ولد في مدينة باجة سنة 1950. ونال إجازة في الفلسفة والعلوم الاجتماعية من جامعة دمشق، ودبلوم ماجستير في الفلسفة من الجامعة اللبنانية. من مؤلفاته، في الشعر: «حافة الأرض»، «دار الكلمة»، بيروت 1988، و«امرأة سادسة للحواس»، «دار الطليعة الجديدة»، دمشق 1998؛ وفي الرواية: «توقيت البنكا» (جائزة الناقد للرواية)، منشورات رياض الريس للكتب والنشر، لندن 1992، و«شمس القراميد» (جائزة كومار: الريشة الذهبية)، منشورات دار الجنوب، تونس 1997، و«عتبات الجنة»، دار الفارابي، بيروت 2007. وله في الترجمة عشرون كتاباً من بينها: «خريف البطريك» لغابرييل غارسيا ماركيز، و«حرية مشروطة» لأوكتافيو باث، و«مغامرات الفتى «أصهب» لجول روناو، وقد صدر الكتاب الأخير في منشورات مشروع «كلمة».

الميتة العاشقة، وقصص فنطازية أخرى

لا شيء يموت فعلاً، كل شيء يوجد دائماً؛ ولا أحد بإمكانه القضاء نهائياً على ما وجد ذات مرة. كل فعل، كل كلمة، كل شكل، كل فكرة هوت في الأوقيانوس الكوني للأشياء تُنتج فيه دوائر تتقدم متوسعة حتى تحوم الأبدية. الصورة المادية لا تتلاشى إلا لدى النظرات المبتدلة، والأطياف التي تنفصل عنها تعمر الأناهيّة. ما زال البطل باريس يخطف هيلانة في منطقة مجهولة من الفضاء. وما زال مركب كليوباترا، قانس، ينفخ أشرعته الحريية على زرقة نهر طرسوس آخر مثالي. وثمة عقول مشبوبة وقوية استطاعت أن تجلب إليها قروناً مندثرة ظاهرياً، وأن تجعل شخصيات ميتة في نظر الجميع تعيش من جديد. اتّخذت فاوست ابنة تيندار عشيقته له، ونقلها إلى قصره القوطي، من أعماق هاديس، هاوية العالم السفلي الغامضة. ولقد عاش أوكتافيان للتو يوماً في عهد تيتوس ليكون محبوباً من أريا مارتشيللا، ابنة أزيوس ديوميديه، النائمة في هذه اللحظة قربها على سرير عتيق في مدينة يحسبها الجميع مهدمة.

المعارف العامة
التفسيحة وعلم التنس
الديانات
العلوم الاجتماعية
اللغات
العلوم الطبيعية والدقيقة / التطبيقية
الفنون والألعاب الرياضية
الأدب
التاريخ والجغرافيا وكتب السيرة
أطفال وناشئة



هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة
ABU DHABI TOURISM & CULTURE AUTHORITY



كلمة
KALIMA